

ماكانت تعرفه میزی

تألیف

لهنری جیمس

مراجعة

ترجمة

عماك أرهم

الدكتور نظمي لوقا

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة



عصمت

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

ماہکانت تعرفہ میزنی

بقلم
هنري چميس

مراجعة
على أدهم

ترجمة
الدكتور نظمي لوقا

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٩٦٦

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

كلمة عن المؤلف

هنرى جيمس أحد أبناء الفيلسوف الأمريكى الكبير وصاحب البحوث المشهورة فى الالهيات هنرى جيمس الكبير ، وشقيق الفيلسوف العبرى وليم جيمس . كانت ولادته بمدينة نيويورك فى سنة ١٨٤٣ .

وقد تلقى الشقيقان تعليمهما فى المنزل فى فترة صباهما ، ثم بعث بهما أبوهما الى معاهد العلم فى انجلترا وفرنسا وسويسرا فى سن مبكرة جدا . والتحق هنرى بعد ذلك بجامعة هارفرد الأمريكية ليدرس القانون ، بيد أن الأدب استهواه فمجر كتب القانون وراح ينشر أقاصيصه القصار فى المجلات الأدبية الكبرى ابتداء من سنة ١٨٦٥ ولا سيما فى مجلة الأطلنطى الشهيرة التى كان رئيس تحريرها من أصدقائه المقدرين لمواهبه .

وثابر هنرى على ذلك أربع سنوات ثم رحل الى انجلترا فى سنة ١٨٦٩ فاستقر هناك فى الريف ونشر عددا كبيرا من الروايات الطويلة ومجموعات الأقاصيص والدراسات النقدية وكتب الرحلات والسير .

ومن أعاجيب المفارقات أنه وجد عناء كبيرا فى « الوصول الى الشهرة » — على حد تعبير كبار النقاد فيما بعد — برغم امتيازه الفنى الفائق . أو على الأصح كان ذلك الامتياز الفائق فى المستوى الفنى والأسلوب الأدبى هو العائق الذى أوصد أمامه أبواب الشهرة العريضة ، فلم يحرز أول نجاح مذكور الا بروايته « ديزى ميلر » التى نشرها سنة ١٨٧٨ . وبعدها « انفجرت » شهرته بين خاصة المثقفين والقراء واعترف به الجميع

رأس مدرسة خاصة به . وهي مدرسة تتسم بالترفع عن المناهج السهلة والموضوعات الضحلة .

ان فن هنرى جيمس القصصى لا يستمد تقاليدَه وموضوعاته من مدرسة « ديكنز » أو « ثكرى » التى تعنى بوصف الناس وما يجرى فى حياتهم اليومية . وما أبعد الشبه بينه وبين أدباء من طراز « ديماس » أو « ولترسكوت » . فهو فى قصصه لا يعنى بما يسميه البعض « حبكة » تتعقد فيها الأحداث ، بل همه متجه الى تحليل ما يجرى فى داخل أبطاله من أزمات ومراجعة وصراع وشكوك . فهو تحليلى فى المنهج الذى يتبعه فى رسم شخصوه . معنى بما ينطوون عليه قبل عنايته بما ينبرون له أو يتعرضون له من الأحداث . فعالم السريرة والوجدان هو عالمه المخصوص بالعناية والاهتمام .

وقصته « ما كانت تعرفه ميسى » من النماذج البارزة للمستوى الرفيع الذى ارتقى اليه ذلك الأديب القاص الممتاز . وتحتل على صغر حجمها النسبى موضعا مرموقا بين غرره اللوامع ، من قبيل « صورة سيده » و « جناحى اليمامة » و « الوعاء الذهبى » .

وكانت وفاة هنرى جيمس بانجلترا سنة ١٩١٦ حيث استقر به المقام (وكان قد تجنس بالجنسية الانجليزية عقب نشوب الحرب العالمية الأولى) فى سنة ١٩١٥ .

مقدمة المؤلف

(ظهرت هذه المقدمة في الطبعة الكاملة لأعمال وليم جيمس التي صدرت في نيويورك ، وقد صدر بها المجلد الحادى عشر الذى ضم قصة « ما كانت تعرفه ميسى » وقصتين قصيرتين معها . وقد حذفت من هذه المقدمة المنشورة هنا جميع الاشارات الى القصتين الأخرين) .

أعترف ها هنا مرة أخرى بأن هذه القصة مثل آخر من أمثلة نمو « البلوطة الضخمة » من الجوزة الصغيرة . فان « ما كانت تعرفه ميسى » — بأدنى اعتبار — شجرة فاق نماؤها كل مدى كانت بذرتها الصغيرة حرة في بداية العهد بها أن تصل اليه . وكان قد نمت الى عرضا ذكر ما آل اليه حال طفلة منكودة على أثر افتراق أبويها بالطلاق . وقد رأى من أبلغنى نبأها بعينه ما جره عليها زواج أحد والديها مرة أخرى — وقد نسيت أيهما الذى تزوج . ولما كان الزوج الجديد لا يرحب بوجود الطفلة معه ، فما كان فى الوسع ترتيب حياتها على أساس المعيشة لدى أبيها ثم لدى أمها على التوالى . وكان كل من هذين فى البداية قد بذل جهده لاجتيازها عن الطرف الآخر على سبيل النكاح . ثم تغير الوضع واقلب الطرف الذى تزوج الى السعى للخلاص منها .. أى فى تركها أطول مدة ممكنة ، الى مدى يتجاوز الفترات والأزمات المقررة عبئا على خصمه . وهو خطأ يستهجنه ذلك الخصم ويمده حثا عن سوء النية ، ويرد عليه بطبيعة الحال ويثار له بما يعادله من الختل .

وهكذا ألفت الطفلة المسكينة نفسها وقد بنيت عمليا ، وراحت

تقاذفها مضارب الطرفين ككرة التنس أو الكرة الطائرة . وهى صورة لا بد أن تهز المخيلة حتى الصميم وأن تبدو للمرء بداية قصة . قصة تتطلب أطوارها قدرا من العناية كبيرا . وأذكر أنى فكرت على الفور فيما يستلزمه التماثل القديم من وجوب زواج الوالد الآخر أيضا — وهو ما كان مرجحا أن يحدث بعد زمن وجيز فى القضية التى رويت لى . وهذا على كل حال ما يقتضيه النمط النموذجى للموقف . ولا يبقى الا أن نجعل الزوج الجديد للطرف الثانى يضيق أيضا بالالتزامات ازاء ذرية سلفه المكروه كى تصبح محنة الضحية الصغيرة نموذجية فى بابها على وجه التمام . وذلك خليق أن يجعل الموضوع شديد الكتابة . بيد أنى لست واثقا بأنه كان عسيا بذلك لو لم أشعر لساعتى أن تلك الوقائع البشعة — كما رويت لى أو كما تصورتها — ليست بحال من الأحوال كل قوام ما لذلك الموضوع فى مجموعه من سحر .

ان أضواء المخيلة التى هزتها هذه الأحداث البشعة لم يكن فى وسعها الا أن تلقى بزيد من أشعتها ، وبفضل امتداد تلك الأشعة أمسى من الواضح الجلى أن فرصة السعادة وتحسن الأحوال ليست أقل من فرصة الشقاء وتدهور الأحوال بالنسبة للطفلة . وأن حياتها حينئذ حرية أن تجنح فى تعقدها صوب الرفاهة والثراء . وأنه ما ان تجرى الأمور ذلك المجرى حتى ينتهى الأمر بتلك المخلوقة الصغيرة الى الأمن واليسر . وكان لتجمع هذه العناصر فى هيئتها المجملة ذلك الوهج التصويرى الغامض الذى هو قوام السحر الأول للموضوع الحى لدى وجدان الرسام . ثم أزداد ذلك الللاء شدة عندما تقدمت فى التحليل خطوة أخرى . والامعان فى التحليل فى هذا الصدد هو فى الأغلب الأعم المشعل الذى ينير الطريق للنشوة والنصر وقد استولى الفنان بيد ثابتة على ناصية التحليل وراح

يضطلع به . وما أعنيه هنا بالطبع هو النشوة المكظومة والنصر المستر
الذنان ينعم بهما ويحتفل لأعلى قارعة الطريق بل أمام محراب قائم في دخيلة
السريرة . وتلك ثمرة يكاد يبلغ الترجيح في أمرها مبلغ اليقين الجازم أنها
لا تصل عند الممارسة لدى أول معالجة يسيرة الى باب الحقيقة الأمل .
وكان هذا عقلا هو سحر الصورة كما تبدت لي بهيئتها الغامضة في البداية .
ثم لم تلبث عناصرها أن أينعت حتى أديهما الظاهر بفعل ضرب من السخرية
نابع من أعماق أبعاد مسربا مما يبدو للعيان . سخرية كامنة بين طوايا
الفرض الأولى كما يكمن العطر ، وكلما حام حولها الوعي زاد تنبهه الى
شذائها . وربما جاز لي أن أزيد على هذا أنني كنت كلما أمعنت في احتقار
السطح الخارجى وأوغلت الى الداخل زاد احساس خياشيمي العقلية بشدة
ذلك العبير . وما ان وصلت في النهاية الى ما أسميته باللباب حتى ألفت
نفسى أمام شرارة مأسوية حمراء توهج أمام بؤرة نظرى . وما ان نفخت
فيها برفق حتى ازدادت تضرما واتساحا . وكانت هذه الشرارة الثمينة هي
الحقيقة الساحرة بتمامها ، وهي العنصر الأجدر بنا أن تبينه في موقف
الطفلة . ولا بد ارضاء للعقل — بعبارة أخرى — أن نبقى على ذلك
الاحساس الصغير النامى كى قدمه في صورة سجل للانطباعات . والابقاء
عليه عن طريق بعض المزايا وبعض المنافع وثىء من الثقة المكتسبة أولى
من اخماد جذوته وتشويبه والحق العقم به عن طريق الجهل والألم .
فذلك التحسن في الأحوال بالنسبة لحياة ناشئة لا بد أن يجد له مصدرا
فعالا غير ما تحدثه في أنانية الوالدين من تفسخ . وذلك ما كان ينتظر الطفلة
إذا أخذنا بالنظرة السطحية للأمور ووجهنا همنا كله الى انتقاد ما بينهما
من شقاق . فصار من المستحسن استبدال علاقة لاحقة بالعلاقة السابقة ،
بحيث لا تخضع الفتاة خضوعا صرفا للرابطة الموروثة وما تفرضه عليها

من تعقيدات تسبب لها العذاب . وقتاتنا الصغيرة صانعة الأعاجيب يمكن أن تخلق — من غير تدبير سابق — عناصر جديدة من هذا النوع . بمعنى أن تسهم في تكوين رابطة جديدة في مقدورها عندئذ أن تجنى منها ثمرا جزيلا ، حتى كأنما قد هدتها الى ذلك بصيرة سحرية .

ومؤدى ما تقدم أن الضوء الذى نمت فيه الرؤية ذلك النمو الطبع حتى تم لها الاكتمال انما هو زواج كل من الوالدين زواجا آخر ، فان الأب وقد نال حرته بالطلاق لم يكن أمامه الا أن يتخذ لنفسه زوجة أخرى . وكذلك الأم صار من حقها ، ولديها مثل تلك الرخصة ، أن تتخذ زواجا آخر . وهكذا تشرع القصة على الأقل في النهوض على قدميها باتزان . وبذلك يمكن أن يكون ثمة منطق محكم لما يمكن أن يحدث ولو عن طريق نسبة شئ من الحساسية (وان في حدود الرهافة النسبية في الاحساس) الى كل من الطرفين الجديدين . فالعلة الأولى لما يبديه هذا الجانب أو ذاك أو كلاهما معا من محاولة مستميتة للاتقاص من نصيبه المقرر من العبه الذى كان ينبغى أن يحمله هي عجز أساسى في كل من الوالدين عن القيام بأى مقدار من ذلك العبه وضيق وضع به . وبذلك يتوفر لدينا الدافع لعدم تطلب شئ من الشذوذ الخارق في زوج الأم وزوجة الأب ، فلنا عن ذلك محيص غناء . فالطفلة اذ فراها تنشئ بتأثير ما تزرح تحته من النبذ علاقة بين زوج أمها وزوجة أبيها — علاقة كلما اشتد توثقها كان ذلك أفضل من وجهة النظر المأسوية ، واذ فراها بما للاهمال الذى تعانيه من جاذبية وما تستشعره من الارتياح تنسج فيما حولها بإيمان صادق خيوط التمرس بحقائق الحياة ، واذ تغدو مركزا وتعلم لنظام جديد من سوء السلوك ، نظام من طبيعته فضلا عن هذا أن ينمو ويتشعب : تقدم مغزى السخرية كاملا ، وبذلك يزدهر الموضوع الموعود الذى استقيت

مصدره من تلك اللوحة الأولى ازدهارا منطقيًا . وما من موضوعات تبارى في صيغتها الانسانية تلك الموضوعات التي تبرز أماننا من أمور الحياة المضطربة تلك العلاقة الوثيقة بين الفرح والترح . أو بين مصادر العون وأسباب الأذى . فتلوح أمام نواظرنا على الدوام بذلك النوط اللامع من الصلب — نوط صينغ من معدن غريب يختلط فيه الفث بالثمين ، أحد وجهيه تترأى فيه رفاهة امرىء ونعماؤه ، وفي وجهه الآخر تترأى آلام امرىء سواه وأخطاؤه . فالدور الذى سيكون على بطلى الصغيرة أن تضطلع به هو أن تعيا بأقصى ما فى استطاعتها من عمق الاحساس والحيرة والتنعم فى عالمها الصغير المختلط أعنف الاختلاط ، جامعة بين أشخاص كان الأولى — على الأقل — أن يظلوا متباعدين رعاية للياقة ، مفرقة بين أشخاص كان الأولى — على الأقل — أن يجتمع شملهم ، مزدهرة الى حد ما على حساب كثير من أصول المواضع المرعية واللياقة والاحتشام ، محتفظة بشعلة الفضيلة متوهجة وسط رياح تعمل دائبة على اخمادها ، وقصارى القول انها فى الواقع تزيد من اضطراب الأمور واختلاطها بإدخال غير شارذ من شذى مثل من المثل العليا الى صميم رائحة الأناية وبما تبذره بمحض وجودها فوق الشيطان القاحلة من بذور الحياة الأخلاقية .

ومعنى هذا ألتى أدركت على الفور أن ذلك الزورق الخفيف من الوعى الذى يتأرجح فى مثل ذلك التيار لا يمكن ، فيما يستسيغه العقل ، أن يكون غلاما صغيرا فظا . ذلك أنا ان غضضنا الطرف عن الحقيقة القائلة بأن صفار العلمان لا يتمتعون على الاطلاق بما تتمتع به الفتيات الصغيرات من احساس الناس بـ « حضورهم » ، بقى لدينا أن حساسية الألتى الصغيرة فى بواكير الصبا أعظم بلا مرأى من حساسية صفار الذكور . وخطى ستطلب من بطل روايتى حساسية لا حد لها . وسيكون فى

مقدورى أن أعزو ذلك القدر من الحساسية الى بنية صغيرة ستعاني مداركها قسطا كبيرا من الاهتزازات من غير أن أكون قد ركبت بذلك متن الشطط . بيد أنى ينبغى أن أعتمد على تصرف الفتاة كى أبقى لقصتى على وضوحها ، ولذا ينبغى أن أظهرها بما لا يدع مجالاً للشك فى مظهر الفتاة ذات المراس بطبيعتها . وسعياً وراء هذه الغاية ينبغى بطبيعة الحال أن أفترض لبطلتى ألواناً من الاستعدادات الواعدة ، وينبغى قبل كل شئ أن أجعل لها من فطنة الادراك نصيباً يطرد فى نموه اطراداً حثيثاً يكاد لا يقف عند حد . أما وقد تمت تهيئتها على هذا النسق الولقى ، وعلى نهج لا يصدم حدود الامكان صدمة عنيفة ، ففى مقدورها أن تكفل لى انقاذ خطتى عن آخرها . وهى خطة تزداد خلابتها فى نظرى كلما قلبتها ؛ ويزيد من قدرها عندى ما يكتنفها من المشقة المستطابة . وهوم هذه الخطة على اتخاذ وجدانها المحدود جداً ميداناً لصورتى ، فى الوقت الذى أحرص فيه على الاحتفاظ فى عناية شديدة بما ينبغى للامور التى أعالج تصويرها من سلامة واكتمال . وما ان أشرق سحر امكان ذلك المنحى حتى تبلور مشروع « ميزى » وتبلج تبلجاً بعيد المدى . وانى أرى لزاماً على فى هذا المقام أن أقرر أن كل موضوع يبدأ تبلجه على نطاق واسع فى ذلك الصدد منذ اللحظة التى يستولى فيها على المرء سلطان التعبير المكتمل . وقد أشرت فيما أعتقد آنفاً ، فى موضع آخر الى أن ذكرى عملى الخاص لا تحتفظ لى بموضوع لم يستعص بصورة واضحة على النظام فى فترة من فترات نموه ، ولم يكن على الدوام متربصاً لسنوح الفرصة المواتية لذلك الاستعصاء ، حتى (أو لعل الأوفق أن نقول وعلى الأخص) عندما يكون تخيرى وتعلقى بذلك الموضوع بسبب نظامه المحسوس الذى لا حيلة فيه . وما ان « ينطلق » كأنه فى انطلاقة كلب من كلاب البيوت لا يطيق

الحبس بحكم مزاجه حتى ليتحدى دعوة صاحبه اياه بالصغير ، ويروح هائما على وجهه يقنص وينقب و « يرى » الحياة ، فلا يتسنى الا بقبضة اليد كى ينال عقوبة الجلد العقيمة . وما كان ، على كل حال ، لفكرة تراعت لى فى ذلك الضوء الذى أنظر اليه هنا أن تكون مفتقرة الى بينة دامغة عن قيمتها . فكيف لقيمة مشروع يتظره هذا التحقق البديع الا تكون قيمة ذات قدر ؟ ان السجل الذى تتمثل فيه الصورة المتراكبة ينبغى أن يكون نشاط فطنة الطفلة الى ذلك التراكب المعقد فطنة مشوشة غامضة . ومع هذا ينبغى كما قلت أن يبدو الموضوع برمته بطريقة لا لبس فيها وعلى مستوى مشرف من خلال ذلك الذكاء الغض ، أو ينبغى على الأقل أن يعززه حضورها الذى لا وزن له ، بيد أنه ينبغى عن معنى ذلك الكل فى شموله .

وأذكر أن أول تصور تمثل لى فيه هذا الاتجاه الأنيق الممكن حدث فى الوقت الذى أخذت معضلة الصورة المتصلة بذلك الاتجاه الممكن تنكش داخل حدود ما عسى أن تتصوره الطفلة وتفهمه ، ويكون فى وسعها أن تتأوله وتقدره (وقد ساوق انكماش الصورة فى تلك الحدود كما قلت اتجاهها صوب التمام والتناسق) : فلما أمعنت فى المراجعة لتلك الفكرة وللتجربة تبين لى أن موضوعى يكاد يختنق بتلك الصرامة المفرطة ، فعقل الطفلة عسى على أحسن التقديرات أن يترك نغرات وفراغات جيمة ، فاذا بنا وان تأتى لنا سطح خارجى منتظم ربما كان لا تثرىب عليه نفتقر الى وضوح المغزى . فسوف يتعين على أمد الموضوع الى ما رأته شاهدتى المتعجبة رأى العين ولم يكن لها من رؤيته مناص . وجانب كبير من ذلك الذى رأته اما أن تكون عاجزة عن فهمه اطلاقا أو حرية أن تسيء ذلك الفهم . وعلى قدر هذه الحدود وحدها لا بد أن يفصل ثوب مهمتى . وعلى

هذا عندئذ قر قرارى ، وهو أن أقدم « كل شيء » . أن أقدم الموقف المحيط بها برمته . بيد أنى أقدمه من خلال المناسبات والاتصالات التي تنجم عن ملامستها لها وتوجه انتباهها اليها فحسب . وكما هو حرى أن يحدث أمامها ويسترعى انتباهها فحسب . وكما هو عسى أن يهزها ويؤثر فيها ، ان خيرا وان شرا ، من حيث ما يحصل لها من فائدة ملموسة أو خسران محسوس : بحيث نشعر نحن الشهود الذين لم ندع الشهادة وان كنا تقادا خيرا فحسب أننا نملك ناصية ذلك الكل امتلاكا قويا .

وبدأ فنقول ان ذلك نهج محدد تمام التحديد صالح للتطبيق المتزن وهذه علامة تملد دائما في حد ذاتها على الجمال . وقد اتضح لى عند معاودة التمعن فى العمل أن شيئا من ذلك البهاء المهيمن يسيطر عليه سيطرة موفقة . وما من شيء يمكن أن يكون أجود من هذا « طهوا » فيما أظن ، اذا ما نظرنا اليه فى ضوء أوفق غاياته . وان كان المظهر فى بعض الأحيان يثبط مثابرتى . فصغار الأطفال لديهم من المدركات أكثر مما يملكون ناصية الترجمة عنه بالألفاظ فبصيرتهم فى كل وقت أغنى وفهمهم أقوى مما تحت يدعم من قدرة متأهبة للتعبير . فلئن كان ما هممت به من حبس نفسى فى تلك القضية داخل حدود ألفاظ الطفلة وتجربتها يبدو لأول وهلة طريفا مائعا ، الا أنه تبين على الفور أن ذلك العزم حرى أن تكتب له الخيبة . ان ألفاظ « ميزى » تؤدى دورها فى ذلك الاطار . لأن استنتاجاتها الساذجة تتوقف على تلك الألفاظ . أما تعليقنا نحن فلا بد أن يأخذ مداه من العناية والتجسيم . وهذا يجعلنا يبدو فى بعض الأحيان كما لو كنا « وراء » وقائع نشهدها بقصد تهويل أثر صلاتها بتلك الوقائع . والفارق هنا جد طفيف : فعلاقتها ونشاط ذهنها هما اللذان يستأثران باهتمامنا كله . وقصارانا أن نستغل تلك الأشياء خيرا من استغلالها لها . ومع أن

اهتمامنا بما هو العامل الأساسى فى اهتمامنا به ، الا أننا نراعى لا محالة ذلك فى الصور التى لن تدخل بعد فى تناول ادراكها ولا بد مع هذا منها حينما تكون تلك الصور متعلقة بها أو بجوانب من تجربتها مفهومة لديها يد انها مطبوسة بين طوايا تجارب أخرى يفوتها ادراك مغزاها فواتا أليما . وقد زودنى هذا كله بمنطق صارم سام لا بد لى من اتباعه ، وأمدنى بالقوة التى يحمدها من تخرجه من مأزقه حين يعمل ؛ وبالقدرة على جذب الخيوط التى تستحق ذلك العناء . وانها لقدرة وافية فى بأسها وافية فى زكاتها وافية فى شمولها .

وبطبيعة الحال كان وراء ذلك سحر آخر يكاد يضاهى ذلك السحر الأول . يضاهيه مع أنه يكاد يكون مستقلا عن مسألة البناء الصارم والتعبير الذى لا ينتهى الى غاية . وذلك هو سحر مسألة مختلفة تمام الاختلاف خاصة بذلك اللون المعين من صدق المقاومة التى يتسنى لى أن أعزوها الى شخصيتى الرئيسية . فلا بد من شيء من الكثافة ، وشيء من اتصال المقاومة باعتبارهما عنصرين طبيعيين فى جوهر ذلك الموضوع والفلاح فى المقاومة (مقاومة ضغط الملاحظة واغارة التجربة) ماذا عساه يكون من جانب طفلة حديثة السن ، الهمم الا بمعنى أن تظل ساذجة ، مقيمة على سذاجتها ، وأن يكون لها من سطوة السذاجة ما تفيضه على الآخرين ؟ وهذا الأمر فى صدد « ميزى » انما يكون الفرض منه أن تطعم أصدقاءها من أطايب مشاهدتها الغنية اليافعة للأمور المنخورة فى طوايا عجبها . وعجبها يمتد بعبارة أخرى حتى النهاية . حتى الموت — موت طفولتها ، بالمعنى الصحيح للفظ الطفولة . ولا بد بعد ذلك (مع التبدل الذى لا مناص منه ان عاجلا أو آجلا فى وجهة نظرها) من تغير موقفها بحيث يمسى خاضعا لمقاييس أخرى ويتخذ له محورا آخر تماما . فرد الفعل الخاص الذى أدى

بها الى هذا ، وكان من الطرف الشائق أن ندرسه فيها ، وقد استفد أغراضه . وبعدئذ سيكون ثمة محيط آخر ، ومجال آخر للرؤية ، وأفق آخر . ومهمتنا في هذه الأثناء أن نستخرج من استجابتها الجارية كل ما عساه أن يكون ذا قيمة . ونعترف لاستجابتها الجارية في هذه الخصوص بأسمى قدرة استراضية . والحقيقة فيما أظن أن الموضوع لو لم تكن له من أسباب الجمال غير ذلك لظلت له تلك الفتنة النادرة الممتازة التي تستمد قيمتها من ذلك الافصاح عن تنوع ما للطفلة من قيم . فهي ليست المحور الساخر الخارق للعادة الذي أشرت آتقا اليه فحسب ، بل ترجع أهميتها العجيبة أيضا الى ما تلقيه من ضوء يتجاوز حدود فهمها بآماد كثيرة ، والى أنها تضيء على الأشخاص والأشياء التي تعاني من الهزال عنصرا ثمينا من عناصر الاعتبار لا لشيء الا لأنهم مرتبطون بها أو بحكم المحيط الخاص الذي تخلقه لهم واني في الحق لأخرج عن طوري في تقدير موضوعي حينما أبرز ما تفضله « بسذاجتها » بتلك المظاهر المتبدلة الفارغة في حد ذاتها . فتلك المظاهر تضحى حين تتناولها هي مادة للشعر والمأساة والفن . فليس عليها كما قلت الا أن تعجب من المسألة بسذاجتها ، فاذا بها تنبض بالمعاني والمعالم والتماسك والعلاقات .. العلاقات التي ترتبط بما هو « كلى » . وذلك مدى ما كانت تلك المظاهر لتطمح اليه . فهذه « ايدا فارانج » مثلا على حدة ، أو « بيل » على حدة ، وكل منهما له ارتباطات أخرى — أى عمق ، وأى « موضوعية » (وذلك أقصى درجات نمو الكينونة التي تخطر بالبال في خصوصهما على كل حال) يمكن أن تكون لهما ؟ وكيف كان يمكننا لهما أن يردا لنا ما أوليناها من الجميل بتوجه اهتمامنا اليهما .

و « ميزى » تجعلهم جميعا تحت تأثير استقامتها المخلصة أشخاصا مفزعين . وتجعل أمها فوق كل شيء تبدو في نظري — مالم أكن قد أخفقت

كل الاخفاق في تبين ذلك — امرأة ذات طابع حسي عملي . امرأة هائلة مروعة . بحيث نجنى بطريقة في السياق تتسم بالقصد تصويرا محكما للشخصية ادراكا للرمز الذي ينطوي عليه ذلك التصوير الأخاذ وأحسبني تبينت في موضعين على الخصوص استمتاعنا الى أقصى حد بشرة ذلك السحر المزدوج فالفقرة التي أقدم فيها أبوها برعونة مزرية على خطنها لترى في ساعة متأخرة من الليل معالم علاقته بتلك السيدة اللمزة غريبة الأطوار العاطلة من الجاذبية ، مثل بارز لنهج لا يمكن توقعه تقريبا في اقامة دعائم الاهتمام الخاصة . والمستفاد من تلك الفقرة أن « بيل فارانج » شخص دنيء وأن الصديقة التي يقدم اليها ابنته امرأة حقيرة . وانه يجمل بنا أن نشيح بوجوهنا عن العلاقة التي بينهما ، في حد ذاتها . بيد أن هذه المسألة ما ان تغدو جزءاً مما يثير بلبال الطفلة حتى تتساقط عنها هذه الصفائر العقيمة واذا « المشهد » يبرز ويتجلى أمامنا حيا يتميز بالخصوصية ، متين الحبك بحيث لا يمكن لتلك المتانة أن يطويها النسيان . وهو المشهد بعينه الذي ما كان ليل وايدا ومسر كادون ، بل ولا للسير كلود ومسر بيل ، أن يفلحوا ولو بلحظة واحدة في جعل أقدارهم الهزيلة الضامرة تبدو محل اعتبار محسوس لو أنهم رأوه . وثمة مثل آخر هو واقعة التقاء « ميزى » على غير أهبة ، وهي تمشى في البستان مع السير كلود ، بأمرها وبذلك المخدوع المرافق لها ، ألا وهو الكابتن المتسم بالجاذبية وبث روح العزيمة والاقدام . وقد احتالت تلك السيدة على تعويض أمرها اليه مدة عشرين دقيقة تفرغ فيها للتفاوض مع زوجها الثاني . والمادة الانسانية ها هنا كانت حرية أن تبدو غير صالحة تقريبا بفرط هزالها للتناول : فالشخصيات الثلاث « الناضجة » حظها من التائق جد ضئيل . وغباوتهم مفرطة (فما كان أغبى السير كلود اذ تزوج

من ايدا) . وغرورهم مفرط ، وذلك كله بالاضافة الى خوائهم الشديد يجعلهم غير صالحين للمعالجة الواضحة . ولكن أهمية شأن الطفلة تنمو فجأة وعلى الفور تنقل اليهم عدوى تأثيرها الناشط ، فاذا بها تجعل للقيمة « الكلية » شأننا آخر . وفي الوقت نفسه ما من شيء بطبيعة الحال أوغل في القدم بالنسبة لمن يراقب أحوال الناس ويصور الحياة من تلك الحتمية الجازمة الفجة التي تبدي في استخدام ألفاظ من قبيل « أليم » و « مستهجن » و « مقزز » في وصف النتائج التي يصل اليها . وقد بلغ هذا التقليد للأسف الحد الذي جعل استخدام هذه الألفاظ جزافا بمثابة ترجيح حاسم يقوى المرة بعد المرة من تقدير الحاسة النقدية في الدوائر التي تنمو فيها هذه الألفاظ بصورة بعيدة عن الفن . وقد كان من نصيبى بالطبع تحت تأثير ذلك الاعتقاد الخرافي أن يلتقى على باتظام درس في أن « اقحام » طفلة في أي أمر مستهجن لا بد أن يؤدي الى زيادة وطأة موجبات الاستهجان . وانه ما من شيء أدعى للتمزز من أن أعزو الى « مين » « معرفة » وثيقة الى هذا الحد بالأمور الفاضحة المنافية للآداب التي تجرى حولها .

وكل ما يقال في شأن تلك التدقيقات أن المرء مهما هون من شأن تأثيرها العام مقدما وبصورة قاطعة ، لا يسهه الا أن يأسف لأنه ما لم تكن نهاية التدقيق في هذه الأمور قد حانت فستبقى أمامنا عناصر لا مفر — لأشد الفلاسفة اتزاناً من ادخالها في تقديره . ومصور الحياة تواجهه في عمله صعاب كثيرة حينما يكون جانب لا يستهان به من الحياة متمثلاً على هيئة تلك الفطنة . فالجهد الذي يبذل للرؤية الحقة وللأداء الحق ليس بالشيء الهين في مواجهة القوة التي تعمل دائبة على زيادة اختلاط الأمور . وأهم ما في الأمر حقيقة أن حالة الاختلاط من أبرز الحقائق وأدعاها للاهتمام ،

لأنها ذات لون أيضا وكيان وطابع . وكثيرا ما تنصف بالمقاومة العريضة الغنية التي تستثير الفكاهة ، وتتوفر لها علائم كثيرة وقيم كثيرة تستحق الاعتبار . ولذا كان لابد مثلا — فيما يخيل الى — أن يكون المبدأ الأساسى لجاذبية « ميزى » وسذاجتها المنبئة ، وبعبارة أخرى ذلك الذكاء المتوقد الذى تنبض به فى ذلك الجو الموبوء ويزداد ازدهارا فى عالمها اللاأخلاقى حرا (ان نحن سايرنا أولئك المتزمتين) أن يذهب سدى على اعتبار أنه شيء عقيم خال من المعنى ، أو على أحين الفروض كم مهمل . لأنه ما من انسان تراءى لديه الحياة على سعتها جديرة بالاهتمام « فى يسر » يقدم على تحويل الاختلاجات الصغيرة المتلهفة الحية الدقيقة (وهى متلهفة وحية ودقيقة بفعل العاطفة التى تسبق المعرفة) الى كم مهمل . وهذا بلا مرأى سبب من الأسباب الكثيرة التى تجعل الفقرة التى تدور بين الطفلة والسيد القبيح الودود العطوف وهو جالس معها فى حدائق كسنجتون تحت شجرة وارفة يدافع أمامها عن أمها كما لم يدافع عنها أحد قط ، بحيث هز مشاعر البنوة والأخلاق لديها بما لم تهتز به قط ، فقرة تبرز غاية الابرار — فى حسابانى على الأقل — جانب القوة فى الموضوع فهى لذلك فقرة نموذجية — وثمة يقينا مزايا أخرى الى جانب ذلك كما يتراءى لى للتعبير عن جماله . والعجب الناشط المسعف الدائب كما سميته هو الخاصة التى حفظت للطفلة ذاتيتها وأبقت لها عليها . وهو الخاصة التى جعلت قضيتها تميز على وجه الدقة بما ألقى عليها من عبء فادح . فذلك العبء هو الذى أمدتها بالامتياز وأمدتها بالحيوية والتنوع . وما من شك أن ذلك العبء ما كان ليسدى إلينا ذلك النفع كله لو لم يكن فادحا . ومن أسف لنا أننا حرمانا من هذه الخاطرة السديدة . لأن « ميزى » يرجع تاريخها الى سنة ١٩٠٧ .

هنرى جيمس

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

ما كانت تعرفه ميري

بدا النزاع القضائي كأنه لا يؤذن بانتها . وكان نزاعا معقدا في الواقع . بيد أن قرار محكمة الاستئناف أيد الحكم الذي أصدرته محكمة الطلاق بصدد مآل الطفلة . وتأسيسا على هذا النص عهد بها الى الأب الذي استطاع — على ما به من وصمات تمتد من فرعه الى قدمه — أن يكسب الدعوى . لم يكن ذلك لأن خلق الأم أرجح كفة بالمثالب ، بل لأن لألاء أديم أي سيدة (وكان أديم هذه السيدة في المحكمة ملحوظ التالى الى حد كبير) قد يجعل ما به من كلف أشد وضوحا . وقد اقترن هذا الحكم الثانى مع ذلك بشرط انتقص من حلاوته في نظر « بيل فارانج » ، ألا وهو الزامه بأن يرد الى زوجته السابقة مبلغ ألفين وستمائة جنيهه كانت قد دفعتها وخصصتها قبل ذلك بنحو ثلاث سنين لنفقات معيشة الطفلة على أساس الاتفاق الثابت ألا يعمد الى اتخاذ اجراءات قضائية . وقد اتفرد منذ ذلك الحين بالاشراف على هذا المبلغ الذى لا يستطيع أن يؤدي عنه أى حساب مقبول . فلم يكن هذا الالتزام الذى فرض على خصمها مصدر شفاء هين لغيل « ايدا » ، لأنه أخرج جزءا من الحمة التى نالتها بالهزيمة ، وأرغم « مستر فارانج » على أن يخفف من غلوائه تخفيفا ملموسا ، اذ لم يكن فى وسعه أن يؤدي المال أو يحصل عليه من أى وجه . فكان المخرج الوحيد له من هذا المأزق ، بعد عراك لا يكاد يقل فى علنيته ولا يكاد يزيد فى احتشامه على صدمة المعركة الأصلية ، اقتراح تقدم به مستشاروه القضائيون بالوصول الى تسوية ودية ، وقد قبل مستشاروها القضائيون ذلك الاقتراح .

بمقتضى هذه التسوية تجوز عن دينه واتفق على التصرف فى الفتاة الصغيرة بأسلوب جدير بمجلس قضاء سليمان ، فقد شطرت نصفين وألقى بكل شطر منها الى أحد الطرفين المتنازعين بلا تحيز . فلهما أن يضمها على التوالى ، بحيث يختص بها كل منهما ستة أشهر فى كل مرة ، فتقضى نصف العام مع كل منهما . وقد بدا هذا القرار عجيبا فى نظر أولئك الذين لم تزل أعينهم تطرف من شدة الضوء المنبعث من المحكمة . وهو ضوء تراءى فيه كلا الوالدين أقل ما يكونان جدارة بالقدوة الصالحة لدى الصبا وبراءته . فما كان منتظرا على أساس ما ثبت من الوقائع هو تعيين ما يقوم مقام الوالدين فى صورة شخص ثالث مناسب ، كأن يكون صديقا محترما أو على الأقل ذا مظهر لائق . ولكن يبدو أن محيط أصدقاء آل فارانج قرعنا بحثا عن درة لها هذه الصفة . فأمسى الحل الوحيد الذى يتغلب مع هذه الصعوبات — فيما عدا ارسال « ميسى » الى دار الكفالة — هو تقسيم مسؤوليات القوامة عليها على الوجه الذى أسلفناه . وكان لدى والديها من الأسباب للاتفاق على هذا ما ينبىء بكثير على ما لديهم من أسباب الاتفاق على أى أمر عداه . فهما الآن يستعدان بمعوتها للاستمتاع بذلك التميز الذى تخطى به السوقية حين تتوفر لها أسباب الاستقرار . وكان فراقهما قد أحدث دوبا . فبعد أن كاتا مضمورين وشملهما مجتمع صار شأنهما ملحوظا بصورة واضحة وشملهما مفترق . ولكن ألم يحدثا فى الناس من الأثر ما يحدوهما الى التطلع فى الصحف الى كلمات الاستغانة لانتقاد الفتاة الصغيرة ، مما يعتبر صدى وسط الزواجر العام للفكرة القائلة بأن خطوة ما ينبىء أن تتخذ ، أو أن شخصا كريما ينبىء أن يتقدم لانتقالها ؟ لقد تقدمت بالفعل سيدة طيبة خطوة فى هذا السبيل أو خطوتين . وهى تمت بصلة قرابة بعيدة « لسز فارانج » فاقترحت عليها

— بما أن لديها أطفالا وحجرات حضانة تامة المعدات — أن تسمح لها بايواء الفتاة موضوع النزاع . وهي بذلك حرة حين تدخلها في نظامها ونهج معيشتها أن ترفع العبء عن أحد الوالدين على الأقل . وذلك من شأنه أن يتيح لميزى في كل مرة مزيدا من التغيير بعد الشهور الستة التي لا مفر من تمضيها مع بيل . فصاحت ايذا :

— مزيدا من التغيير ؟ أليس حسبها من التغيير أن تفارق ذلك البهيم الوضع الى كنف أشد الناس في الدنيا بفضا له ؟
— كلا . لأنك تبفضينه بحيث لا تكفين عن التحدث اليها عنه . فتستبقينه ماثلا أمامها بدأبك على رمية بالمثالب .
وحملت « مسز فارانج » وهي تجيب :

— أترين اذن أنه ينبغي على الأوصع شيئا لاجباط ما يرميني به هو من ثلب غادر ؟

وكفت السيدة الطيبة عن الجواب لحظة . فكان صمتها حكما صارما على الموقف كله . ثم قالت آخر الأمر :
— يا للفردة الصغيرة المسكينة .

فكانت هذه الكلمات هي المرثية التي نقشت على قبر طفولة ميزى . فقد تركت المسكينة لمصيرها المقدور . وكان من الواضح لكل من يلقى النظر أن الصلة الوحيدة التي تربطها بكل من أبويها أنها للأسف الشديد وعاء حاضر لتلقى مرارتها ، فهي فنجان صغير عميق من الخزف تختلط فيه أحماض لاذعة . فهما لم يريداهما لما قد يكون في وسعهما أن يسديا اليها من الخير ، بل لما في وسع كل منهما أن يصيب به الآخر من الأذى عن طريقها وهي لا تمي . انها قمينه أن تكون أداة لحنقهما تمكن لانتقامهما . فالزوج والزوجة قد أنزلت بهما يد القضاء بوطأتها الشديدة ما أعطبهما على

السواء ، حين جاء حكم المحكمة العليا دامغا للطرفين ، مكرا عليه ما يطالب به من الحصول على كل شيء فلتن كان لكل منهما أن يحصل على النصف فحسب ، فبمقتضى ذلك أن كلا منهما ليس من الحطة كما يزعم الطرف الآخر . أو بعبارة أخرى يصم كلا الطرفين بأنهما في السوء سواسية ، ما دام كل منهما ندا للآخر . وكانت الأم قد رغبت في منع الأب — على حد قولها — من « مجرد رؤية الطفلة » . وكانت دعوى الأب أن أهون لمسة من الأم كافية أن « تدنس » الفتاة . وهذان هما الأساسان المتقابلان اللذان ستلقى ميزى تربيتهما على مقتضاها . وعليها أن تلائم بينهما حسبما يتسنى لها ذلك . وما من شيء أشد تحريكا للشجن في البداية من فشلها في ادراك المحنة التي تنتظر نفسها الطاهرة . وكان ثمة أشخاص أفرعهم التفكير فيما سيصطلح الوصيان على صنعه بها . ولم يطف بتصور أحد سلفا أنهما سوف لا يصنعان بها شرا .

كان ذلك المجتمع شغل أفراده الغالب عليهم الثروة فحسب . ولكن الزوجين المنفصلين توفرت لديهما الأسباب لتوقع فترة نشاط حامية الوطيس . فقد شعرا عن ساعديهما وأحسا كأن المعركة بينهما توشك أن يندلع أوارها . والحق ألهما شعرا وكأنهما أشد انغماسا في الزواج من أى وقت مضى ، من حيث ان كل ما أوحى اليهما الزواج به أنه مناسبة لعراك لا ينقطع . لقد كان ثمة معسكران من قبل . ولم يزل ثمة معسكران كذى قبل . وبدا لكل منحا أن هناك وقائع مرتبة أخذت تتكشف في صورة موضوعات لا حصر لها للأحداث المختلطة المتناثرة . وتجمع أصدقاء آل فارانج الكثيرون ليختلفوا في أمرهما ، وتجدد تعارض الآراء حول فناجين الشاي والسيجار فكل امرئ لا يفتأ يؤكد لكل امرئ آخر أن ثمة شيئا مزعجا للغاية . ولم يكن من الممكن أن يطرب أحد لو لم يرتكب

الفحش أحد . فعدا الاثنان متمتعين بيروز اجتماعي لا يخيب الا في اعتبار كل منهما للاخر ، فقد كان شيئا ذا بال حقا أن يقال عن ايدا انه ما من أحد يتعطش الى دمها غير ييل . وأن يقال عن ييل انه لا يتعرض لاقتلاع عينه مالم يكن هذا بيد زوجته . ونبدأ بالقول ان الشعور السائد عنهما أن كليهما وسيم بصورة مفرطة . ولم يحاول أحد أن يحللها لينفذ الى ما هو أعمق من ذلك من دخيلة أمرهما . فطولهما معا مثلا يبلغ اثني عشر قدما وثلاث بوصات . ولم يختلف الناس على شيء اختلافهم على قصة تلك الكمية بينهما . والعيب الوحيد الذي يلحق بجمال ايدا هو طول مدى ذراعها ، ذلك الطول الذي يسر لها أن تتفوق على زوجها مرارا كثيرة في لعبة البلياردو . وهي لعبة أظهرت فيها تفوقا تزعم أنه مسئول عن حق زوجها عليها حقا وجد مصرفه في عنقه البدني معها . فالبلياردو هو موطن قدرتها البارزة والسمة المميزة التي يثيرها في الذهن ذكر اسمها لأول وهلة على الدوام . فاذا غضضنا النظر عن بعض الخطوط المرفقة في الطول في تكوينها وكان ينبغي أن تكون عريضة . وهي في كثير من النساء موضع اعجاب بصغر حجمها فيما عدا شيئا واحدا . وهذا الشيء الواحد هو عيناها اللتان كان من الممكن أن تكونا في حدود الحجم المنشود المنتظم لولا أنها تجاوزتا حدود التواضع التي رسمتها الطبيعة . وكان فمها من جهة أخرى لا يكاد يبين . أما خصرها فكانت المراهنة تأخذ غاية مداها حول حقيقة مقياسه . كانت شخصية شير حين تخرج — انها لدائمة الخروج — في كل مكان احساسا بأن الناس قد رأوها كثيرا . وهو احساس يدل على سوء استفلالها لحدود التعرض للأنظار . بحيث صار من المتبدل في الأماكن المألوفة لها أن يعجب الناس من وجودها . فلم يكن ينظر اليها بعجب الا الغرباء . ولكن هؤلاء كانوا يسرفون في ذلك الأمر الذي كان يطرب

له آلافها - لأنها وسيلة لا تخيب للدلالة على عادة أجنبية . وكانت كزوجها تحمل ثيابها . تحملها كما يحمل القطار الركاب . وكان المعروف أن الناس يقارنون بين ذوقهما ويختلفون على الأدوات التي يستخدمونها في زيها . وإن كان الاتجاه في مجموعه الى امتداح ايها لأنها أقل من زوجها استكثارا ولا سيما من الحلوى والأزهار . وكانت لبيل فارانج أدوات زينة طبيعية ، هي نوع من الكسوة يتمثل في لحيته الفيحاء الشقراء اللامعة كأنها درع ذهبية ، ويتمثل في لمعان أسنانه لمعانا متصلا . وقد درب شاربه على ألا يحجب ذلك اللعان الذي يضي عليه في شتى المواقف الممكنة هيئة الفرح بالحياة . وقد أريد له في صباه أن يتجه الى السلك السياسي ، والتحق بصفة وقتية بدون مرتب باحدى القنصليات ، الأمر الذي أتاح له أن يقول في كثير من الأحيان : « في أيام خدمتي في الشرق .. » بيد أن التاريخ المعاصر لم يكن بحاجة اليه لسبب ما ، فتجاوزه مهرولا وخلفه الى الأبد في بيكاديللي . وكان كل انسان يعرف ما في حوزته ، وهو لا يتجاوز ألفين وخمسمائة جنيه . وكانت ايها المسكينة التي عانت كل شيء لا تملك الآن سوى عربتها وعمها المشلول . وكان ذلك الحيوان العجوز ، كما كان يسمى ، يكتنز قدرا كبيرا من المال ، فيما هو مفروض . وكانت الطفلة مكفولة النفقات بفضل « شبيبة » أريية ، وهي عمه لبيل متوفاة تركت لها أشياء بحيث لا يستطيع والداها الاستيلاء الا على الدخل الذي يظله .

الفصل الأول

كفلت للطفلة حاجات معاشها ، بيد أن التسوية الجديدة كانت بلا شك مصدر ارتباك وحيرة لذهن غض يحس احساسا عميقا أن شيئا ما قد حدث ، وأن هذا الشيء على جانب كبير من الأهمية ، فراح هذا الذهن الغض يتطلع بقلق منقبا عن نتائج مثل هذا السبب الجسيم . وكان مكتوبا لهذه الفتاة الصغيرة الصابرة أن ترى أكثر مما تطيق فهمه في البداية بكثير ، بل وأن تفهم في البداية أيضا أكثر مما تستطيع أي فتاة صغيرة بالغا ما بلغ صبرها أن تفهم بكثير كذلك . فلا يمكن أن يكون أحد منغمسا في وطيس المعركة مثل انغماسها اللهم الا الفتى حامل الطلبة في الروايات الشعرية والأقاصيص . فقد تفذت الى أسرار عواطف ثبتت عليها كأنها تحديق في صور تنوآب عبر الحائط من سريحة فانوس سحري . فعالمها الصغير كان أشبه بخيال الظل لما فيه من ظلال غريبة تتراقص فوق شاشة . وكأنما ما يحدث كله انما أعد من أجلها ، وهي تلك الطفلة الضئيلة غاية الضآلة ينوشها الفزع في مسرح معتم ضخم . وقصارى القول انه تم تقديمها الى الحياة تقديمًا سخيا لمبت فيه أنانية الغير دورا هاما . وانه ما من شيء يمكن أن يجنبها مصير الضحية الا نظامن منها الصغير .

وكانت مدتها الأولى عند أيها الذى لم يبق عليها في شيء الا منعه رسائل أمها الطائشة أن تصل الى يدها . فكان يرفع تلك الرسائل في يده ويلوح بها أمام عينيها كاشفا عن أسنانه ثم يدخل التسلية على نفسها بطريقته في الرمي بها عبر الحجرة الى حيث تستقر في وسط السنة نار

المدفأة . وفي تلك اللحظة كانت تشعر بيوادر من الفزع والاجهاد ، ويتابها احساس بالاثم لأنها ليست كهنا للموقف العصيب . وتشر في الوقت نفسه بسحر ذلك العنف الذي تقذف به في الهواء فتصفر كأنها القذائف تلك الأغلفة الصلبة التي لم تفض ، وقد علتها طغراء كبيرة كانت تمنى أن تنظر اليها — وما أكثر ألوان الطغراء التي كانت ايدا تدجج بها نفسها . فكانت النتيجة الكبرى للسبب الكبير هي ازدياد أهميتها الخاصة ؛ تلك الأهمية التي تكشف لها على الخصوص في المعاملة الجزافية التي تلقاها . فهذا أو ذاك يجذبها اليه ويقبلها وهي مضطرة أن تظهر مزيدا من اللطف يتناسب مع تلك الزيادة في الاغداق . وكانت ملامحها قد ازدادت بروزا بعض الشيء ، فلا يفتأ أولئك السادة الذين يأتون لزيارة أبيها يقرصونها ودخان سجائرهم يكتنف وجهها . وكان بعض أولئك السادة يحملونها على اشمال أعواد الثقاب لسجائرهم ، وبعضهم الآخر يضعونها على ركبته ويهزونها هزا عنيفا ويقرصون باطن ساقها الى أن تصرخ — وكانوا يستطيعون صراخها كثيرا — وينمتون ساقها بأنهما كالمسواكين . فالتصقت هذه الكلمة بعقلها وأسهمت في احساسها منذ ذلك الحين بافتقارها الى شيء كان حريا أن يلقي رغبة لدى الكافة . وقد اكتشفت ما هو هذا الشيء . فاذا هو استعداد في التكوين لابرار شيء تطلق عليه حاضنتها « مودل » اسما قصيرا قيحا . اسما يقترن اقترانا أليما على مائدة الغذاء بشريحة من الموضع الذي لا تحبه من اللحم . فقد خلقت وراء ظهرها ذلك الزمن الذي لم تكن تشغل نفسها فيه بمواجهة الرغائب ، اللهم الا رغبة « مودل » التي كانت دائما تحتل مكانها على المقعد الخشبي في حدائق كنجستون عندما تعود لتتأكد من أنها لم تمنع في الابتعاد وهي تلهو . ولم تكن رغبة « مودل » تتجاوز ألا تمنع في الابتعاد حين تلهو . وكان

هينا عليها جدا أن تواجه هذه الرغبة حتى ان الشوائب الوحيدة التي
تخلت تلك الفترة المشرقة الطويلة هي اللحظات التي كانت تساءل فيها
ماذا عسى أن يؤول اليه أمرها ان هي لم تجد لمودل أثرا على المقعد الخشبي
حين تندفع عائرة اليها . وانها لتذهبان بعد الى الحدائق . الا أن ثمة
فارقا واحدا : فهي الآن تجد من قسها على الدوام دافعا للنظر الى سيقان
الفتيات الصغيرات الأخريات ثم تسأل مريبتها أهي كالمباويك . وكانت
« مودل » تصدقها الجواب بصورة مفزعة فتقول لها دائما :

— انك يا عزيزتي لن تجدى ساقين كساقيك ا

ويبدو أن ذلك كان وثيق الصلة بشيء آخر ، حتى ان « مودل » كثيرا
ما قالت لها :

— انك تشعرين بتوتر . وهذا هو الموضع . وسيزداد احساسك به
سوءا .

وهكذا كانت ميري لا تشعر منذ البداية فحسب ، بل وتعرف أيضا
أنها تشعر به . ويرجع ذلك جزئيا الى أن أباهما أخبرها أنه يشعر به أيضا .
وأمر « مودل » في حضورها أنه ينبغي أن تعنى بتفهمها هذه المسألة جيدا .
فكانت وهي في سن السادسة على دراية بأن كل شيء قد تغير بسببها وان
كل شيء قد رتب بحيث يسمح له بتوجيه اهتمامه كله نحوها . وكان عليها
أن تتذكر دواما تلك الكلمات التي تدخل بها « مودل » في روعها أنه
يوليها كل عنايته :

— ان اباك يريد منك ألا تنسى مطلقا ما أدخل على حياته من تحول
هائل .

ولئن كان جلد وجه « مودل » يبدو في نظر ميري مشدودا شدا أليما
بغير مقتضى ، فهو لم يبد لها بهذه الصفة على درجة أشد مما يبدو لها في

الأحايين الكثيرة التي تنتهزها للتفوه بمثل هذه الكلمات . وكانت الطفلة تتساءل ألا تسبب لها هذه الألفاظ ألما أكثر من المعتاد . ولكن بعد فترة من الوقت استطاعت أن تربط بصورة آلام أبيها ، وعلى الأخص بصورة مسلك مرييتها بازاء آلامه ؛ ذلك المعنى الذي كانت تلك الأمور مفتقرة اليه . فقد غدت مع الوقت أحد ذكاء ، على حد تعبير السادة الذين كانوا ينتقلون بطن ساقياها . وألتمت في ذهنها مجموعة من الصور الأصدقاء ارتبطت بها معان . وهى صور وأصدقاء حفظت لها فى غسق الطفولة وفى خزائنها الممتعة وأدراجها العالية ، كأنها لعب لم تبلغ بعد من الكبر مبلغ اللهو بها . وكان العبء الأكبر فى تلك الأثناء هو كيف تفهم على وجهها الصحيح ما يقوله أبوها عن أمها — وما يقوله عنها فى الغالب أمور متى لمحتها « مودل » فكانما لمحت لعبا معقدة أو كتبا صعبة تنتزعها من يدها وتخفيها عنها داخل الخزانة . وهى أمور غريبة فى تنوعها ستكتشفها ثمت فيما بعد مختلطة بأشياء ملقاة معها فى وعاء واحد من حصيلة ما كانت تقوله أمها عن أبيها . وكانت تعلم أنها فى ميقات معين يدنيها منه مرور كل يوم من الأيام ستأتى أمها الى باب الدار لتنصرف بها . وكان هذا حريا أن يصبغ جميع أيامها بالسواد لولا أن « مودل » الحاذقة كتبت لها على ورقة فى كلمات كبيرة سهلة جدا طائفة هائلة من المسرات التى ستنعم بها فى البيت الآخر . وكانت هذه الوعود تتراوح من « حب الأم المشبوب » الى « بيضة لطيفة مقلية فى ماء مغلى تقدم لك مع الشاي » . وراودها التطلع أيضا الى السهر الى ساعة متأخرة كى ترى السيدة المذكورة مكتسية بالحرير والمخمل ، مزدانة بالماسات واللالىء استعدادا للخروج . فكان سندا حقيقيا له يزرى عند حلول الساعة الحاسمة أن تشعر بتوجيه من « مودل » بتلك الورقة وقد دفعت الى داخل جيبها وهناك تكورت فى قبضتها . وقد زودتها

الساعة الحامسة بذكري متوقدة هي ذكرى ثورة غريبة انفجرت في حجرة الاستقبال من جانب « مودل » اذ صرخت بصوت عال ردا على شيء كان أبوها قد قاله لها لتوه :

— ينبغي أن تخجلى من تصك . ينبغي أن يحمر وجهك ويا سيدي من النهج الذى تنهجه ا

وكانت العربة التى بداخلها أمها واقفة بالبواب . وضحك السيد الذى كان موجودا هناك — وكان على الدوام موجودا هناك — ضحكة عالية جدا . أما أبوها الذى كان يضمها بين ذراعيه فقال لمودل :

— سأسوى موضوعك حالا يا امرأة ا

ثم كرر على مسامعها — وهو يكشف لميزى عن مزيد من أسنانه وهو يحتضنها — تلك الألفاظ التى أثارت عليه سخط المربية . ولم تستطع ميزى فى ذلك الحين أن تدرك تلك الألفاظ تمام الادراك مثلما أدركت ما كان من خروج « مودل » عن جادة الاحترام فجأة ذلك الخروج العجيب وان وجهها صار الى لون القرمز . ومع هذا وسعها أن تعيد تلك الكلمات فى مدة خمس دقائق عندما قالت لها أمها فى العربة وهى تفرقها فى قبالتها وأشرطتها ونظرات عينيها واحاطة ذراعيها وأصواتها الغريبة وعطورها المستعذبة ..

— وهل حملك أبوك البغيض يا ملاكى الغالى إيما رسالة الى أمك المحبة ؟

وحينئذ عثرت على الألفاظ التى تفوه بها أبوها البغيض لتستقر فى أذنيها الصغيرتين المبلبلتين . ومن هناك انتقلت — بناء على طلب أمها الى شفيتها الصغيرتين البريئتين مباشرة ، فقالت بصوتها الجلى الحاد ناقلة الكلام بكل أمانة :

— قال انه ينبغي على أن أبلغك عنه أنك خنزيرة قدرة بشعة .

الفصل الثاني

في ذلك الاحساس التوقد بالحدث المباشر — ذلك الاحساس الذي يعتبر الجو السائد في عقل أى طفل — غدا الماضى فى جميع المناسبات بالنسبة لها غير متميز كالمستقبل سواء بسواء ، فأسلمت قيادها للزمن الحاضر فى ثقة كان ينبغى أن تؤثر فى نفس كلا الأبوين . وبالغا ما بلغ تقديرهما من الفجاجة فقد كان لهما فى البداية ذريعة من كونها الكرة المريشة الطائرة الصغيرة التى يسعها أن يمضيا فى تقاذفها فيما بينهما بثوحس . والشئ الذى أوتى كل منهما وهبة التفكير فيه أو كان كل منهما يتظاهر بالتفكير فيه تجاه الآخر كأنا يصبانه فى تصها الصغيرة التى تحملى بصرامة فيما يروى لها وكأنما يصبانه فى وعاء لا قرار له . ومما لا شك فيه أن كلا منهما كان مستريح الضمير غاية الراحة من جهة قيامه بواجب تلقينها الحقيقة الكالحة التى ستكون وقاء لها من شرور الطرف الآخر . وكانت فى السن التى تعتبر جميع الأقايصى حقائق وجميع المدركات أقايصى .

فالواقع هو المطلق والحاضر وحده هو الذى يتميز بالحيوية . فالتعنيف الذى شرعت فيه أمها فى العربية مثلا بعد أن أفضت إليها بما أمرها أبوها أن تؤديه بدقة كان بمثابة رسالة استقرت فى ذكرياتها محدثة ذلك الصوت الجاف الذى ينجم عن سقوط خطاب فى صندوق البريد . وكالخطاب أيضا حين تضمه حقيبة بريد مكدسة ، تم تسليم تلك الرسالة على حسب السياق المرسوم الى العنوان الصحيح : وبازاء هذا الفيض الذى استمر

عامين شعر خلطاء كل من الطرفين أن شيئاً ما ينبغي أن يصنع لما أسموه « الخير الحقيقي » للطفلة . ومع هذا كان الشيء الوحيد الذي تم على المصوم هو ما حدث عندما لوحظ في تهاد أنها لحسن الحظ لا تقضى العام كله حيث اتفق أنها كانت موجودة في تلك الآونة الحرجة ، وأنها فضلاً عن هذا لا تحسن فيما يبدو ادراك الأشياء اما عن فرط مكر فيها أو فرط غباء .

وتصل نظرية غباؤها التي اعتنقها أبواها أخيراً بتاريخ له خطره في حياتها الصغيرة الساكنة ، ألا وهو تبيينها التام تينا حاسماً وان كان مستراً للمهمة الغريبة التي تضطلع بها . فكان ذلك حرفياً بمثابة ثورة أخلاقية حدثت في أغوار طبيعتها . فأخذت الدمى المتصلبة القائمة فوق الرفوف المعتمة تحرك أذرعها وأرجلها وأخذت أشكال وعبارات عتيقة تتخذ مغزى ريمت له . لقد اتابها احساس جديد ، احساس بالخطر ، وانبرى للقاء هذا الاحساس اجراء جديد ، هو صورة الذاتية الباطنة ؛ أو بعبارة أخرى التحويه . لقد حلت اللغز برموز غير تامة لكن بزكاة هائلة ، فأدركت أنها كانت محورا للكراهية ورسولا للاهانة . وان كل شيء بلغ مبلغه من السوء لأنها استخدمت في الوصول به الى ذلك ، الدرك . فانطبقت شفتاها المنفرجتان وقد عزمت على ألا تستخدمها من بعد . ستسنى كل شيء . ولا تعيد شيئاً سمعته . ولما ووصت عند نجاحها في تطبيق هذا النظام بأنها بلهاء صغيرة وجلت لذلك النعت لذة ذات مذاق جديد ثاقب وعندما أعلن كل من والديها على التوالي في مواجهتها حين كبرت شيئاً ما أنها غدت بليدة الذهن بصورة مذهلة ، لم يكن ذلك الاعلان نتيجة نقصان حقيقي في مجرى حياتها الصغير . ولئن أفسلت عليهم سرورهم ، فقد استطاعت أن تزيد من سرورها بصورة عملية . فهي ترى المزيد بعد المزيد . بل وترى

فوق ما ينبغي . وكانت الأنسة « أوفرمور » مريتها الأولى وهى التى بذرت فى نفسها فى احدى المناسبات الهامة بذور التكتم . لم تبذرهما بما قالت بل بدسرجة من هاتين العينين اللطيفتين اللتين كانت ميزى تكن لهما الاعجاب . وكانت « مودل » قد غلت فى ذلك الحين — بعد تبديلات فى محل الإقامة لم تعد الطفلة تذكرها بوضوح — صورة باهتة تقرن بتذكرها لنوبات اختفائها تحت تأثير الجوع من حجرة الحضانة ، وبزلات مكربة فى الحروف الأبجدية ؛ وعلى الأخص بارتباكات محزنة عندما كانت تلعى للتعرف على شىء كانت حاضنتها تمتعه بأنه « حرف الهاء الخطير الشأن » . أما الأنسة « أوفرمور » فلم تكن تختلئ اطلاقاً مهما بلغ من جوعها . وقد جعلها ذلك تبدو على نحو ما أعلى مقاما . وقد عزز فيها هذا الطابع الخلقى جمال كانت ميزى تراه خارقاً للمعتاد . وكانت مسز فارانج قد وصفتها بأنها تكاد فى ملاحظتها تتجاوز الحد اللائق . وسألها بعضهم عن أهمية ذلك ما دام يبل غير موجود . وسمعت ميزى أمها تجيب بقولها : — سواء كان يبل موجوداً أو غير موجود ، فأنا أستخدمها لأنها سيئة بيد أنها على فقر مدقع . أناس طيبون . ولكن البيت يقسم سبع أخوات . فماذا يروم الناس ؟

ولم تدر ميزى ماذا يروم الناس ، ولكنها سرعان ما عرفت أسماء جميع الشقيقات وصار فى مقدورها أن تسرد تلك الأسماء خيراً مما تسرد جدول الضرب . وكانت تساءل فيما بينها وبين نفسها فضلاً عن هذا — وان لم تنعوه بالسؤال مطلقاً — عن الفقر المدقع الذى لم تكن رفيقتها تخوض فى حديثه اطلاقاً . وكان الطعام على كل حال يأتى على حسب قوانين غامضة . ولم تكن الأنسة « أوفرمور » ترتدى مرولة كالتى كانت ترتديها « مودل » قط . وعندما كانت تأكل تمسك بشوكتها واصبعها

الخنصر معقوف نحو الخارج . وكانت الطفلة التي تعودت أن ترقبها في أوقات كثيرة ترقبها على الخصوص في ذلك الوقت . وكثيرا ما قالت لها : — ما أبهاك . حتى ماما — وهي أيضا ذلت بهاء — لم تؤت هذا الأسلوب في استخدامها للشوكة .

وكانت ميزى تربط بين وجود هذه الشخصية النظرانية وبين كونها أصبحت « كبيرة » . وهي تعرف بالطبع أن المربيات لا يكن الا للفتيات الصغيرات اللواتي لسن — على حد قولها — صغيرات حقا . وكانت تعرف بصورة غامضة أيضا أن المستقبل أكبر منها . وان من العناصر التي تضى على المستقبل هذه الصفة عدد المربيات اللاتي يأتين ثم يرحلن . وكل شيء حدث لها عندما كانت صغيرة حقا كان هاجما فيما عدا اليقين الجازم الذي أورثته اياها « مودل » عن بعد بأن النهج الطبيعي بالنسبة للطفلة أن يكون أبواها متفرقين ومتعاقبين ، شأنهما في ذلك شأن نصيبها من لحم الضأن ونصيبها من « البوديتج » . أو شأن حمامها وغفوتها بعده .

وكان السؤال الذي ألقته بحرارة على الآنسة « أوفر مور » في تلك المناسبة التي كان من شأنها أن تؤدي الى تغير حاسم في حياتها :

— أهو يعلم أنه يكذب ؟

فحصلت « الآنسة أوفر مور » وقالت :

— أهو يعلم .. ؟

وكانت قد شلت فوق يدها جوربا تخزه بآبرة تحرص على توازنها في العمل . وكان ما هي بصدده عملا مألوفا بيد أن حركتها في أدائه رشيقة شأن سائر حركاتها . — أعنى أمي .

— « يكذب » ؟

— هذا ما طلبت الى ملما أن أقوله له : انه يكذب ويعلم أنه يكذب .
فتضرج وجه الأنة « أوفر مور » بحمرة شديدة ؛ وان كانت قد
ضحكت الى أن سقط رأسها الى الورا . ثم راحت تخر مرة أخرى بالابرة
الجورب لشلدود على يدها بعنف حتى ان ميزى تساءلت كيف لها باطاقة
ذلك الوخز واستطردت الطفلة :

— هل ينبغي أن أخبره ؟

وعندئذ وجهت اليها رفيقتها الخطاب بلغة عينيها الرماديتين الحالكتين
العميقتين تلك اللغة التي لا خفاء فيها ، فقالت لها بأفصح ما تستطيعه
هاتان العينا :

— لا أستطيع أن أقول لا ، لأنى أخاف والذتك . ألا ترين ؟ ولكن
كيف لي بأن أقول نعم بعد الذى أبداه أبوك من اللطف معى ، وقد أطال
الحديث الى منذ أيام ، وهو يتسم كاشفا لي عن للاء أسنانه الجميلة
عندما التقينا به فى البستان . ذلك اللقاء الذى بلغ من فرحته بمرآنا أنه
ترك السيد الذى كان فى صحبته واستدار فمشى معنا ، ولبث فى صحبنا
نصف ساعة ؟

وبطريقة ما عاد ذلك الحدث الى ذاكرة ميزى فى ضوء نظرة عيني
الآنسة أوفر مور القاتنتين وقد اكتسى سحراً لم يكن له فى حينه . مع
أن مريبتها لم تشر الى ذلك الحدث بعد انقضائه الا مرة واحدة ، ففى
طريقهما الى البيت بعد أن غادرهما والدها أعربت عن أملها ألا تذكر الطفلة
ذلك اللقاء لأمها . وكانت ميزى تحبها جدا ويفتنها احساسها بأنها محبوبة
لديها ، فقبلت منها هذه الملاحظة باعتبارها ختاماً للموضوع ، وتحررت

اقاذاها بصورة عجيبة . وها هو العجب تتقد جذوته مرة أخرى وينبى عن وجوده في تذكرها لقول أيها للآنة « أوفر مور » :
— بحسى أن أنظر اليك لأين ألك الشخصية التي أستطيع مناشدتها العون في اقاذا ابنتى .

ولم يقلل جهل مزي بما يراد اقاذا منه من سرورها بالتفكير في أن الآنة « أوفر مور » تصل على اقاذاها . فكأنما جعلها هذا خاطر تثبت كل منها بالأخرى كما تعملان في لعبة جمحة من ألعاب « الدوران » .

**** معرفتى ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثالث

وكان هذا عاملا فعلا على زيادة جفولها عندما قالت لها أمها بخصوص شيء ينبغي أن يسمع قبل هجرتها التالية :

— أنت مدركة طبعا أنها سوف لا تذهب معك .

فشحب وجه ميري شحوبا شديدا وقالت :

— كنت أظنها ذاهبة معي :

فأجابتها مسز فارانج بصوت عال :

— ليس مهما على الاطلاق ما تظنين . ومن الخير لك حقا في المستقبل

يا آمنة أن تتعلمي استبقاء ظنونك لنفسك .

وهذا بالضبط ما كانت ميري قد تعلمته . وكان هذا هو سر غضب

أمها . فنتظامها في صمتها نظام قدي فطيع تنحو به صوب الحكم على

من هم أكبر منها سنا . وهذا ما ارتابت فيه السيدة وهي التي تحب

فيما يخصها أن تكون الطفلة بسيطة صريحة الافضاء . وكانت تحب أيضا

أن تسمع تبليغات عن صدى الضربات التي توجهها الى طباع مستر فارانج

والى ما يدعيه من راحة البال فكان ارتياحها لتوجيه تلك الضربات يتناقص

حينما لا تظهر لها بصدى . فسارت ترى اليوم الذي ستشعر فيه بمزيد

من السرور للقاء بميري اليه أكثر من سرورها باتزاعها منه وقد بات

قريبا . وقد بلغ من شدة هذا الاحساس لديها أن ضميرها أجفل حين

جابهتها صديقة صريحة بأن النهاية الحتمية لكل هذا التجاذب أن كل واحد

من الأبوين سيجتهد أن يجعل من الفتاة عبئا على الآخر . وهي لعبة من

الواضح أنها لا تظهر الأم المحبة على خير وجه . وقد أحدث التخوف من عدم ظهورها على خير وجه — وهي مزية كانت تعتقد أنها لم تخفق فيها قط — ضربا من ضيق الصدر لدى ايدا فاراليج ، ضيقا أحس بوقمه عدة أشخاص . وقررت أن تشعر به بيل أيضا على أية حال . وعاودت التفكير في وجوب عدم التخلي عن بحث أنجع الوسائل لتفويضه . وما من شيء يكدره كما يكدره عدم الافادة — لصالح الطفلة — من مرافقة كيسة مشغوفة بها . ومما قاله ايدا لتلك المرافقة أن بيت بيل من البيوت التي تأتي أي امرأة محترمة أن يراها فيه أحد . وكانت الآنسة « أوفر مور » نفسها هي التي أوضحت لميزي كيف خامرها الأمل في السماح لها بمصاحبتها الى بيت أبيها وكيف قضى على هذا الأمل بسوء وقع الفكرة لدى أمها .:

.. — وهي تقول انى ان أقدمت على الدخول في خدمته فلن يكون مطمع في اظهار وجهي في هذا البيت بعد ذلك . ولذا وعدتها ألا أحاول الذهاب معك . فان أنا صبرت الى أن تعودى الى هنا اجتمع شملنا مرة أخرى حتما .

وقد بدا لميزي ان هذا الانتظار الصابر الى أن تعود أنا هو علالة طويلة المدى ، ذكرتها بسائر الأشياء التي قيل لها أولا وأخيرا انها ستفقر بها ان هي التزمت جادة الحكمة ، وعلى شدة التزامها للتعقل لم تظهر بها في النهاية على الاطلاق .

— ومن الذى سيتولى رعايتى في بيت أبى ؟

فأجابتها الآنسة « أوفر مور » وهي تعانقها بحنان :

— الله وحده أعلم يا حبيبتى الغالية .

ولم يكن ثمة شك فعلا في مكاتبتها العزيزة لدى هذه الصديقة

الحسنة . وأى برهان على هذا أقوى من أنه لم ينقض أسبوع — وعلى الرغم من افتراقهما المؤسى وتحريم أمها القاطع وتحرج الأنسة « أوفر مور » ، وتهد هذه الأنسة بوعلها — حتى كانت الصديقة الجميلة قد وفدت على غير انتظار على بيت أبيها ؟ وكانت السيدة الصغيرة التي استوجرت بالساعة قصيرة سراه بدينة أحنية الاسم قدرة الأصابع ترتدى على الدوام قلنسوة أضفت عليها في البداية جوا خادعا — سرعان ما تبدد — يوحى بأنها لا تطيل المكث في البيت ، فضلا عن توجيهها الى تلميذتها أسئلة لا علاقة لها بالدروس . أسئلة اعترَف ييل فارانج نفسه عندما أعيد على مسامحه سؤالا أو ثلاثة منها بأنها في منتهى الانحطاط . بيد أن هذه الصورة المعجبة كسفت أمام اشراق هذه المخلوقة الوضيفة التي تحدث كل شيء في سبيل ميزى . وأخبرت المخلوقة الوضيفة تلميذتها الصغيرة في صراحة بما حدث ، وهو أنها لم تستطع بالفعل الثبات أمام بعادها ، فنكثت عهدا لمسز فارانج . وأنها ظلت تقاوم ثلاثة أيام ثم جاءت فوراً الى والد ميزى وقالت له الحقيقة المجردة ، وهي أنها تعبد ابنته ولا تستطيع التخلي عنها ، وأنها مستعدة أن تقدم على أى تضحية في سبيلها . وعلى هذا الأساس تم الاتفاق على وجوب بقائها . وبذلك لقيت جزاء شجاعتها . ولم تدع لدى ميزى أدنى شك في مقدار الشجاعة التي تقاضاها هذا الموقف إياها . وكان لطائفة مما قالته لها وقع خاص على الطفلة . ومن ذلك مثلا تصرحها بأن تلميذتها عندما تكبر ستدرك خيرا مما تدرك الآن كيف ينبغي لسيدة شابة أن تكون « مرفقة في جراتها » كي تقدم على ما أقدمت هي عليه بالذات .

وكان مما قالته أيضا الأنسة « أوفر مور » بالحاح ملفت للنظر على

« التمييز » — ومن حسن الطالع أن والدك يقدر ذلك . يقدره تقديرا
« هائلا » .

ولم تكن ميزى نفسها أقل تأثرا بما مرضت له هذه الشهيدة
— ولا سيما بعد أن سمعت بالخطاب القاطع الذي ورد من لندن مسز
فارانج . فقد بلغ من غضب « ماما » أنها — على حد تعبير الأنسة
« أوفر مور » نفسها — حشته بالاهانات . وهذا وحده دليل كاف في
الواقع على أنه لا ينبغي لهما أن تطمحا مطلقا الى وجودها معا مرة أخرى
تحت سقف « ماما » . بيد أن سقف « ماما » بدا للظنلة هذه المرة شيئا
عارضاً طفيفاً ، حتى أنه لم تكذب تكون برفيقتها حاجة الى الإقضاء لها بسر
خطير ، وهو احتمال عدم عودتها الى أمها اطلاقاً . فقد كانت الأنسة
« أوفر مور » مقتنعة اقتناعاً خاصاً أفضت به بين ما أفضت به إليها ، بأنه
في حالة اظهار ابنة مسز فارانج أنها تفضل البقاء معه تفضيلاً واضحاً ،
فسوف تجد تمضيدها من « الرأي العام » في التشبث به . ولم يكن يسيراً
على ميزى المسكينة أن تدرك ذلك الحافز ، بيد أنها أسلمت نفسها لما يأتي
به الزمن . وقد أستطاعت أن تدرك أول هوى لها . وكان موضوعه مريبتها .
ولم يواجهها أحد ، ولا كان في مقدورها أن تواجه نفسها بأنها تحب الأنسة
أوفر مور أكثر مما تحب أباهما . ولكن كان حرياً أن يعزز موقفها وهي واقعة
تحت ظل هذا الاتهام شعورها بأنها مستطبعة أن ترد على ذلك بأن أباهما
أيضاً يحب الأنسة أوفر مور مثلما تحبها هي بالضبط . وقد أخبرها
بذلك بصورة جلية . يضاف الى هذا أنها كانت قميئة أن تبين ذلك بنفسها
من غير عناء ..

الفصل الرابع

ذلك كله دفع بها في سبيلها قدما ، بيد أنه جلب عليها مصيرها كذلك ، حتى اليوم الذي ستأتي فيه أمها الى باب البيت في عربة لم تعد ميزى تركبها الآن في غير تلك المناسبات . فلم يكن ثمة بحث في هذه المرة في عودة الأنسة أوفر مور معها . اذ كان المعروف للكافة أن خصامها مع مسز فارانج بلغ في حدته مبلغا لا يسمح بذلك . وقد شعرت الطفلة بهذا منذ البداية . فلم يكن ثمة احتضان أو جيشان عاطفة عندما انطلقت بها تلك السيدة . بل ساد صمت مروع لم تخفف من حدته حتى ولا تلك الاستفسارات الناضحة بالبغضاء التي كانت تميز بها السنوات السابقة . وقد بلغت المحنة ذروتها — بمقتضى سياقها الصارم — في صورة سيئة عجوز أشد ترويعا ، كانت تنتظرها على عتبة الباب . وقالت لها أمها :

— ستكونين تحت رعاية هذه السيدة .

• ثم وجهت الخطاب الى السيدة قائلة في قناد صبر :

— خذها يا مسز ويكس .

ثم دفعت بالطفلة دفعة أدركت منها ميزى أنها تريد أن تقدم لمسز ويكس قدوة للنشاط المطلوب منها . وأخذتها مسز ويكس . وشعرت ميزى في اليوم التالي بأنها لن تتركها تغفلت منها . وكان وقعها لديها في البداية — بعد أن غادرت الأنسة « أوفر مور » مباشرة — وقعا فظيحا .. بيد أن شيئا في صوتها استطاع بعد مضي ساعة أن يلمس من الفتاة الصغيرة موضعا لم يصل اليه أحد من قبل وقد عرفت ميزى فيما بعد ما هو هذا

الشيء . وأن كانت بالتأكيد عاجزة عن التعبير عنه بوضوح . فذلك أمور تكلفت بضعة أيام من الحديث مع مسز ويكس بالقاء الضوء عليها . وأهمها مسألة كانت مسز ويكس لا تنفك تذكرها من تلقاء نفسها : فقد كانت لها يوما ما فتاة صغيرة تخصها . وقد لقيت هذه الفتاة الصغيرة مصرعها بغير امهال . ولم يكن لديها في الدنيا بأسرها شيء سواها . فحطم الشكل قلبها . واستقر الوضع فيما بينهما على أن قلب مسز ويكس محطم . وشعرت ميزى أن هذه السيدة كانت يوما ما اما مشغوفة وامقة . وهي صفة لم تؤتها الآنسة أوفر مور . ومن عجب باعث على الحيرة ألها أيضا صفة حفظ أمها منها أدنى وأيسر .

وفي مدى فترة وجيزة للغاية ألتت نفسها غارقة في صورة الصغيرة الراحلة « كلارا ماتلدا » التي دهمتها وهي تعبر طريق هارو مركبة سحقتها سحقا . وهو استفراق لم تمهده في نفسها في محيط الأسرة ، وها قد استأثرت به فتاة في السابعة أذكت جذوته . واتتهت مسز ويكس الى قولها لميزى :

— انها أختك الصغيرة الراحلة .

ومنذ هذه اللحظة وميزى تخص تلك القنية الصغيرة التي تقبلتها بخشوع خاص صادر عن رغبة فضول وحنان . بيد أنها لم تكن أختا حقيقية على نحو ما . الا أن ذلك زادها سحرا . وأسهم في تعزيز هذه النظرة أنه لم يكن من الجائز اطلاقا أن تتحدث عنها بهذه الصفة الى أى انسان آخر ، ولا سيما الى مسز فارانج التي لم تكن حرية أن تكثر بها أو تعترف بقرابتها . فلا بد أن تظل سرا صغيرا مكنونا لا اقضاء له فيما بينها وبين مسز ويكس . وعرفت ميزى عنها كل شيء يمكن أن يعرف . عرفت كل شيء قالته أو فعلته في حياتها الصغيرة المبتسرة . والى أى مدى

كانت محببة المنظر ، والى أى حد كان شعرها متموجا وكانت أثوابها حسنة الهمدام . كان شعرها ينسدل الى ما تحت خاصرتها . وكان ذا بريق ذهبى رائع ، كشمس مسز ويكس تماما فى أيامه الخوالى . والحق ان شعر مسز ويكس لم يزل محتفظا بروقه الى حد كبير . وشعرت ميمى فى البداية أنها لا ينبغى أن تمضى فى الاحتفاظ به ، فقد لعب دورا كبيرا فى المظهر الغرب — مظهر امرأة ذات شعر أشيب زلق — الذى بدت به مسز ويكس عند وصول الطفلة . وكان ذلك الشعر فى مبدأ أمره أصفر اللون ، بيد أن الزمن حول أناقته الى رماد ، فصار لونه أبيض يابضا شاحبا عكرا غير وقور . الا أنه لم يزل غزيرا غزارة مسرفة وكانت تصفقه على نسق يبدو أن السيدة المسكينة لم تدرك بعد انتهاء عهده ، فهى تعقسه بجديلة ثقيلة أشبه بالكيل عريض يعلو قمة رأسها ، وتجعله من الخلف وردة فوق القفا حائلة اللون أشبه بزر كبير . وكانت تضع على عينيها نظارة كانت تسميها — وهى تشير فى تواضع الى حول منفرج فى بصرها — المثبتات . وثوبها عبارة عن كساء قبيح بلون الشوق مزين بشرائط من الستان على شكل محارات مروحية . وقد اكسى الثوب بحكم القدم لمعانا كلمعان الزجاج . وأوضحت لميمى أنها تلبس المثبتات رعاية للآخرين ، لأنها فى اعتقادها تساعدهم على معرفة اتجاه نظرها . ولولا ذلك لكانوا فى شك منه . أما بقية بزتها الكئيبة فلا يمكن أن يكون ارتداؤها لها الا رعاية لأمر نفسها . وكانت تذكر تلميذتها وهى لابسة عويناتها بالصدفة اللامعة أو بالدرع الذى تتميز به الخنفساء البشعة . وقد بدت لها فى أول الأمر متجهة الى درجة تكاد تبلغ حدود القسوة . الا أن هذا الأثر لم يلبث أن تبدد عندما ازداد ادراك الطفلة لحقيقة كونها فى أنظار العالم صورة يضحك منها قبل كل شئ . فهى مضحكة كأنها

أحجية أو حيوان قارب الطور النهائي من أطوار « التاريخ الطبيعي » .
شخصية يصفها الناس بعضهم لبعض ويحاكونها ليعثوا حيوية المرح في
أحاديثهم . وكان كل امرئ يعرف المثبات . ويعرف الأكليل والزر .
ويعرف المحارات المروحية وشرائط الساتان . بل ان كل امرئ كان يعرف
أيضا « كلارا ماتلدا » وان كانت مزي لم تبج بسرها قط .

وبسبب هذه الأشياء جميعا استطاعت « أمها » أن تستأجرها بذلك
الأجر الزهيد . بلا شيء في الواقع . وكان المبلغ كذا ، فقد حدث ذات يوم
عندما صحبتها مسز ويكس الى حجرة الاستقبال وتركها هناك أن سمعت
الطفلة إحدى السيدات الموجودات — وهي سيدة ذات حاجين مقوسين
كجبال النط ، وعلى قفاها الأبيض الجميل غرز سوداء غليظة أشبه بخطوط
الأوراق التي تكتب عليها الأدوار الموسيقية — تذكر المبلغ لسيدة أخرى .
وكانت تعلم أن المربيات فقيرات . ولكن الأنسة أوفر مور كان فقرها مسترا ،
أما مسز ويكس فققرها علني . الا أن هذا الاعتبار لم يستطع ، لا هو
ولا ثوبها البني العتيق ، ولا الأكليل ولا الزر ، أن يغير شيئا بالنسبة لميزي
من ذلك السحر الذي بثته مسز ويكس في كل شيء . ومصدر هذا السحر
أن مسز ويكس على ما بها من قبح وفاقه كانت مأمونة الجانب بصورة
بارزة تسكن اليها النفس . فهي من حيث هذا الأمان تفوق كل من في
الدنيا ، بما فيهم « بابا » و « ماما » ، والسيدة ذات الحاجين المقوسين ،
بل والأنسة أوفر مور — وان تكن أقل منها بكثير من حيث الجمال —
مع أن الفتاة الصغيرة كانت تشعر شعورا غامضا أنه لا يمكن التعويل على
بها أن يشعرها حين تلمسها بين أعطية الفراش وتقبلها قبلة « طابت
ليتك » بما تشعرها به « مسز ويكس في ذلك الحين . فمسز ويكس
مأمونة الجانب مثل كلارا ماتلدا المقيمة في السماء ، وهي مع هذا موجودة

أيضا بصورة مريكة — في كنسال جرين « حيث ذهبتا معا لزيارة قبرها الصغير الذي يكاد يطس معاله تزامم القبور . وقد استملت ميري من شيء ما في نبرة صوت مسز ويكسن — الذي ظل رغم المحاكاة الساخرة مستمعيا على الوصف والمحاكاة — ذلك الاحساس بالسند الذي يركن اليه ، وكاله حاجز بارتفاع الصدر في المواضع التي يخشى فيها التردى — وانه لسند راسخ لا يخذل من يلوذ به . ولئن كانت تعلم أن معلمتها فقيرة غريبة الأطوار ، فهي تعلم أيضا أنها لا تقارب الآنسة أوفر مور من حيث الأهلية . فالآنسة أوفر مور في وسعها أن ترد على مسامعك قدرا كبيرا من التواريخ بلا توقف (وأنت ممسك بالكتاب في يدك) وأن تحدد موقع مالا بار ، وأن تعزف ست مقطوعات من غير الاستعانة « بالنوتة » ، وأن تضيف بفاية البراعة الأشجار والبيوت والأجزاء الصعبة الى رسم تخطيطي . أما مسز ويكسن فميري نفسها تستطيع أن تعزف مقطوعات أكثر منها . وهي فضلا عن هذا تبدى خجلا واضحا من بيوتها وأشجارها ، ولا تستطيع مع الاستعانة بسبابتها الملوثة التي يثك في نسبتها الشرعية الى ميدان الفن الا أن ترسم الدخان خارجا من المداخن .

وكانت المريية وتلميذتها تشتغلان بطائفة من « المواد » ، بيد أن المريية كانت تجل الكثير منها من أسبوع الى أسبوع ثم لا يصل الأمر الى تناول هذه الموضوعات مطلقا . وكان من مألوفها أن تقول :

— ستناول هذه المسألة في ترتيبها الطبيعي .

وكان ترتيبها للمسائل دائرة تضاهي في اتساعها كرة الأرض التي لم تجبها فلم تكن لديها روح المغامرة . وكان في مقدور الطفلة أن تبين بجلاء كم من الموضوعات كانت تفرق منها ، فتلوذ بأرض التخيل الصلطة التي يتخللها في الواقع نهر الحقيقة الأزرق بمجره المتعرج . وكانت تعرف

أكداً من الحكايات ، معظمها مستقاة من الروايات التي طالعها ، فكانت تقصها عليها بذاكرة لا يعترها الوهن وبشراء في التفاصيل يبعث البهجة في نفس ميري . وكانت كلها تدور حول الحب والجمال والكوتسات وخبث الطوية . أما حديثها في الواقع فكان سرداً لا ينتهي ، وبستاناً للسبح العاطفي مترامياً ، تكشف فيه فجأة مشاهد من حياتها الخاصة وينابيع ذافقة من الألفة المتبسطة . وكانت هذه الجوانب هي التي تظللان فيها التلكؤ ، فتجعل الطفلة تعيد معها كل خطوة من خطوات سيرها الأعرج . وهي تغاله شيئاً يفوق روعة السحر أو الضواري الخرافية . فاكسبت تلميذتها رؤية نابضة بالحياة لكل شخص وقع منه — على حد تعبيرها — انه ارتطم بها . وما كان أسمى ذلك من بعضهم . وكانت هذه الرؤية تشمل كل إنسان حرفياً اللهم الا زوجها مستر ويكس التي لم تذكره بشيء سوى أنه مات منذ أجيال ؛ فكان بعيداً بصورة واضحة عن مجرى حياة زوجته . ولم يحدث أنها أخذت ميري قط لزيارة قبره .

الفصل الخامس

لقد كان العراق الثاني للآفة أوفر مور شديد الوطأة حقا . ولكن هذا العراق الأول لمسز ويكس كان أشد منه وطأة بمراحل . وكانت الطفلة قد تردت في الفترة الأخيرة على طبيب الأسنان فصار لديها احساس تقارنه بما كان في مشهد ذلك العراق من توتر أليم . كان مشهدا مساكنا سكولا رهيبا ، كذلك السكون الذي ساد عند اقتلاع ضرسها . وكانت مسز ويكس قد قبضت في ذلك الحين على يدها وتشبثت كل منهما في اصرار جنوني على ألا تصرخا . وقد تحطت ميزى وهي عند طبيب الأسنان بسكينة بطولية . ولكن عندما بلغ قلقها غايته أحست بصرخة مسموعة تنطلق من جاب رفيقتها . وبانقباضة مشاركة عاطفية كظيمة . وقد تكرر ذلك بعد شهر ، فكان هذا هو الصوت الوحيد الذي شق عناقهما الأخير ، عندما قامت « التصوية » — كما كان اتزاعها الموسى يدعى — بدور الكلابة المروعة . أما وهي بعيدة النور في فطرة مسز ويكس كما كان ضرسها غائرا في لثتها ، فقد كان الأولى بعملية اتزاعها أن تحتاج في الحق الى مخدر . ولم يترك العناق لحسن الحظ شيئا يقال ، لأن افتقار المرأة للسكينة الى الكلمات في مثل الساعة كان مجانسا لافتقارها الى كل شيء . وكان والد ميزى واقفا في الدهليز الخارجى — فقد كان يجب سلاطة اختراق مثل ذلك المدى من عتبة دار زوجته السابقة — يطل عليهما وساعته منفرجة ، وابتسامته أشد اقراجا . وفي الوقت نفسه كانت الطفلة ترمق من طرف عينها فحسب — وهو الطرف الذى لم يكن شيئا من أشياء

مسز ويكس يخيم عليه — العربية المقفلة الواقعة بالباب ، وبداخلها الآلة أوفر مور في الانتظار أيضا . وتذكرت الفارق عندما انتزعت منذ ستة أشهر من أحضان تلك الراعية المتوقدة . فقد كانت الآنة أوفر مور واقفة حينئذ في الدهليز أيضا — ولكنه بالطبع الدهليز الآخر — وكانت مسوعة الصوت للغاية ذلقة اللسان وهي منطلقة بالاحتياج في بسالة معلنة أن شيئا ما — لم تدر تلميذتها ما هو بالضبط — أمر شديد الشين طافح بالشر . وقد أذكرها ذلك في حينه بصورة غامضة لحظة انفجار مودل البعيدة انفجارا هائلا . اذ يبدو أن ثمت دائما ألوانا من الأمور الشائنة ترتبط — بوجه أو بأخر — بدورات هجرتها . وقد تذكرت في اللحظة الراهنة — وذراعا مسز ويكس يشددان من ضمها اليها ، ورائحة شعرها القوية تفغها — كيف استخدم أبوها في تهدئة روع الآنة أوفر مور قوله لها — أيتها البطة العزيزة الأثيرة .

وهو تعبير التصق لغرابته بعقلها الفص . حيث وجد مستقرا مهينا له هناك لما كانت تعرفه عن المربية التي أمست الآن تميزها في ذهنها بوصف المليحة . وتساءلت ترى لم يزل الاعزاز عظيما كذى قبل . فذلك حرى على كل حال أن يتسق مع الملاحه التي كان في استطاعة ميري أن تراها مشعة من المعيا المطل في اشراقه من نافذة العربة .

وكانت العربة المقفلة آية تنبى عن الوفاق وعلى الظروف الرخية التي يسع أباه أن يوفرها لها هذه المرة . فقد كان من عادته قبل ذلك أن يأتي في طلبها مستقلا مركبة صغيرة ومن خلفها عربة ذات أربع عجلات لحمل الأمتعة . وكانت العربة ذات المجلات الأربع وفوقها الأمتعة قائمة هناك فعلا . ولكن « ملما » كانت هي السيدة الوحيدة التي تستقل تلك الوسيلة من وسائل التنقل من النوع الذي كانت « مودل » تطلق عليه دائما في

ذلك الوقت الغابر اسم المركبة الخاصة . ومركبة « بابا » — وقد صارت له الآن مركبة — أشد خصوصية على نحو ما من مركبة « ماما » . ولما ألفت نفسها أخيرا تسنمت — كما صور لها احساسها — نزلاء المركبة وهي تدرج أخيرا في طريقها في أبهة ؛ ووجهت الى الأنة أوفر مور (بعد ضمة أخرى حافلة بالكلام المنطلق) سؤالا كان الدافع اليه رغبتها في استطلاع الحقيقة بصدد استمرار عاطفة معينة :

— هل أحبك « بابا » كسابق العهد أثناء غيابي ؟

سألها هذا السؤال وهي ملوثة الحس بمدى ما كانت عليه حظوتها الملحوظة عنده من رسوخ أثناء وجودها . وقد عنّ لها أن هذه الحظوة — شأنها شأن حضورها وكأنما هي متوقعة على ذلك الحضور — ربما كانت متقطعة النوبات لا تدوم الا الفترة الموقوتة ، وانفجر أبوها — وهي مغممة ركبته — بأحدى ضحكاته العالية تلك التي كانت تبدو لها دائما — بالغا ما بلغ تأهبها — وكأنها خدعة في لعبة مخيفة تحملها على الوثب الى الأمام والقفز من موضعها . وقبل أن يتسنى للأنة أوفر مور أن تتكلم أجابها قائلا :

— عجا لأمرك أيتها الأتان الصغيرة . فماذا بقي لدى أشغل به

وأنت بعيدة عني سوى أن أنصرف الى حبها ؟

وعندئذ أخذتها الأنة أوفر مور منه على الفور . وحدثت عليها بينهما مناوشة صغيرة مرحة لمحت ميزى ما أثارته من الدهشة في النظرة المحملقة التي رشقتها بها سيده عجوز وعبرت بهما في عربة من العربات التي تسع لراكبين . ثم قالت لها صديقتها الحسناء بجد واهتمام .:

— سأفهم أنه ان عاد الى قول كلام فظيع كهذا مرة أخرى لك ؛

فسوف أحملك على الفور وأذهب بك لتعيش معا في مكان ما حياة فتاتين صغيرتين عاقلتين طبيبتين .

ولم تستطع الطفلة أن تفطن تماما الى ما جعل كلام أيبها فظيما ، ما دام هذا الكلام لم يتجاوز التعبير عن التقدير الذي كانت رفيقتها نفسها تصفه قديما بكلمة « هائل » . ورغبة منها في النفاذ الى حقيقة الموضوع توجهت اليه مرة أخرى بالكلام مباشرة وسألته هل كانت الأنسة أوفر مور طيلة تلك الشهور معه على نحو ما كانت من قبل وعلى نحو ما هي حرية الآن ، فصاح بيل فارانج :

— طبعا كانت كذلك أيتها الفتاة الأثيرة . فأين كانت العززة المسكينة حرية أن تكون مالم تكن معي ؟

وقد أثار هذا الرد استنكاراً أشد لدى رفيقتها ، فاحتجت متوعدة اياه مالم « يسحب » أكنوبته الخبيثة القذرة ، فلن تكفى هذه المرة بتركه وحده بل ستترك طفلة أيضاً بيته ومتاعبه المزعجة وسائر الأمور التي لا تطاق التي أفلح في القاءها على كاهلها . ولم يسحب بيل تحت هذا الوعيد الهزلي شيئا على الاطلاق . بل كان في الواقع واضحا أنه على وشك تكرير نزقه ، لولا أن الأنسة أوفر مور أصدرت أمرها الى تلميذتها الصغيرة ألا تصغى لمزاحه الرديء . وأن عليها أنه ليس لسيدة أن تقيم مع سيدة على هذا النحو من غير أن يكون ثمة سبب وجيه غاية الوجاهة . وتقلت ميزى نظرها بين مرافقيها . فقد كانت هذه أندى بداية استمتعت بها وأشدّها مرحا . بيد أن خوفا حيا اتابها ألا تصدقهما تمام التصديق ، فسألتهما في تفكر :

— وما السبب الذي يكون وجيها ؟

— فتاة لموب صاحبة طويلة الساقين كالنمسا . فما من سبب كهذا
السبب في وجاهته .

وكان أبوها مستمتعا بهزلها وهزله ، فحاول مرة أخرى أن يستولى
عليها ، فقبول هذا الجهد باستكثار من رفيقتهما ، وأدى ذلك كرة أخرى
الى شيء من التناوش العلني . وصرحت الأئمة أوفر مور للفتاة بأنها كانت
طيلة الوقت مع أصدقاء أفاضل ، فعلق بيل فارانج على ذلك بقوله :
— انها تعنى بذلك أفاضل عن أصدقائي أفا . أصدقاء رائعين من
أصحابي أنا . فقد كان ثمة عدد لا حصر له منهم . هذا شيء يسعنى أن
أقوله بالنيابة عنها ا

فاتابت ميزى الحيرة وظلت بعد ذلك شاعرة بغموض أورثها شيئا
طفيفا جدا من الحرج بصدد كل هذا المرح وبصدد المكان الذي كانت
مريثها مقيمة فيه حقيقة . ولم تحص أنها أبلغت بحقيقة الحال بصفة جدية .
ولم يبد لها شيء مما حدث بعد ذلك باحساس من هذا القبيل . وقد ارتبط
حرجها — وهو حرج مبعثه نضج غريزي مبكر — بفكرة مؤداها أن هذا
الموضوع من بين الموضوعات التي لم يكن لها — على حد تعبير أمها
المعتاد — أن تخوض فيها . ولذا لم تحاول وهي تحت سقف والدها في
المدة التي تلت ذلك أن تبدد الغموض الذي استشعره عن طريق التقرب
من خادمت البيت . ومن الغريب أن هذا الغموض نفسه لم ينتقص شيئا
في الحقيقة من البهجة المنعشة التي وعدت بها اذ تجدد اتصالها بالأئمة
أوفر مور . وكانت الشقة التي تطلعت اليها هذه السيدة الشابة من ذلك
الطراز الراقى الذي لا يزيده التفسير حسنا . ثم انها شخصيا على كل حال
فوق مستوى أى بليلة . ولم يكن التستر فضلا عن هذا أمرا يبدو
بالضرورة خداعا على الاطلاق في نظر ميزى . فقد نشأت وسط أمور كان

مبلغ معرفتها بها أنها لا ينبغي أن تسأل عنها إطلاقاً . فلم يكن جديداً عليها أن تكون أسئلة الصغار موضع تسلية خاصة للكبار . ففيما عدا دميتهما « ليزت » لم يكن ثمت تقريباً على شيء في بيت أمها تجد له تفسيراً يقال لها بأسلوب جاد . فلم يكن أسر عليها من أن تبعث السيدات المجتمعات هناك على إطلاق الصرخات الضاحكة . وكانت حريئة أن تمارس فيهن هذه القدرة لو ألهما كانت أشد ميلاً إلى تدبير الخطط في سلوكها . فكل شيء وراءه شيء آخر . فكانت الحياة أشبه بدهليز مسرف في الطول على جانبيه صفان من الأبواب المفلقة . وقد تعلمت أن الحكمة تقتضي ألا تفرع هذه الأبواب ؛ ففرعها يبدو أنه يبعث مما بداخلها أصوات الاستهزاء . ومع هذا فقد استطاعت أن تفهم المزيد شيئاً فشيئاً ، لذا اتفق لها أن تحظى بتوضيحات عن طريق أسئلة « ليزت » ، تلك الأسئلة التي كانت تحدث من الأثر ما تعدته أسئلتها الشخصية لدى أولئك اللواتي تجلس لهن في مثل جهالة « ليزت » تماماً . ألم تكن هي نفسها تهتز لمثل هذه البراعة ؟ ما أكثر ما كانت تحاكي السيدات في صراخهن . وكانت ثمت على كل حال أشياء لا تستطيع في الحقيقة أن تقولها حتى لدمية فرنسية . فلم يكن يوسعها إلا أن تنشئ إلى دروسها وتذكرها لتدخل في روع « ليزت » أن في حياتها أسراراً ، وهي تساءل في الوقت نفسه أتراها أفلحت في اتخاذ أسلوب التعمية مثل أمها . فلما أعقب سلطان الأنسة أوفر مور سلطان مسز ويكس اتخذت لنفسها خطة جديدة ، فراحت تجارى مريبتها وتحتال على اجتياز تلك الفترة باظهار التوقع الساذج للثقة من جانبها . أجل كانت هناك أمور لا يسع المرء أن يخوض فيها مع تلميذته . وكانت تجيء أيام مثلاً ترقبها فيها « ليزت » بعد غيبة طويلة وهي تتضو عنها ثيابها ، وتطول جاهدة أن تكتشف أين كانت . وكانت تكتشف بعض

الأمر ، ولكنها لم تكتشف قط كل شيء . وحدث ذلك مرة حين زاد فضولها بشكل ملحوظ أن ردت عليه « ميري » — وكان السؤال خاصا بالتحديد بالباعث على اختفائها — بمثل ما ردت به مسز فارالغ ذات مرة على ميري نفسها :

— استيني ذلك بنفسك ؟

وقللت حدة أمها . الا أنها شعرت بخجل واضح بعد ذلك . وان لم يكن من الواضح هل كان خجلها لما أظهرته من الحدة أو لما أقدمت عليه من التقليد ..

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل السادس

وبعضى الوقت أدركت أن هذه الفترة ما كانت لتشرق بما تتلقاه فيها من الدروس ، وقد أصبحت العناية بتعليمها واجبا واحدا فحسب من الواجبات الكثيرة التى أقيت على عاتق الآنسة أوفر مور وهو تغير شهدته بصدده مناقشات كثيرة بين تلك السيدة ووالدها . وهى مناقشات تدل من كلا الجانبين على خلاف فى وجهات النظر . بل وعلى استياء . فاستخلصت من هذه المشاهد أن فى الموقف شيئا ما يخول لأمها أن « تحى » عليهم جميعا . وان كانت هذه الملحوظة ترد دائما على لسان الأب تقابل فى واقع الأمر من جانب رفيقته بالمناقضة الصريحة . وكان النزاع يصل الى ذروته اذ تساءل الآنسة أوفر مور — فى فظاظة لا تبدي مثلها فى صدد أى موضوع آخر — عن الموقف الذى عسى أن تجسد امرأة مثل مسز فارانج نفسها فيه اذ تحى عليهم . وازدادت تأويلات الفتاة الصغيرة غزارة مع تعاقب الشهور . وقد مكن لها من ذلك أن هذه الفترة كانت أطول فترة اقامة متصلة عرضت لها . وألقت الاعتقاد بأن أمها لسبب ما — لم تكن فى عجلة من أمرها كى تستردها . وكان أبوها يجد نفسه مضطرا للاعراب عن هذه الفكرة كلما ضيقت عليه الآنسة أوفر مور الخناق — وهى تخالفه الرأى فى تصميم — فى صدد موضوع ارسالها عاجلا الى المدرسة ؛ وكان أبوها يلجح فى ضرورة ذلك الاجراء . وكانت الآنسة أوفر مور تخالفه الرأى بصورة يدهشها أن تصدر من مربية . فهى تربى فى ذلك كثيرا على ما يمكن أن يخطر برأس مسز ويكس

المنكس . وكثيرا ما كانت تصرح لميزى بما تستشعره من تقصيرها في حقها . وأن مستر فارانج يدرك ذلك ويأسى على هذا النقص . ومرجع ذلك أنها تهض بمسئوليات غامضة تعوقها عن ايفائها حقها . وكانت الآنة أوفر مور تعزو هذه المسئوليات الى مستر فارانج نفسه والى البيت الصغير الصاخب المضياف ومن يتوافدون عليه . وكان العلاج الذى يصفه مستر فارانج لكل هذه المنغصات هو وجوب ادخال الطفلة المدرسة . وكان ثمة كما يعلم الجميع مدارس كثيرة راقية في برايلون في المنطقة كلها . وعلمت ميزى أن هذا بالذات من شأنه أن يثير ثائرة أمها : لأنه منذ اللحظة التى يعهد فيها الى الآخرين ابواء الصغيرة لن يكون له في موقفه سند واحد أمام القانون . أوليس قد أبعدنا عن أمها لشيء . الا لأن مسز فارانج واحدة من أولئك الآخرين ؟

وكان ثمة حل آخر هو استخدام مربية ثانية شابة تأتى لتقضى معها النهار وتقوم باللعبه كله . الا أن الآنة أوفر مور لم تشأ أن تصنى لهذا الرأى لحظة واحدة ، محتجة على ذلك بصورة علنية سائلة كل من تلقاهم — بل انها وجهت السؤال الى ميزى نفسها — أهلا يرون كيف يؤدى ذلك الى هتك مرها :

— ألا ترون أنه ليس مفروضا في أن أكون هنا بأى حال من الأحوال مالم يكن ذلك للاشراف عليها ؟

فوضعها شاذ ، وهى تسترعى الأنظار بأعلى صوتها غير مقتصدة الى ما في موقفها من شذوذ حتى كاد ذلك يمسى مصدرا للفضح .. وكان المخرج الصحيح بالطبع أن تنصرف لأداء واجبها الواضح . بيد أن ذلك للأسف ما كان يعوقها عنه بأفانيتها التى تلاحقها بمطالبه المسرفة المتطرفة ، الأمر الذى يبدو أن كل انسان كان يدركه تمام الادراك . ولم يصبح ييل

فارانج بالنسبة للآنسة أوفر مور في ذلك الوقت سوى « هو » ، وكان البيت ملووا كالعادة بالسادة أهل العصور والرهج ، فكانت تحدثهم عنه هازلة فتذكره دائما بهذا الرمز . وكانت ميزى في غضون هذه الأحاديث موضوعا للثرثرة المألوفة فيما عسى أن يصنع بها ، فكانت ترك وشأنها أوقات كثيرة ، فسنحت لها ساعات من التفكير القلق في النظام القضاة الطلق على عهد مسز ويكس . لكنها مع ذلك كانت تشعر تحت سقف أبيها بعنصر امتياز لأن زائره لم يكن بينهم سيدات . وقد عزز من هذه الطمأنينة الغريبة أنها سمعت ذات مرة سيدا يقول لأبيها — كأنما الأمر مزحة هائلة — وهو بداهة الى الآنسة أوفر مور :

— لأشئقن قسى ان هى سمعت لامرأة أخرى أن تدنو منك . قسى حرة أن ترميها بعصا كما يفعل الناس بالقطط الغريبة ا

وكانت ميزى تفضل مخالطة الرجال كثيرا ، مع أن لهم أسلوبهم أيضا في الضحك منها . فضحكهم أعلى من ضحك السيدات لكنه أقصر مدى . ثم هم يجذبونها ويقرصونها ويفيظونها ويدغدغونها . بل ان بعضهم كانوا — على حد تعبيرها — يرشقونها بالأشياء . وكانوا كلهم يجدون فكاهتهم في نداءها بأسماء لا وجه للشبه بينها وبين اسمها . وكانت السيدات في المعسكر الآخر ينادينها دائما « أنت أيتها المدللة المسكينة » وقلما كن يلمسها أو يقبلنها . الا أنها كانت من السيدات أخوف .

وها هى ذى قد بلغت الآن من العمر ما يؤهلها لادراك ما اتاب فترة اقامتها حتى الآن لدى أبيها من امتداد جاوز الحد . ويؤهلها أيضا للدخول شيئا ما في ذلك الغموض الذى يكتنف ذلك الامتداد المسرف . وكان ذلك يثقل عليها بوجه خاص كلما أثيرت هذه المسألة في حديثها مع مريبتها .

وما أكثر ما كانت الآنسة أوفر مور تقول لها عند الاثارة الى خوفها من استياء أمها لهذا الاستبقاء المتطاوول :

— لا حاجة بك الى القلق : فهي لا تبالي . فلديها أناس آخرون تفكر في أمرهم سوى شخصك الصغير المسكين ، وقد سافرت معهم الى الخارج . فليمت بك حاجة الى أدنى الخوف هذه المرة من تشبثها بحقوقها .

وكانت ميوزى قد عرفت بسفر مسز فارانج الى الخارج من قبل ، لأنها تلتقت منها قبل ذلك بأسابيع وأسابيع خطابا بدأته بقولها : « يا مدلتى الغالية » وفيه ودعتها لفترة غير محدودة . ولكنها لم تبين فيه نبذاً أو كراهية أو شيئاً من سياسة الكاتبة في تأكيد ذاتها ، لأن أشد انطباعاتها عنفاً هو ما كالت تراه من أن أمها لا تهتم بشيء اهتمامها بتعذيب مستر فارانج . فما كان يحيرها في هذه المناسبة ويفزعها بعض الشيء هو بزوغ شك لديها في أن أمها وجدت طريقة لتعذيب مستر فارانج أنجع من حرمانه من عبثه الدورى . وهذا ما أقلق بال سيدتنا الصغيرة قلقاً زاد من غموضه ما كانت تفضى به الآنسة أوفر مور من تصريحات وملاحظات كثيرة على مخدموها . وثمة تناقض بين ما يجول بذهنها من ميل ايذا الى التخلي عن الحقوق التى أبدت في أول الأمر حماسة شديدة في التثبث بها كى تحول بين زوجها السابق واحتكار الوصاية ، تلك الوصاية التى ناضل باستماتة أمام محكمة أول درجة للاستئثار بها . ولكن كلما أقدمت ميوزى في كياسة تفوق سنها على تحصن هذا الأساس الجديد لم تظفر بأكثر من سماع الشنائم تنهال على أمها بعزيرد من الحدة . وكانت الآنسة أوفر مور نادرا ما حادت عن التحفظ المحتشم حتى الآن . ثم جاء اليوم الذى عبرت فيه عن رأيها في حدة لا تقل عن حدة بيل نفسه ، في موضوع

تلك السيدة التي هربت الى القارة لتخلص من مسئوليتها تملصا وضيعا :
وفهمت ميزى أن هذه السيدة تستحق جزاءها الوفاق على صورة ابنة
ثبت عن الطوق تشحن على ظهر السفينة في ثيابها الهزيلة بحيث توضع
تحت قدميها وهي غارقة في تبذلها الفاضح .

وكانت صورة هذه الملاحقات هي الملاذ الذي تلجأ اليه الآنة أوفر
مور حينما تحاول الطفلة على استحياء أن تتأكد ان كان والدها يحسن
بالضيق لطول بقائها عنده ، فتروغ من الجواب وتثير حول المسألة غبار
الحديث عن قسوة قلب ايدا وطيشها . ويبدو أن الدليل الأكبر على ذلك
هو اصطحابها في رحلتها سيدا تنعت في وضوح مؤلم بأنها « تصيدته » .
والأساس الوحيد على حد تعبير الآنة أوفر مور — الذي يجيز
لل سيدات والرجال — مالم يكونوا متزوجين — أن يجوبوا الآفاق معها
هو الأساس الذي عرضت نفسها هي ومستر فارانج لأمكان اساءة
تصوره . وكانت كثيرا ما شرحت ذلك من قبل بقولها لميزى :

— لست أدري أنا وأبوك يا عزيزتى ماذا كان بوسعنا أن نصنع
بدونك .. لأن وجودك هو الفيصل الذي يحفظ لنا كما قلت لك سم
اللياقة .

وتقبلت الطفلة المهمة التي أسندت اليها في اعزاز وشعرت بالراحة
شعورا أعانها على الاحساس بالأمان في مواجهة تخلى أمها عنها . ومع
ألفتها لما يقابل معنى اللياقة الا أنها شعرت لدى مريبتها وأبيها بدافع قوى
يمنعها من مقاومة ذلك الفصم الحاسم . وكانت قد سمعت في الوقت
نفسه بفتيات صغيرات — من ذوات المكانة العالية حقيقة — يقوم على
تعليمهم مثقفون من الجنس الآخر . وأحست أنها ان ذهبت الى المدرسة
في برايتون سيكون من حظها أن يتعهدا المعلمون بصورة ما . فقبلت

هذه الأمور في ذهنها ثم قالت للآنسة أوفر مور إنها ان ذهبت لدى أمها
فلعل السيد يصبح مثقفا لها .

— السيد ؟

وكانت الفكرة من التعقيد بحيث جعلت الآنسة أوفر مور تحمق .
— السيد الذي مع « ماما » . أفلا يجوز أن يكون ذلك سببا في جعل
الموقف سليما . مثلما يجعل كونك مريتي بقاءك مع أبي سليما ؟
وفكرت الآنسة أوفر مور ، ثم تورد لونها قليلا وعاشت صديقتها
البارعة وقالت لها :

— ما أطفك . ولكني مريية حقيقية .

— أوليس في استطاعته أن يكون مثقفا حقيقيا ؟

— كلا بالطبع فهو جاهل وريء .

فردت ميري في دهشة :

— رديء .. ؟

فضحكت رفيقتها ضحكة يسيرة غريبة من لهجتها ولم تزد على قولها :

— انه أصفر سنا بكثير جدا ..

— أصفر سنا منك ؟

فضحكت الآنسة أوفر مور مرة أخرى . وكانت هذه أول مرة تراها

ميري تكاد تفهقه . ثم استطرقت في منطق غير مترابط :

— أصفر سنا من .. لا يعني ممن . فأنا لا أعرف عنه شيئا ولا أريد

أن أعرف . فهو ليس من طرازي . وأنا واقفة يا عزيزتي انه ليس زمن
طرازك .

ثم كررت تلك المداعبة السخية التي تفضي إليها على الدوام تقريبا
مجادلاتها مع ميري ، وهي مداعبة تشعر الطفلة أن محبتها ضمان على الأقل

للأمان فقد انتهى الأمر بالوالدين الى خفاء أمرهما . أما المزيات فقد أثبتن جدارتهن بالثقة . فإيمان ميزى بسز ويكس لم يوهن منه أن كل اتصال بها قد توقف مؤقتا . وكانت والدته كلارا ماتلدا قد كتبت اليها في الأسابيع الأولى من فراقهما رسائل متتالية تفيض أسى . وكانت ميزى ترد عليها في حماسة لا تجد منها الا شكوكا في صواب هجاء الكلمات . بيد أن التراسل خضع في أوانه لاشراف الآلة أوفر مور مما لحدي الى صدور قرار أخير بعدم رضاها عنه . وكان رأى هذه السيلة أن مستر فارانج لا يرضى عن هذا التراسل اطلاقا . ثم اتهمت الى الاعتراف تحت ضغط تلميذتها أنها شخصيا لا ترضى عنه . وقالت انها شديدة الغيرة . وان هذا الضعف دليل جديد على تعلقها بالنزبه بها . ونعتت رسائل مسز ويكس الضافية بالامية وعدم الجدوى . ولم تتورع عن التصريح بأن امرأة تملك زمام عقلها ترتكب خطأ فظيحا اذ تعهد بتكوين عقل ابنتها الى مثل هذه المخلوقة السخيفة . وكانت ميزى تدرك تماما أن صاحبة الرداء البني العتيق وكسوة الرأس الغربية العتيقة أقل في المستوى الدرامى من الآنسة أوفر مور . ولكنها الآن أفهمت بجلاء وبصورة مؤلمة أنها لا تصلح للتعليم اطلاقا . فلذغت في الوقت الحاضر تحت حكم قاطع أصلره تقادها :

— انها حقيقة مزحة تجاوزت كل حد ا

وقد قيلت هذه العبارة الأخيرة وتلك المرأة الفاتنة تمسك في يدها بآخر خطاب كتب لميزى أن تتلقاه ومن مسز ويكس . وعززت بقرار يقضى على هذه الصلة غير المعقولة بالاعدام . فسألت الطالمة في حيرة وقد اكبهرت لبشاعة ما وجلت نفسها مرغبة على قوله :

— ألا ينبغى أن أكتب اليها لأخبرها بذلك ؟

فصاحت الآنسة أوفر مور :

— لا تحلمى بهذا يا عزيزتى . ساكتب أنا اليها . ولك أن تثقى بى .
وبالفعل كتبت اليها بحيث نزل على مسز ويكس المسكينة صمت
كنت تسمع فيه صوت سقوط الابرّة . واقضت أساييع وأساييع من غير
أن تبدر منها بادرة تدل على الحياة . فكأنما قضت رسالة الآنسة أوفر
مور عليها مثلما قضت المركبة الفظيعة على ابنتها فى طريق هاو . وغدا
هذا الصمت بعد ذلك من أهم عناصر وجدان ميسى ، اذ أتاح جوا دافئا
بأنوسا أوغلت فيه الطفلة الى أبعد مما تجاسرت على ذكره لرفيقها . وفى
أعماقه كانت ترى المثبات المتعبة مسلطة عليها . وفى مكان ما — بعيدا عن
التيار الصغير المضطرب — كانت مسز ويكس تبتظرها فى توتر .

الفصل السابع

وسا يتفق وهذا التوتير أن ميزى عند عودتها ذات يوم من نزهة على الأقدام مع الخادمة وجدتها في البهو جالسة على مقعد بغير ظهر يشغله عادة سعاة البرق الذين يرودون باب بيل فارانج ويضطرون لازجاء الفراغ الى أن ينتهى في حجرته من صياغة ردوده على رسائلهم مستمعين بنفثات البخان والزمجرة . . . وكان قد خيل اليها عند افتراقها أن مسز ويكس بلغت أقصى حدود الاعتصار ، فإذا بها الآن تشعر بها وقد تجاوزت تلك الحدود بحيث كانت للذة التي استفرقتها احتضان زائرتها لها ردا مباشرا على اعتراض الآنسة أوفر مور . . . وفهمت في ومضة واحدة كيف أمكن هذه الزيارة أن تتم . فمسز ويكس لا بد أنها — وهي التي ترقب فرصتها — تسلبت في حياية ما تعلمه من أن أيلها — وهو الذي ظل يعاني على الرغم من المجادلات بخصوص موضوع المدرسة — قد أصر في غضون رحلة مدتها ثلاثة أيام في برايتون على حضور خصمها . والحق أن ميزى عندما شرحت لها غيابها والدافع الهام لهما على ذلك الغياب اكسى وجه مسز ويكس تعبيراً غريباً جداً لا بد أن مصدره هو الدهشة . بيد أن هذا التناقض ما ان ظهر حتى تلاشى ؛ لأنها في اللحظة التي إرتمت فيها مرة أخرى على صديقتها الصغيرة تحت تأثير ما سمعته اذا بمرية مكلفة بالأمتمعة الأنيقة تدرج حتى الباب وتقفز منها الآنسة أوفر مور . وكانت صلحة التقائها بـمسز ويكس أقل عنفا مما خشيت ميزى من حدوثه عندما تراها . ولم تتدخل اطلاقاً باللهجة الودية التي شرحت بها تحت

أنظار منافستها كيف أنها عادت لسبب خاص قبل الموعد الذي حددته لعودتها يوم واحد . وأنها تركت أباهما في مسكن أليق ببرايتون ولكنه سيعود الى بيته الصغير العزيز في اليوم التالي . أما بخصوص مسز ويكس فقد زودت مرافقة « بابا » ميري في حديث جرى بينهما فيما بعد للكلمة الصائبة في وصف موقف تلك الشخصية ، وهو أن مسز ويكس وقفت لها بصورة شمرت الطفلة تصها في ذلك الحين بالمعجب منها . وقد حدث ذلك في الواقع بعد أن أبدت الآلة أوفر مور اعتراضها على الانتقال الى حجرة المائلة ؛ وحيث انه لم تصدر أى دعوة للجلوس لم يكن الوقوف الا أمرا طبيعيا حتى بالنسبة لمسز ويكس المكينة . واستمرت ميري على التور عن موضوع ذهابها الى المدرسة في برايتون وهل تمخض عن جديد في هذه المرة . وكم كانت دهشتها اذ أجابتها الآلة أوفر مور التي كان من دأبها أن تقاوم هذه الفكرة أشد المقاومة — وكان مسز ويكس غير موجودة :

— ربما تمخض الأمر عن شيء يا عزيزتى . اذ ينبغي أن أخبرك ان العقبة قد أزيلت تماما من الطريق .

وكان أدعى لدهشتها أن تسمع مسز ويكس عندئذ تعرب عن رأيها بحزم كبير :

— لا أظن ان سمحت لى أن أقول هذا — انه من الممكن أن يكون ثمة أى تدبير كفيل أن « يزيل » العقبة . فما جاء بى الى هنا اليوم الا أننى أحصل رسالة لميزى من العزيزة مسز فارانج .
فخفق قلب الطفلة خفقة عظيمة وقالت :

— هل عادت « ماما » ؟

فقالت مسز ويكس :

— لم تعد بعد يا حبيبتى الخطوة . ولكنها عائدة . وقد أرسلتني
— وهذا اهتمام كبير من جانبها كما تعلمين — اليك كي أمهد ذهنك .
، فسألته الآنسة أوفر مور قد بدأت نعومتها الأولى في التقلص تحت
تأثير هذا النبا :

— لتهدى ذهنها لأي شيء من فضلك ؟
فسلطت مسز ويكس مثبتاتها على جمال الآنسة أوفر مور المتوهج
من فرط الاحمرار :

— حسنا يا آنسة — أمهد ذهنها لتبليغ هام جدا .
فسألته السيدة للشابة :

— أليس في استطاعة العزيزة مسز فارانج — كما سميتها أنت تلك
التسمية الغريبة — أن تقوم بذلك التبليغ بصورة مباشرة ؟ أليس في
وسعها أن تتجشم الكتابة الي ابنتها الوحيدة ؟ ان في وسع ميزى قسما
أن تخبرك باقضاء شهور وشهور منذ تلت آخر كلمة من لديها .
فصاحت الطفلة كأنما هذا يمكن أن ينهض عوضا عن ذلك :

— أوه . ولكنني من جانبي كنت أكتب الي « ماما » ا
فصاحت المريية المتولية أمرها معلنة رأيها :
— وهذا من شأنه أن يزيد معاملتها لك شيئا .
فقالت مسز ويكس في تمكن مما تقول :

— ان مسز فارانج تترك غاية الادراك ما ينتهي اليه مصير خطاباتها
في هذا البيت .

وعندئذ تدخل ما لدى ميزى من حس الانصاف لنصرة زائرتها :
— أنت تعلمين يا آنسة أوفر مور أن « بابا » لا يحب شيئا يست
بصلة لماما .

فقلت الآنسة أوفر مور :

— ما من أحد يا عزيزتي يجب أن يكون هدفا لتلك اللغة التي تتضمنها
خطابات أمك .

وقالت لمز ويكس :

— لم يكن من اللائق أن ترى الطفلة البريئة هذه الخطابات .
— اذن لست أدرى مم تشكين وأنت ترين من الأفضل لها ألا تلتقاها .
وانه لما يتفق وجميع الأغراض أن آكون موضع ثقة لمز فارانج .
فأرسلت الآنسة أوفر مور ضحكة هازئة :

— اذن لا بد أن تكوني مخالطة لجانب من التصرفات الشاذة !

فصاحت لمز ويكس وقد امتقع وجهها امتقاغا شديدا :

— انها ليست من الغرابة كالنفوس بأشياء فطبيعة عن الأم في مواجهة
ابنتها التي لا حول لها !

فأجابتها الآنسة أوفر مور :

— ولكنها أمور ليست أفظع اطلاقا فيما أعتقد من تلك التي يبدو

يا سيدتي أنك جئت لتقولها عن الأب !

ونظرت لمز ويكس برهة صوب ميزى نظرة قوية ثم التفتت ثانية

صوب تلك الشاهدة وقالت بصوت مرتجف :

— لم آت لأقول شيئا عنه . وينبغي أن تغفري لمز فارانج ولي أتنا

لا نبارى في سمونا فوق الملام رفيقته في أسفاره ..

وحملت المرأة الشابة الموصوفة بهذه العبارة مأخوذة بذلك النعت

العريض . واقتضى الأمر منها لحظة كي تستوعبه . ومع هذا لاحظت ميزى

— وهي تنظر بجد من إحدى المتلاحيين الى الأخرى — أن الرد انفرجت

عنه في حينه شفتان باسمتان :

— قد يكون من المناسب كذلك ولا شك أن نتحدث عن مؤهلات
مرافق مسز فارانج ا

فانهجرت مسز ويكس في ضحكة غريبة خيل لميزى أنها محاكاة غير
موفقة للصهيل وقالت :

— هذا بالضبط ما جئت هنا لاعلانه — فما أبرع السيدة المسكينة
في التعرف على ذلك بنفسها .

ثم رفعت رأسها وخاطبت الطملة قائلة :

— ينبغى أن تتلقى رسالة أمك يا ميزى . وينبغى أن تشعرى بما تدل
عليه رغبتها الى فى الحضور اليك حاملة هذه الرسالة على هذا النحو من
اهتمامها ومحبتها . وهى تبث اليك بحبها الفائق وتعلن اليك خطبتها
الى السيد « كلود » .

فرددت ميزى الاسم متعجبة :

— السيد كلود ؟

ولكن بينما كانت مسز ويكس توضح لها أن ذلك السيد صديق
عزيز لمسز فارانج قدم لها عوناً كبيراً فى الوصول الى فلورنسا وتوفير
الراحة لها فى اقامتها هناك مدة الشتاء ؛ لم يصددها صلدة عنيفة أن تلمح
سرور صديقتها القديمة بتأثير هذا النبأ على الآنسة أوفر مور ، فقد
فتحت السيدة الشابة عينيها على سعتها ، وأبدت على الفور تعليقها بأن
مسز فارانج سيضع بالطبع حداً لى مطالبة من جانبها فى المستقبل لاسترداد
ابنتها . فسألته مسز ويكس بدهشة لماذا يكون الأمر بها على هذه
الصورة : فعلت لها الآنسة أوفر مور المسألة على الفور بأن الأمر كله
لا يعلو أن يكون حيلة أخرى فى سلسلة الحيل ، فهى تريد أن تتخلص
من الاتفاق المعقود . والا فلماذا تركت الآن ميزى على عاتق أيها أساييع

وأسيب بعد اقضاء المدة التي كان من دأبها في البداية أن تحدث حولها ضجة هائلة ؟ وذهبت عبثا محاولات مسز ويكس للتأكيد بأن كل هذا الوقت سيتم تداركه بمجرد عودة مسز فارانج . فالآنسة أوفر مور وإن كانت لا تعرف شيئا — والله الحمد — عن حليفتها الا أنها واثقة تمام الثقة بأن أى شخص قمين بانشاء مثل تلك العلاقة مع السيدة الموجودة في فلورنسا حريء أن يوافق بسهولة على المعارضة في وجود ثمة ارتباط سابق تحت سقف بيته ، ذلك الارتباط الذى ينبغى أن يتجاهله رعاية لكرامته . فهي لعبة كغيرها من الألاعيب . وزيارة مسز ويكس من الواضح أنها أول حركة فيها . ووجدت ميزى في هذا التبادل للعبارات الجارحة استفزازا جديداً للقدرية المبهمة التي لاذت بها منذ زمن طويل احساساتها في صدد مصيرها . وهي فاتحة لنذير أعمق بأنها — على الرغم من توقة قريحة الآنسة أوفر مور واقفال مسز ويكس — ستشهد تغيرا في طبيعة الصراع الذى يبدو أنها أتت الى الدنيا لتثيره . ومن الحتم اللزام أن يكون ما ستشهده صراعا أيضا ، الا أن هدفه هذه المرة سيكون التنصل منها .

ووجهت مسز ويكس على اثر عبارة الآنسة أوفر مور الأخيرة الى الفتاة الصغيرة وحدها ، وأخرجت من جيب كسائها الخارجى العتيق القدر لفافة صغيرة مسطحة نزع عنها غلافها وأبدت رغبتها في أن تعرف هل يبدو « هذا الشكل » سيذا لا ينتظر أن يكون لطيفا مع كل انسان ، ودعى عنك انسانا ما أحراه أن يكون واثقا من لطفه الشديد . وكانت مسز فارانج في سذاجة سعادتها المستحدثة قد أرسلت داخل الغلاف اطارا به صورة شمسية مما يستخدم في زينة المكاتب تمثل السير كلود ، واستغرقت ميزى في الاعجاب بالوجه الأشقر الناعم والملامح المنتظمة والعينين

الرققتين والظل والخفيف والمللثة العامة والأناقة التي يتمتع بها زوج أمها المنتظر . وان كانت قد أحست بحيرة غامضة اذ تجد نفسها الآن ذات أبوين في وقت واحد . وكانت حتى ذلك الحين تدل على أن الاصابة بأب أو أم من جنس معين للمرة الثانية يجب أن يسبقها في العادة فقدان من سيحل محله . وسألها مسز ويكس التي كانت اعتمادا على قوة سحر صورته قد أقنعت نفسها بأن السير كلود وعدها بمستقبل مستقر :

— أليس جذابا ؟ انى لأرجو أن تكونى قد تبينت أنه سيد مهذب

الى حد الكمال !

ولم تكن موزى قد سمعت قط من قبل كلمة « جذاب » في وصف محيا أى انسان ، فوق سماعها وقعا مستجبا لديها ، ومنذ تلك اللحظة لصقت بذهنها . وبرهنت على قوة ادراكها اذ أرسلت زفرة يسيرة ناعمة استجابة للعنين اللطيفتين اللتين كأنهما تنشدان التعرف اليها ومخاطبتها بصورة مباشرة ، ثم أعلنت لمسز ويكس رأيا قائلة :

— حقا . انه ظريف !

ولما واصل السير كلود رغبته في التآخى وهى لم تزل ممسكة بالصورة انفجرت تقول في لهفة لا سبيل الى كبجها :

— أوه . ألا أستطيع أن أحتفظ بها ؟

وما ان قالت ذلك حتى رفعت بصرها عن الصورة الى الآنسة أوفر مور متوجهة بتوسل غريزى مفاجيء الى السلطة التي فرضت عليها منذ زمن طويل ألا تطلب شيئا من أحد فأدهشها أن ترى الآنسة أوفر مور تبدو شاردة مترددة مما سمح لها بالالتفات مرة أخرى صوب مسز ويكس . فرأت موزى وجه هذه السيدة الطويل يزداد طولاً ويبدو عليه الذهول الى حد يقارب الفرع ، كأنما صديقتها الصغيرة تطلب منها شيئا يفوق

ما تستطيع أن تعطيه . وكانت الصورة الفوتوغرافية قد عريت من غلافها بين يديها المتشبثين بها . فمرت لحظة صراع رهيب بين ذلك التشبث الواثق وبين استعدادها لكل تضحية في سبيل تلميذتها المقلقة . وأدركت ميزى أن افتتانها بالصورة سيكتب له النصر ، فرفعتها الى الآنسة أوفر مور كأنما هي فخورة بأمها ، وسألته في حين راحت مسز ويكس المسكينة تتناوح مسلطة مثبتاتها على الصورة وهي تستجمع رداءها الطويل حول جسدها بشدة أرهقت خيوطه العتيقة :

— أليس ظريفا للغاية ؟

وقالت الزائرة :

— الى أنا يا عزيزتى أرسلت أمك بمنتهى الكرم هذه الصورة . ولكن بطبيعة الحال اذا كانت مستيح لك سرورا خاصا ..

وكانت تلغشم وهي تعرب عن تنازلها لاهثة . وظلت الآنسة أوفر مور نائية بذهنها كل النأى وهي تقول :

— ان كانت هذه الصورة ملكا لك يا عزيزتى فسوف يسعدنى أن أرضيك بالنظر اليها في مناسبة قادمة . ولكن يجب أن تعذرني اذ أرفض أن ألس شيئا يخص مسز ويكس .

وفي هذه المرة احمر وجه هذه السيدة احمرارا شديدا وردت عليها قائلة :

— من الخير لك أن تربه بهذه الطريقة يا آنسة لألك يقينا فيما أعتقد لن تربه بطريقة أخرى . وأنت يا عزيزتى الغالية لك أن تحتفظى بالصورة الجميلة على كل حال . فالسير كلود سيسعده شخصا أن يعطينى صورة أخرى وعليها كلمة اهداء رقيقة .

ولم يذهب وقع هذا التفاخر الباسل الذى قيل بصوت مؤثر متقطع

سدى لدى ميزى التى ألتت بنفسها فى عرفان كبير للصنيع على عنق محدثتها ، بحيث شعرت عندما انتهى عناقهما أن ذلك الحنان العلى عوضها عن تضحيتها . وكأنت رفيقتها قد وجدت فسحة من الوقت لتستولى على السير كلود بسرعة . وسواء ألتت عليه نظرة أولا ، أخفته ببراعة عن الأنظار . ولما تخلصت مسز ويكس من ذراعى الطفلة بحثت بعينها عن الصورة ثم رشقت الآنسة أوفر مور بتحديد قاس ، وأخيرا حولت نظرها الى الفتاة الصغيرة مرة أخرى وافتر فيها عن أشد الابتسامات عبوسا وقالت :

— ليس لشيء أهمية يا ميزى لأن والدتك كتبت الى فى موضوع آخر أتمنتنى عليه .

وحتى بعد عناقها المخلص شعرت ميزى بشيء من حقارة التسلسل وهى تنظر صوب الآنسة أوفر مور تستأذنها فى فهم هذا الكلام . ولكن مسز ويكس لم تتركها فى شك مما تعنيه :

— فقد ألتقتى بخدمتها بصورة حاسمة تمهيدا لعودتها وعودتك . وعندئذ سترينه بنفسك .

واعتقلت ميزى على الفور أنها ستستطيع ذلك . بيد أن ذلك الأمل اتابه الاضطراب فجأة بهجوم غريب من جانب الآنسة أوفر مور . اذ قالت هذه السيدة الشابة :

— لدى مسز ويكس سبب غير معروف يدعوها الى اعتبار سلطان والدتك عليك وقد اشدت بأسه بازماعها الزواج . وانى لأتساءل اذن ماذا عسى أن تقول زائرتنا — على هذا الأساس — فى صدد زواج أبيك .

وكانت كلمات الآنسة أوفر مور موجهة الى تلميذتها ، بيد أن وجهها -- الذى أشرق بالتهكم فازداد جمالا على جماله — كان فى اتجاه المرأة

ذات الثوب الزرى التى كالت قد شدت قامتها تأهباً للرحيل . وكان نظام تأديب الفتاة يورثها الحيرة ، لأنه نظام يتأرجح تأرجحاً واسع المدى بين الإيعاز إليها ووجوب الرد حين يوجه إليها الكلام وبين التجربة الحافلة بالعقوبات القاسية حين تستجيب لهذا الإيعاز . ولكنها فى هذه المرة شعرت بالجرأة على المجازفة ، وخصوصاً أن احساسها الباطن حدثها بالحذر من العلاقات بين الأمور . فنظرت إلى الأئمة أوفر مور على نحو ما تنظر إلى الأشخاص الذين يمازحونها مازحة الكبار .

— أتعنين بذلك سلطان أبى على .. أتعنين أنه « يزمع الزواج ؟ » .

— أبوك ليس مزماً أن يتزوج . بل إن أباك « قد » تزوج يا عزيزتى .
تزوج أول أمس فى برايتون .

وأشرق وجه الأئمة أوفر مور بالبهجة ، فخطر ببال ميسى وقد زاغ بصرها أن مريبتها الأنيقة عروس .

— انه زوجى من فضلك . وأنا زوجته الصغيرة . و « الآن » سترى من هى أمك الصغيرة !

وضمت تلميذتها إلى صدرها بصورة تفوقها ضمات رسول سالفاتها .
وبعد بضع لحظات — وقد عادت الأمور إلى مستقرها — لاذت السيدة المسكينة بالفرار فى صمت وقد هزمت فى الجولة الأخيرة .

الفصل الثامن

وبعد انسحاب مسز ويكس بدا على الأنسة أوفر مور وكأنها تبينت أنها ليست بالضبط في موقف يسمح لها بالتدبير بايدا فارانج لاقدامها على الزواج مرة ثانية . بيد أنها استخرجت من درج مائلة صورة السير كلود ، ووقفت قبالة ميزى تنفحصها فترة من الزمن ، فسألته الطفلة ببساطة :

— أليس جميلا ؟

وترددت مرافقتها ثم أجابت ميزى بحدة أدهشتها :

— كلا .. انه بشع .

ثم تروت في الأمر دقيقة ردت اليها الصورة بعدها ، فبعت لميزى وكأنها تنفث سحرا جديدا ، واضطربت لأنها لم تعرض لها من قبل مناسبة لاختلاف الرأي بينها وبين صديقتها الحبيبة ، فلم يسعها الا أن تسأل — مادام الأمر كذلك — ماذا ينبغي أن تصنع بها . هل تقصياها عنها في مكان ما حيث لا تثير التأذي؟ وفكرت الأنسة أوفر مور في الأمر مرة أخرى منقبة عن الجواب السيد ثم قالت مالم يكن منتظرا منها :

— ضعيا على رف مدفأة حجرة الدراسة .

واقتاب ميزى شعور بالخوف فسألتهما :

— ألا يسوء أبى أن يراها هناك ؟

فردت الأنسة أوفر مور بلهجة ذات مغزى غريب استغلق على تلميذتها :

— بل يسوؤه جدا في الواقع . ولكن هذا ليس ذا بال « الآن » .

فخاطرت ميزى بسؤالها :

— بسبب الزواج ؟

فضحكت الأنسة أوفر مور وأدركت ميزى أنها ، على الرغم من الاثارة التي سببتها مسز ويكس ، تضحج بالسعادة والحيوية :

— أى الزواجين تعنين ؟

فلما فوجئت الطفلة بالسؤال أدهشها أنها لا تدري ، حتى لقد أحست ألهما تبلو بلهاء ، فلجأت الى سؤالها :

— وهل سيكون الأمر بالنسبة اليك مختلفا .. ؟

فكان ذلك ايماء ضميا واضحا الى أن عروس السير كلود ينبغي أن يكون الأمر بالنسبة اليها مختلفا . فأجابتها الأنسة أوفر مور :

— باعتبارى الزوجة التي اقترنت بأيك ؟ كل الاختلاف !

وبدا الاختلاف بطبيعة الحال بتوجيه الخطاب اليها — حتى من ميزى — من ذلك اليوم فصاعدا بناء على طلبها الصريح بلقب « مسز بيل » . وقد انتهى الأمر في الواقع عند هذا الحد من حيث الجوهر . وظل كل شيء يبدو كسابق العهد فيما عدا أن الطفلة تسنى لها أن تجيل بخاطرها فكرة أنه صار لها الآن أربعة أشخاص في مقام الوالدين . وانه بعد اقضاء ثلاثة أشهر جعل السلم الذي تجثم الفتاة الصغيرة عند حاجزه العلوى يصعد حفيفا أعقق لازدياد عدد من يرتقونه . فقد صارت لمسز بيل أثواب بديعة جدا ، وان كان للأنسة أوفر مور أثواب في نفس المستوى . ولئن كان شغف « بابا » بزوجه الثانية أشد كثيرا من شغفه بزوجه الأولى ، فقد تنبأت ميزى بذلك الشغف لأنها تابعت نموه عن كذب لا يكاد يقل قريبا عن الشخص الذي يمسه هذا الشغف مباشرة . ولم يكن لما بين رفيقيها من مخالطة الا أقل القليل حقا مما تعجز خبرتها

الناضجة قبل الأوان عن تفسيره . واذا كانا قد أدهشاهما لما ينقصهما بعد كل شيء من علائم شهر العسل التي كثيرا ما سمعت بتفصيلاتها المسهبة من مسز ويكس مثلا ، فمن الطبيعي أن تتحكم على الحالة في ضوء ما برهن عليه أبوها من ميله الى التحرر من نير الرابطة الزوجية . فعندما عاد من برايتون — ولم تكن عودته غداة زيارة مسز ويكس ، بل تأخرت عودته بصورة عجيبة بضعة أيام — كان شهر العسل بالنسبة له قد شاب به بشكل ملحوظ فجر مرحلة تالية من مراحل الحياة الزوجية . وصارت هناك أشياء أدركت الطفلة أن كراهيته لها لا يمكن أن تكون ذات بال الآن لدى مسز بيل ، وقد أخذ عدد هذه الأشياء في الزيادة بحيث توارى الى جانبها أمر تافه مثل كراهته لصورة السير كلود . وقد وجدت تلك الصورة المبهجة مكانا بارزا لها في حجرة الدراسة التي قلما كان يدخلها المتر فارانج ، وحيث صار الاعجاب الصامت في الفترة التي أتحدث عنها هو التمرين المدرسي الوحيد تقريبا بالنسبة لتلميذة مسز بيل .

ولم يطل بميزى الوقت حتى رأت ما عنته زوجة أبيها بالضبط بالفرق الذي سيظهر في شخصيتها الجديدة . فاعتبارها زوجة أبيها بالضبط بالفرق الذي سيظهر في شخصيتها الجديدة . فاعتبارها زوجة أبيها لم تعد مريبتها الخاصة . ولئن كان حضورها في سابق العهد ينبغي أن يكون منتظما على أساس قيامها بأعباء وظيفية متواضعة ؛ فهي الآن ذات مقام يعفيها من جميع الأسس ويتنافى مع سائر صنوف العبودية ؛ وهذا ما كانت ترمى اليه بزوال الاعتراض على التحاقها بالمدرسة ، لأن مرافقتها الصغيرة لم يعد وجودها في البيت مطلوبا لتكون — على حد تعبير مسز بيل الطريف — بمثابة قهرماناة صغيرة . ولكن معارضتها في الاتيان بخليفة للآنسة أوفر مور ظلت قائمة . وكان مضمون حجتها في ذلك ما عبرت عنه مسز بيل في صراحة وأكدت بطلان ذلك التفكير وسخافته ، لأن شغفها

المفرط بابنة زوجها يجعلها لا تطيق أن تراها بين أيد سوقية مرتزقة .
وشجعت لهجة الكلام عن ذلك الخطر المعين ميزى على أن تقول كلمة لصالح
مسز ويكس قد أقدمت منذ البداية على هذا التعبير المتواضع عن تعلقها
بأييها ؛ بيد أن مسز بيل تخلصت مرة أخرى وبحزم من مرشحة لابد أنها
ستعمل بطريقة غادرة فظيمة لما فيه مصلحة أيدا . ثم انها فضلا عن ذلك
بغيفة شخصيا وأجهل من دابة . ولم تكتم أيضا الحقيقة المحرجة وهي
أن المدرسة الراقية باهظة النفقة ، ولم تخف الظرف المشدد الذي يبدو
أنه يضع حدا لكل شيء ، ألا وهو أن « بابا » — على الرغم من تحمسه
الصاحب آتفا — يبدى أسوأ الخلق متى تطلب الأمر بذل المال . بل ان
مسز بيل أسرت الى تلميذتها الصغيرة بهذا السؤال :

— أتصدقين أنه يقول عنى اتنى أكلفه الآن أكثر من ذى قبل بكثير ؛

وان الابنة والزوجة معا عبء يفوق طاقته ؟

وهكذا تلاشت المدرسة الفخمة في برایتون بين طوايا مسائل أضخم
منها ؛ وكان الخوف من استشارة هذا الأمر لايدا لاستغلال ذلك الاخلال
بالاتفاقية قد تضاءل بالاختفاء المتطاوول بلا حياء . وهكذا تركت ابنتها
وخليفتها تحمقان في شرود يجمع بينهما وان كان لا حيلة لهما فيه بسبب
كل ما يفوت ميزى أن تتعلمه .

وكان مقدار هذا الشرود من الضخامة بحيث يملأ أيام الطفلة
بالاحساس بالتفتر : احساسا لا تستطيع حتى ولا ليزت الفرنسية أن تدخل
عليه شيئا من التلوين ، وقد استتعدت ألعابها وظلت أسئلتها بغير أجوبة
والفزع ينتابها من الاختبارات ، وقد تعودت فوق هذا كله وهي تنقب عن
أى تغيير أن تطل من فوق افريز السلم كلما رن جرس الباب . فقد كان
هذا العمل هو ملاذ ضيقها الكبير ، الا أن ما كالت تسمعه في تلك الأوقات

هو رنين البهجة في الطابق السفلى ، ذلك الرنين الذى كون لديها منذ طفولتها الباكرة اعتقاد بأن أوقات الكبار هى أوقات التسلية الحقيقية ، وهى فوق هذا كله أوقات الألفة الحقيقية . فما كانت ليزت قط ، ولا كانت ممز ويكس قط — على الرغم من ضمانها ودموعها ؛ تشعرها بأنها حميمة الألفة بها ألفة أشخاص كثيرين بمسز يسيل فى الوقت الحاضر ، وألفة كثيرين غيرهم جدا فيما مضى بمسز فارانج . فجو المرح الصاحب يؤلف بين الناس أكثر مما يؤلف بينهم جو الأسى ، وهو الجو الوحيد الذى تشيعه مثلا مسز ويكس المسكينة . وكانت ميزى فى تلك الأيام تفضل مع هذا أن تتراءى لها أفانين المرح البيتى عن بعد ، لأنها كانت تحس بنفسها ولا سند لها للأسف لمواجهة ما ينتظرها فى حجرة الاستقبال من تحقيقات رهيبة . وكان هذا سببا أدعى لافادتها الى أقصى حد ممكن من « سوزان أش » التى كانت — بصفتها مساعدة خادمة البيت — تدور فى فلك مختلف ، وكانت مع هذا موضع اعتماد كبير فى قضاء الحوائج خارج البيت . فهى دليل عند التجوال ، وجولاتها لا تشبه الا فى أقل القليل الخروج لتسسم الهواء حسب خطة محدودة . ذلك الخروج الذى ترك لدى الطفلة ذكرى حية لذهن مودل المنظم . فلم يكن ثمة سبيل فى ظل نظام مودل الى اهدار الوقت عبثا أمام واجهات المتاجر ، أو لكزات فى شارع أكسفورد وهى تقول :

— يا الهى . انظرى إليها !

وكان فيما مضى أيضا أسلوب متزمت عند عبور الشوارع وتجنب رصين للخطر الذى كان يورد ذهن الخادمة ، ولا سيما عند الأركان التى كانت مع هذا ، مغرمة بها بعض الشيء ، وهو الخوف الذى كانت تعبر

عنه في توجس من أن « يكلمها » أحد . فمخاطر المدينة وما فيها من تنوع
والحراف كانت تزيد من احساس ميسى بأنها بغير موجه أو رقيب .
ولكن الموقف اعتراه الالتواء عندما واجهها افعال آخر اثر عودتها
وهي في غاية الاجهاد الى جوار سوزان من احدى النزعات التي اكتنفها
كثير من التحويم اذ قيل لها عند الباب انها مطلوبة للمثول فورا في حجرة
الاستقبال ، فاجتازت عبتها وهي غارقة في سحابة من الخجل ، وتبينت من
خلال تلك الفشاوة مسز بيل جالسة هناك مع سيد أزاح عنها الغمة بوقوفه
أمامها فاذا به الأصل الحي لصورة السير كلود . وشعرت لحظة وقع نظرها
عليه أنه صاحب أبهى منظر يفوق جميع المناظر البهية التي حملتها أن تفر
فاها . وسرعان ما نبض سرورها بمرآه وبأته أمسك بها وقبلها بلون غريب
من الزهو الحيّ به ، وباحساسها أنه عوضها عن تدهور حالها ، وعن
لكزات سوزان العلية التي أصابتها بكدمات ، وعن سائر الدروس التي
أسامها الا أن تلقاها وهي في حجرة الدرس الميتة التي ينتابها الخوف
أحيانا من المكث فيها وحدها . فكأنما هو قد أخبرها على الفور أنه ملك
يمينها ، بحيث تستطيع أن تتباهى باظهاره للناس لترى الأثر الذي يحدثه
فيهم . كلا ، ما من شيء سواه بالغاً ما بلغ جماله يمكن أن يذكر في هذا
الفرح الخاص . فلا مسز بيل تستطيع ذلك في هذه اللحظة بالذات ،
ولا أبوها حين يكون مرحا ، ولا أمها حين تأخذ زينتها ، ولا ليزت حين
كانت جديدة . وأوشك فرحها أن يفيض بالسمع عينيها عندما وضع يده
عليها وجذبها اليه وأخبرها بابتسامة تآلق بوعودها تآلق شجرة عيد الميلاد
أنه يعرفها عن طريق أمها معرفة جيدة جدا ، ولكنه جاء ليراها الآن
كى يعرفها معرفة مباشرة . واستطاعت أن تدرك منذهب في هذا الضرب من
المعرفة أن تخرج معه : ثم تبينت أنه جاء لهذا الغرض ، وأنه قضى فترة

من الوقت يرتب الأمر مع مسز بيل ، وأنه أفلح في توثيق الصلة بهذه السيدة بطريقة لم يؤثر فيها على الاطلاق ما كانت ترى من رأى سىء فيه عند وصول صورته . فقد أوشكا أن يكونا أليفين حميين — أو هذا ما يدل عليه ظاهر الأمر — في مناقشاتهما ثم أدركت ميزى بعد ذلك أن مسز بيل لم تكتم عنه ما تتجشمه اذ تسمح لها بالذهاب . وقالت للطفلة :
— يبدو عليه اللهفة البالغة . حتى انى أتمنى أن تدركى على الأقل ادراكا واضحا علاقة السير كلود بك . ولا يبدو أنه خطر له أن أتاح لك الطمأنينة اللازمة .

— أنت طبعا « مقترن بها » . أليس كذلك ؟

وبلبل هذا الكلام خاطر ميزى بلبلة يسيرة فالتفت بسرعة الى صديقها الجديد قائلة :

وقد وقع هذا التركيز المتلفف عليهما موقعا مثيرا للضحك . وذلك هو الصدى الذى تحدثه دائما وتقبل حدوثه باذعان ، وكان ضحك السير كلود فضلا عن هذا جزءا غير متميز من عذوبة محضره :

— لقد مضى على زواجنا يا طفتى العزيزة ثلاثة أشهر . واهتمامى بك الما هو — ألا ترين ؟ — نتيجة لمحبتى العظيمة لأمك . وحضورى اليوم الى هنا بطبيعة الحال بصفتى نائبا عن والدتك .
فقال ميزى بكل الصراحة الماثورة عنها :

— أعرف هذا . فهى لا تستطيع أن تأتى بنفسها الا الى أمام الباب فقط (وبعد لحظة تفكير استطرقت) .. ألا تستطيع أن تأتى الآن ولو الى أمام الباب ؟

فهتفت مسز بيل قائلة للسير كلود وكأنها تجد حيرته مضحكة :
— أرايت ؟

وبدا على وجهه العطوف في ترده أنه يعترف بذلك ، ولكنه أجاب
الطفلة قائلا بإتسامة صريحة :

— كلا . لا تستطيع ذلك تماما .

— لأنها اقترنت بك ؟

فتقبل منها هذا السبب على الفور وأجابها :

— هذا الاعتبار له على كل حال دخل كبير في الموضوع .

ووجدت التحدث اليه يشيع السرور في نفسها ، فاستطردت میزی

في ذلك السياق :

— ولكن « بابا » اقترن بالآنسة أوفر مور .

فتدخلت السيدة في الحديث قائلة :

— آه . وسترين أنه سوف لا يذهب في طلبك الى بيت أمك .

وسارعت میزی بالرد عليها قائلة :

— نعم . ولكن المدة لن تطول كثيرا .

فقال السير كلود وهو يدينها منه :

— سوف نتحدث في هذا الموضوع الآن . فأملك شهور وشهور

تقضيتها هناك أولا .

فقالت ممز بيل وهي تبسط ذراعيها نحو ابنة زوجها :

— أوه . هذا ما يجعل التخلي عنها عسيرا جدا !

ففارقت میزی السير كلود واتجهت نحو هاتين الذراعين المتوحيتين

لها وأحست وهي في غمرة عناق أشد حنانا من سابقه بما في امتداد أفاق.

السعادة من نشوة . وقالت زوجة أبيها :

— سآتي « أنا » لطلبك اذا ما استبقاك السير كلود مدة أطول

مما ينبغي . ويجب علينا أن نفهمه هذا تمام الفهم .

واستطردت مخاطبة الزائر بألفة شديدة تكاد توحى بأنهما قد التقيا
حتما من قبل :

— ولا تحدثني عن فخامة الليدى . فأنا أعرف فخامتها وكأنتى صنعتها
بيدى . يا لهما من أبوين !

وكانت ميمى كثيرا ما سمعتها يوصفان بهذا الوصف حتى ان تلك
الملاحظة لم تصرفها الا لحظة واحدة عن العجب المستعجب من هذه
التكنية الجديدة الفخمة عن أمها . ثم لم يلبث هذا العجب أن أطلق سراحها
لتتعلق — فيما يختص بنفسها — بإمكان قيام علاقة بين مسز بيل
والسير كلود أوفق من العلاقة التى بين « ماما » و « بابا » . وكان الشئ
الذى حدث لها مع ذلك بعد هذا هو أن اهتمامها بقيام مثل تلك العلاقة
جلب الى شقيقتها سؤالا جديدا وجهته الى السير كلود :

— هل رأيت « بابا » ؟

فكان ذلك ايذانا بانطلاقهما بالضحك مرة أخرى ، لأن « رواقيتها »
الصغيرة اعتبرت ذلك أمرا مسلما به . ولم تجد مسز بيل ما تعلق به على
ذلك كله سوى التهمك الظاهرى المبهم :

— أوه .. « بابا » !

وأجاب السير كلود الطفلة بقوله :

— لقد أكدوا لى أنه ليس فى البيت . ولو كان موجودا لتطلعت الى

السرور بلقائه .

فسألها ميمى وكأنها بحاجة الى معرفة هذا الأمر :

— ألا يسوؤه حضورك ؟

فاحتجت مسز بيل ضاحكة :

— يا لك من فتاة صغيرة خبيثة !

ورأت الطفلة السير كلود وقد احمر وجهه قليلا وان ظل على جذله
المستثار ، ولكنه قال لها بحنو شديد :

— هذا ما جئت لأبينه . أى لأعرف ان كان أبوك من الجائز أن
يستاء لحضورى . الا أن مسز بيل تعتقد اعتقادا راسخا فيما يبدو أن هذا
لن يسوءه .

وسارعت هذه السيدة الى تبرير وجهة النظر هذه لابنة زوجها ، ووبدت
كأنها تكرر — ولكن فى استسلام واضح — شكاتها التى أعربت عنها قبل
ذلك بيرة :

— انه لأمر ظريف جدا يا عزيزتى كما تعلمين أن يتمكن أحد اليوم
من اكتشاف ما يمكن أن يبالي به أبوك . أنا واثقة « شخصيا » أنى
لا أعرف . فأبوك يا عزيزتى رجل غريب الأطوار حقا .

ثم التفتت فقالت باسمه للسير كلود :

— ولكن لعلنى لست مجاملة تماما لك اذ أقول هذا الكلام بصد
عدم اعتراضه على مجيئك « أت » الى بيته . فليتك تعرف بعض من
يستقبلهم !

وكانت ميزى تعرفهم جميعا . وليس فيهم فعلا من تجوز مقارنته
بالسير كلود . ورد السير كلود على مسز بيل بضحكة فبدا فى تلك اللحظة
شبيها تمام الشبه بما كانت تصفه به مسز وبكس دائما — فى الحكايات
الطويلة التى تقصها على تلميذتها — عشاق حسناواتها التعسات ، من أمن
كل واحد منهم : « السيد المهذب الكامل ذو الحسن الباهر » .. ونهض
كأنه بهم بالانصراف — الأمر الذى أسفت له الطفلة — وقال :

— أوه .. أحسبنا سنكون على ما يرام !

ومرة أخرى ضمت مسز بيل تلميذتها الصغيرة إليها ، وراحت وهي تحتضنها تنظر من فوق رأسها في تفكر الى زائرهما وقالت :
— انه لجميل جدا من رجل من طرازك أن يرغب فيها الى هذا الحد .
فضحك السير كلود وقال :

— وماذا تعرفين عن طرازي ؟ أيا كان ما تعرفينه فأنا أخالك مخلوعة
فحقيقة أمرى ببساطة أنى أقل — ماذا تسمين هؤلاء الناس ؟ — « الرجال
الداجنين » حقا من التقدير . أجل أنا رجل داجن . أقسم بشرفى على ذلك !
فصاحت مسز بيل :

— اذن لماذا لم تتزوج من امرأة داجنة ؟
فنظر اليها السير كلود نظرة قوية وقال :
— أخالك تعرفين من الذين يتزوجهم المرء . ثم انه لا وجود للنساء
الداجنات . سحقا لى ان كان لهن وجود . ما من واحدة منهن تريد أن
تجنّب أطفالا . سحقا لى ان كن يردن ذلك !

وكان رأيه فى الموضوع طريفا للغاية . فأخذت تحمق فى هذه الصورة
التي رسمها بكلماتها فى شىء من الهلع كأنها فذير سوء لها . وفى الوقت
نفسه شعرت عن طريق الذراعين اللتين تطوقانها بتردد راعيتها التي قالت :
— انك لتخرج علينا بأشياء عجيبة . ولكنك تعنى أن فخامة الليدى .

لا تريد أطفالا . أهذا صحيح ؟
— لا تريد أن يقع ذكركم على سمعها بكل بساطة . ولكن لا حيلة
لها فى الطفلة التي رزقت بها « فعلا » .

واستقرت عينا السير كلود وهو يقول هذه العبارة الأخيرة على الفتاة
الصغيرة بصورة خيل اليها أنها تخلف موقف أمها باحساسه بموقفه
الخاص ..

— ان عليها أن تتقبلها على أحسن وجه تستطيعه . ألا ترين ماذا أعنى ؟ ولو رعاية للمظهر . فالمرء يريد من زوجته أن تسلك الطريق القويم في معاملتها لطفلتها .

فصاحت مسز بيل معربة عن دراية لا شك في أنها تركت أثرها لدى محدثها :

— أعرف ماذا يريد المرء في هذا الصدد !

— وما دمت قد استطعت أن تحمليه — وأخالك قد لقيت في ذلك عناء كافيا — فلماذا لا أوصل تحصل ايذا ؟ ان ما يصلح للأثني يصلح للذكر ، أو العكس . ألا تعلمين ذلك ؟ ان في نيتي أن أصل بهذا الأمر الى قراراته .

ولبثت مسز بيل مدة دقيقة وعيناها عليه وهو متكئ الى حافة المدفأة وكأنها تقلب هذا الأمر على وجوهه ، ثم قالت في النهاية :

— اظنك لأعجوبة من أعاجيب الحنان . ذاك أنت . المفروض في أي سيدة أن تكون لديها مشاعر طبيعية . أما « جنسكم » الفظيع .. !

وسألت ابنة زوجها وخذها على خدها :

— أليس جنسا فظيحا يا حبي الصغير ؟

فأجابتها ميري بلا موارد :

— أنا أفضل الرجال .

فوقعت هذه الكلمة موقعا مثيرا للمرح . وهتف السير كلود بمسز

بيل :

— هذه ضربة طيبة « لك » !

فقال تلك السيدة :

— كلا . فما علىّ الا أن أتذكر طراز النساء اللواتى تراهن فى بيت أمها .

فرد عليها السير كلود :

— آه . انهن الآن لطيفات جدا .

— ماذا تعنى بكلمة « لطيف » ؟

— انهن على ما يرام .

فقال مسز بيل :

— ليس هذا جواب سؤالى . ولكنى أحسبك ستتولى شأنهن . وهذا

يزيد من ملائكتك اذ ترغب فى الاضطلاع بهذه المهمة أيضا .

وضربت رفيقتها الصغيرة على سبيل الدعابة . فقال السير كلود :

— أنا لست من الملائكة . بل أنا جدة عجوز . فأنا أحب الأطفال

الصفار .. وكان هذا شأنى دائما . فان حدث أن رابطتنا انقصت فسوف أبحث عن وظيفة حاضنة أطفال مسئولة .

وفوتت ميزى وهى فى حالة السحر المستولية عليها ذلك التجريح

لسنها ، وهو تجريح كانت حرية فى وقت آخر أن تحس له بمرارة . بيد

أن السحر لم يلبث أن تأثر تأثرا محسوسا عندما جعلتها مسز بيل تلور

حول نفسها وراحت تحديق فى عينيها بشغف وقالت :

— أراغبة أنت فى فراقى أيتها الصعلوكة ؟

وتروت الفتاة فى الأمر . فحتى هذا الرباط المقدس أمسى وكأنه حبل

يتحتم عليها أن تقطعه فجأة . ولكنها قطعه بلطف شديد قائلة :

— أليست هذه نوبة اقامتى عند « ماما » ؟

فأجابتها مسز بيجل بقولها :

— يا لك من منافقة صغيرة فظيعة . وكلما قل حديثنا فيما اعتقد

عن هذه « التوبات » الآن كان ذلك أفضل . أنا أعرف نوبة من هذه .
ولكنك لا تكنين هياما شديدا بوالدتك .

فاحتج السير كلود على ذلك في ظرف قائلا :

اتبهى . اتبهى . الزمى جاب الحذر .

فاستطردت تقول :

— ما من شيء لم تسمعه من قبل . ولكن هذا ليس ذا بال ، لأنه

لم يفسدها .. آه لو تعلمين كم يكلفنى الافتراق عنك !

وأخذ السير كلود يرقبها وهي تتعلق بالطفلة بصورة ساحرة :

— انى لسعيد جدا لتعلقك الصادق بها . وهو أدعى للخير .

ونفضت مسز بيل على مهل ويدها على تشبثهما بميزى ، وأطلقت

زفرة ناعمة وقالت :

— ان سرورك قد يكون عوننا لنا . فأنا أؤكد لك أنتى لن أتخلى

عن أى حق لى فيها اكتسبته بتضحياتى . وسوف أثبت غاية الثبث

بحقوقى فيها . وما يبدو لى الآن أنها جمعت بينى وبينك .

فقال السير كلود :

— لقد جمعت بينى وبينك .

فأطال هذا التردد الطروب من عمر هذه الحقيقة السارة . وانفجرت

ميزى بما يكاد يبلغ حد الحماسة قائلة :

— لقد جمعت بينك وبينها !

وضحك رفيقاها بالطبع مرة أخرى ، وهزتها مسز بيل فى اعزاز قائلة :

— أيتها الضارية الصغيرة . تدبرى ما تصنعين !

ثم وجهت الكلام الى السير كلود قائلة :

— ولكن هذا ما تصنعه فعلا . وقد صنعه به أنا وبيل .

فقال لميزى وهو يمد اليها يده مرة أخرى :
— اذن عليك أن تحاولى القيام بصنيعك هذا فى « بيتنا » . هل لك
فى الذهاب معى الآن ؟

فالتفتت فى توسل حار الى زوجة أبيها محاولة أن تتخطى بذلك جبل
« اصلاح الثياب » وهاوية حزم حوائجها وقد تبلج الجبل أمامها وفجرت
الهاوية فاها :

— الآن . كما أنا ؟ أوه . أستطيع ذلك ؟
فوجهت مسز بيل موافقتها الى السير كلود :
— سيات ذهابك هكذا أو على أى وجه آخر . سأرسل حوائجها اليها
غدا .

ثم جذبت معطف الطفلة لتصلح من هندامها وصعدت فيها نظرها
بشئ من الأسى ، ثم قالت :
— انها ليست على ما كنت أرومه لها من الأناقة . وستزقها والدتها
اربا . ولكن ماذا كان باستطاعتنا وليست لدينا الوسيلة ؟ انها أفضل
حالا منها يوم جاءتنا . ولك أن تقول هذا لأمها . وانه ليؤسفنى أن أجد
قصى مضطرة أن أقول لك ذلك . ولكن الطفلة المسكينة كان منظرها
يشير الاشفاق حينئذ .

فقال الزائر باخلاص :
— سأتولى أمر هندامها بنفسى ا
وبدا على مسز بيل أنها وجدت فى ذلك ما يشير مرحها فقالت :
— لكم أحب أن أرى كيف . يجب أن تأتى بها لترينى ما صنعته بها .
قفى وسعنا أن تدبر هذا الأمر . وداعا أيتها المرعبة الصغيرة .
وكانت كلمتها الأخيرة للسير كلود أنها عازمة على شد أزره الى أقصى
حدود طاقتها .

الفصل التاسع

ظلت فكرة ميسى عما يجب عليها أن تموضه وعن الجملة الهائلة التى بلغتها هذه الأمور مائلة أمام عينها فى بيت أمها . فقد كانت هذه الأمور هى شغل مسز ويكس الشاغل . وكانت قد وصلت الى هناك عن طريق السلم الخلفى وهى تذرف دموع الفرح فى اليوم التالى لوصولها . وكان لدى السيدة الطيبة الشىء الكثير لتقوله لها عن اجراءات ذلك التمويض ، مما استغرق — فى مراحلہ المتعاقبة — وقتا طويلا جدا مما آذنها بفترة من الإقامة توازى فى امتدادها الفترة الأخيرة التى قضتها الطفلة مع أبيها . بيد أن هذه الفترة الجارية كان وقتها أغنى وأحفل وطابا ، فجعلت أيامها توائب قدما على نضات الحاح مسز ويكس المتصل فى وجوب بذل جهدهما معا فى العمل . وكانت ثمة حرارة مقترنة بالرقه فى الطريقة التى أعربت بها الطفلة عن موافقتها لمسز ويكس من حيث انها لم تدرس شيئا على الاطلاق على يد مسز بيل وسوزان آش ، وكان جموح المنبوذة المستنقذة أحد العوامل التى تساعد فى الاتجاه الى انتهاج خطة غزو تلك المجهل . فاستدار العام وهو لا يعدو وعاء لما فاتها من المعلومات . أو فنجانا طافحا بالاحساس بأنها الآن على الأقل ماضية فى التعلم . وكانت مسز ويكس تغذى هذا الاحساس بما فى مخازنها من أحاديث وبالانهماك الشديد فى تذكيرها بأنهما يجب أن تنفيا من حياتهما الساعة التى تمضى هباء . فمن حولها موضوعات يجب عليهما أن تقتحماها اقتحاما ، فكاتتا على الدوام تتخذان هيئة الأهبة لهجوم ظافر ، ولم تكن لديهما بالتأكيد

أوقات لا جدوى منها . وكانت الطفلة تمضي الى فراشها كل يوم متعبة كأنما قضت اليوم بطوله في اللعب المجهد . وقد بدأ هذا الحال منذ لحظة اجتماعهما . بدأ بكل ما كان لدى مسز ويكس مما تريد الاقضاء به الى صديقتها الصغيرة عن أسباب سلوك فخامة الليدي الخارق للمألوف في بداية الأمر .

فقد كان هذا السلوك على صورة رفض فخامتها على مدى ثلاثة أيام أن ترى ابنتها الصغيرة ثلاثة أيام كان السير كلود يندفع مرات كثيرة الى داخل حجرة الدراسة ليهدىء الموقف الغريب قائلاً :

— انها ستعرج عليكما كما تعلمان . أؤكد لكما أنها ستعرج عليكما . ويحاول أن يعرض ميزى بعض الشيء عن المهانة التي تسبب لها فيها ، فلم يكن في حياة الطفلة من قبل اطلاقاً وبأى وجه من الوجوه مثل هذا القدر المبهج من الترضية . واتضح من اعترافه أن فخامة الليدي لم تكن على علم سابق بزيارته لبيت طليقها وبأنه جعل من بنت ذلك الشخص ذريعة لعقد صلة للتعارف بينه وبين المخلوقة البغيضة التي تقيم هناك . والله يعلم أنها كانت تريد استعادة لطفها وأنها أعدت خططا خاصة بها لرحلتها . ولكنها لا تستطيع في الوقت الحاضر على الأقل أن تفغر لأى شخص أن يعمل بطريق الخداع المتطفل على احداث تلك النقلة . وقد تحملت ميزى من عبء هذا السخط أكثر مما كان في مقدور مسز ويكس بحذقها المستور أن تخففه عنها ، لا سيما وأن السير كلود نفسه لم يكن بارعا على الاطلاق ، وان كان في الحقيقة بعيدا كل البعد عن الانهيار . فقد كانت هذه المسألة تستهويه ، وكان على فتوره يبعث فيها الفزع أحيانا . وألقى في روع رفيقته الصغيرة بصراحة هزتها الى مدى أبعد كثيرا مما يبدو أنه يعتمد عليها في ألا تدع أمها — حينما تقابلها — تستخلص منها شيئا

عن أى كلمة يمكن أن تكون مسز ييل قالتها له . وكان يدخل ويخرج ويعلم مازحا أنه يتخذ احتياطات هائلة . ويظهر ميلا واضحا للمخاشنة . وينيظ بمزاحه مسز ويكس الى أن يصطبغ محيها بلون القرمز من فرط السرور ، ويذكر ميزى بالكتمان الذى ينتظره منها الى أن تكز بأسنانها مثل أسرى الهنود الحمر . فكانت دروسها فى تلك الأيام الأولى والى أمد طويل بعد ذلك فى الواقع — وكأنها جميعا تدور حول السير كلود . ومع ذلك لم تذكر لمسز ويكس فى الواقع أنها كانت متأهبة تحت تأثير ما أوحاه اليها من النذر — لمواجهة تعذيب يذهب هباء . وكانت هذه السيدة قد صورت الموقف مع ذلك بدقة تدل على قلة حاجتها الى التدريب . فكان تفسيرها لكل شىء يبدو غير سار تماما — ولئن كانت مكاتها مهددة بالخطر فهي تواجه ذلك الخطر أيضا بتفسيرها ذاك — ان فضامة الليدى عاشقة مدفنة . وتقبلت منها ميزى هذا التلميح فى فزع لا حد له ، واعتملت عليه كثيرا عندما دعيت فى النهاية للمثول فى حضرة أمها .

وهناك واجهت الأمور التى بدا أن وجودها فى خضمها بشعرها بالحاجة الى الاستعانة بمفتاح أو دليل يرشدها . فقد وجدت غرابة تكاد تكون مفرجة ، لم تلبث أن فاضت بعد قليل بأصداء لما كانت تعهده لدى ايدا آتفا من العنف فى الملام كلما استردت ملكيتها . وها هما قد لبثتا فى البيت بعض الوقت معا ثم جاء هذا الملام متأخرا . ولما كانت ميزى مشغولة النفس بذلك الاحساس الذى أوحاه السير كلود ، وعلى علم فوق هذا — عن طريق حكايات مسز ويكس — بالتدمير الذى يمكن أن يحدثه مثل ذلك الاحساس بوجه عام ، فقد تسنى لها أن تلتمس المعاذير لفضامة الليدى بصدد منظرها الذى يسترعى الأنظار ، وتبرجها الصارخ ، ولون شفيتها العجيب بل ونظرتها الجامدة — نظرة صنم هائل ورد وصفه فى

كتاب من كتب الحكايات — التي طرأت على عينيها نتيجة مزيد غريب من الغزارة فوق ما لمحيطهما من كثافة سالفة . وكانت أقوالها وتفسيراتها مختلطة بتحديات مندفعة وفترات هدوء مفاجئة . ووسط هذا كله وجدت ميسى ما يذكرها بما تختزنه عن السنوات الماضية من صليل حليها وتخيشات تدليلها ورائحة الثياب والظفرات التي تعتور حديثها . ولم يزل لها أسلوبها القديم البارح بتمامه ، ذلك الأسلوب الذي كانت مسز ويكس هؤل عنه انه أرستقراطى ، اذ تغير الموضوع وكأنها تصفق الباب فى وجهك . وأهم الفروق كان لون شعرها الذهبى الذى تغير الى الأحمر النحاسى . وقد بدا ذلك الشعر والرأس الذى يكسوه بسخاء لعينى الطفلة وكأنهما ازدادا علوا . فأبنت هذه الأم النظرانية لناظريها قامة أضخم ومحضرا أنبل بصورة مجسمة . وهذان أمران — بالاضافة الى أمور أخرى كان من الممكن أن تثير الحيرة — يفرهما تفسيراً مقبولاً ما يسيطر على عواطفها من الرومانسية . فعواطفها — فيما استطاعت أن تبينه ميسى بسهولة — هى التى أدت بايدا الى الانطلاق فى تلك الأسئلة عما جرى فى البيت الآخر بين تلك المرأة الفظيعة والسير كلود . ولكن الفتاة الصغيرة استطاعت أيضا فى هذا المقام بالذات أن تذكر أن التوفيق الذى أحرزته فى أيامها الخوالى حين مارست فن النبء المأمون . وأسرع هذا الفن مرة أخرى لنجدتها . وحين تخلصت منها أمها على اثر مقابلة وصلت فيها بالرباء الى حد يجاوز عمرها ، أفهمتها بجلاء أن مرور الأيام لم يزد لها قلامه ظفر من الفطنة .

وكان فى مقدورها أن تتحمل هذا . وأن تتحمل أى شىء يعينها على الاحساس بأنها صنعت أى شىء للسير كلود . ولئن لم تصرح لمسز ويكس بمبلغ ما بدا على مسز بيل من الميل اليه ، فليس فى مقدورها

يقينا أن تصرح بذلك لليدى . وقد سبب لها انبعاث الحياة فى ذكريات
الماضى اختلاطا غريبا . فما كانت تشد معرفة الأمور السيئة عن أبيها
بدافع من كرهها له . ولكنها الآن تريد أن تعرف هذا النوع من الأشياء
عن السير كلود لكن لعكس ذلك الدافع . واستولى عليها الفزع من
الصورة التى يمكن أن تتأثر بها سيدة نتيجة للعاطفة التى أشارت إليها
مسز ويكس فحبت ألقاسها عازمة على تحسس مواطنى قديمها بين أمور
الحياة الهائلة . وما أفضت به فعلا الآن بعد انتهاء مقابلتها لأمها الى مسز
ويكس هو أن كلمات أمها الأخيرة لها — على الرغم من الأثر « الطيب »
كما كانت تسميه ، وهو الأثر الذى أحسنت دراسته ، ألا وهو تصنع
فراغ الرأس فراغا لا ضرر منه — أن فخامتها ستؤدى واجبها نحوها على
أثم وجه . وأخذت المرية والتلميذة تنظر كل منهما الى الأخرى فى تعمق
صامت مفكرتين فى ذلك التصريح . ولكن مع مرور الأسابيع لم تظهر له
ثمرة تغير تفسيرا خطيرا من هرولتها الرخية فى طريق تعويض ما فات .
فواجب فخامة الليدى كان يتخذ فى بعض الأوقات صورة عدم رؤية طفلتها
أياما متوالية فكانت ميزى تقضى حياتها فى بحبوحة عظيمة بين مسز
ويكس والسير كلود العطوف . واقتنت مسز ويكس ثوبا جديدا وصارت
لها مرتبة أفضل — وكانت أول من أعلن هذا — فبدأ لميزى وجه الحياة
براقا حافلا ، وقد أصبحت مسز بيل وسوزان آش فى الوقت الحاضر
« مقصيتين » كأنهما طفلتان لم توجه اليهما الدعوة لحضور حفلة عيد
الميلاد . ولكن رعبا خفيا كان ينتاب مسز ويكس . وكانت تتناقش فيه
— شأنها فى معظم مشاعرها الخفية — مع رفيقتها الصغيرة بجد كبير
وبالساعات . وهذا الفزع مصدره احتمال انقراض الليدى عليهما فى
أسلوبها الراقى بقرار ارسال ميزى الى المدرسة . وكان الترياق الذى لديها

لهذا الخوف هو ايمانها بقوة سيطرة السير كلود على الموقف . فهو في غاية السرور — أو ليس هذا ما يقوله دواما ؟ — بالأثر الطيب الذي تحدثه تضحيات ايدا في محيط واسع من المجتمع . وكان كثيرا ما يأتي الى حجرة الدراسة ليلغهما احساسه القوي بحسن سير الأمور وان كل شيء سيظل على أحسن ما يرام .

وكان يختفي في بعض الأوقات بضعة أيام ، فتفهم صديقتاه الصابرتان أن فخامة الليدي لابد أن تكون قد استوعبت بطبيعة الحال . بيد أنه كان يعود دائما اليهما بأفكه الحكايات عن أين كان . ويرسم لهما ثورة رائعة للمجتمع ، وربما جاءهما بأحسن الهدايا التي تريهما كيف كان يفكر مدة غيابه في بيته . وقد قدم لمز ويكس فوق ما منحها من الاحساس بأحاديثه أنهما قد خرجتا بشخصيتهما الى الدنيا فعلا على وجه التقرب — ورقة تقد من ذات الجنيهات الخمسة وتاريخ فرنسا ومظلة ذات مقبض من معدن « الملكيت » . وقدم لميزى شوكولاتة بالكريمة وكتبا للحكايات ؛ فضلا عن معطف بديع (أخذها معه بمفردها تماما كي يشتريه لها) وكثيرا جدا من الألعاب داخل صناديقها ومعها ارشادات مطبوعة ، واطار أحمر لامع لصيانة صورته الشمسية المشهورة . والألعاب — على حد قوله — لازجاء الوقت في المساء . وكانت فترة المساء كثيرا ما تقضى في الواقع في محاولات عقيمة من جالب مسز ويكس لاستبانة ما « يقال » في الصحف . وكان كلما سأل الاثنتين عن مدى محبتهما للألعاب كان جوابهما على الدوام : « الى درجة هائلة » . ولكنهما كاتتا تناقشان فيما بينهما بصورة جدية في هل يستحسن أن تلجأ اليه صراحة ليساعدهما على فهمها ، وهي خطوة كانت رقة شعورهما تنكص عنها ؛ وان لم يكن بوسعهما أن تقررا سبب ذلك النكوص بالضبط . الا أن حنانهما من نحوه كان يدغمهما

ألا تدعاه يخالهما في مشقة . وكان أشد ما يزيغ البصر من فعالة رفته مع مسز ويكس . لا الورقة ذات الجنيهات الخمسة في « عدم نسيانه » إياها فحسب ؛ بل للتوقير التام الذي يديه لها ، على حد تعبيرها عنه بلهجة يضمنى رفين ألفاظها على تلك السيدة هالة العظمة الوحيدة التي رأتها ميزى تنحلى بها ، اللهم الا في مناسبة معينة سيأتى ذكرها فيما بعد ، وهي مناسبة كانت فيها تلك السيدة المسكينة أعظم منهم كافة مجتمعين . انه يضافها ويمترف بوجودها — على حد تعبيرها — ثم انه فوق هذا أخذها معه أكثر من مرة هي وابنة زوجته لمشاهدة التمثيل الصامت ، وفي ساعة الخروج وسط الزحام قدم اليها ذراعه على رءوس الاشهاد . وعندما قابلهما في ميدان يكاديللى الشمس أشاع فيهما المرح واستدار فسار معهما كابحا في بطولة احساسه بوقع تلك الصعبة . وهي بطولة لم تكن لليدى — ولا حاجة بمسز ويكس الى سبر غور تلك الكلمات — على ما هناك من وشيجة القربى جديرة بالاقدام عليها . وكان في تباهى مسز ويكس على هذه الصورة بمثل هذا السلوك الانسانى ما يشعر قلب الطفولة الصلد بعنصر المأساة ، فأحست ميزى في قرارة نفسها بالنهج الذى كتب على هذه الرفيقة المتواضعة أن تشق به طريقها في زحام الحياة حسيرة ذليلة . بيد أن هذا حسم موضوع مبلغ ما عليه السير كلود من شمائل السيد المهذب : فهو في هذا المدى أطول باعا من أى امرىء على وجه الدنيا . وكثيرا ما كانت مسز ويكس تكرر قولها :

— لست أبالى بمن تلتقين في المجتمع الراقى . بل ولا بمن تربطين بالزواج . ولكن ثمة أسئلة لم تجسر ميزى على توجيهها ، ولذا أغضت مريبتها من حرج تعريفها هل هو أحظى شىء بشمائل السيد المهذب من أيها . ولم يكن ذلك عن افتقار الى الفرصة المواتية للسؤال ، لأنه لم تكن

ثمة أوقات بينهما يعتبر فيها أى موضوع غير مفض الى شىء . ولا كان هناك موضوع تخوضان فيه — ولو كان التواريخ الهامة والأفعال المساعدة — لم يكن ليشغل ذهنيهما الى أبعد من قلب الصفحة .. وكان الحل فى لىالى الشتاء لالغاز ألعاب البطاقات والاحصاء والكتيبات الصغيرة المحيرة للعقل انما هو عندهما الاقتراب من النار والاسترسال فى الحديث عنه . ولئن كان الصدق هنا ضربة لازب فهذه المداولات الثقيفية كانت فى ذلك الوقت جل قوام ما تلقاه الفتاة الصغيرة من التعليم .

وينبى أيضا أن نعرف بأنه مضى بهما الى مدى قد يكون أبعد مما يبيحه ضمير معلمة ميزى الساذجة بنمطه العتيق واحتشامها المتزمت وكانت تأتى ساعات تقرأ فيها مسز ويكس وهى تتهد بالهواجس التى تتابها وتخطاها ؛ وكأنها تساءل ماذا كان من الممكن أن تنتهجه مالم تنتهج هذه الخطة مع صبية لها بالفعل هذه الخبرة غير العادية ، ويعبر السيدة الطيبة عن ذلك التبرير لدى نفسها ولدى تلميذتها لانطلاقها على السجية فى تلك الأحاديث المستحبة بمثل هذه العبارات :

— كآئك لا تعرفين كل شىء بالفعل يا حبيبتى ؟ وليس فى مقدورى أن أجعلك أسوأ مما أنت . أليس كذلك يا عزيزتى ؟

وكان ما تعرفه التلميذة يؤخذ مأخذ التسليم وان لم يكن محل تعبير ، الا أنه يمثل عملية التجاوز المقيدة لسائر الكتب المقررة ويحل محل جميع الدراسات . وما دامت الطفلة لا يمكن أن تكون أسوأ مما هى فسوؤها نفسه مصدر راحة حتى لها شخصيا . راحة تتيح لها سندا عريضا متينا فى مواجهة الأزمة الحالية ، ألا وهى وقوع أمها فريسة لفيرة مخيفة . وهذا هو الجانب الآخر لغرام « ماما » . ولم يطل الوقت بالماكرتين المقيمتين بحجرة الدراسة حتى توصلتا الى ادراك هذه الحقيقة فاذا بهما وجها لوجه

أمام معنى التنقيص الذى تعنيه أى سيدة تزوج سيدا له ما للسير كلود من تأثير ساهر على السيدات الأخريات . وكان عجز أولئك السيدات عن مقاومة الوقوع فى غرامه مصدر ضيق طبيعى لزوجته . وحدث ذات يوم أن وقع شيء ما — قرقة باب صفق بشلة أو هرولة خادمة مروعة ، جعل هذه الحقيقة تتجلى بصورة بارزة ، فقالت ميزى اللماحة المنطوية على خواطرها الدفينة لرفيقتها فجأة :

— وأنت يا عزيزتى ، ألسنت تحيينه كذلك ؟

وكان مكرها يسمح بشيء من الفكاهة ، فأجفلت قليلا للمبادرة الجادة التى اندفعت بها مسز ويكس تقرر فى صراحة :

— بل غارقة فى حبه الى قمة رأسى . وما دمت قد سألتنى ، فأنا نم أصل الى هذا المدى من الحب فى حياتى قط من قبل .

يبد أن هذه الجراءة لم يكن لها تأثير رادع بعد بضعة أيام ، على أثر مرور عدة أيام من غير أن تحظيا بزيارة من السير كلود ، عندما قلبت مريبتها المواقف وسألتها :

— هل لى يا آنسة أن أسألك هل « أمت » أيضا عاشقة له ؟

وكافت مسز ويكس حين فاهت بهذا السؤال ترمى الى المزاح ، فأجابتها الطفلة بقولها :

— طبعا . « جدا » .

وكانها تعجب من أن سريرتها لم تفتضح من قبل اقتضاحا كافيا ، وعندئذ نلت عن صديقتها زفرة تنبى عن رضى واضح . بل لعلها كانت تنبى عن ارتياح تام . لأن كل شيء على ما ينبغى أن يكون .

ولم تكن الليدى حاتقة عليهما — فهما على يقين تام من هذا — ولم يكن احتجابه أياما متوالية عنهما في مدى ستة الأشهر التالية لأنها حرمت عليه الدنو منهما . فقد كان يقضى وقته خارج البيت ، وكذلك ايدا . وقد يخرجان معا في بعض الأحيان ومتفرقين أحيانا أخرى . وكانت هناك فترات تخلو لهما الدار فيها ، حتى كأن الخدم أنفسهم في « الخارج » أيضا ، بحيث أمسى الغذاء نوعا من العلف حيثما اتفق من مخزونات حجرة حفظ الأغذية أو حجرة الطعام . وكانت مسز ويكس تذكر تلميذتها في تلك المناسبات — وهى لحظات الجوع التى تحتاج فيها الى كل ما تستطيعه المعلمة من مسائلة — ان « الحياة الحقيقية » التى يعيشها صاحبها ؛ والمجتمع اللامع الذى يرتادانه بالضرورة والمسرات المعقدة التى يكاد يعجز العقل عن تفصيحها ، لا بد أن تكون معالمها الحقيقية بعيدة عن تناول المخيلة مالم يرها المرء رأى العيان . وفى احدى المرات أدركت — رغم الصعوبات الكثيرة — أن مسز بيل أمست المبعث الأساسى لغيرة الليدى ثم نما الى علم الطفلة بطريقة ما أن زوجة أبيها كانت تبذل المحاولات كى تراها . وأن زوجة أبيها كانت تزعم أنها تنوب فى تصرفها هذا عن أبيها ، وأن أمها وقفت من هذا الأمر بأصرح عبارة موقفا صارما جدا . فالحالة — على حد قول مسز ويكس — بلغت منتهى التعقد بلا شك . وقد أعاد تصويرها للموقف فى ذهن ميسى تلك الصورة السعيدة التى تم بها التعارف بين السير كلود ومسز بيل . وهو أمر كانت تعود الى الخوض فيه مع زوج أمها فى أكثر من فرصة خلال الأسابيع الأولى من اقامتها فى بيت أمها ، وان لم تصرح بالكثير عنه الى مسز ويكس . وكانت تكن شكرا غامضا لمسز ويكس لأنها لم تحاول كما حاولت أمها أن تستخلص

منها ما حدث يوم جاء السير كلود لاصطحابها . وكان ذلك ما أسماه السير كلود اجراءات التحقيق عندما حذرها من البوح ، وعندما قال لها فيما بعد انها كانت « صديقا » شهما اذ ثبتت للمحنة . ثم حدث أن سألته — لعلها أن مسز بيل لم تتغل عنها في الحقيقة اطلاقا — ان كان لم يزل على صلة بها ، وان كان كل شيء في الوقت الحاضر يجب أن يعتبر منتها بينها وبين زوجة أبيها . وقد جرى هذا الحديث على أثر برونه فجأة ذات يوم الى حجرة الدراسة حيث وجد ميري وجدها .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامه

الفصل العاشر

كان يلخن سيجارة وهو واقف أمام النار يتطلع الى ما في الحجرة من معدات هزيلة بطريقة جعلتها تشعر بالخجل منها . ثم قبل أن يدعها « تستدرجه » بخصوص مسز بيل أبدى ملحوظة مفادها أن « ماما » تتركهما في الواقع مفتقرتين جدا الى كل ما يدخل في باب الزخارف . و « الاستدراج » كلمة أخرى من كلماته ، وكان مقدار ما تستوعبه من هذه الكلمات مدهشا حقا . وكانت مسز ويكس قد علقت مروحة يابانية ولافتين من لافتات النصوص تغلب عليهما الجحامة . وكانت تمنى لو كانتا أوفر نصيبا من البهجة ولكنهما كل ما تيسر لها . ولولا وجود صورة السير كلود لكان المكان مع هذا — على حد تعبيره — في مثل سماجة الطعام البارد . وقال أيضا انهما ينبغي أن تحصلا على أشياء كثيرة جدا . وكافت المربية والتلميذة منقسمتي الرأي — ولا بد من الاعتراف — بين مناقشة المواضيع التي تبدو فيها هذه الأشياء على أفضل وجه ممكن أن تيسر لهما أن تحظيا بها وبين الاعتراف بأن ما يعترى مجرى حياة الطفلة من التقلبات لا يسمح بطبيعة الحال بالاستكثار من تلك الأشياء . فهي لا تمكث في اقامتها الا ما يكفي من الزمن لاحساسها بالافتقار الى أشياء معينة ؛ ولكن هذه المدة لا تبلغ في طولها المدى الذي يجعلها أهلا للحصول عليها . وكانت الطريقة التي يقلب بها السير كلود ناظره في حجرة الدراسة قد أشعرتها بالضعة كأنما هذه الحجرة لا تختلف كثيرا عن علية البناء الرثة التي زارت فيها سوزان آس . وبعد ذلك قال في اشارة مفاجئة الى مسز بيل :

— أتعتقدين أنها متعلقة بك حقا ؟

فأجابه ميري :

— بدرجة هائلة .

— ان ما أعنيه هو هل تحبك لشخصك كما يقولون ؟ هل هي مفرمة

بك الآن كمسز ويكس ؟

وقلبت الطفلة الأمر في ذهنها ثم قالت :

— أوه . أنا لست كل شيء في حياة مسز بيل !

وبدا على السير كلود الاستمتاع بهذه الاجابة ، وقال :

— كلا . افك لست كل شيء في حياتها .

واسترسل في الضحك بضع لحظات ، ولكن هذا كان أمرا مألوفا لدى

ميري من قديم ؛ فلم يعقها كثيرا عن الاستطراد قائلة :

— ولكنها لن تتخلي عني .

— ولا أنا أيضا يا فتاي العزيز . فليس ذلك منها عجيبا جدا ؛ وهي

لا تنفرد به ؛ ولكن ان كانت كلفة بك الى هذا الحد ، فلماذا لا تكتب اليك ؟

— بسبب « ماما » .

وكان ذلك بديها ؛ فأوشكت أن تبدي الدهشة لسذاجة سؤال السير

كلود الذي أجابها بقوله :

— فعلا . هذا صحيح تماما . ولكن في وسعها أن تحتال للوصول

اليك وثمة وسائل كثيرة جدا لذلك . ولكن مسز ويكس عقبه في الطريق

طبعا .

فوافقته ميري على ذلك القول بلا موارد :

— هناك فعلا مسز ويكس . ومسز ويكس لا تطيقها .

فبدا على السير كلود الاهتمام وقال :

— أهي لا تطيقها ؟ ماذا تقول اذن عنها ؟

— لا تقول عنها شيئا مطلقا . لأنها تعلم أنى سوف أستينغ هذا .

أليس ذلك لظفا منها ؟

— قطعاً . لطف زائد . ولكن مسز بيل ما كانت لتجس لسانها لاعتبار

من هذا القبيل . أليس كذلك ؟

وتذكرت ميري أنها قلما تخرجت من ذلك فعلا ، بيد أنها رغبت في

حماية مسز بيل أيضا ، فكانت الحماية الوحيدة التي تسنى لها أن تفكر

فيها هي المذر التالي :

— أوه . انهم فى بيت أبى كما تعلم لا يبالون بهذه الاعتبارات .

فلم يزد السير كلود على أن ابتسم وقال :

— كلا . أحسبهم لا يبالون . أما هنا فنحن نبالى . أليس كذلك ؟

اننا نلزم الحيطة فيما نقول . ولا أخال هذه المسألة مما ينبغى لى أن أملا

بها تفكيرك بحيث تعجنين الى التعامل . ولكنى أعتقد أننا لا بد أن نكون

على الجملة أكثر رقة هنا من بيت أبيك . ولكنى لا ألح فى هذه المسألة ،

لأنها من قبيل المسائل التي يحرجك جدا الكلام فيها . لا تقلقى على كل

حال ، فانى أؤكد لك انى سأؤيدك .

وبعد لحظة ثاب وهو يسخن الى موضوع مسز بيل والى استفسار

الطفلة الأول ، فقال :

— أخشى ألا يكون فى وسعنا أن نفعل لها شيئا كثيرا فى الوقت

الحاضر . وأنا لم أرها منذ ذلك اليوم أقسم بشرقى انى لم أرها .

وفى اللحظة التالية تخرج وجه الشاب قليلا وهو يرسل ضحكة أقل

ما تكون بلاهة ، فلا بد أنه شعر بما فى اعلان براءته الى ميري من تطرف .

وكان لا بد له مع هذا أن يصارحها بأن أمها بطبيعة الحال تبغض سيده

البيت الآخر ، فليس في وسعه أن يذهب الى هناك مرة أخرى برضى زوجته . وليس هو بالرجل الذي يذهب الى هناك بغير رضاها . وتوسل اليها أن تصدقه . فتردى مرة أخرى رغم أنه في فرط الاهتمام بالتأكيد للفتاة أنه لا يختلس الزيارة وكان يجنح في حديثه معها الى اتخاذ لهجة تشي بأنها « رجل خبير بأمر الحياة » مثله تماما .. فلئن كان قد ذهب الى بيت مسز بيل ليأتي بميزي ، فالوضع في هذه الحالة مختلف كل الاختلاف . أما الآن وهي في بيت أمها فأى تعلقة يتذرع بها لأمها كي يزور زوجة أبيها ؟ ولا تستطيع مسز بيل بالطبع أن تأتي الى بيت ايدا ؛ فايدا حرة أن تمزقها اربا . وتذكرت ميزي بهذا الحديث عن التعلقات الى أى مدى بعيد جدا جعلت منها مسز بيل ذريعة طيبة ؛ وكيف أنه كتب عليها من هذه الناحية اما أن تكون موضع اعتماد كبير أو مصدر احساس بالافتقار اليها . واعترف السير كلود في هذه المناسبة أن الأمور ربما أخذت وجهة أخرى فيما بعد ، واختتم بقوله :

— انى واثق انها مخلصه في تعلقها بك اذ كيف يمكن أن تكون لها عن هذا مندوحة ؟ فهي صغيرة السن جدا . وجميلة جدا وبارعة جدا . وأعتقد أنها فاتنة . بيد أننا ينبغي أن نسير في الطريق المستقيمة وأنت تعلمين أنك ان ساعدتني سأساعدك .

فاتتهى من كلامه بهذا الأسلوب اللطيف من التأخى وخطاب الند للند ، الذى لا يشبه فى شىء الأسلوب المستشرف ، مما جعل الطفلة مستعدة أن تواجه أيما شىء فى سبيله . وكان جمال هذا الأسلوب — كما أحست به احساسا غامضا — أنه أقرب الى التفاضى عن حداثة سنها منه الى النزول الخادع الى مستوى هذه الحدائة .

وأورثها هذا لحظات من النشوة الخفية . لحظات آمنت فيها أنها

تستطيع أن تساعدك فعلا . وكان ما استغلقت عليها وحده في ذلك كله هو تلك الفترة الخطيرة من العمر التي يسميها من هم أكبر منها في أحاديثهم باسم حداثة السن أو الشباب . فما هو السير كلود يعتبر مسز بيل « حديثه السن » ، على نحو ما تعتبر مسز ويكس السير كلود صغير السن ، وهي صفة من بين المزايا التي تمتدحها فيه مسز ويكس . فماذا يكون اذن من أمر ميري نفسها ، وماذا يكون — اذا نظرنا الى المسألة من جانب آخر — من أمر « ماما » ؟ . واستغرقت بعض الوقت كي تدرك مستعينة بتجربة أو اثنتين — انه لا يستحسن الكلام عن شباب « ماما » . بل ذهبت ذات يوم الى حد أنها تساءلت وهي في حضرة لون تلك السيدة الكثيف وخطوطها الواضحة — هل من الممكن أن يخطر لأحد سواها أن يتكلم عن شبابها . ولكنها ان لم تكن شابة فهي اذن عجوز . وقد ألقى عليها زواجها من رجل ينتمي الى جيل غير جيلها ضوءا غريبا . ومستر فارانج أسن منها أيضا . فهذا أمر تعرفه ميري تمام المعرفة ، وقد أدى بها ذلك تأديا طبيعيا الى ادراك مبلغ كبير « بابا » حتما في السن بالنسبة لمسز بيل ، ما دامت مسز بيل أصغر سنا من السير كلود . وكان من شأن هذه الاكتشافات أن تبلبلها وتدهلها بعض الشيء : فهؤلاء الأشخاص فيما يبدو ليسوا في السن التي ينبغي لهم . وكان هذا على الخصوص بالنسبة لماما . مما جعلها تحس بشيء من الارتياح لأنها لم تخض مع مسز ويكس في موضوع ارتباط السير كلود بزوجته . وشعرت أنهما — ولا سيما مسز ويكس — اذ تقصران اتباهما على مشاعر الليدي الخاصة انما تسيطر على زمامهما الكياسة بل والحرص . وكانت خاتمة محادثتها مع زوج أمها في حجرة الدراسة قولها :

— فان لم يكن من المباح لنا أن نرى مسز بيل على الاطلاق ، فذلك
يتنافى مع الظاهر من اعتقادها عندما جئت لاصطحابي .
فبدا عليه خلو الذهن وسألها :
— وماذا كان الظاهر من اعتقادها ؟
— اتى جمعت بينكما !
فسألها السير كلود :
— وهل كانت تعتقد ذلك ؟
وعجبت ميزى لسرعة نسيانه هذه المسألة وقالت :
— كما جمعت بين أبي وبينها . ألا تذكر أنها قالت هذا ؟
فتذكر السير كلود وانطلق في عاصفة من الضحك :
— أوه . نعم . هذا ما قالته !
فاستطردت ميزى تقول بصراحة :
— و « أنت » أيضا قلت هذا !
فاسترجع في مرح متزايد تلك المناسبة برمتها ، ورد عليها وكأنهما
يتلهيان بلعبة :
— و « أنت » أيضا قلت هذا !
— اذن هل كنا جميعا مخطئين ؟
وتروى قليلا ثم قال :
لا . لم نكن مخطئين على الجملة . وأحسب أن هذا ما صنعته أنت
فصلا .. فنحن معا . وهو أمر في منتهى الغرابة حقيقة وهي تفكر فينا أفا
وأنت — وان كنا لا نلتقى . ولا شك عندي في أنك ستجدين كل شيء
على ما يرام عندما تعودين اليها .
فقالت ميزى لاهثة وكأنما تتشبث فجأة بالحاضر السعيد :

— وهل أنا موشكة أن أعود إليها ؟
ويبدو أن هذا السؤال ثابت بالسير كلود الى الجد برهة . ولعله قد
أشعره بمبعء الوعد الذى أعرب عنه ، ثم قال :
— أحسبك ستذهبن يوما ما ! أمامنا فسحة من الوقت .
فقلت ميزى وقد اتابها احساس عظيم بالجرأة :
— أمامى قدر هائل كى أعوض به ما فاتنى .
— قطعاً . ويجب أن تبذلى كل ساعة من الوقت فى ذلك . وسوف
« أتولى » ضمان تحقيقه !
وكان كلامه هذا مشجعاً ، فقالت لتظهر له سرورها بهذه الطمأنينة :
— هذا ما تكفل به مسز ويكس أيضا .
فقال السير كلود :
— أوه . نعم . أنا ومسز ويكس متآزران .
فأمضت ميزى النظر قليلا فى هذه الصورة القوية ثم هتفت :
— اذن صنعت أنا بك وبها ذلك أيضا : جمعت بينكما !
فضحك السير كلود وقال :
— هذا ما صنعته ولا مرأى ! وقد أفلحت فى هذا غاية الفلاح . لقد
فعلت « لنا » الكثير ! والآن لعلك تستطيعين — كما اقترحت فيما تعلمين
ذلك اليوم — أن تدبرى أمرى والدتك !
وتمجبت الطفلة قائلة :
— أجمع بينك و « بينها » ؟
— ليس أمرنا جميعا على الاطلاق . ولكن ما كان ينبغى لى أن
أفضى اليك بمثل هذه الأمور ولا سيما أنه لن يكون فى وسعك أن
تصلحى الأمر . ليس ذلك فى مقدورك يا فتاى العزيز .. فلسوف يعضلك

هذا . ولكن لا بأس .. سنواصل شق طريقنا . وأهم ما في الأمر أننا
أنا وأنت على ما يرام .

فرددت میزی عبارته باخلاص جم :

« نحن » على ما يرام ا

ولكن في اللحظة التالية سألته في ضوء ما قاله لها :

— ولكن كيف يتسنى لي أن أتركك ؟

وكانها ينبغي أن ترعاه على نحو ما . فكافأها على قلقها بإبتسامة وقال :

— لا حاجة بك الى تركي ا لن يصل الأمر الى هذا .

— أتعني أنني حين أذهب ستذهب معي ؟

فراوغ السير كلود في رده قائلاً :

— ربما ليس « معك » بالضبط ، ولكنني لن أكون بعيداً عنك ؟

— أعترف أنني لست أدري ا

— ولكن من أين لك أن تعرف الى أين قد تأخذك « ماما » ؟

فضحك مرة أخرى وقال :

ثم خطرت له فكرة وان كانت متطرفة في هزلها شيئاً ما :

— سيكون عليك أن تتكفلي .. بأنها لا تأخذني الى أبعد مما يجب .

فتساءلت میزی في دهشة :

— وكيف أستطيع ذلك ؟

ثم قالت ببساطة شديدة :

— ان « ماما » لا تبالي بأمرى بمبالاة حقيقية .

وكانت قصتها الصغيرة برمتها ، رغم طفولتها ؛ في هذه الكلمات .

وكان من المستحيل أن يناقضا وكانها من ذوى السن :

وجاء صمت السير كلود اقرارا بذلك الذى قالت . وكانت لهجته أدل على هذا حين أجابها بعد قليل :

— هذا لن يمنعها — بين الحين والحين — من أن تتركنى معك .
فسألته بلهفة :

— اذن سنعيش معا ؟

فأجابها السير كلود بإسما :

— أخشى أن هذه ستكون الفرصة الحقيقية لمسز بيل .

فهبطت لهفتها شيئا طفيفا عندما سمعت ذلك ، وتذكرت قول مسز ويكس أن المسألة كلها معضلة خارقة للعادة ، وقالت :

— فرصتها الحقيقية كى تستردنى ؟ ولكن أليس فى وسعك أن تأتى

لترانى هناك ؟

— ربما .

— ومع أن ميزى كانت قد فقلت بعض عناصر طفولتها الا أنها احتفظت

بتفضيل الطفولة الكامل للوعود المحددة فألحت عليه فى القول :

— اذن « سوف » تأتى .. ستأتى كثيرا . أليس كذلك ؟

وفىما هى تقول ذلك فتح الباب وعادت مسز ويكس . وعندئذ

لم يجيبها السير كلود بل رمقها بنظرة أسكتها وأشعرتها بالحرج .

ولما وجد خلوة أخرى مناسبة — وقد اتفق أن استغرق ذلك بعض

الوقت — استأنف حديثه من حيث انقطع بالضبط قائلا :

— الواقع يا عزيزتى انه ان كان لى أن أذهب اليك فى بيت أيبك ،

فليس الوضع كذلك بالنسبة لقدم مسز بيل اليك هنا .

ووافقت ميزى وهى غارقة فى التفكير على هذا الرأى وان كانت رغم

شعورها بالفرق عجزت عن أن تحدد بالضبط كنه هذا الفرق . وشعرت

بمدي ما جنبها زوج أمها — على حد قوله بدعابته المألوفة — من مؤونة
الاهتداء الى هذا الفرق اذ قال :

— ربما تسنى لى أن أذهب لدى مسز بيل بدون علم والدتك .
وحصلت ميزى لما أثارته هذه العبارة فيها من عناصر « الدراما »
وقالت :

— ولكنها لا تستطيع أن تأتي الى هنا من غير أن تكون « ماما » .. ؟
وعجزت عن لطق الكلمة التي تعبر عن مرادها بشأن « ماما » .
— ذلك أن مسز ويكس يا طفلى العزيزة حرية أن تخبرها .
فاحتجت ميزى قائلة :

— ولكنى كنت أحسب مسز ويكس وأنت ..

فسايرها السير كلود فى القول :

— رفيقى سلاح ؟ نعم ، فى كل شىء الا فيما يتصل بمسز بيل . وان
كنت بصدد أن تقترحى علىّ أن تخفى زياراتها المسترقة على نحو ما عن
مسز ويكس ..

فقاطعت ميزى بدورها فى حزم قائلة :

— أنا لست أقترح « هذا » !

فتطلع اليها السير كلود وكأنه يدرك حقا سبب ذلك وقال :

— كلا . فهذا سيكون مستحيلا حقا .

وعندئذ عنّ لها من هذه النظرة الى ما قد يستطيعان اخفائه أول ادراك
استشفت به أول لمحة صغيرة من خلة لم تكن تتوقع أن تكون فيه وقد
مرت عليها أوقات كانت تبذل فيها قصارى جهدها لتحصل احساسها بأنها

مخادعة شخصيا . ولكن لم يبدر منها على الاطلاق التفكير في اخفاء شيء يتجاوز مجال الخواطر . وهي الآن بطبيعة الحال قد أخفت ذلك الخاطر الذي يدور حول دهشتها من رؤيتها « له » يخفى شيئا . وفيما هي مشغولة النفس بهذا الأمر ؛ استطرد قائلا :

— ثم انى كما تعلمين لا أخاف أباك .

— وتخاف أمى ؟

فأجابها السير كلود قائلا :

-- جدا يا صاحبي العزيز !

الفصل الحادي عشر

ولا ينبغي أن يسبق الى ذهننا أن فترات صمت فخامة الليدى لم تكن مقرونة بحملات من نمط آخر ، ألا وهى الدخول بهيئة الظافر ثم السكوت الذى تحبس فيه الأنفاس وهى تلقى نظرة فاحصة على كل شىء فى الحجرة ابتداء من حالة السقف الى حالة مقدم حذاء ابنتها ، وكانت نظراتها تلك حافلة بالنيات . وكانت تجلس فى بعض الأحيان . وفى أحيان أخرى تجوس أنحاء المكان جائشة النفس ، ولكن سلوكها فى الحالتين كان يتخذ السمة العملية المتعالية . وكانت تجد الشىء الكثير مما تأسى له وتخلف وراءها شعورا بتوقع الشىء الكثير ، وتموج بالتقديرات والتدبيرات حتى ليبدو أنها تنشر الاصلاحات والتعهدات . لقد كانت زيارتها بمثابة عتاد ، وأسلوبها — كما قالت مسز ويكس عنه — بمثابة ستارين ، بيد أنها كانت مياالة بطبعها للتطرف : تكفى فى بعض الأحيان بالتحديث الى طفلتها ؛ وفى أحيان أخرى تضم عودها الفص الى صدر لاحظت مسز ويكس أيضا أن فتحة ثوبه شديد الانحصار . وهى على الدوام على عجلة مخيفة من أمرها . وقد لوحظ أنه كلما زاد انحصار فتحة الصدر كان ارتباطها بسرعة الذهاب أشد الحاحا عليها . وكان حضورها المفاجيء فى العادة بمفردها ، ولكن السير كلود كان يصحبها أحيانا . ولم يكن فى هذه الزيارات فى مدتها الأولى ما يثير الجور بمظهره مثل ما كان يبدو على الليدى — كما قالت مسز ويكس — من أنها كالمسحورة . وكانت مزيى تصيح مثيرة فى تأمل الى ذلك التعليق المألوف بعد أن يكون السير كلود

قد جرف « ماما » ليخرجا وهما يطلقان ضحكات طبيعية مجلجلة :
— أليست حقا مسحورة ؟ !

فلم يسبق لها أن سمعت ولا حتى في الأيام الخوالي على عهد السيدات المرتعصات ، أمها تضحك بهذه الطلاقة كضحكتها في لحظات انقيادها الزوجي هذه وفي مرح استطاعت حتى الفتاة الصغيرة أن تتبين حقا فيه آخر الأمر ، تلك الفتاة الصغيرة التي كان كل تفكيرها الآن منصبا على تأمل البشائر والمرح الذي تنتظر سنوحه في أنانية قريرة .

وفي الأوقات التالية حين تأتي بمفردها كانت ايدا تتخذ لهجة محيرة ومقتضبة في ظاهرها — رغبة منها في تغيير سلوكها لمواجهة ما طرأ على الظروف من تغير — لهجة من نزلت نزولا كلفها ثمنا باهظا عن كل شيء للسير كلود وتريد من الآخرين أن يعلموا أنه ان لم يكن كل شيء على ما يرام فلان السير كلود غامض غاية الغموض .

وفي احدي المناسبات قالت لميزي :

— لقد أثار في أول الأمر شجارا هائلا بسببك حتى اننى قلت له ان يتولى أمورك بنفسه ويرى الى أى حد سيروقه هذا . أترين ؟ لقد غلغت يدي من وزرك . لقد تخليت له عنك . فان كان هناك ما يسخطك فعليه هو من فضلك ينبغي أن تنحى بالملام . فلا تتجهم باللوم الى « أنا » المسكينة . فلدى — أؤكد لك — من المكدرات ما يكفينى .

وكان واضحا من بين هذه المكدرات تعرض ذلك السحر الذي كان موضع استمتاع كبير حول نار حجرة الدراسة لخطر التحطيم . ومنها أيضا أنها صارت مجبرة في النهاية على الاعتراف بعدم جدارة زوجها بمواجهة المسؤوليات الحقيقية . ثم جاء اليوم الذي عرفت فيه سامعتها المذهولتان وقد حبستا أنفاسهما أن خطبه الحقيقي ببساطة هو افتقاره

للأسف الى الجد . وبكيت ميزى على صدر مسز ويكس بعد أن سمعت أن السير كلود نزق كالفراشة . وراحت الى جانب هذا تفكر فيما خرجت عليها مريبتها في غضون بضعة الأيام التالية من تبرير جزئى قائلة انه مما يتفق و « مقامه » أن يكون طليقا غير مكترث . وهما صفتان توافقان مقام كل انسان التقت به حتى الآن فيما عدا مقام مسز ويكس نفسها . ومزية السير كلود البارزة أنه كان يبدو مختلفا عن سائر الناس . وبمرور الوقت راحت تتحدث اليه بحرية تامة عن أمها ، فهي تشعر في هذا الصدد معه باتفاء الخوف الذى كان يلزمها الصمت أمام أبيها ، ألا وهو الخوف من نقل الأقاويل وزيادة الأمور سوءا على سوء . وأبدى اقراره لمسألة اضطلاعها بشئونها وجعلها — على حد قوله — خدينه الخاص الأثير لديه . ووافق أيضا على أنه غشاش فظيح وحيوان تافه كسول شديد الحماسة . ولم يقل لها مطلقا كلمة واحدة ضد أمها . بل ظل متبلدا ثابت الهمة في مواجهة حدة الليدى البالغة الجد . وكانت ثمة مناسبات كان يتحدث فيها وكأنه اتزع ربيته الصغيرة اتزاعا من بين ذراعى شخص ناضل في سبيلها بالظفر والنااب .

وكان هذا هو المفزى الصحيح لمشهد شجار اندلع لظاه ذات يوم عندما كان الأربعة مجتمعين بالصدفة وليس معهم أحد في حجرة الاستقبال ، ووجدت ميزى نفسها وقد ضمت بشدة الى صدر أمها التى راحت تنتحب بحرقة وتصرخ فوقها ، وقد صارت موضوعا لحملة لايد أنها جاءت على أثر مناوشة حادة وقعت لتوها . وقد اقتضاها المنطق في هذا الموقف أن تقول عن الطفلة وهى بين أحضانها كلاما فظيما يوغر الصدر وهى تندد بالسير كلود وترميه بأنه سبب هذا الاتهالك ، فتصرخ قائلة :

— لقد أخذك منى . لقد غرس فيك العداء لى . واستطاع أن

يكسبك لجانبه وتسم عقلك الصغير الشع ! لقد انحزت اليه وصرت في صف أعدائي تضرين لى البغضاء . فأنت لم يحدث منك اطلاقا أن فتحت فمك معي — وأنت تعرفين هذا جيدا! — ولكنك تثرثرين معه كأنك سرب كامل من طيور العمق . لا تكذبي في هذا الخصوص فاني أسمع صوتك في كل مكان . وتعلقين به وتلازمينه بطريقة تكاد تتنافى مع الاحتشام . ففى مقدوره أن يصنع بك ما يشاء . ليكن له ذلك ، ما شاء له هواه . لقد كان متلهفا على الاستيلاء عليك ، وسرى الى أى حد يروقه أن يحتفظ بك . وانها لطيبة قلب مفرطة من جانبى أن أحطم فؤادى كمدا عليك وأنت لا شعور لك من نحوى يزيد عن شعور سكة صغيرة لازجة ! وفجأة دفعت الطفلة بعيدا عنها فى حركة اعتراف متقزز بالفشل . فاندفعت الفتاة عبر الحجرة الى أحضان مسز ويكس التى لاحظت ميزى فى تلك اللحظة — بل وهى وسط دوامة عبور الحجرة — أنها محمرة الوجه جدا وتبادل مع السير كلود نظرة سريعة .

وبقى لديها أثر هذه النظرة التى رفعت عنها بما تحمله من نقد لانفجار غضب أمها — حتى لقد تضاءل احساسها بالخزى لما تجشمته من تعنيف مقرون بالنبذ . لقد رماها أبوها ذات مرة بأنها حيوان صغير لا قلب له . وها هى الآن — على الرغم من فزعها الواضح — متصلبة الأوصال باردة كأن هذا النعت منطبق عليها حق الانطباق ؛ فلم يبلغ من ارتياحها أن تبكى ، وكان البكاء حريا أن يكون الضريبة التى تستحقها اساءات أمها . ولكن الصفة الغالبة عليها كانت الفضول الى معرفة الرأى الصامت الذى عبر عنه رفيقاها . وقد اتهمت أول فرصة سنحت لها فسألت مسز ويكس فى ذلك الصدد فحصلت منها على الاجابة الغريبة التالية :

— انها يا عزيزتي لعبة فخامة الليدى التى تلهى بها . فيجب علينا أن نثبت مستميتين فى المقاومة .

وكان فى مقدور ميسى أن تتأول هذه الكلمات المنذرة بالشر على مهل . وكانت خواطرها فى الواقع فى تلك الفترة تتكاثر تكاثرا حثيثا . ومن هذه الخواطر تأكد لديها أن مريبتها تتبادل سرا أحاديث جادة غير قليلة مع زوج أمها المقترى عليه . وفطنت فى ضوء حادث آخر أن شيئا ما بعيدا عن تناول علمها وقع فى البيت . والأشياء التى تتجاوز نطاق علمها — وما أكثرها فى الحقيقة — لم تكن حتى الآن تعتقد أنها أقرب الأشياء إليها . اذ كانت فيما مضى تعتقد اعتقادا متينا أن فى يدها طرف الخيط دائما وسط هذا التيه العائلى . وقد استطاعت أن تكتشف هذا الأمر أخيرا بمساعدة مسز ويكس لها مساعدة مستورة : فقد سحبت منها فجأة رعاية السير كلود لها . اذ كان تعقيبه على لعبة الليدى هو اقدمه فى الحال على السفر بمفرده الى باريس . ولا بد أن الدافع له على هذا رغبته فى اظهار التحدى بعد أن اتهم بسوء السلوك . وشعرت ميسى أنه قد يكون مفرما بابنة زوجته ولكنه لا يريد أن يلقى بها على كاهله بهذا الشكل . فمن الواضح أن غيبته كانت احتجاجا على هذا الالقاء بها عليه . وفى غضون امتداد هذه الغيبة استطاعت فتاتنا الصغيرة أن تكتشف أخيرا أن ما حدث فى البيت هو أن أمها لم تعد عاشقة .

لقد صح لديها أن أمها وصلت فى شغفها بالسير كلود الى نهايته قبل اليوم الذى دخلت فيه فخامتها مندفعة فجأة الى حجرة الدراسة بيضعة أيام كى تخدم مستر « بريام » الذى لم يصدق أذنيه — وهى تعلن مقدمه الى ميسى وهى واقعة عند الباب — اذ سمع أن لها ابنة كبيرة بهذا الشكل . وكان مستر بريام قصيرا ركيئا — وقد قالت مسز ويكس بعد ذلك انه

« لا تسمح له بداعته المفرطة بالسير الحثيث » — وكان من العسير أن يقرر المرء أيهما أظهر للعين صلته أم كثافة شاربه . وكأنما كان له أيضا شاربان فوق عينيه . ولكن هذين الشاربين لم يحولا على الاطلاق بين هاتين الكرتين الصغيرتين اللامعتين والدوران في الحجرة كأنهما كرتا بلياردو دفعتهما احدى ضربات ايذا المشهورة . وكانت تزين يد مستر بريا التي يجذب بها شاربه ماسة يخطف بريقها الأبصار . وبسبب هذا البريق الخاطف وثقل وزنه عموما وخفاء أمره قالت فتاتنا الصغيرة عند انصرافه انه لو كان معتمًا بعمامة لكان صورة مطابقة لتصورها لرجال الأتراك .

فأجابتها مسز ويكس :

— انه صورة طبق الأصل لفكرتى عن اليهود .

فقالت ميزى :

— انى أعنى على كل حال شخصا قادما من الشرق .

— لا بد أن يكون قادما من هناك . انه من رجال حى الأعمال .

وبعد برهة استطرحت قائلة وكأنها تعرف كل شىء عنه .

— انه من أولئك الذين هبط عليهم الثراء أخيرا فجأة . انه سيكون

فاحش الغنى .

فسألته الطفلة باهتمام :

— على أثر وفاة والده ؟

— لا يا عزيزتى . ليس غناه عن طريق الوراثة . ان ما أعنيه أنه جمع

مالا طافلا .

فسألته ميزى :

— كم يبلغ ذلك فى رأيك ؟

ففكرت مسز ويكس ثم قالت بصورة مجملية :

— ملايين كثيرة .

مائة مليون ؟

ولم تكن مسز ويكس واثقة من العدد ، ولكن كان هناك من الملايين حسبها للتدفئة في الوقت الحاضر في حجرة الدراسة الفقيرة ، ولكي يتخلف هناك وهج خافت من بقايا ذلك النور القوي الذي صب في الحجرة مستر بريام . وهذا النور من جانبه بلا شك ثمرة من ثمار الاستماع بالحياة ، ذلك الاستماع الذي لمسته ميري لدى من هم أكبر منها منذ سنواتها الباكرة . وهو علامة على النضج السعيد وعلى روح الألفة التي تبدو في فيض من البشر . وضحك الرجل وأوماً برأسه الى المخلوقتين المأخوذتين قائلاً :

— كيف حالك يا سيدتي ؟ كيف حالك أيتها الأنسة الصغيرة ؟

واستطرد موجهها الكلام الى ميري :

— لقد أتت بي الى هنا لألقى نظرة سريعة . فالحق أنني ما كنت لأسلم بوجودك من غير مشاهدة . فهي لا تكف عن الكلام عنك ، ولكنها لا تظهرك أمامنا اطلاقاً . فتحدثتها اليوم أن تريني اياك على الفور . وأني أسلم بأنك لست حديث خرافة يا عزيزتي . وان كان من الممكن طبعاً أن تكوني أسطورة بكل تأكيد !

فقالت ايذا :

— لقد أضجرته بحديثي عنك يا عزيزتي . وأضجرت كل انسان . وقد أخبرته لأثبت أمك لطيفة ومخيفة في آن واحد أنه يستطيع أن يحكم على ذلك بنفسه . وها هو الآن يرى فيك مخلوقة هائلة فظيعة ، ويرى في أمك المسكينة عجوزاً في التين على الأقل !

ورشقت فخامتها مستر بريام بابتسامة تقطر بذلك السحر الذي سمعت
ابنتها وهي في بيت أبيها أولئك السادة المرحين الذين كثيرا ما حاولوا
أن يفرروا به ويمزونه اليها . وكانت هيئتها في تلك اللحظة قد أتاحت
للطفلة لمحة أشد حيوية مما سنع لها أن تحظى به حتى الآن من قوة هذا
السحر الذي كان والدها ينفي دائما — في لغة بارعة — أنها تستطيع
استخدامه :

ومع هذا يبدو أن مستر بريام أقر لها به في اجابته المرححة عليها :
— أنا لم أقل مطلقا انك لست رائعة . هل قلت ذلك مطلقا ؟
واستشهد في ثقة لطيفة بحجرة الدراسة التي لا بد أنه شعر بأنه مطالب
بأن يقول عنها شيئا ، فقال وهو ينظر حوله نظرات غامضة :
— هذه اذن حجرتهما الصغيرة ؟ بديع . بديع . بديع !
فتشبثت كل واحدة منهما بالأخرى كأنهما مستهدفتان شخصيا
للفحص ، ولكن ايذا خفت ما بهما من حرج بهزة من كنفها العاليتين .
وكانت الابتسامة التي وجهتها هذه المرة الى مستر بريام يقطر جمالها
بأسي مفاجيء :

— وماذا في وسع امرأة فقيرة أن تصنع ؟
وازدادت حركة ملامح الزائر وضوحا وهو يواصل النظر ، وازداد
احساسهما بأن حجرة الدراسة الصغيرة قد تحولت الى قفص في معرض
للوحوش . وعاد مستر بريام يقول في الحاح :

— بديع . بديع . بديع !
ولكن القوسين الذين فتحهما أغلقا فجأة بصوت مسوع . وقالت
الليدى :

— ها أنت قد رأيت . الى اللقاء !

وقد وجهت اليه هذه الكلمة الأخيرة بحدّة ، وفي اللحظة التالية كما
يهبطان السلم . ووقفت مسز ويكس ورفيقتها في فرحة السباب تبادلان
النظر في صمت تترامى اليهما أصوات التيار الاجتماعى العريض الذى
جبل الزائرين عائدا بهما الى حياتهما .

ولعله كان عجيبا أن ميزى لم توجه قط بعد هذه الأسئلة سؤالا عن
مستر بريام . وكان أعجب من ذلك أنها عرفت في مدى أسبوع كل
مالم تسأل عنه . وأهم ما وصل الى علمها — وقد أتاها نبؤة مباشرة من
غير أن تطلبه من مسز ويكس — أن السير كلود ليس حريا أن يكثرث على
الاطلاق لزيارات مليونير يكثر من التردد على الحجرات العليا . وكان
مدى عدم اكترائه ثابتا من أن تكتم مسز ويكس بخصوص تلك الزيارات
انهار تماما . وهى الكفيلة أن تنقل ولاءها وأن تضحى تضحية يائسة
باليدى على مذبح اللياقة . وكم من مرة أعلنت أنها مستعدة أن تبذل
نقصى جهدها لمؤازرتها ضد مسز بيل أما ضد السير كلود فليس فى
وسعها أن تقدم على شيء اطلاقا . وكان خارقا للمألوف عدد الأمور التى
استطاعت أن تعرفها ميزى من غير أن تسأل عنها عندما وصل زوج أمها
عائدا من باريس ، حاملا اليها جهازا بديعا للرسم بالألوان المائية ، وحاملا
الى مسز ويكس — بهوة من سهوات الذاكرة كان يمكن أن تكون
مضحكة لولا ما أحدثته من بلبلة يسيرة مظلة ثانية أكثر أناقة من الأولى ،
فقد نسى كل شيء عن تلك المظلمة الأولى التى لفت حولها من الأغطية
ما جعلها أشبه بمومياء فرعونية وكانت تأبى مهما كان الاغراء أن تدنسها
باستعمالها . عرفت ميزى فوق كل شيء أن مسز ويكس — وان كانت
تعتبر الآن بتواطؤ غير رسمى منحازة الى « جانب » السير كلود —
لم تبج لها بكلمة واحدة عن مستر بريام . فأضحى ذلك السيد لونا من

السر المزدهر الذي تتبادل المربية والتلميذة النظرات بخصوصه محاذرتين منذ عاد اليهما صديقهما . وقد عاد في اقبال شديد ، ولوحظ أنه وان كان قد تخلى عن حاجته الى الوقوف بوقف المعارضة من تحمیل كاهله بذرية سواه ، الا أنه في هذه المدة عرض نفسه أكثر من ذي قبل للظن بأنه صار يتوقع تحسنا واضحا في أحواله .

ولئن كان قد وصل الأمر الآن بالمسألة الى حد تحديد « الجوانب » فهناك على الأقل دليل واضح على الجانب الذي يقفون فيه جميعا . وميزى بطبيعة الحال في مثل هذا الموقف الدقيق ليست في جانب أحد ، أما السير كلود فيبدو عليه جدا أنه في جانبها . واذا كانت مسز ويكس في جانب السير كلود ، فالليدى في جانب مستر بريام ، ومستر بريام — تخمينا — في جانب الليدى . ولا يبقى الا تحديد وضع مسز بيل ومستر فارانج . ومسز بيل من الواضح أنها — شأنها في ذلك شأن السير كلود — في جانب ميزى . أما « بابا » فالمفروض أنه في جانب مسز بيل . وهنا في الواقع موضع لبس يسير : لأن وجود « بابا » في جانب مسز بيل لا يبدو أنه يجعله في جانب ابنته بالضبط . فبدت المسألة في نظر فتاتنا الصغيرة وهي تقلبها في ذهنها أشبه شيء بلمبة معقدة . ولم يكن في وسعها سوى التساؤل هل توزيع الجوانب من شأنه أن يؤدي الى الاندفاع جيئة وذهابا وتغيير المواضع . وأحست أنها بازاء تغير لا ينقطع . ولم يكن حسبها من عدم الاستقرار أن أمها وزوج أمها صارا بالفعل في جانين مختلفين ؟ وهذا هو الشيء الهام الذي حدث في محيط الأسرة . يضاف الى هذا أن مسز ويكس بدت في مظهر جديد . انها لم تكن قط مرحة بمعنى الكلمة ، بيد أن توجهها صار الآن خطة سافرة مثل الاعلانات الملصقة في الشوارع . فكأنها وهي جالسة في ثوبها الجديد وتفكر في

كياستها الضائعة التي أصبحت ذكرى مؤسية تكاد تلحق في تلك الصفة
بذكرى المسكينة كلارا ماتلدا . وكثيرا ما قالت لرفيقتها :
— انه لأمر شديد الوطأة عليه .

وكان من العجيب أن ميزى شعرت أن لديها الخبرة في هذه المسألة
بالقدر الذي يتيح لها الاتفاق معها في هذا الرأي . كانت الوطأة شديدة
حقا ، بيد أن السير كلود أظهر منتهى التجمل في تحمل هذه الوطأة بأسلوبه
الاجتماعى السمع الذى ابتعث من مسز ويكس عددا هائلا من عبارات
الارتياح لأنه لم يسمح لهذه المحنة أن تملأ نفسه بالمرارة . وصار في
المدة الأخيرة يكثر من التردد على حجرة الدراسة حيث بدأ يدرك بوضوح
أنه وقد عهدت اليه بمهمة تقويم الطفلة البريئة فمن حقه كذلك على الأقل
أن يجد في تلك المهمة تسليته . ولم يكن يدخل ذلك المكان الا ويقول
لشاغليه أنهما أطف أهل البيت . وهى ملحوظة كانت تحملها على أن
تقول كل منهما للأخرى « مستر بريام » ! بأعلى صوت يمكن أن تفصح
عنه الشفاه المطبوقة والعيون المحملقة . وحمل ميزى على أن تتذكر ما قاله
من قبل لمسز بيل من أن لديه طبيعة الحاضنة المجيدة ، وتورطت الى أبعد
مما كانت تحب أمام مسز ويكس في افشاء الحكاية كلها اذ قالت له ذات
مرة أنه ما من حاضنة من حواضنها المجيدات دخنت بهذه الكثرة في حجرة
الأطفال . ولم يكن لهذه العبارة من الأثر في سجائره أكثر مما قصد منها ،
فظل يدخن باستمرار ؛ ويؤكد على الدوام أن حرمانه من الحياة العائلية
يوشك أن يقتله .

وكان بعد كل شيء يحيا نوعا من الحياة العائلية في حجرة الدراسة .
وكانت ميزى في ساعات متأخرة من المساء تعلم أنه يجلس بعد ذهابها الى
العراش ليتحدث هناك مع مسز ويكس في الكيفية التي يواجه بها

مشكلاته . وكان تقديره لتلك المرأة عاترة الجدد وهو في معمان مشكلاته يظهره بمظهر السيد المهذب الكامل ؛ فهو يرتفع بمن وجه اليها مجاملاته الى ذروة عالية من ذرى الغبطة تضرب فيها كبرياؤها باللهفة الصامتة وكان حسبها أن تقول بين الحين والحين :

— انه يتكء على . انه يتكء على ا

وقد كانت دهشتها أكبر من استرواحها عندما اكتشفت بالصدفة فيما بعد أنها أوحى الى تلميذتها عن طريق هذه العبارة بأن شخصها كان سندا ماديا لها . فقادها هذا اللبس الى الايضاح الصريح ، فبسطت أمام الطفلة — في حزن ظاهر حقا على مثل ذلك النزول الى مستوى العامة — ان ما يتحدثان فيه حتى ساعات الصباح الأولى كما يقولون هو موضوع استيلائه على ناصية الحياة استيلاء صائبا . والحياة التي تريد له هي أن يحسن الأخذ بناصيتها هي الحياة العامة . وأبادر فأقول انها « هي » في هذا المقام ليست سيدة مصيرة بل مز ويكس نفسها . وكانت لها عبارات في حديثها عنه يسيرة الفهم بيد أنها جافلة بالحكمة الخلقية :

— ان له طبيعة رائعة ، ولكنه لا يستطيع أن يعيش كالزنايق . وهو على ما يرام كما تعلمين ولكن لا بد له من اهتمامات عالية .

وقد قالت لها أكثر من مرة ان أموره شديدة الارتباك ، لكن يجب عليها — أى ميزى وهى معا على ما يظهر — أن توصله الى عضوية البرلمان . وأخذت منها الطفلة مأخذ التسليم وباتفاضة أهمية زائدة أن البرلمان هو مجاله الطبيعي . وكان استعدادها لادراك العقبات أقل من ذلك لأنها لم تسمع في حياتها قط عن أمور لأى انسان خالية من الارتباك . فهى قد سمعت ذات مرة في الأيام الخوالي ان أمورها الخاصة مرتبكة . ولما كان هذا القول قد أنعشها لأنها أدركت منه أن لها « أحوالا » ، فهى

لذلك لم تشعر بالضيق على الاطلاق . والحقيقة التي قد تكون مفزعة
بعض الشيء أنها لم تسمع بعد ذلك بشيء في هذا الخصوص . وكان
البرلمان مطمحا حاقلا بالسحر على أى حال اذ تفكر في وصول السير
كلود اليه يوما من الأيام ، ولا سيما بعد أن ذهبت مسز ويكس — على
أثر مزيد من المناقشات في منتصف الليل — الى حد القول بأنها تعتقد
أن هذا هو كل ما يلزم لاقاذه . فكانما كانت محدثتها وقد خرجت عليها
بهذه الكلمة غائصة ثم طفت على السطح في موضع آخر على نحو ما تفعل
« ماما » في كلامها . فحملت الطفلة وكأنها تنظر الى كنفر وثب أمامها
فجأة وسألتها :

— اقاذه من ماذا ؟

— ففكرت مسز ويكس ثم غاصت الى مسافة أبعد وقالت :

— من الفاقة الفظيعة بالطبع .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثاني عشر

ولم تكن قد شرحت في حينه حديثها الحافل بالنذر ، بيد أن هدوء الأحداث البارزة سرعان ما أتاح لرفيقها أن تتين فحواء . فقد يحق لنا أن نقول ان تلك الأيام تسببت في اذكاء ما أوتيته ميري من قدرة على الادراك المباشر ومن احساسها بحريتها في تفهم الأمور بنفسها وقد أعانها على ذلك شعور لا يمكن أن يوصف في حد ذاته بالمذوبة ، ألا وهو الشعور بيوادر الخطر التي كانت تحتل جالبا كبيرا من خواطرها . فلم تكن بحاجة الى من يقول لها — كما قالت لها مسز ويكس غداة تكشف الخطر المحقق بالسير كلود — ان أمها تزداد لهفة بمضى الوقت على معرفة السبب الذي عاق — بحق الشيطان — أباهما عن الارسال في طلبها ، لأنها منذ زمن طويل جدا كانت تتوقع أن يفصح فضول أمها في هذا الصدد عن نفسه بشدة . وكان في استطاعة ميري أن تواجه مثل هذا الضغط ما دامت مواجهته لها أن تجيب بكلمات من وحي اللحظة بأن والدها يفضل أن يشنق قبل أن يسمح بالقائها على كاهله . وتبينت عندئذ وجه تلك الساعة التي كثيرا ما رأتها قبل حلولها بوقت طويل في لمحات مضطربة ، ألا وهي الساعة التي تذكر أن التعبير عنها صدر من مسز بيل ، وفيها تجد نفسها ولها أبوان وأمان وبيتان ، وعدة هؤلاء الرعاة لشأنها ستة ، فلم تعد تدري « أيان » تذهب . ولم يقلل من الخوف الذي استشعرته بإزاء ذلك الخطط أن مسز ويكس نفسها اتابها الفزع فجأة ، مما جعل ميري تدرك بمزيد من اليقين أن تلك السيدة يتتابها الرعب على مصير نفسها أكثر

ما ينتابها على مصير تلميذتها فالمربية التي ليس لديها الا ثوب واحد ليس من المحتمل أن يكون لها أبوان وأمان . فلئن كانت ميري مهددة ولديها هذه الموارد أن يلقى بها في عرض الطريق ؛ فماذا يكون — بحق كل ما هو فظيح — مآل مسز ويكس المسكينة ؟ لقد وقع فيما يظهر بينها وبين ايدا احتكاك هائل انتهى بأن طلبت اليها أن تتفضل على الفور بحزم متاعها وهكذا تمت فجأة آية السوء التي كانت تخشاها . وتكاشفت الرفيقتان بمخاوفهما التي كانت كل واحدة منهما تخفي في نفسها أسوأ وجوهها ، بيد أن مسز ويكس كانت أحسن حالا من حيث ان لديها خطة دفاعية أبت في الواقع أن تفضي بها الى أن يكتمل لها النضج ؛ الا أنها في الوقت نفسه سارعت الى الافصاح عن رسوخ أقدامها في حجرة الدراسة ؛ بحيث لا يمكن اقتلاعها الا قسرا : فهي ربما « رحلت » انصياعا لتدخل الشرطة ، ولكنها لن ترحل تحت ضغط الاساءة فحسب ؛ لأن ذلك من شأنه أن يخدم أغراض الليدي ؛ فحملها على التخلي عن عزيزتها يحتاج الى جهد يفوق ما حدث بالفعل أضعافا مضاعفة . وكانت حملة الليدي بالغة العنف ، وذلك عرض من أعراض كثيرة تنبى عن توتر الموقف — على حد قول مسز ويكس :

بينهم جميعا . و لاسيما بين الاثنتين .

توترا لله وحده يعلم مداه والى أى شيء يؤدي .

ولكن وصفها هذا للالزمة جعل الطفلة تآرجح في تفكيرها :

— بين أى اثنتين ؟ بين بابا وماما ؟

— كلا بالطبع . بل أعنى بين ماما وبينه « هو » .

ووجدتها ميري فرصة سانحة للمكر فقالت :

— « هو » ؟ .. مستر بريام ؟

فدفعت هذه الكلمة منها بحمرة الحياء الى الوجه المرتاع .
— لا بد لي يا عزيزتي أن أقول لك ان ما « لا » تعرفينه لا يستحق
الخوض فيه . وان الحال لن يدوم الى الأبد مع مستر بريام . ثم — ما دام
لا بد من اجابتك — من الذى يدري ؟ انما عنيت عزيزنا السير كلود .
وكان شعور ميسى بتصحيح تفكيرها أكثر من شعورها بالردع .

— فهمت . ولكنه غاضب بسبب مستر بريام ؟

وتريثت مسز ويكس قبل أن تقول :

— انه يقول انه ليس غاضبا بسببه .

— ليس غاضبا ؟ هل قال لك هذا ؟

فنظرت اليها مسز ويكس نظرة قوية وقالت :

— ليس غاضبا « بسببه » .

— اذن فهو غاضب بسبب شخص آخر ؟

وازدادت نظرة مسز ويكس اليها قوة وهى تقول :

— بسبب شخص آخر .

فهتفت الطفلة على الفور :

— « اللورد اريك » ؟

فازداد اضطراب مريبتها فجأة وقالت :

— ولماذا أيتها الصغيرة التعمة تناقش فى أسمائهم الكريهة ؟

وألقت بنفسها للمرة المليون على عنق ميسى . ولم يستغرق الأمر
من تلميذتها سوى لحظة كى تشعر بأنها ترتجف من فرط التوجس ، فأدى
التلامس بين فرعيهما بالائتين الى الانتحاب بمد لمحة واحدة وكل منهما
تحتضن الأخرى . فلما هدأت أعصاب مسز ويكس تماما ، وقد أصابها
من الوهن فى روحها مالم يصبها قط من قبل ، سمحت لجرحها أن ينزف

دعه ولاستيائها أن تفجر ينايحه وكان أشد ما يحز في نفسها أن ايدا رمتها بالفض ونددت بريائها وثاقها وتجسها ونيمتها وكذبها على السير كلود وتزلفها اليه . وأخت المرأة المسكينة تولول :

— أفا . أنا التي رأيت ما رأيت وتحملت كل شيء لأستر عليها وأسرى عنها وأهدىء من ثأرتها ؟ فلئن كنت مرائية ، فلانى فعلت عكس ما رمتى به ، اذا دعيت له ولها ولنفسى ولك ولكل انسان أنى « لم » أر شيئا . وانى لا أستحق ما حاق بى لأنى عقلت لسانى أمام هذه الفظائع .

وأبت رفيقتها أن تضيق عليها فى الاستفسار عن كنه هذه الفظائع ؛ بل وأظهرت لها استعدادا غير يسير لأخذها مأخذ التسليم ، مما زاد فى احساس الاثنتين بأنهما — أكثر من أى وقت مضى — فى زورق واحد وسط هذا البحر المضطرب بحيث صار فى مقبور ميزى وهى تشعر بوجود أفكار معينة فى ذهن زميلتها فى الملاحه أن تجلس عن كذب وتنتظر . وفى اليوم التالى جاء السير كلود ليتناول الشاى معهما ، وعندئذ تكشفت تلك الأفكار . ومن العجيب أن وجود الطفلة أمد تلك الأفكار بكامل قوتها . وكانت الفكرة الرئيسية مثيرة للدهشة ، ولكن ميزى قدرت شجاعة مريبتها فى علاجها لها . وهى ببساطة عبارة عن اقتراح بأن يشاركهما السير كلود ملاذهما حينما وأينما تضطرهما الظروف ليجاذب موئل آخر . ولما احتج بكل حرارة على هذه اللهجة المؤذنة بالانشقاق أجابته بأنه لم يبق سوى هذا أمامهما أن توقفت الليدى عن امدادها بما يعولهما ، فقال صديقهما الحبيب :

— سحقا لتلك الموارد أيتها المرأة العزيزة ! دعى أمر هذا لى . فسأتولى أنا امدادكما .

فانبرت له مسز ويكس قائلة :

— ولأني أعلم أنك ستكون سعيدا بذلك وضعت المسألة أمام نظرك .
فشمت طريقة لرعايتنا تفضل سائر الطرق الأخرى . ألا وهي أن تأتي معنا .
وارتسمت طريقة مسز ويكس أمام عيني ميزى وكأنها صورة متلاثة ،
فراحت تصفق بيديها في اتشاء وتقول :

— تعال معنا . تعال . تعال !

فراح السير كلود ينقل بصره بين ابنة زوجته ومريبتها وقال :

— أتغنيان أن أغادر هذا البيت ويستقر قراري معكما ؟

فقالت مسز ويكس وقد ارتفعت روحها المعنوية واشتد أزرها فصارت
واضحة في تعبيرها بغير خفاء :

— هذا هو السبيل القويم ، ان كنت تشعر بما حدثتني أنك تشعر به .
وبدا على السير كلود أنه يحاول استرجاع ما حدثها به ، ثم أشرق
وجهه بذلك الضياء الذي يزيده حسنا كلما أشرق :

— أهي فكرتك الموفقة أن أتخذ لكما مسكنا ؟

— أن تتخذ مسكنا للطفلة المسكينة التي لا بيت لها . وأيما سقفا
يظل رؤوسنا فهو حسنا . أما بالنسبة لك أنت فلا بد بالطبع أن يكون شيئا
أنيقا حقا .

وارتدنت عينا السير كلود الى ميزى بنظرة قوية — فيما خيل اليها —
وبدا لها في ابتسامته نفسها ما يوحى اليها — وان لم توح الى مسز
ويكس — أن هذه المعدات المنشودة لا بد أنها تلوح له من الجسامة
بمكان . ومع ذلك أخذ في اللحظة التالية يضحك بجذل واضح وقال :

— انك يا سيدتي العزيزة تبالغين مبالغة هائلة في تصور احتياجاتي
اليسيرة المتواضعة .

وكالت مسز ويكس قد ذكرت لصديقتها الصغيرة من قبل أن السير

كلود يستطيع أن يصنع بها ما يشاء عندما يناديها « يا سيدتى العزيزة »
وشعرت ميزى بشيء من اللهفة الى معرفة ما سيصنعه بها الآن . بيد أنه
لم يزد على أن وجه اليها ملحوظة كانت الطفلة نفسها مدركة لوجهاتها :
— خظتك تروقنى الى حد بعيد جدا . ولكن ألا ترين أنه يجب على
بالطبع أن أتدبر الموقف الذى أضع نفسى فيه اذ أفارق زوجتى ؟
فأجابته مسز ويكس قائلة :

— وعليك أيضا أن تتذكر أنك مالم تأخذ حذرك فلن تترك زوجتك
لك وقتا للتدبر ففخامتها هى التى ستفارقك « أنت » .
فأجابها الشاب فى حين مدت ميزى يدها من جديد الى الخبز والزبد :
— آه يا صديقتى الطيبة انى آخذ حذرى ا واذا حدث ذلك بالطبع
فسيكون على أن أغير اتجاهى . ولكنى أتمنى من كل قلبى ألا يحدث
ذلك .

واستطرد موجهها الكلام الى ابنة زوجته :
— واستميتك العفو لما يبدو علينا من مناقشة مثل هذا الاحتمال
تحت أنفك الصغير الحاد . والحقيقة أنى « أنسى » نصف الوقت أن ايدا
هى والدتك المقدسة .

فقالت ميزى وفمها ملآن بالخبز والزبد لتؤيده فيما ذهب اليه :
— وكذلك أنا ا

وما ان قالت هذا حتى انقضت عليها حاميتها تحتضنها مرة أخرى :
— يا للصغيرة المنكودة المحبوبة .

وظلت بقية المحادثة وذراعا مسز ويكس تطوقانها . وأخذ السير
كلود وهو جالس أمامها وفى يده فنجان الشاي ينظر اليهما وهما
متوشجتان فى تفكر عميق . ومهما بلغ من محاولتهما للانكماش معا لم يكن

في وسعها — فيما شعرت به ميري — الا أن تبدو صورة مجسمة ضخمة جدا لما تطالب به مسز ويكس رفاهته النحيلة . بيد أنها كانت تعلم أن تلك السيدة لم تخفف من الوطأة حين قالت بعد برهة :

« نحن » بالطبع لا نعلم بالحصول على منزل بأكمله . فأى مسكن صغير بالغنا ما بلغ تواضعه سيكون في نظرنا نعمة جزيلة .
فقال السير كلود :

— ولكنه ينبغي أن يكون كافيا لاقامتنا جميعا .
فوافقته مسز ويكس قائلة :

— نعم . فالمهم كله هو وجودنا معا . وأثناء انتظارك قبل أن تقدم على عمل الى أن تتخذ الليدي خطوة ما، سيكون موقفنا هنا عسيرا لا يطلق . فأنت لا تعلم ما تجشمتها منها بسبك بالأمس ، وبسبب عزيزتنا المسكينة ، ولكنه ليس بالشيء الذي أستطيع أن أعدك بمواجهته مرارا كثيرة . فقد طردتني بلغة فظيعة ، وأصدرت أمرها الى الخدم ألا يقوموا بخدمتي .

فصاح السير كلود بحرارة -

— أوه . الخدم المساكين لا غبار عليهم .

— انهم يقينا أفضل من سيدتهم . وانه لأمر فظيع للغاية أن اجلس هنا وأقول عن زوجتك يا سير كلود وعن أم ميري نفسها انها أخط من الخدم . ولكن انزلاقي بمثل هذا الرأي سبب أدعى لوجوب رحيلنا . اني سأبقى الى أن أطرد من هنا بالقوة الفاشمة . ولكن هذا شيء يمكن أن يحدث في أى يوم . والشيء الآخر الذي من الجائز جدا أن يحدث — واسمح لي أن أكرر هذا القول — هو رحيلها كي تتخلص منا .

فضحك السير كلود وقال :

— آه لو فعلت ذلك ! اذن لأسدت الينا صنيعا ضخما .

فناشدته مسز ويكس قائلة :

— لا تقل هذا . لا تقل هذا ! لا تتكلم في شيء مشنوم كهذا . أنت

لا تدري ماذا أعنى . ويجب علينا جميعا أن نتشبث بالخير والصواب
ولا ينبغي لك أن تكون رديئا .

فوضع السير كلود فنجان الشاي من يده وثاب الى مزيد من الجد
ومسح على شاربه وهو مستغرق في التفكير ثم قال :

— ألن يقول جميع الناس عنى انى رجل سىء ان أفا تركت البيت

قبل .. قبل أن تأبق هى ؟ سيقولون ان فعلتى هذه هى التى جعلتها تأبق .
واستطاعت ميزى أن تدرك وجهة منطقته ، بيد أن هذا المنطق لم يكبح
مسز ويكس ، فمضت السيدة الطيبة تلح عليه :

— وما حاجتك الى المبالاة بهذا ؛ ما دمت قد أقدمت مدفوعا بفرض

سام . فكر فى جمال هذا العمل .

— فى جمال هروبي معك ؟

فابتسمت ابتسامة واهنة . بل احمر وجهها احمرارا يسيرا وقالت :

— ما أبعد هذا عن الحاق الضرر بك ، بل انه سيجدى عليك أفضل

الجدوى . انه يا سير كلود سينقذك ان أنت أصغيت لما أقول .

— ينقذنى من ماذا ؟

واذ سمعت ميزى هذا السؤال راحت تنتظر بلهفة متجددة جوابها

الذى سيصل بالمسألة الى نقطة أدق من النقطة التى أوصلها اليه رفيقهما.

من قبل ، ولكن جاء جواب ويكس على العكس حافلا بمزيد من الابهام :

— من الأمر الذى تعرفه .

— أتعنين من امرأة أخرى ؟ !

— أجل .. من امرأة رديئة حقا .

فالسير كلود على الأقل اذن فيما تبين للطفلة — لم يكن الأمر مبهما بالنسبة له ؛ حتى ان ابتسامه فهم ومضت من جديد في عينيه ؛ وراح يرمق بهما ميزى في عدم ارتياح غامض ، وعندئذ ألقى في طرفه ملاقاتها لهما ما بعثه على مداعبتها تحت ذقنها . وبعد أن فرغ من هذا التفت الى مسز ويكس في سماحة قائلا لها :

— اذك تظنني أسوأ مما أنا .

فردت عليه قائلة :

— لو كان ذلك صحيحا لما لجأت اليك وناشدتك . واني لأناشدك يا سير كلود — باسم كل ما هو طيب فيك — وبكل اخلاص ا في وسعنا أن يعين كل منا الآخر . ولا حاجة بي الى الكلام فيما ستسديه الى صديقتنا الصغيرة المائلة هنا . فليس هذا ما أريد أن أتحدث فيه الآن . بل الذي أريد أن أتحدث فيه هو ما ستحصل عليه — ألا ترى ؟ — من انتهاز مثل هذه الفرصة خذ بناصرنا . خذ بناصرها . اجعل منها واجبك . اجعل منها حياتك . وستجزيك على هذا ألف ضعف !

وفي خلال هذه المناشدة انتقلت تأملات ميزى الى مسز ويكس . وكان مرجع ذلك الى أنها — رغم أن قلبها كان في حلقها من فرط الهلع — أحجمت حياء عن الظهور شخصيا بمظهر من تلح عليه ، والى أنها من جهة أخرى ذهلت لمراى مسز ويكس تتجلى كما لم يحدث لها أن تجلت من قبل ، حتى ولا في يوم زيارتها لمسز بيل حاملة نبأ زواج ماما . فمسز بيل في ذلك اليوم باقتها وقارا ، أما الآن فليس في مقدور أحد أن يتفوق عليها . والواقع أنها كانت مستولية في هذه اللحظة على تلميذتها بتلميحتها أن لديها مزيدا من هذه المفاجأة تبقيه الى ما بعد . فاحساس الطفلة المرهف

وتعلقها بالمشاهدة كأنها عمادها الأول . وقد تعودت منذ البداية على أن ترمى نفسها موضع جدل ، فكانت تجد في اشتداد وطيسه — وكانت لديها لمحة عن لعبة كرة القدم — نوعا من التعويض عما قدر لها من التزام السلبية المفرطة . وكان ذلك يضى عليها جوا غربا فكانها تشهد تاريخها وهي منفصلة عنه كمن تختبر شيئا عن طريق الصاق أنها بلوح من الزجاج . وكان هذا شعورها بالنسبة لاستخدام أنها وهي في انتظار تأثير بلاغة مسز ويكس . ولم يتركها السير كلود وقتا طويلا في ذلك الوضع البعيد عن الرشاقة ، بل جلس وفتح لها ذراعيه كما فعل يوم جاء في طلبها الى بيت أبيها . وفيما هو مسك بها هكذا ناظرا اليها بحنو ، وكأنما قد دفعت رفيقتها بالندم دفعا حثيثا الى محياه ، وقال :

— ان عزيزتنا مسز ويكس رائعة . بيد أنها تضخم المسألة جدا . أعنى أن الموقف بعد كل شيء ليس ميؤسا منه الى هذا الحد ولا بسيطا الى هذا الحد أيضا . ولكنى أتعهد لك أمامها ؛ وأتعهد لها أمامك بأنى لن أتخلى عنكما . أتسمعين أيتها الرفيقة العزيزة ؟ وهل تعينه ؟ سأتمسك بك مهما كانت الظروف .

ووعت ميري كلامه . وعت برجفة طويلة شملت كيانها الصغير كله . وبعد ذلك — كأنما أراد أن يؤكد ما قاله — ضمها اليه فدفنت رأسها في صدره وراحت تبكى بلا صوت وبلا ألم . وفيما هي منصرفة الى ذلك فطنت الى أن صدره مضطرب ، استنتجت من هذا في سرور جارف أن عبراته تنهر في صمت . وسرعان ما سمعت نشيجا عاليا من مسز ويكس . فكانت مسز ويكس فقط هي التي صدر عنها صوت .

وكان هذا هو الصوت الوحيد الذى بدر منها الى فترة من الوقت ، ولكنها بعد بضعة أيام وصفت لتلميذتها في حديث لها معها ما جرى بينها

وبين ايديا بأنه لا يقل عن التحطيم الا شيئا يسيرا . ولم يحدث حتى ذلك الحين ما يدل على محاولة اخراجها عنوة ، وعرفت أن السير كلود وقف موقفا لم يقفه من قبل فاعترض بشدة وكتب له التوفيق في ذلك . وتذكرت ميزى — وكان تذكرها خاليا تمام. الخلو من الازدراء — أنه كان قد أخبرها بخوفه من الليدى ، فاعتبرت الفتاة الصغيرة ذلك العمل الحازم من جانبها دليلا على أهبتها الحقيقية لاجاز ذلك العهد الذى أبرمه الجميع بدموعهم . وحدثتها مسز ويكس عن التضحية المالية التى اشترت بها شخصيا الاستقرار الهزيل الذى تتمتع به ، وأن ذلك ان كان دفاعا ضد القوة الغاشمة الا أنه يتركها عرضة لفظاظه لا تصدق . أليست الليدى تجد فى كل ساعة من ساعات النهار حيلة بها فى اذلالها وامتهانها ؟ أن لها فى ذمتها راتب ثلاثة أشهر — وهو اسم ضخم لشيء ضئيل كانت ميزى نفسها تدرك ضآلته — ولن تحصل عليه ما عاشت . بيد أن سكوتها عن ذلك جعل الليدى — بحمد الله — تحت رحمتها بعض الشيء . أما وهو يقوم الآن بأمور كثيرة فلن يكون فى وسعها أن تجبر على مطالبة السير كلود بهذا المبلغ . فهو قد أرسل الى البيت للاستهلاك فى حجرة الدراسة كعكة ضخمة مجمدة ، عبارة عن جبل رائع لذيد به طبقات جيولوجية من المربى ، وسيكفهما ذلك مع مراعاة الاقتصاد مدى أيام كثيرة من حصارهما . ولكن مسز ويكس لم تكن تجهل أن أحواله المالية تزداد ارتباكا على ارتباكا . واسترجعت شريكها فى حنان — على ضوء هذه الانكماشات — تعبير وجهه الذى استقبل به الاقتراح بتجهيز بيت آخر . وشعرت ميزى أن تفقتها ما دامت معلقة بخيط واهن فمن الواجب عليهما أن تزيدا من الضغط على نفسيهما بأقصى ما يمكن من الكياسة . فما فعله على وجه الاستعجال انما كان بوحي من صديقتة المسنة ، وفى

حدود ما تسمح به ضائقته . وكان شهر مايو في ذلك الموسم رائعا كأنه هداة التزمته الريح وسط نوء يثورق الجفن . فجعل يصحب معه ابنة زوجته في حبور متجدد فيطوفان أرجاء المدينة الكبيرة بحثا عما تسميه مسز ويكس الجمع بين الترفيه والتشيف .

كانا يركبان فوق أسطح المركبات العامة ويزوران الحدائق النائية ويذهبان الى مباريات الكريكت حيث تستغرق ميري في النوم ، وجريا معا مائة مكان بحثا عن أفضلها لتناول الشاي . وكان هذا هو أسلوبه المباشر في الانبراء للدرس العظيم الذي ألقته عليه مسز ويكس في جعل ربيته الصغيرة واجبه وحياته . وكانا يطرقان — تحت بواعث لا يستطيعان مغالبتها — الحوائث التي يتفقان معا على أنها أكبر مما ينبغي بحثا عن أشياء يتفقان معا على أنها أصغر مما ينبغي . وكانت مسز ويكس في غضون تلك الساعات تبقى بمفردها في البيت وان كانا يذكرانها في أسف وهما يخلعان قفازيهما لتناول المرطبات ، وتعتبر نفسها أقل حصانة من الضربات التي برعت الليدي في توجيهها اليها . وكانت تكرر المرة بعد المرة أنها ما كانت لتبالي باحتجاز « استحقاقاتها » للنكايه بها ولا بعلمها بكل ما هو منكر ، لولا أنها وصمت بأنها « منحلة » من حيث السجاياء ولهجة الحديث . ولم يكن ثمة في ذلك الحين أي محاولة من جانب أحد لانكار الاستبشار بمبارحة الليدي عادة لمدينة لندن كل يوم سبت ، وازدياد جنوحها للمودة في وقت متأخر كل أسبوع . وكان أمرا دائما أيضا أنها كانت تعتبر مسلك زوجها بيقائه في لندن كي يرعى طفلة أتيحت لها كل لوازمها على أوسع نطاق ، بمثابة تصنع مناف للطبيعة واهانة مباشرة لها . وقد أفضى السير كلود الى ميري أن أبغض من تبغضه ايدا هو الرجل الذي يشغل نفسه بالتوافه في المدينة أيام الآحاد ، وذكر لها أيضا أنها كم من مرة صارحته

بأنه لو كانت لديه ذرة من الفطنة خجلة أن يأخذ على عاتقه هذه المهمة الحقيرة بصدد ابنة مستر فارالنج . وكانت الليدى تزعم أنه فى خوف مقيم من سائقه ، والا اعتبر من واجبات اللياقة المسافرة أن يحمى زوجته من محاولات ذلك الشخص المنزوع الحياء للاحتيال عليها . وكان موضوع ذلك الاحتيال أن مستر فارانج ألقى على كاهله العبء الباهظ برمته . وأكد السير كلود لصديقه الصغيرة :

— وحتى عندما أَدفع تفقاتك بنفسى يزيد اتهامها لى بالخسوع والتزلف .

وكان من رأى مسز ويكس الذى توصلت اليه على أساس مستقل كما يعلمان أن رحلات ايدا الأسبوعية كانت بمثابة تمهيدات لفية أطول فلتن كانت تعود فى كل أسبوع متأخرة عن سابقه ، فسيأتى حتما ذلك الأسبوع الذى لا تاتى فيه على الاطلاق . وكانت هذه الظاهرة علاقة وثيقة بالطبع بما تبديه مسز ويكس فى الواقع من البسالة . فلو أنهم ثبتوا مدة كافية فسوف يغدو البيت المريح الذى يضم معهما السير كلود أمرا محققا بصورة غير رسمية .

الفصل الثالث عشر

وكان هذا حربا أن يعتبر المغزى المقصود من ملحوظة أدلى بها زوج أمها ذات يوم مطير غصت فيه الشوارع بالأوحال وكان استعمالهما لمظلتيهما عائقا دون تدايهما وتآلفهما فلاذ السائران بالمتحف القومى ، وجلست ميزى الى جواره تحلق وهى لا تكاد ترى شيئا فى حجرة ملاى بالصور التى حير ذهنها كثيرا بنعت لها وهو يصعد زفرة سأم بأنها « خرافات بلهاء » وكانت هذه الصور تمثل بلطخ من الذهب وشلالات من القرمز وقديسين متصلبين وملايكة بارزى العظام وعذارى قبيحات الشكل يحملن أطفالا أقبح منهن شكلا ؛ تمثل صلوات وأنماطا من الركوع عجبية ؛ بحيث انها فهمت كلماته ولأول وهلة على أنها تعبير عن الاحتجاج على عبادة الأوثان ولا سيما أنه كان يصحبها هى وممز ويكس فى المدة الأخيرة الى كنيسة الصباح وهى مكان للعبادة اختارته ممز ويكس بنفسها وليس فيه شيء من هذا القبيل ولا هالات حول الرهوس ، بل هناك فقط على مدى العظمت الطويلة قلانس ذات أظهر مسلية ، وكان هو — كما كانت مريبتها تقول دائما بعد ذلك — يبذل غاية اتباهه هناك . ثم سرعان ما اتضح لها أن اشاراته لم يكن يرمى بها الا الى ما يديه الناس من التصنع فى اعجابهم بمثل هذه الأعمال السخيفة . وقد تلقت منه هذا التوجيه بالخضوع الذى تتلقى به كل شيء . ولا حاجة بنا الى سرد اثر هذه الملحوظة فى توجيه حديثهما ، فالتحول الى حجرة الدراسة التى لا لون لها والى ممز ويكس المنفردة بنفسها كان بلا شك ثمرة لتراخى

اهتمامها بما هو مائل أمامها . وأعربت ميري بطريقتها الخاصة عن احساسها الحقيقي بأنها لم تعد في هذه الأيام تروى الى البيت الا وهى تتوقع أن تجد محراب دراستها خاويا وكاهنته المسكينة قد تم طردها . واستبغ ذلك الاعراب عن التقدير التام لما يتهددها من خطر . وكان على سبيل الرد أن أفضى السير كلود — مع اعترافه بمصدر ذلك الخطر — بالعبارة المطمئنة التى ألمت اليها :

— لا تخافى يا عزيزتى فقد سويت الأمر معها .

وكانت الحاجة ماسة الى تذييل لهذه العبارة عندما وجدها غير مفهومة لدى الطفلة ، فقال :

— أعنى أن أمك ستركنى أفعلى ما أريد ما دمت أدعها تفعل ما تريد

« هى » .

وسأله ميري :

— اذن فأنت تفعل الآن ما تريد ؟

— تماما ..

— وهل تفعل « هى » الآن ما تريد ؟

— حتى الثمالة ا

وعادت للتفكير ثم قالت :

— وما عسى أن يكون هذا الذى تفعله اذن من فضلك ؟

— ما كنت لأخبرك بأى حال من الأحوال .

— فحدثت فى صورة تمثل عذراء هزيلة شاحبة ثم افترت عن ابتسامه

بطيئة وقالت :

— حسنا ، لست أبالى ما دمت تسمح لها بذلك .

فاستولت على السير كلود سورة مرح بعثته على الوقوف وقال :
— يالك من عفريته !

وفي يوم آخر ، في مكان آخر — وهو مكان في شارع ييكر جلست
فيه معه في ساعة جوع لتناول الشاي والكمك الصغير — أثار موضوعا
منتطم الصلة بما كانا يتحدثان فيه قبل ذلك :

— قولي لي ماذا ترين أباك فاعلا ؟

ولم يطل بميزي البحث عن مراده أو النظر متسائلة الى عينيه
اللطيفتين ..

— في حالة ذهابك معنا بالفعل ؟ انه حري أن يجار بالشكوى .
وبدا عليه أنه يستطرف اللفظ الذي استخلمته وقال :

— ما كنت لأبالي « الشكوى » !

— انه حري أن يتحدث الى كل انسان في هذه المسألة .

— حسنا . وما كنت لأبالي هذا أيضا .

فبادرت الطغلة ترد عليه قائلة :

— كلا بالطبع . فقد قلت لي انك لا تخافه .

فقال السير كلود :

— المسألة هي هل تخافينه أنت ؟

وفكرت ميزي في الأمر بجلاء ثم تكلمت بحزم :

— لا . ليس خوفي من « بابا » .

— ولكن خوفك من شخص آخر ؟

— قطعا من أشخاص كثيرين .

— من أمك أولا وفي الدرجة الأولى بالطبع .

— نعم قطعا . أخاف ماما أكثر مما أخاف ..

- ولما وجدها السير كلود تردد في اختيار طرف آخر للمقارنة سألها :
 — أكثر من ماذا ؟
- فراحت تفكر في سائر الأشياء المخيفة ، ثم أعلنت أخيرا عن رأيها :
 — أكثر مما أخاف فيلا ضاريا .
 ولما رآته يضحك ذكرته قائلة :
 — وأنت كذلك تخافها .
 — أوه . نعم . أنا أيضا أخافها .
 ومرة أخرى راحت تفكر ثم قالت :
 — لماذا اذن تزوجتها ؟
 — بالضبط لأنى كنت خائفا .
 — حتى حينما كانت تحبك ؟
 — كان هذا ادعى لأن يجعلها أكثر ترويعا .
- ففتح هذا القول أمام ميزى نفسها آفاقا جديدة من الجدة ، مع أن رفيقها بدا عليه أنه يرى في الأمر ما يضحكه . وسأله :
 — أكثر ترويعا مما هي الآن ؟
 — بطريقة مختلفة . فالخوف لسوء الحظ ، شيء جسيم جدا ، وهناك أنواع متباينة جدا منه .
 وفهمت كلامه بفطنة تامة فقالت :
 — اذن في اعتقادى أن لدى سائر هذه الأنواع .
 فصاح صديقها :
 — أنت ؟ هراء ! أنت أثيرة لدى الجميع .
 فاحتجت ميزى قائلة :
 — أنا خائفة أشد الخوف من مسز بيل .

فرغ حاجيه الدقيقين وسألها :

— تلك المرأة الرقيقة الحاشية ؟

فأجابته قائلة :

— ليس في وسعك أن تفهم هذا لألك لست في مثل وضعي .

وكانت بسبيل أن تقول على سبيل الاستدراك « ولكن » حينما

مد يده عبر المائدة ووضعها على ذراعها واعترف لها قاللا :

— بل « أستطيع » أن أفهم هذا . « انني » في عين الوضع .

فقلت ميزي على الفور :

— أوه . ولكنها تميل اليك جدا !

فاحمر وجه السير كلود احمرارا واضحا وقال :

— وهذا أيضا له علاقة بالموضوع .

وتمجبت ميزي مرة أخرى وسألته :

— علاقة بين ميلها اليك وخوفك منها ؟

— نعم . حينما يصل الميل الى حد العبادة .

— اذن لماذا لست خائفا مني « أنا » ؟

فقال مستبقيا يده على ذراعها :

— لأن الأمر في حالتك يصل الى هذا ، والذي يحول دون خوفي

منك انك ألطف روح على وجه الدنيا . وفضلا عن هذا ..

ثم توقف عن الكلام .

— وفضلا عن هذا .. ؟

فاستطرد الشاب :

— كنت حريا أن أشعر بالخوف لو كنت أسن مما أنت . هاك .

ها أنت قد حملتني بالفعل على أن أنطق لغوا . ان السؤال يتعلق بأبيك .

هل هو خائف كذلك من مسز بيل ؟
 فاستغرقت ميزى فى التفكير ثم قالت :
 — لا أعلن . وان كان مع ذلك يحبها .
 — أوه لا .. انه لا يحبها . اطلاقا !
 وشعر السير كلود فيما يظهر على أثر ذلك من حلقة رفيقته أنه ينبغي
 أن يوفق بين هذا الكلام الغرب وبين ذكرياتها القديمة :
 — لم يعد ثمة شيء من هذا القبيل « الآن » .
 بيد أن ميزى لم يزد لها ذلك الا حلقة :
 — هل تغيرا ؟
 — مثلما تغيرنا أنا وأمك .
 وعجبت كيف عرف هذا فسأته :
 — اذن فانت التقيت بمسز بيل مرة أخرى ؟
 فاعترض قائلا :
 — أوه لا . لقد كتبت الى .
 ثم أردف على الفور :
 — هي أيضا لا تخاف أباك . فلا أحد يخافه على الاطلاق .. حقا .
 وفى حين كان ذهن ميزى الصغير (وقد أعفى ينبوع البنية فيه منذ
 زمن طويل من الشعور بالألم أمام ذلك النقص فى الهبة الأبوية) ينعم
 النظر بين شجاعة بيل وبين السؤال عما يحدث على أثر اتخاذها ومسز
 ويكس مسكنا أنيقا مع صديقهما ، استطرد هو :
 — انها لا تبالي مطلقا أن يثير مستر فارانج ضجة .
 — أتعنى حولنا أنا وأنت ومسز ويكس ؟ ولماذا تبالين ؟ ان ذلك
 لن يضرها « هي » .

فألقى السير كلود برأسه الى الوراء وقد مد ساقيه ودس يده في جيب جنطلونه وراح يضحك ضحكة خيل اليها أن زفرة تخالطها وقال :
— يا ريبتي العزيزة ما أطرفك . اسمي . يجب أن نلتفت نحن
ما تناولناه . هل أكلت خمس كعكات صغيرة ؟

فاحتقن وجه ميزي تحت نظر الشابة التي خطت نحو منضدتها وقالت :
— كيف يمكن ؟ لقد أكلت ثلاثا .

وبعد ذلك بوقت قصير بدت على مسز ويكس علامات المرض حتى
خشى أن تكون الليدي قد ابتلتها بمناوشة لا نظير لها ، وسألها ميزي
ان كان قد وقع شيء أسوأ من المعتاد ، وعندئذ صرحت المرأة المسكينة
في كمد لا حد له :

— لقد كان يقابل مسز ييل .

فتذكرت الطفلة ما قاله لها :

— السير كلود ؟ أوه . لا .. انه « لم يقابلها » !

ولكن مسز ويكس كانت قاطعة بقدر ما هي محزونة :

— عفوك . أنا موقنة من هذا تمام اليقين .

ومع ذلك جازفت ميزي بتحديها :

— وكيف من فضلك عرفت هذا ؟

فترددت برهة ثم قالت :

— منها شخصيا . فقد ذهبت لمقابلتها .

ولما رأت دهشة ميزي الظاهرة استطرقت :

لقد ذهبت الى هناك بالأمس عندما كنت أنت معه في الخارج . وقد

تكرر التقاؤه بها .

ولم يكن واضحا لدى ميزي تمام الوضوح لماذا تبتس مسز ويكس

في هذه الصورة لهذا الاكتشاف ، بيد أن شعورها العام بالطريقة التي يمكن بها اقرار الشيء واستهجانته في آن واحد كان يخفف على الدوام عنها شدة وقع هذا اللغز . وقالت :

— قد يكون هناك خطأ ما . فهو يقول انه لم يقابلها .

فازداد اكهراار مسز ويكس ، وكان هناك سببا ادعى للارتياح :

— أهو يقول ذلك ؟ هل ينكر انه قابلها ؟

فقال ميزى متعلقة :

— هذا ما قاله لى منذ ثلاثة أيام . فلعلها مخطئة .

— أتعنين لعلها كاذبة ؟ أنا واثقة جدا أنها تكذب كلما كان لها في

ذلك مأرب . ولكنى أعرف الناس حينما يكذبون . وما أحبه فيك أنك

لا تكذبين مطلقا . ولكن مسز بيل لم تكن كاذبة بالأمس على الأقل . لقد

قابلها .

فالتزمت ميزى الصمت برهة ثم قالت :

— انه يقول انه لم يقابلها . وربما .. وربما ..

ومرة أخرى توقفت عن الكلام .

— أتريدين أن تقولى ربما كان « هو » الكاذب ؟

فصاحت ميزى :

— حاشا . لا !

ومع هذا عادت مرارة مسز ويكس الى التدفق وصاحت :

— بل يقابلها . بل يقابلها . وهذا هو أسوأ ما فى الأمر . سيأخذانك .

سيأخذانك . وماذا يصير بربك من أمرى أنا ؟

وألقت بنفسها من جديد على تلميذتها وراحت تبكى فقجرت جموع

الطفلة من مكانها ، بيد أن ميزى لم يكن فى وسعها أن تخبرك هل كان

بكاؤها لصورة فراقها أو لأن السير كلود كاذب . وقد اتفقت كلمتهما بخصوص هذا الانحراف على أنهما ليستا في موقف يسمح لهما بتفهميه هذا الأمر . فقد كانت مسز ويكس تفرق من الاقدام على أى شيء يجعله — على حد تعبيرها — « أسوأ حالا » . وكانت ميزى متمرسة بمرسا كافيا لأن تفكر في أنه حين تكلم عنها بهذه الصورة انما أراد أن يكون متلطفا بمسز بيل . وكان يوافق سائر ميولها أن تفكر فيه بصورة المترفق وتحاشت أن تدعه يعرف أن السيدتين أقدمتا على ما لا يمكن أن تقدم عليه « هي » من فضح سره .

ولم يطل بها كتمان سرها ، قضى اليوم التالى عند خروجها معه قال فجأة بصدد وجهة كان قد اقترحها في البداية :

— كلا . لن تفعل هذا . بل سنفعل شيئا آخر .

وعندئذ — على قيد خطوات قليلة من الباب — استوقف مركبة وساعدها على أن تستقلها ثم تبعها وأمر السائق من فوق سقف المركبة بأن يتوجه الى عنوان لم تبينه ، فلما جلس بجوارها سأله عن وجهتهما ، فأجابها :

— سترين يا طفلى العززة .

وراحت تنظر وترقب وتعجب لانجاهما صوب حديقة ريجنت . ولم تفهم لماذا يخفى عنها هذا . وما ان مرا تحت قوس جميل واقتربا من بيت أبيض يشرف على منظر لا بد أن يكون جميلا حتى تشبثت به متحيرة وصاحت :

— هل سأرى بابا ؟

فأطل عليها بابتسامة حانية وقال :

— لا . قد لا تقابله . فأنا لم آت بك لهذا الغرض .

— اذن بيت من هذا ؟

— بيت أيبك . فقد انتقل الى هنا .

وتلفتت حولها . فهي قد عرفت مستر فارانج في أربع دور أو خمس .
ولم يكن في هذا البيت مما يشير دهشتها سوى أله أفضل سكنه حتى
الآن :

— ولكنى سأرى مسز بيل ؟

— انما جئت بك لتريها .

فحملت وقد اشتد شحوبها ويدها على ذراعه تستبقيه جالسا في
المركبة على الرغم من وقوفها :

— لتركنى هنا . أهذا ما تعنيه ؟

ووجد عناء شديدا في أن يجيبها :

— ليس لى أن أقول ان كان في « استطاعتك » البقاء . فلا بد لنا

أن نلظر فيما يكون من هذا الأمر .

— ولكن هل سأرى بابا ان بقيت ؟

— بين الحين والحين بلا شك .

ثم استطرد السير كلود قائلا :

— هل تشعرين حقيقة بارتياح شديد جدا من هذا ؟

فوجهت ميزى نظرها الى بعيد من فوق سياج المركبة وسرحت الطرف
برهة في خضرة حديقة ريجنت المترامية وقد احمرت حتى منابت شعرها ؛
وأحست بانلفاع الحرارة الشديد الناجم عن انفعال أشد نضجا من أى
انفعال عرفته حتى الآن . وكان مضمون هذا الانفعال هو الخزي الغريب
غير المتوقع من شخص قريب الصلة بها جدا مثل مستر فارانج تحت ضوء
يحط من قدره أمام سيد مهذب يتمتع بهذا الكمال وهذا السحر كالسير

كلود . وتذكرت مع ذلك قول صديقتها لها انه ما من أحد يخاف أباهما خوفا جديا ، فالتفتت وهي تهز رأسها هزة صغيرة وقالت :

أستطيع أن أقول ان في امكاني سياسته .

فابتسم السير كلود ، الا أنها لاحظت أن تغير لونها بتلك الصورة العنيفة قد سعد الى وجهه توردا خفيفا ينم على الندم والخرج ، فكأنما هو قد لمح أول بارقة لاحساسه بالمسئولية . ولم تبدو من أى منهما حركة للنزول من المركبة . وبعد لحظة قال لها :

— اسمى . ان كان هذا رأيك فلن ندخل على كل حال .

فقال الطفلة في نواح خافت :

— ولكنى أريد أن أرى مسز بيل ا

-- ولكن ماذا ان هي قررت استبقائك ؟ سيكون عليك عندئذ كما

تعلمين أن تبقى . فقلبت ميزى ذلك في رأسها وقالت :

— نهائيا .. وأتخلى عنك ؟

— حسنا .. لا علم لى بالضبط فيما يتعلق بتخليك عنى .

— أعنى كما تخليت عن مسز بيل عندما ذهبت آخر مرة الى بيت ماما

فليس في استطاعتي أن أستغنى عنك هنا مثل هذه المدة الطويلة .

وتراهى لها كأنما انقضت مائة سنة منذ رأت مسز بيل التى كانت

موجودة في الجابب الآخر من الباب القريب منهم جدا ، ومع ذلك لم تقفز

من مكانها حتى الآن لتضمها بين ذراعيها .

فقال السير كلود :

— أستطيع أن أقول انك سترينى أكثر مما رأيت مسز بيل . فليس

من رأى أن أكون متحفظا الى هذا الحد . ولكنى على كل حال أترك

المسألة ما دمتنا هنا الآن بين يديك برمتها . فعليك أن تفصلى فيها .

ولن ندخل الا اذا أعربت عن رغبتك في الدخول . وان لم تعربى عن هذه الرغبة سندور على أعقابنا منصرفين .

— وفي هذه الحالة لن تأخذنى مسز بيل ؟

— ليس على كل حال نتيجة خطوة من جانبنا .

فسأته ميزى :

— وسيكون فى وسعى أن أستر فى الاقامة مع ماما ؟

— أوه . لست أقول هذا !

ففكرت ثم قالت :

— ولكنى حسبتك قلت لى انك سويت الأمر معها ؟

فراح السير كلود يعبث بعصاه فى طرف المركبة وقال :

— ليس الى الحد الذى تتطلبه فى الوقت الحاضر يا طفلى العزيزة .

— فماذا اذن ان هى طردتنى ولم آت الى هنا .. ؟

فتلقف السير كلود على الفور ما ترمى اليه وقال :

— انك بالطبع تستفسرين عما أعرضه عليك عندئذ ؟ اعلمى

يا صغيرتى المسكينة أن هذا بالضبط هو السؤال الذى أوجهه الى تقى .

وأعترف لك أنى لا أرى هذه المسألة بالوضوح الذى تراه به مسز ويكس .

وحملت رفيقتها برهة فيما تراه مسز ويكس ثم قالت :

— أتعنى « أننا » لا نستطيع أن نكون أسرة صغيرة ؟

— انها لوضاعة صغيرة منى ولا شك . ولكنى لا أستطيع أن أطرح

أمك بالكلية .

وعندئذ أطلقت ميزى زفرة خفيفة بيد أنها طويلة ، فهى صوت طفيف

يدل على الازغان على مفض . ولا شك أنه كان صوتا حريا أن يبدو

طريفا لمن يسمعه :

- اذن ليس هناك شيء آخر ؟
- قسم اتنى لا ارى شيئا .
- وترشت ميزى . فبدأ أن صمتها يدل على أنه ليس لديها أيضا حل آخر تهرحه ، بيد أنها ناشدته مرة أخرى :
- هل تأتى لترانى ان أنا أقمت هنا ؟
- لن تفيى عن نظرى .
- ولكن كم مرة ستأتى ؟
- فلما لزم الصمت ألحت عليه قائلة :
- مرارا كثيرة ؟
- فظل مترددا وشرع يقول لها :
- يا عزيزتى الأليرة ..
- ثم توقف مرة أخرى ليستأنف الكلام بعد لحظة وقد غير من لهجته :
- ما أعجب أمرك . نعم اذن : مرارا وتكرارا .
- فقفزت ميزى نازلة من العربة وهى تصيح :
- وهو كذلك .
- وكانت مسز بيل فى البيت ، ولكنها لم تكن فى حجرة الاستقبال .
- ولما ذهب رئيس الخدم ليبلغها انعجرت الطغلة تقول له فجأة :
- ولكن ماذا ستصنع مسز ويكس وأنا هنا ؟
- فقال رفيقها بأول نبرة خفيفة من الفظاظلة سمعتها تخرج من فمه :
- آه . كان عليك أن تفكرى فى ذلك قبل الآن ا .

الفصل الرابع عشر

انقضت عليها مسز بيل تعاقها ، وكان من أثر الساعة بأسرها انها ابانت للطفلة الى أى حد هي محبوبة جبا هائلا . ومما زاد في هذا الأثر أن زوجة أبيها كانت قد تغيرت على ذلك النحو من التغير الذى طرأ على ماما تماما حتى لقد بدت لها وكأنها شخصية تعرفت عليها لتوها ، فكأنها تقاضاها مزيدا من الألفة أكبر مما يسع ميزى أن تشعر به . لقد فوجئت باعزاز قوى التعبير يثب عليها باختصار في صورة مسز بيل وقد ازدادت وسامة وفراهة وسنا ، فكان ذلك أشبه بعقد صداقة مع شخص ذى رونق وما اتقضت دقيقة حتى شمعت بالزهو للطريقة التى استقبلت بها الاختيار الذى فرض عليها في العربة . فقد كان ثمت مستقبل بأسره يعبر عنه هذا المزيج من جمال مسز بيل وضمات مسز بيل ، وبدت لميزى فاتنة المنظر ، وكأنه لا صلة لها على الإطلاق بمن كانت ترتدى ثيابا داخلية مرتوقة وتتناول غذاءها في حجرة الأطفال . وكانت الطفلة تعلم أن احدى زوجتى أبيها كانت امرأة ذات أناقة ، ولكنها كانت على الدوام تميز هذا الفارق بصورة غير واضحة فلا تطبق هذا الوصف الا بحذر على الزوجة الأخرى . وقد اكتسبت مسز بيل بعد افتراقهما جدارة بارزة به وكانت أول استجابة من جانب ميزى لبهجتها الحاضرة وقد صبغت بهاءها كله بمعان تستطيب مذاقها في هذه المرة . وكانت قد قالت للسير كلود انها تخاف السيدة المقيمة في حديقة ريجنت ، ولكن كان لديها من الثقة ما حدا بها الى أن تندفع على الفور معبرة عن تقديرها الصريح :

— أأست جميلة ؟ أأأست جميلة يا سآر كلود ؟ أأأست جميلة ؟
فأأابها السآر كلود بكآاسة :

— انها بساطة أأمل امرأة فى لندن مثلما أأأ آآر فتاة صغيرة .
وأأأأأ أأمل امرأة فى لندن نفسها — فى آطرات متألقة مبدآة سائر
أمارات التوله — لسعادة استولت أأآرا على فاصآتها مرة أأرى ، وكان
فى فضعها ما يقارب ما فى فضع ماما من ازدهار متقد . ولم يقتض منها
الا وقت قصآر أن تظهر لصديقتها الصغيرة ما ينبى عن قوة آآقآة فىها .
وكان آساس الفتاة بذلك بمثابة بداية يوم طويل مشرق . فقد أأركت
مآزى أنه لا ماما ولا السآر كلود ولا مسز وآكس بكل ما آآمعون به
من آاذآبات هائلة لكل منهم لوله الآص منها ، قد استطاعوا أن آذكوا
لأىها ذلك الآساس بالفبط . وكان لهذا أثره الفورى عندما آآبه
الآآآ — كما آآب بسرعة فائقة — الى الكلام عن أآىها . فمسآر
فارآآج مصدر للآعآد ولكنها ترى الآن أنه لن آكون مصدر لآعآد لابنته .
وهو بالآآآآد مصدر لآعآد آآآم بالنسبة لمسز آآل . فقد سارعت الى
الآصرآ بهذا . آآد أن مسز آآل قدمت نفسها لمآزى منذ تلك اللحظة
باعتبارها شآصا لآىه موهبة كبرى . وهذه الموهبة هى القدرة على معالآة
الآعآدات . وأآست مآزى بمبلغ استهآآتها بهذه الآعآدات عندما سمعآها
آذكر السآر كلود بمقابلة سابقة آآىها فاذا به آآآىها بنبرة ذهول لا تآلو
مع ذلك من الآرتآآح بأنه هى لرفآقتها أنها آقابلا منذ اليوم الذى آآاء
فى لأآنها آآى هذه اللحظة . فأبأآ مسز آآل أسفا غامضا وآالآ :

— ولماذا أأدمآ على شآء سآآف كهذا ؟

— لأآمى سمآك .

فبدا التفكه على مسز آآل وآالآ :

— من میزی ؟ ان سمعتی عند میزی أقوى من أن تضار .
فسأل السير كلود الطفلة :

— ولكنك صدقتني أيتها الخبيثة . أليس كذلك :
فنظرت اليه وابتسمت ثم قالت :

— لقد أسأت الي سمعتها . فقد اكتشفت أنك كنت تأتي الي هنا .
ولم يكن حزنه لهذا الكلام أقوى من أن يسمح له بالضحك فقال :
— يا للأسلوب يا عزيزتي الذي تحدثين به عن هذا القبيل من الأمور !
فسأته مسز بيل :

— وكيف ينبغي أن تتكلم بعد كل هذا الوقت الفظيع الذي قضته
مع أمها ؟

فوضحت میزی الأمر قائلة :

— لم تكن ماما هي التي أخبرتني . وانما هي مسز ويكس .
وترددت في التصريح أمام السير كلود بالمصدر الذي استقت منه مسز
ويكس معلوماتها ، بيد أن مسز بيل برهنت على عبث هذا التحرج ،
اذ قالت للشاب :

— أتعلم أن هذه المرأة الشاذة جاءت لزيارتي منذ يوم أو يومين ؟
وفي هذه الزيارة أخبرتها أتى رأيتك مرارا .

فبدأ على السير كلود مالم يكن يبدو عليه بسهولة من البلبلة وسأل
میزی :

— يا لتلك القطة المعجوزة ! انها لم تخبرني بذلك قط . اذن فالت
كنت تعتقدين أنني كاذب ؟

فأعجبتها هذه الكلمة التي نعمت بها صديقتها اللطيفة الرقيقة ، ولكنها

أدركت أن الموقف يتطلب منها أقصى درجات المدايرة ، فقالت بقصد تحسين موقف مريبتها :

— أنا لم أبال بذلك . أما مسز ويكس فما كان أشد مبالاتها .
ولم يكن وقع هذا الكلام بالغ الحسن لدى مسز بيل التي أعلنت رأيها قائلة :

— مسز ويكس في منتهى البلاءة !
وسأل السير كلود :

— ولكن ماذا كان لديها من كلام تقوله لك من دون جميع الناس ؟
— الها مثل مسز ميكوير — التي لا بد أنها تشبهها كثيرا فيما أعتقد —
لن ولن تفارق الآنة فارانج .

فرد عليها السير كلود بمرح قائلا :
— سأسوي هذا الموضوع .

فقالت مسز بيل ، في حين كانت ميزى تتساءل كيف سيتصرف :
— أرجو أن يتم لك هذا يا صاحبي العزيز .
وقبل أن يتسع الوقت أمام ميزى للسؤال استطرقت مسز بيل :
— ولكن هذا ليس كل ما جاءت لأجله من فضلك . ولكنك
لن تستطيع أن تخمن الباقي .

فقالت ميزى بصوت مرتجف :
— هل أخمن « أنا » ؟

ومرة أخرى قالت مسز بيل في تفكه :

— بل أنت من تستطيعين ذلك على وجه التحديد . فلا بد أنه من قبيل
ما سمعت في بيت أمك الفظيعة . هل رأيت هناك قط نساء يصحن بها
أن « تبقى على » الرجال الذين يحببنهم ؟

وحاولت میزی وهي متعجبة أن تتذكر ، ولكن السير كلود قال :
— انهم لا يعنين أنفسهم بايدا . هل صاحت بك مسز ويكس أن
تبقى على « أنا » ؟

— بل انها ركعت أمامي على ركبتها .
فصاح الشاب :

— يا للعزيزة العجوز الحبيبة !

فكانت هذه الكلمات مصدر فرح لمیزی ، لأنها أست الجرح الذي
أحدثه بنعته السابق بمسز ويكس ، وسألت مسز بيل :
— وهل « سوف » تبقين عليه ؟

فأمسكت بها زوجة أبيها وقبلتها مرة أخرى وقد بدا عليها الافتتان
بلهجة السؤال :

— لن أبقى على بوسة واحدة منه ، سأتي عليه فلا أترك منه الا العظام .
فألحت میزی عليها قائلة :

— أتعنين أنه سيأتي مرارا كثيرة حقيقة ؟

فحاولت مسز بيل عينيها الجميلتين الى السير كلود وقالت :

— ليس لي أنا أن أقول .. فهذا متروك له هو .

ولم يقل مع ذلك شيئا على الفور ، بل سار ويداه في جيبيه وهو
يدندن دندنة غامضة لحنا ما صوب النافذة — وكان في مقدور میزی أن
تبين عليه علائم التوتر العصبي — وراح يطل على حديقة ريجنت ، فقالت
میزی :

— لقد وعدت بالحضور . ولكن ترى كيف سيستقبل أبي هذا ؟

— تعنين ترده على البيت ؟ هذه مسألة أصارحك يا عزيزتي أنها غير

ذات بال . والواقع مع هذا أن بيل يجد متعة كبيرة في أن السير كلود
المسكين اضطر أيضا الى التشاجر مع أمك .

والتفت السير كلود وقال بجد وحنان :

— لا تخافى يا ميزى . فلن أغيب عن نظرك .

فتهلكت ميزى وقالت :

— أشكرك أجزل الشكر ؟ . ولكن ما عينته هو ماذا عسى أن يقول

أبى « لى » .

فقالت مسز بيل :

— لقد تابحت معه في هذا الشأن ، وسيكون مسلكه معقولا .

فالصعوبة الكبرى أنه رغم تغير رأيه في كل شىء في الدنيا مرة كل ثلاثة
أيام ، الا أنه لم يغير رأيه قط في أمك . فطريقة بغضه لها تنذر بالويل .

فأطلق السير كلود ضحكة قصيرة وقال :

— ولكنها لا يمكن أن تهوق طريقة بغضها « له » .

فاستطردت مسز بيل متلطفة :

— حسنا . ما من شىء يمكن أن يحل لديهما محل شعور كل منهما

تجاه الآخر . وخير وسيلة تطرأ على ذهنهما للتعبير عن ذلك الشعور هي

أن يترك كل منهما أطول مدة ممكنة على كاهل الآخر . وتستطيعين أن

تبينى بنفسك أنه ما من شىء يثير غضب كل منها كما يثيره هذا التصرف .

وليس هذا لأنك باهظة التكاليف أو مزعجة — فانت لا تطلبين لنفسك

الا أقل القليل — بل لأنك تجعلين كلا منهما يحس بمدى ما يبديه الآخر

من حساسة . ولذا يمضى بيل في صب اشمنزازه على أمك بافراط شديد

لا يسمح له ببقية من الغضب الشديد يصبها على أحد سواها . ثم اتى

كما تعلمين سويت الأمر معه .

فصاح السير كلود بضحكة أعلى وهو يتحول مرة أخرى الى النافذة :
— يا الهى ا .

فبادرت ميزى تقول :

— « أنا » أعرف كيف سويت الأمر معه . لقد تركته يفعل ما يريد
بشروط أن يدعك أيضا تفعلين ما تريدن .

فأقبلت عليها تضمها ضمة أخرى وهى تقول وقد ألصقت خدها بخد
الطفلة :

— ما أظرفك يا مدلتى الصغيرة . كيف بالله استطعت أن أعيش كل
هذه المدة بدوئك ؟ انى لم أكن سعيدة يا حبيبتى .

فقال ميزى وهى تختلج بحنان حوى :

— اسعدى الآن !

— أعتقد انى سأسعد . فسوف تنقديننى .

فسألته الفتاة الصغيرة بلهفة :

— مثلما أأخذ السير كلود ؟

واقابت مسز بيل حيرة طفيفة فلجأت الى زائرها تسأله :

— أهى تنقذك حقا ؟

فظهر عليه التفكير بسؤال ميزى وقال :

— انها فكرة العزيزة مسز ويكس . وهى فكرة قد لا تخلو من ظل

للحقيقة .

فقال ميزى لزوجة أبيها :

— انه يجعل منى واجبه ويجعل منى حياته .

فقال مسز بيل وقد جعلها احساسها بأنها سبقت الى ما تفكر فيه

تحمز احمرارا شديدا من فرط الدهشة :

— ولكن هذا ما أريد « أنا » أن أفعله !

— في وسعكما أن تفعلاه معا . وعندئذ سيكون « عليه » أن يأتي .

وفي هذه اللحظة كانت مسز بيل قد وضعت صديقتها الصغيرة في حجرها ورفعت وجهها باسمة الى السير كلود قائلة :

— هل تقوم بذلك معا ؟

وكان قد فرغ من الضحك ، فحول وجهه الجاد الوسيم لحظة الى ابنة زوجته لا الى مضيفته وقال :

— هذا شيء أليق من بعض الأشياء الأخرى . بل لعمري انه ليبولوا

— على حسب ما تتجه اليه الأمور الآن — الشيء الوحيد اللائق ا

وبدا عليه أنه يقيم البرهان على رأيه لميزى ، ويصوره لها — يباحث من ضميره — على أنه وسيلة يشرفهما أن تشترك فيها ، وان كان تعلمه بمحض « اللياقة » ربما فات ادراكها الوردى الصغير ، وصاح :

— فان لم تكن صالحين « لك » فلست أدري لمن عسانا نصلح .

وزادت مسز بيل الطفلة ايضاها بقولها

— أحبك سوف « تنقذينا » .. من بضعة أمور .

وأكد لها السير كلود بجلاء ذلك المعنى :

— أنا أعرف ما سوف تنقذني منه . وما أكثر ما سيكون ذلك طبعاً .

فبادرت مسز بيل تعقب على قوله :

— نعم . ولكنه سيكون بالنسبة لك لا شيء اذا قورن بما تشيره زوجتك في الوقت الراهن . وأنا أستطيع أن أتحمل ما أعانيه ، ولكنى لا أستطيع أن أتحمل ما تعانيه أفت .

واستطرد السير كلود يقول لميزى بلهجة الجد عينها :

— انا قفعل الكثير لك أيتها الصغيرة كما تعلمين .

فاحمر وجهها احساسا بالفضل ولهفة على الظهار أن ذلك الفضل
لا يضيع لديها سدى :

— أعرف هذا !

فضحك هذه المرة وقال :

— اذن يجب عليك أن تحسنى القيام على أمرنا .

— فصاحت مسر ييل :

— يا له من أسلوب هذا الذى تكلمها به .

فأجابها فى مرح :

— انه ليس أسوأ من أسلوبك الذى تكلمينا به !

فأجابت بنفس الروح :

— الممول على الأفعال لا على الأقوال !

ثم استطرقت وهى تفلت مبرى من حضنها :

— فى وسعك أن تخلعى ثيابك .

فقاتت الطفلة وقد وقفت على قدميها وسيطر عليها الاتفعال :

— هل يجب اذن أن أبقى هكذا ؟

— سيان هكذا أو على أى وجه آخر . فسيأتى اليك السير كلود

غدا بأمتمتك .

فوعدها السير كلود قائلا :

— سأحضرها بنفسى . أعدك بأنى سأشرف على حزمها . تعالى هنا

وفكى أزرارك .

وكان قد استبدعى بإيماة منه مرافقته الصغيرة الى حيث جلس وأعالها

على التخلص من دثاراتها ، على حين راحت مسر ييل على مسافة يسيرة

تبتسم لما يفعل بيديه وقالت :

— هاك ما يفعله لك زوج أمك . أرانى ملزمة للاعتراف بأنه يعوضك
عن افتقارك الى سواء من الناس .

فضحك السير كلود :

— انه يعوضها عن افتقارها الى حاضنة . ألا تذكرين أنى قلت لك
ذلك فى أول مرة التينا فيها ؟

— أذكر ؟ ان هذا بالضبط هو ما حملنى على أن أحسن الظن بك

الى هذا الحد !

فقال الشاب لميزى :

— ولكن ما من شىء يمكن أن يغرنى بأن أخبرك بما حملنى على

احسان الظن بها « هى » .

وكان قد انتهى من خلع دثارات الطفلة فقبلها بلطف ثم ربت عليها

برفق ليبعدها قليلا ؛ واقترن هذا التريت بزفرة غامضة عادت بها اليه

هيئة الجد التى كان عليها منذ برهة وقال :

— وعلى كل حال لو لم تكن لديك موهبة الجمال الفتاك .. !

فسألته ميزى وهى تعجب لماذا لم يتم عبارته ، فقد كانت هذه أول

مرة تسمع فيها عن جمالها :

— اذن ماذا ؟

— لما تسنى لنا أن يحسن كل منا الظن بالآخر .

وفسرت لها مسز بيل ذلك قائلة :

— انه لا يتكلم عن الحلاوة الجسدية . فليس لك يا عزيزتى ذلك

الجمال السوقى على الاطلاق . وانما كلامه عن سحر السجايا الواضح .

فقال السير كلود لمسز بيل :

— ان سجاياها لهى أعجب شىء فى الدنيا .

فقال متشامخة بما تعرف :

— انى أعرف كل شىء عن هذا القبيل من الشائل !
فأحست ميسى على نحو ما احساسا مفاجئا بالمستولية لانت منه بقولها
فى حرارة :

— ولديكما أيضا « هذا النوع من الشائل » . لديكما هذه الموهبة
الفتاكة : كلاكما يتمتع بها فى الحقيقة !
فقال السير كلود محتجا :

— جمال السجايا ؟ ليس لدينا من ذلك يا فتاى العزيزة شروى قير .
فبادرت مسز بيل تقول بخفة :

— تكلم عن نفسك يا سيدى . أما أنا فطيبة وماهرة . فماذا تريد فوق
هذا ؟ أما أنت فسأعفيك من حمرة الخجل فلا أتكلم فى الصفات الشخصية ؛
وحسبى أن أقول انك وسيم الى أبعد مدى .

فقال ميسى وقد أحست بحاجتها الى المضى فى توضيح مرادها :
— كلاكما جميل جدا . ولا مناص لكما من هذا . فما أحلى أن يراكما
المراء جنبا الى جنب .

وكان السير كلود قد تناول قبعته وعصاه ، فوقف ينظر اليها برهة
ثم قال :

— كم فيك من تسرية اللهم . بيد أننى ينبغى أن أعود الى البيت .
لأهزم متاعك .

— ومتى ستعود ؟ غدا . غدا ؟

فقال لمسز بيل :

— ها أنت ترين ما صرنا اليه !

— فى استطاعتى أن أتخمله ان استطعت ذلك أنت !

فراحت رفيقتهما تنقل تحديقها من أحدهما الى الآخر وهي تفكر في انها وان كانت سعيدة حقا بين السير كلود ومسر ويكس فهي لا شك ستكون أسعد حالا بين السير كلود ومسر بيل ؛ بيد أن ذلك كان أشبه بامتطاء صهوة حصان متوثب ؛ فأقدمت على حركة تريد أن تتعلق بشيء :

— أليس لي اذن أن أودع مسر ويكس ؟

فقال السير كلود :

— سأسوى هذا الأمر معها .

وفكرت ميزى قليلا ثم قالت :

— ومع ماما ؟

فضحك ضحكة حزينة وقال :

— آه من ماما !

وبدا حتى للطفلة أن ذلك الرد يخلو من اللبس بيد أن مسر بيل

حاولت أن تسهم في توضيحه :

— كم ستعق أمك . ستلا الدنيا صياحا .

ولما وجدها السير كلود تبحث عن تشبيه قال :

— مثل طير البكور .

واستطردت مسر بيل تقول :

— ولن تكون بحاجة الى ما يعزيبها عن حمل أريك على التجديف

الصاحب .

فحملت ميزى وقالت :

— وهل سيكلف تجديفا صاخبا ؟

فقد كان التعبير قوى الوقع عليها ، ولعله مقتبس من التوراة . فأثار

سؤالها هذا موجة جديدة من المداعبات التي اشترك فيها أيضا السير

كلود ، في حين راحت تنساءل — بعد استغناء عن مسز ويكس — من
الذي سيثقل في حياتها عنصر الجغرافيا والنوادر ، وسرعان ما تطلبت على
الحرج الذي تستشعره من السؤال فقالت :

— ألن يكون هناك أحد يقوم بتدريسي ؟

وكانت مسز بيل متأهبة باجابة لفتت نظرها بما فيها من أبهة بالغة :

— ستلقين من الدروس ما لم تتلقى مثله في حياتك من قبل . ستذهبين

لتلقى دراسات .

ولم تكن ميزى قد سمعت بشيء كهذا من قبل :

— دراسات ؟

— في معاهد .. في مواد معينة .

وواصلت ميزى حيلقتها :

— مواد ؟

وكانت مسز بيل رائعة حقا وهي تقول :

— في أهم الموضوعات . الأدب الفرنسي والتاريخ المقدس .

وستشتركين في فصول مع ألمع الأطفال .

فقال السير كلود :

— سأقصي هذا الأمر برمته شخصيا .

وبرقة بالغة أوما إليها يطمئنها ايماءة مصحوبة بغمزة عين ودية . ولكن

مسز بيل مضت في كلامها قدما :

— انك يا طفلي العزيزة ستحضرين محاضرات .

فعدا الأفق متراميا أمام ميزى فجأة وشعرت بازدياد ضآلتها فقالت :

— بفردى تملما ؟

فقال السير كلود :

— لا . سأحضرها معك . وسأتعلم منها الكثير مما لا أعرف .

وقالت مسز بيل فى جد :

— وكذلك سأتعلم منها أنا الكثير مما لا أعرف . سنذهب معها كلالا .

سيكون ذلك بديعا .

واعترفت لميزى قائلة :

— لقد مضت حقب طويلة منذ سبحت لى فرصة للدراسة . وهذا

وجه آخر ستكونين فيه دافعا طيبا لنا .

ثم اندفعت تقول للسير كلود بلا احتجاز :

— أليس ما ستسديه الينا شيئا جيما ؟

فوزن المسألة ثم أجابها :

— هذه هى فكرتنا بالتأكيد .

ولم تكن هذه الفكرة بالطبع واضحة فى ذهن ميزى ، بيد أنها ألهمتها

بحماسة تضاهى حماسها . ولئن كان هذا المخطط بالغ الاشراق حتى

أنها لن تشعر بتطلعها الى شىء آخر ، فمعنى هذا أنها سوف لا تشتاق

الى مسز ويكس . الا أن احساسها بموافقتها على غيبة هذه الشخصية

الأثيرة جعل كلمتين طالما رتا فى أذليها تمودان الى الرنين فى سمعها . فقد

تبينت باختصار ما كان يعنيه أبوها دائما اذ ينعت أمها بأنها « دنيئة

منحطة » وما كانت تعنيه أمها اذ ترمى أباهما بهذا الوصف نفسه . وتساءلت

ألن تكون دنيئة منحطة حين تتعلم كيف تكون سعيدة بدون مسز ويكس .

وقبل أن تدرى ميزى ما هى صانعة خرجت هذه الهواجس من بين

شفتيها وكان السير كلود قد صار عند الباب بسبيله للانصراف ، فوقف
زوج أمها برهة كافية للإجابة عنها ، وصاح :

— سأسوي الأمر معها .

ثم انطلق ، وبقيت ميزى وجها لوجه مع مسز بيل فصعلت زفرة
ارتياح ، وتلفتت حولها تنظر فيما بدا لها وكأنه فجر مستوى أرقى ،
ثم قالت في اطمئنان :

— اذن « الكل » ستسوي أمورهم .

وعندئذ انحنت زوجة أبيها عليها مرة أخرى باعزاز .

**** معرفتي ****

www.ibtesama.com

منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الخامس عشر

كالت سوزان آش هي التي جاءت بها بالنبأ :

— انه في الطابق السفلى يا آنسة . وكم يبدو جميلا .

وكانت ميزى جالسة الى البيانو في حجرة الدراسة بيت أبيها ذات الستائر الزرقاء الجميلة تحاول أن تؤدي بمشقة معزوفة صغيرة حلوة كانت مسز بيل تسميها « أمهودة نور القمر » وكان السير كلود قد أرسلها اليها بطرق البريد لأنه كان يعتقد أن تعليمها الموسيقى أهمل اهمالا مؤسفا حتى انه في الشهور الأخيرة من اقامتها في بيت أمها كان على وشك أن يقوم بالترتيبات اللازمة كي تتلقى دروسا منتظمة في هذا الفن . ومنه عرفت أن النوع الحقيقي من هذا التعليم فاحش الغلاء على حد تعبيره ، وان ما عداه من الأنواع مضيعة للمال . ولذا فقد زاد ذلك من ابتهاجها بالتضحية التي تمثل في هذا اللحن الذي كان ثمنه — وهو خمسة شلنات — مطبوعا على غلافه ولا بد أنه من النوع الحقيقي . ووثبت واقفة على قدميها وسألت :

— هل أرسلت مسز بيل في طلبى ؟

فقالت سوزان آش :

— لا . ليس الأمر هكذا . مسز بيل في الخارج منذ ساعة .

اذن فهو بابا !

— لا . ليس بابا . أنت على ما يرام يا آنسة فيما عدا هذه الشرعات

الثائرة .. أبوك لم يعد الى البيت اطلاقا .

فأجابتها ميزى وهى شاردة الذهن بعض الشيء من فرط التوفز وراحت
تمشط خصلات شعرها بيدها بعصية :

— لم يعد الى البيت من أين ؟

— أما عن هذا يا آنسة فيؤسفنى أن تضطرينى لاخبارك الحقيقة .

أنا أفضل أن أخفى لك هذا الشيء الأبيض الذى يطل من الخلف . وان
كان هذا فى الحقيقة ليس عملى .

فاستطردت ميزى بصبر نافذ :

— افعللى اذن من فضلك . أنا أعرف أين كان بابا .

— لو كنت فى مكانك لما قلت أين كان .

— كان فى المنتدى . فى منتدى الأحقوان . هاك !

فصاحت سوزان آش :

— طوال الليل ؟ ان الأزهار تغلق أكمامها فى الليل كما تعلمين !

فقالت الطفلة وهى عند الباب :

— حسنا . لست أبالى . هل طلب السير كلود أن يرانى « وحدى » ؟

— كما لو كنت دوقة .

وأحست ميزى وهى فى طريقها هابطة السلم أنها ليست فى سعادة

الدوقات . وبعد لحظة تعلقت بمنقه فى حرارة لا يمكن أن تباريها فيها

الدوقات . وكان فى لهجتها شبه من لهجة الدوقات وهى تصحيح به فى

شيء يسير جدا من الحدة :

— أهذا ما تسميه القдом « مرارا » ؟

واستقبلها السير كلود متهللا وبنفس الروح المرحه :

— يا عزيزتى الأثيرة لا تجابهينى بالشجار . فهذا ما أؤكد لك أن كل

لمرأة أنظر اليها تفعله بي . هيا بنا نحظى بشيء من المرح فاليسوم يوم
بديع . البسى بسرعة شيئاً أنيقاً وتعالى معى لنخرج وتحدث فى هذه
المسألة بهدوء .

وبعد خمس دقائق كافا فى طريقهما الى هايد بارك . وما من شيء
تحدثنا فيه من قبل — حتى فى أحسن الأيام التى تخللت مقامها فى بيت أمها
— كان أحفل بعذوبة الطمأنينة من هذه الايضاحات التى بادرها بها الآن .
فهو فى خير حالاته حين يوضح شيئاً . ثم هو باستثناء مسز ويكس الشخص
الوحيد الذى التقت به فى حياتها من حيث الاقبال على التفسير . ثم ان
هذا العمل من جانبه يتسم بسلطان يتجاوز ما تصل اليه عقلية المرأة .
وارتلت اليها جميع الخطط التى كانت تفشل دائماً وجميع الهبات
والرشاوى التى كانت تؤذيها باستمرار وينتهى بها الأمر الى خسارتها
باستمرار أيضا . فكل هذا الضغط الضخم الذى كان عليها أن تحمله
كان يؤدى بها فى كل مناسبة جديدة الى موضوع النقود . وكانت
شخصيا تكاد تعرف أن سلطانه يصل الى حد أن طرد احساسها بأنها
خدعت لم يكن يقتضى منه الا أن ينضخ على هذا الاحساس من تحت
شاربه الجميل . ومن طبيعة الخطط على نحو ما أن تكون باهظة التكاليف .
ومن طبيعة ما هو باهظ التكاليف أن يكون مستحيلا . و « الارتباك »
من جوهر الأحوال المالية لكل انسان . ومن شأن كل لحظة معينة أن
تزيد من ذلك الارتباك . وكان هذا هو الحال مع السير كلود ومع بابا
ومع ماما ومع مسز بيل ومع ميسى نفسها فى لحظة معينة طالت بضعة
أسابيع ، هى المدة التى اقتصت منذ عادت سيدتنا الصغيرة الى بيت أبيها .
فلم يعد هنا « شلنان وبنس » لأى شيء أو لأى أحد . ولذا لم يتمخض
عن شيء ما سبق أن قيل عن دروس الأدب الفرنسى التى كانت ستلقاها

مع الفتيات الصغيرات اللامعات . وانه لأمر محرج للغاية أن تحاول — من غير أن يكون رأس المال المحدود متوفرا — أن تجعلها تتعلق بتلك الاستعدادات بعيدة المنال التي جعلت تتلألأ بعد ذلك أمام عينيها باعتبارها خاصة بأطفال الأغنياء . فصار احساسها بعد ذلك وكأنها تضغط بأنفها على زجاج صلب في واجهة محل المعرفة . ولئن كانت تلك الفرق الدراسية الممتازة فادحة الأجر الى درجة الاستحالة ، فالمحاضرات في المعاهد — أو في بعضها على الأقل — تلقى مباشرة على الأذكياء الفقراء . ومع هذا كان من السهل اطلاعها في الحال على السبب في عدم أخذها الى شيء من هذه المحاضرات . وهذا السبب — كما قال السير كلود — أنها بسبيلها الآن الى هناك ، وان لم يكن اتجاه خطواتها في تلك اللحظة الى شواطئ « السربنتين » لم يكن له شأن بذلك . وكانت حديقة ميري الخاصة في الشمال أقرب اليهما ، الا أنها ركبا عربة أجرة اتجهت بهما صوب الغرب لأن هذا هو الاتجاه الذي يمضي فيه أواخر أيام شهر يونية البديع جميع الأشخاص المرموقين . وأحسا لمدة ساعة قضاها عند جدول نزهة القوارب وعلى طريق العربات الافادة من هذه الفرصة التي تبث التفكه في كل من يرقبهما ، وهي أيضا فرصة لقيام أحدهما بالتعمية على الآخر في شيء غير قليل من الصخب . وقبل انقضاء الساعة طالبت ميري بمزيد من الايضاح بصدد غيبته الطويلة وفي شيء من التحدى ، فأجابها :

— أتسأليني لماذا أخلفت وعدى لك بهذه الصورة الفظيعة ، وكيف أعد هذا الوعد القاطع ثم لا آتى اطلاقا ؟ الحقيقة يا عزيزتى أن هذا السؤال عن عدم رؤيتك اياي يوما بعد يوم لا بد أنك وجهته مرارا كثيرة جدا الى مسز بيل .

فأجابته الطفلة :

— نعم . مرارا وتكرارا .

— وماذا قالت لك ؟

— انك رديء بقدر ما أنت جميل .

— أهذا ما تقوله عنى ؟

— بالفاظه .

وبدا السرور الواضح على السير كلود وقال :

— يا للعزيزة الأثيرة .

وكانت ضحكته الصافية هي كل ما تقدم به من ايضاح . فكانت كلماته هذه هي آخر ما سمعته ميري يستخدمه في حديثه عن مسز ويكس . وتعلقت بيده التي كانت داخل قفاز لؤلؤى اللون مزين بخطوط عريضة سوداء . وكانت هذه الخطوط تلفت نظرها دائما وهي في بيت أمها لارتباطها بطريقة السيدات الطويلات في حمل مظلاتهن مقلوبة وقد نئين معاصمهن . وكان احساسها بقبضته في قبضتها يغطى على الخسارة كما يغطى على الكسب . فوجوده معها أشبه بشيء وضع لصق وجهها بحيث يستحيل عليها أن ترى ما حول أطرافه . أما هو فظل يقوم لها بدور الدليل في تلك المشاهد حتى بعد أن خرجا من هايد بارك وشرعا تحت تأثير سحر المكان والزمان يدرجان في حدائق كنجستون . وما خلفاه وراءهما كان على حد قوله سركا رديئا للغاية . ولما اخترقا بوابات جذابة واجتازا قنطرة وصلا بعد ربع ساعة — على حد تعبيره أيضا — الى مسافة مئات الأميال من لندن ، فاذا أمامهما مر أخضر كبير وأشجار عتيقة عالية وتحت ظلال هذه الأشجار ارتسمت في العشب الناضر دروب متعرجة من أثر موطيء الأقدام . وقال السير كلود في ابتهاج :

— هذه غابة أردن وأنا الدوق المنفى . وأنت — ماذا كان اسم الغابة ؟ — الصبية الريفية الساذجة . وهناك أيضا الفتاة الأخرى — ما اسمها ؟ روزالند ؟ — والشخص الذى كان يتودد اليها . لعمرى انه يتودد اليها .

وكان يشير بذلك الى اثنين كانا يسيران جنبا الى جنب فى نهاية المر وفى نفس اتجاههما . وكانت صورتهاما البعيدة فى سيرهما المتمهل (الذى أبقاهما متدائنين جدا حتى ان رأسيهما المطرقين قليلا الى الأمام كادا يتلامسان) تمثل ظهر سيدة تبدو طويلة القامة ومن الواضح أنها راقية جدا ، وظهر سيد كانت يده اليسرى تبدو متعلقة تمام التعلق بذراعها فى حين كانت يده اليمنى تقوم من وراء ظهره بحركات اهتزازية للعصا التى تسك بها تلك اليد .

واستجاب خيال ميزى برهة لما تراءى لصديقها من هذا المنظر الرقيق . ثم وقفت فجأة وهتفت بكل ما لديها من وضوح :

— ما أشد عجبى ان لم تكن هذه ملما !

ووقف السير كلود محمقا ثم قال :

— ماما ؟ ولكن ماما فى بروكسل !

وتساءلت وعيناها على السيدة :

— فى بروكسل ؟

— ذهبت الى هناك لتلعب مباراة .

— فى البلياردو ؟ اذك لم تقل لى ذلك .

فقال السير كلود :

— طبعا لم أقل لك . هناك أشياء كثيرة أقولها لك . لقد سافرت

يوم الأربعاء .

وكان الاثنان قد ابتعدا مسافة أخرى ؛ بيد أن عيني ميزى كاتا
أقدر على متابعتها :

— اذن فهي قد عادت :

وجعل السير كلود يرقب السيدة ثم قال :

— بل الأقرب الى الاحتمال جدا أنها لم تسافر قط !

وقالت الطفلة باصرار :

— انها ماما .

وكانا قد وقعا شابتين في مكانهما ، ولكن السير كلود أحسن الاستفادة
من فرصته الى أقصى حد . واتفق في تلك اللحظة بالذات أن الاثنين الآخرين
توقفا أيضا في نهاية مرمى النظر بين الأشجار وراحا وهما موليان ظهرهما
يتجاذبان الحديث فيما يبدو فهتف أخيرا :

— أنت على حق يا بطتى . انها بعينها زوجتى المليحة !

قالها وهو يضحك الا أن لونه تغير وبسرعة أشاحت ميزى بنظرها

وسألته :

— اذن من هذا الذى معها ؟

فقال السير كلود :

— سحقا لى ان كنت أعلم !

— أهو مستر بريام ؟

— لا . لا .. بريام قضى عليه .

— قضى عليه ؟

فابتسم السير كلود وقال :

— انكشف .. فى المصنف . ولكن هناك كثيرون غيره .

وبدا على ميزى أنها تحصيهم ؛ وراحت تدرس ظهر الرجل ثم قالت :

— اذن فهو اللورد اريك ؟ .

وظل رفيقها لا يجيب برهة ؛ولما حولت عينها اليه مرة أخرى كان ينظر اليها فيما اعتقدت نظرة ظاهرة الغرابة . وسألها :

— ماذا تعرفين عن اللورد اريك ؟

فحاولت ببراءة أن تبدو غامضة بدورها فقالت :

— انى أعرف أكثر مما أظن ! أهو اللورد اريك ؟

— ربما . سحقا لى ان كنت أبالى ا

وكان صاحباهما قد تباعدا بعض الشيء ، ثم اذا بهما الآن والسير كلود يتكلم يستديران فجأة فبغت فخامة الليدى فى كامل أبهتها ؛ وزال الغموض عن زميلها . وحبت ميزى أنفاسها بعد أن قالت :

— ها هما قادمان ا

وأخرج السير كلود سجائره وأشعل ثقابا وقال :

— دعيهما يقدمان .

— سنقابلهما ا

— لا . بل هما اللذان سيلتقيان « بنا » .

وثبتت ميزى فى مكانها :

— انهما يريانا . انظر .

وألقى السير كلود بعود الثقاب وقال لها :

— هيا بنا قدما .

وبدا على الآخرين بوضوح أنها بوغتا وكادا يتوقعان مرة أخرى عن السير وتباعدا تماما ؛ فاستطرد السير كلود :

— انها فى دهشة هائلة وتريد أن تروغ . ولكن فلت الأوان .

وتقدمت ميزى بجواره ، وقد أدركت أن الليدى فى مأزق وقالت .

— اذن ماذا ستصنع ؟

وهنخ السير كلود دخان سيجارته وقد بدا عليه الاستمتاع بالموقف :
— انه يفكر بسرعة .

وكانت ايدا لم تزد في ترددها على لحظة واحدة ؛ ومن الواضح
أن زميلها كان يشد من أزرها ، وخيل لميزي أنه يبدو شجاعا فهو
لا يشبه مستر بريام على الاطلاق ؛ فوجهه النحيل الحاد ناعم . ولم تتبين
الا بعد أن اقتربا أن له شاربا صغيرا أشقر لطيفا . واستطاعت أيضا
أن تتبين أن لون عينيه على أخف ما يكون من الزرقة . انه أملح كثيرا
من مستر بريام . وكانت ماما تبدو مروعة عن بعد . ولكن فضول الطفلة
حتى وهي تحت فيرانها تأجج ولجأت مرة أخرى الى السير كلود تسأله :

— أهو .. أهو اللورد اريك ؟

وكان السير كلود يدخن في هدوء تام فقال :

— أظنه الكونت .

وكان هذا حلا موقفا ؛ لأنه يوافق فكرتها عن أى كونت . ولكن
أى فكرة تطابقها صورة ماما وهي مقبلة الآن في عظمة ، مالم تكن صورة
مثلة في موقف هائل تخطو نحو المصاييح الأمامية لخشبة المسرح وكأنها
تريد أن تتخطاها قفزا ؟ وشعرت ميزي بالارتياح حقا حتى انها دست
يدها وهي لا تدري في ذراع السير كلود فجعله ضغط يدها يقف .
ولما رأى الآخرا ذلك وقفا أيضا واندمجا برهة أخرى في الكلام وهما
على تلك المسافة القصيرة . ويبدو أن الحديث لم يتجاوز الاستئذان في
ترك الكونت برهة كي يقوم بحركة التناف دائرية — لو أن ميزي كانت
على علم بتلك الحركة المسكرة ؛ ثم استأثقت الليدى زحفها ؛ وتساءلت
ميزي :

— ماذا عساها ستفعل الآن ؟

وكان السير كلود قد صار في موقف أتاح له أن يقول :

— ستحاول أن تدعى أنتى المخطيء .

— أنت ؟

— انتى أنا الذى أكيد لها فى الخفاء .

وبعد لحظة أخرى كانت ايدا المسكينة قد حققت هذه النبوءة فوقت أمامها منتصبه كأنها شبح العدالة فى كامل بزته . وكانت ثمة أجزاء من وجهها تزداد شحوبا وميزى تنظر اليها ، وأجزاء أخرى كان هذا التغير يؤدى الى اصطباغها بألوان أغزر . وسألت زوجها :

— ماذا تصنع مع ابنتى ؟

وعلى الرغم من لهجة الاستنكار أحست ميزى احساسا أعمق من أى احساس خامرها من قبل بأن شخصا ليس ذا بال . وخيل اليها أن السير كلود أيضا اكفهر لونه نتيجة للتحدى الصاحب الذى كررت به ايدا هذا السؤال مرتين . وبدلا من أن يجيبها وجه اليها استفسارا من عنده :

— من ذا بحق الشيطان قد استحوذت عليه « الآن » ؟

وعندئذ التفت الليدى الى الفتاة بصورة مفزعة وحدثت فيها كأنما هى شريكة فى الاثم . فتلقت ميزى الارتياح الذى صبه عليها بكل قوتها عينا أمها الكبيرتان المكحولتان ، فكأنهما مصباحان يابانيان يهتران تحت قوسين من أقواس المهرجانات . ولكن الحياة ارتدت اليها عن طريق لهجة طرأت عليها الرقة المعجبية فجأة :

— اذهبى فورا الى ذلك السيد با عزيزتى فقد طلبت اليه أن يصحبك

بضع دقائق . انه ظريف جدا . اذهبي . فلدى شيء أقوله « لهذا »
المخلوق .

وشعرت ميزى بالسير كلود يتشبث بها في الحال .
— لا . لا . شكرا لك . هذا لا يمكن . انها تخصنى أنا .
— تخصك ؟

وأذهل ميزى أن تسمعها تكلمه كما لو كانت تسمع بالسير كلود
من قبل .

فقال السير كلود بلهجة أذهلت رفيقته واستطاعت أن تلمس أثرها
الشديد لدى أمها :

— تخصنى . لقد تخليت أنت عنها . وليس لك أن تقولى كلمة أخرى
بشأنها . لقد تسلمتها من أبيها .

وكان هناك على ما يظهر تأثير جعل ايذا تفكر . وراحت ترمق الرجل
الذى تركته . وكان قد سار قليلا ويدها في جيبه الى مسافة قريبة ثم
وقف هناك في غموض خال من الارتباك . فوجهت اليه محياها الذى
يشبه حديقة مزينة بالأنوار بما فيها من باب حديدي دوار وما الى ذلك
كله ؛ وكان لديه اشتراك الموسم الذى يخول له التردد على هذه الحديقة ؛
ثم نظرت مرة أخرى الى السير كلود وقالت :

— لقد تخليت عنها لأبيها كى « يحتفظ بها » ، لا ليتخلص منها
ويتركها تجوب المدينة معك أو مع أى انسان آخر . فان كان لها
ألا تبالى بى فدعه « هو » يأتى الى ويقول لى هذا . وأنا أرفض أن
أقبل هذا من أى شخص آخر . وانه ليستهوينى أن تدعى أن لديك
ميررا لموقفك من هذا الاهتمام الخادع . أنا أعرف لمبتك . ولدى ما أقوله
لك الآن عنها .

فضبط سير كلود على ذراع الطفلة وقال :

— ألم أقل لك انها ستقول شيئا كهذا يا آنسة فارانج ؟

واستطردت ايذا :

— ولكنك خائف من سماعه خوفا غير عادى . فان كنت تحبب انها

ستحبيك مما سأقول فأنت مخطيء أكبر الخطأ .

وتركت له برهة ثم قالت :

— انى سأمنحها التبرئة لعدم توفر الأدلة بمجرد النظر اليك . أتحب

لها يا عزيزى أن تعرف ؟

وأحست ميزى أنها وجهت هذا السؤال بحيث أحدث أثره . ومع

ذلك كانت فتاتنا الصغيرة تنطوى على أمل فى أن يعلن السير كلود تفضيله

لوجودها . وقد علمنا من قبل أنها صارت تحب من الناس أن يميلوا الى

« تعريفها » بالخفايا . وقبل أن يتسنى له الرد اطلاقا كانت أمها قد فتحت

ذراعين فى منتهى الأناقة ثم أحست بعلمها بقبضته تخف عن ذراعها

وهمست ايذا بصوت خالطه رقة مفاجئة حتى لقد خيل اليها أنها تسمعه

لأول مرة :

— يا بطلتى العزيزة !

ولم تتردد سوى برهة وقد هزتها هذه المناشدة المباشرة التى تختلف

عن جذبة الأمومة المعهودة ؛ وقد انطلقت هذه المناشدة من الشفتين اللتين

طلالا قذفتاها بالقوارص فى تلك السنوات الصاخبة . وفى اللحظة التالية

كانت على صدر أمها وسط تيه من المصوغات ، فشعرت كأنما قد ألقى

بها الى واجهة محل لبيع المجوهرات فحطمت زجاجه ؛ ثم فجأة أيضا

دفعتهما بعيدا عنها وهى تقول لها :

— الآن اذهبي الى الكابتن ا

ونظرت میزی الى ذلك الرجل باذعان ؛ الا أنها أحست بحاجتها الى مزيد من التعرف به :

— الكابتن ؟

فاتفجر السير كلود ضاحكا وقال :

— لقد قلت لها انه الكونت .

فحملت ايدا وتشامت حتى بدت هائلة القامة ثم صاحت :

— انك لبغيض ا

ثم أعادت أمرها الى ابنتها قائلة :

— انطلقى ا

فتراجعت میزی الى الورااء مجفلة ونظرت الى السير كلود وأشارت

اليه فى ذهول :

— لحظة واحدة فقط .

ولكنه كان فى حالة غضب شديد لم تسمح له أن يكثرث بها . كان

غاضبا على زوجته . فلما استدارت لتبتعد سمعت غضبه ينفجر :

— أيتها الع .. العجوز اللعينة ا

ولم تستطع أن تسمع كل شيء بوضوح . ولكن ذلك كان كافيا .

بل أكثر من كاف . ففرت أمام هذه الثورة المندفعة ولو الى شخص غريب

هربا مما أحدثه لديها تغير لهجته من صدمة عنيفة .

المفصل السادس عشر

ولما واجهت عيني الكابتن بزرقتهما الخفيفة حدثت أكبر أعجوبة ،
فقد شعرت بالارتياح اذ وجدت هما تذوبان بالقلق على الرعب المرتسم
على محياها .

— ماذا فعل ؟

فهو قد وضع الوزر كله على كاهل السير كلود . فلم يسعها الا أن
تقول :

— وصفها بأنها عبيطة عجوز ملمونة .

فغفر الكابتن فمه على سمته' مما جعله على مستوى الليدى ؛ ثم
بطبيعة الحال تشنج كأي انسان آخر . بيد أنه تمالك نفسه على الفور
وردد صدى كلماتها الرديئة :

— والدتك .. عبيطة عجوز ملمونة ؟ .

وكانت ميزى قد صارت على وعى بحركتها التالية فقالت له :

— أظنها حاولت أن تثير غضبه .

فكان زهول الكابتن لذلك القول متسما بالركة :

— تثير غضبه .. « هي » ؟ كيف هذا وهي ملك كريم !

واذ قال هذه العبارة أسر محياها فؤادها على الفور ؛ فقد كان في
منتهى الاشراق والحنان وكانت عيناه الزرقاوان تفيضان بتألق غامض
أذكه أمها فيه . وأعاتتها حصيلتها من قوة الملاحظة على أن تحدد مكانه
وهي تحدد فيه ، فهو جندي بسيط صريح شديد الجد — فيما قاب اليه

ذهنها — ولكنه ليس مفزعا على الاطلاق . وهو على كل حال قد هز فيها
وترا كان جديدا عليها مما جعلها تقول بعد لحظة :

— أتميل اليها كثيرا جدا ؟

فنظر اليها باسما وبدا عليه التردد وازداد ظرفا على ظرفه وقال :
— دعيني أحدثك عن أمك .

وبسط اليها يدا عسكرية كبيرة تناولتها على الفور واستدارا معا
متجهين الى حيث كان مقعدان تحت احدى الأشجار . وقالت له ميري
وهما سائران :

— لقد طلبت مني أن آتي اليك .

وسرعان ما كانت جالسة لصقة على مقعد وأمامها أبداع الصور
— ألا وهو للاء البحيرة من بين الأشجار الأخرى ؛ ويصافح سمعها
صوت الأطيوار وخرير الماء الذي تمخره الزوارق ولعب الأطفال تملأ
أصداؤه الهواء . وأحنى الكابتن قامته العسكرية وجلس جلسة جانبية
ليكون أقرب اليها وأحنى عليها . ولما كانت يدها فوق ذراع المقعد فقد
وضع يده على يدها مرة أخرى ليؤكد شيئا كان مقبلا على الافضاء به
اليها . شيئا سيجدى عليها أن تسمعه . وكان قد أخبرها بالفعل كيف أن
أمها منذ رأتها على غير انتظار وفي صحبة شخص .. حسنا .. شخص
ليس على ما يرام اطلاقا طلبت اليه على الفور أن يتولى رعايتها الى أن
تقوم هي بالانقضاء — كما قالت — على الآثم الحقيقي . وأوحى
الى الطفلة الاحساس بأنه في هذا الوقت الذي يمضيه معها انما يفعل
ما يوافق هواه . وقبل عشر دقائق لم تكن قد رآته اطلاقا ، الا أنها
تستطيع الآن أن تجلس هنا تلمسه ويلمسها ويدور بخاطرها أنه من
المستحب أن يكون الرجل نحيفا أسمر اللون سررة صافية الأعماق تجعل.

شاربه الذى يشبه لونه لون القش يكاد يبدو أبيض ؛ وأن تكون عيناه أشبه بالأزهار الصغيرة الشاحبة . وأعجب ما فى الأمر أنه لم يد عليها فى ذلك الوقت بالذات أدنى مبالاة بما يتعرض له السير كلود . ولم يكن شيئا به فى شيء اذ كان الجانب العجيب فى ظرف صديق ماما ان له وجها لمت أشتات ملامحه على غير الأصول المتعارف عليها بحيث صار الترفق الوحيد به أن تكتفى فى وصفه بأنه غريب مضحك . وأعجب من هذا أيضا أن سيدتنا الشابة قالت لنفسها وهى بصدد تحديد كنهه أنه أشد الناس فى الدنيا تذكيرا لها بطريقة خفية للغاية بمسز ويكس . فهو لا يستخدم المثبتات ولا الاكليل وليس له — فى نفس الموضوع على الأقل — زر . وقد لوحته الشمس تلويحا شديدا ، وصوته عميق ورائحة السيجار تفوح منه . ومع ذلك كله فهو بصورة عجيبة أشبه بمريبتها المعجوز منه بزواج أمها الشاب . وما كان يريد أن يقوله لها مما سيحدث عليها سماعه هو أن أمها المسكينة (ألا تعلم هذا ؟) أفضل صديقة عرفها فى حياته كلها على الاطلاق . وأضاف الى ذلك قوله :

— لقد حدثنى عنك بالشيء الكثير . وأنا سعيد للغاية .

لم يسبق لها فيما تعتقد — أن خوطبت بهذه الصورة باعتبارها سيدة شابة ، حتى ولا من جانب السير كلود فى ذلك اليوم الذى غبر عليه زمن طويل جدا حين وجدته مع مسز بيل . وخطر لها أن هذا هو الأسلوب الذى لا بد أن السيدات الشابات يخاطبن به فى المراقص من جانب مراقصيهن المبهجين فى الفترات التى تقع بين الرقصات . وحاولت أن تفكر فى شيء يليق أن ترد به على هذا الكلام فى مستواه العالى نفسه ، بيد أن ذلك الجهد آدها ، وكان أقصى ما قالته :

— لقد ظننتك فى البداية اللورد اريك .

فنظر اليها الكابتن متحيرا وقال :

— اللورد اريك ؟

— وعندئذ قال السير كلود انه يحسبك الكونت .

فضحك وقال :

— كيف هذا ؟ الكونت لا يتجاوز طوله خمسة أقدام . ولونه أحمر

مثل سرطان البحر ا

فضحكت ميري في تألق ردا على ضحكته — والسيدة الشابة في

المرقص حرية أن تفعل هذا قطعا — وكانت على وشك أن تتابع ذلك

الموضوع في عناية شديدة بالقاء سؤال لطيف . ولكن قبل أن يتسنى لها

الكلام بدأها رفيقها بقوله :

— ومن عساه يكون اللورد اريك ؟

— ألا تعرفه ؟

فقد عن لها أن السيدة الشابة التي في ذهنها حرية أن تقول ذلك في

دهشة يسيرة .

— أتعنين به رجلا بدينا فمه مفتوح على الدوام ؟

فكان لا بد لها أن تعترف أن معرفتها به محدودة جدا فكل ما تستطيع

أن تصف به حامل هذا الاسم أنه من أصدقاء ماما . ولكن بارقة تذكر

ومضت في ذهن الكابتن الذي أسرع يقول بلهجة من عرف الرجل

الذي تعنيه :

— أمن تدعيه بهذا الاسم هو الشخص الذي كان يملك بوبولينك ؟

ثم عارضها بصورة قاطعة ولكن بكل ما لديه من رقة :

— لا . لا . أمك لم تعرف هذا الشخص اطلاقا .

فغامرت الطفلة بقولها :

— ولكن مسز ويكس قالت ذلك .

— مسز ويكس ؟

— مرييتى المعجوز .

فبدا ذلك أيضا مصدر تفكر للكابتن وقال :

— لقد اختلط أمره على مرييتك المعجوز . فهو حيوان فظيع .

ووالدتك لم تنظر اليه قط .

وكان فى لهجته حاسما وودودا فى آن واحد . بيد أنه استغرق مدة

دقيقة بعد ذلك فى صمت أتاح لميزى — التى لم يقلل ارتباكها من

حذقها — فرصة اصلاح الخطأ الذى بدر منها بادعائها أنها تعرف أكثر

مما ينبغى ، وذلك باظهار التواضع ودعوته لتصحيح المزيد من معلوماتها .

فسأته :

— ولكن أليست تعرف الكونت ؟

— ربما . ولكنه حمار آخر .

وبعد ذلك وضع فجأة يده مرة أخرى على ظاهر يدها ، وكان قد

رفعها منذ برهة ، وبدت عليه علائم التغير فى نظرتة وسيماه ، حتى لقد

خيل الى ميزى أن وجهه احمر قليلا ، وقال لها :

لدى رغبة هائلة فى التحدث اليك . وينبغى ألا تعتقدى فى أمك

أى سوء .

فصاحت الطفلة وقد احمر وجهها حتى عينيها فى موجة طاغية من

الاستنكار لمثل هذا الخاطر :

— أوه . أؤكد لك انى لا أعتقد فيها سوء .

فأخنى الكابتن رأسه ورفع يدها الى شفثيه بضو جعلها تمنى

نو كان قفازاها أفضل مما هو . وقلل :

- أنت طبعا لا تعتقدين فيها السوء وأنت تعرفين مبلغ تعلقها « بك » .
فقالت ميزى مبهورة الأتفاس :
أهى متعلقة بى ؟
- بصورة هائلة . ولكنها تظن أنك لا تحيينها . يجب أن تجيبها .
فقد كانت الشئ الكثير جدا .
فقالت مسرورة بأنها لم تنكر ذلك قط :
— نعم أعرف هذا .
واستطرد الكابتن قائلا :
— ليس لى بالطبع الحق فى الكلام عنها الا باعتبارى صديقا خاصا .
ولكنها امرأة رائعة . ولم تحظ اطلاقا بأى لوز من الانصاف .
— حقا ؟
- فأحس رفيقها لهذه الكلمات بهزة جديدة تماما وقال :
— وقد لا ينبغى أن أخبرك . ولكنها قاست من جميع الوجوه .
وبادرت ميزى تهيب به :
— بل تستطيع أن تقول لى ذلك .
وسر هذا القول الكابتن فقال :
— ولكن لا ينبغى أن تخبرى أحدا . فهذا الكلام لك « أنت » .
أترين ؟

وصار همها وهى تبسم فى جد أن تستدرجه للكلام :
— بينى وبينك ، فما أكثر الأشياء التى لم أخبر بها أحدا قط .
— احفظى هذا السر أيضا مع بقية أسرارك . وأؤكد لك انها قضت
أسوأ وقت جهنى ، مهما قال لك أحد عكس هذا . وهى أبرع امرأة
رأيتها فى حياتى كلها . وهى فى منتهى الظرف .

وكانت نبرة صوته قد هزتها . أما الآن فقد أسندت ظهرها الى المقعد وأحست بشيء يرتجف في داخلها وهو يقول :

— انها لطيفة الصحبة للغاية . وتستطيع أن تفعل سائر الأشياء خيرا مما رأيت أحدا يفعلها . ولديها اقدم خمسين رجلا ؛ وأؤكد لك انى واثق من ذلك . ولديها ثبات أعصاب وجسارة صيادى النور . وانى لأزكيها لذلك وايم الحق . وهى صريحة جدا وكريمة . ألا تعرفين هذا ؟ مع أن من النساء من هن فى منتهى الخساسة . انها مستعدة أن تصدى لآى مشقة فى سبيل أى انسان تستلطفه .

وبدا عليه أنه لبث برهة يرقب وقع هذا الكلام الحامسى على رفاقته؛ ثم صعد زفرة صغيرة أعرب بها عن أساه لالتزامه حدود ما يجوز من الكلام فيه . ولكن نبرته كانت أشبه بتحد جديد حين اختتم بقوله :

— اسمى . انها « أمينة » .

وكانت ميزى قليلة الرغبة فى التصريح بعكس ذلك حتى انها وجلت نفسها وهى فى تيار استجابتها له تختلج بسرور كان التعبير عنه أعسر أيضا من التعبير عن جوهر اعجاب الكابتن . فقد أسكتها احساسها بأنه يتكلم عن أمها كما لم تسمع أحدا يتكلم عنها من قبل . وخطر لها وهى جالسة فى صمت أن هذا الاعجاب يعد كل شيء وهذا الاحترام انما هى كلمات جديدة تميزت بأنها بغير شبيه فى كنهها بين كل ما خرج فى أى مناسبة من بين شفتى أبيها أو مز بيل أو السير كلود . أو حتى مسز ويكس . وبدا لها أن هذه الكلمات تتمخض عن أول عطف حقيقى سمعت به فيما يتصل بموضوع الليدى ، ولذا أثارت هذه الكلمات شيئا غريبا عميقا مؤسسا انبثق من أعماقها وتكشف لها عن أمها — على ما تعلمه — لم تحظ فيما عدا هذه الكلمات الا بالكراهية . وبدا لها بيان مسز ويكس

الأصلى عن عواطف السير كلود وكأنه أصبح الآن فارغا كأنه الكوارس في احدى ألعاب الأطفال . فالزوجان في هذه اللحظة على قيد خطوات قليلة يواجه كل منهما الآخر بالبغضاء ؛ ولم تزل ترن في الهواء النعوت البشعة التي أطلقها عليها . وبماذا نعتها الكابتن في مقابل ذلك ؟ لقد أرادت ميري أن تسمع هذا مرة أخرى . وملاّت الدموع عينيها وافحدرت على خديها اللذين كانا يحترقان من تحت هذه الدموع بفيض من أحساسها بأن هذا الجمال الحى الشامخ كان بالنسبة لها قبل خمس دقائق مصدر فزع وهي تنتظر اقضاضه عليها . وعلى الفور أصبحت غير مكترثة بخوفها المألوف من اظهار ما يعتبره الأطفال شيئا مهينا للغاية فحولت صوب رفيقها بلا صوت وجهها المتقلص المبلل بالدموع . وصاحت به في ألم كما لم تصح في وجه أى انسان في حياتها كلها :

— أتوها ؟

قالتها وهي تشهق من أثر محاولتها كبت البكاء .
ولا شك أن ما رأيته من نظرة الحيرة الغريبة على وجه الكابتن ردا منه على سؤالها انما كان أثرا آخر من آثار الضباب الكثيف الذى غشى عينيها . وتلعثم الرجل بيد أن صوته لم يخل من رنة اصرار متحرج :
— انى بالطبع شغوف بها غاية الشغف . وأميل اليها أكثر مما أميل الى أى امرأة رأيته من قبل . ولست أبالى اطلاقا أن أقول لك هذا . بل انى اعتبر هسى حيوانا كبيرا ان أنا باليت بذلك .
ولكى يربها أن موقعه فى أسنى درجات الوضوح جعلها — برقة لم يستطع السير كلود نفسه أن يتفوق عليه فيها — ترتجف مرة أخرى كما ارتجفت عند أول اندفاعه فى الحديث ؛ فقد ناداها باسمها ، فأحدث اسمها الأثر المشهود :

— يا عزيزتى ميسى . ان أمك ملك .

فكان ذلك بلسا يكاد لا يصدق ؛ لطف غاية التلطف احساسها
بالخطر والألم ، ففاصت الى الخلف فى مقعدها وغطت وجهها بيديها
واتحبت :

— أمى . أمى ا

وخالجا احساس بأن الكابتن وهو جالس الى جوارها لم يكن على
تزايد مودته نحوها خاليا من الشعور بالحرج . وبعد دقيقة حينما اتشمت
الغشاوة عن عينيها شيئا ما رأته منتصب القامة أمامها وقد احمر وجهه
احمرارا شديدا وراح ينظر فى عصبية حوله ويضرب ساقه بعصاه بشدة .
وتوسلت اليه قائلة :

— قل انك تهواها يا متر كابتن . قلها . قلها ا

فثبت متر كابتن عنيه الزرقاوين فيها تثبيتا شديدا وقال :

— « طبعا » أنا أهواها . ليكن ما يكون ا

وعندئذ وثبت واقفة وكانت قد تصيلت من جيبيها منديلها وقالت :

— وكذلك « أنا » اذن . أهواها . أهواها . أهواها ا

وكانت متحمسة فى الادلاء بهذا التأكيد .

— اذن ستعودين اليها ؟

وحملت ميسى ووقفت يدها المضمومة على قطعة منديلها الصغير فى

منتصف الطريق الى عينيها وقالت :

— انها لن تهبلنى .

— بل ستقبلك . انها تريدك .

— أعود الى البيت .. مع السير كلود ؟

فنكل عن الافصاح وقال :

— ليس معه . بل في مكان آخر .
ووقف كل منهما ينظر الى صاحبه بتوتر غير مألوف أن يحدث بين
كابتن وفتاة صغيرة ، ثم قالت :

— وانها لن تقبلني في أى مكان .
— بل ستقبلك اذا طلبت « أنا » ذلك اليها .
فاستطردت ميزى بتوتر :

— أستكون أنت هناك ؟
فقال الكابتن وقد استمر توتره أيضا :

— نعم .. يوما ما .
— اذن أنت لا تعنى أن ذلك سيكون في الوقت الحاضر ؟
فأقتر عن ابتسامة سريعة وسألها :

— أتريدين أن تأتى الآن وتهضى معنا ساعة ؟
ففكرت ميزى ثم قالت :

— انها لن تهبلنى ولا حتى الآن .
واستطاعت أن تبين أنه عند رايه ، الا أن لهجتها أثرت فيه ، فخبب
ذلك ظننا قليلا ، ولكنه بعد لحظة قال لها بجلاء :

— بل ستفعل اذا أنا طلبت اليها ذلك . وسأطلبه اليها في هذه
الدقيقة .
والتفت ميزى عندئذ ونظرت حيث وقفت أمها وزوج أمها . وفي
البداية لم تبين أحدا بين الأشجار . ولكنها في اللحظة التالية صاحت
بانفعال :

— انتهى الأمر .. ها هو ذا قادم !

وراح الكابتن يرقب دنو زوج الليدى الذى سار متمهلا فوق العشب
فى هدوء ولوح لميزى باصبعة المفضلة فى الهواء بايماءة يسيرة . ثم قال :

— ليست لى الرغبة فى تجنبه .

فقالت ميزى :

— ولكنك ينبغى ألا تقابله .

— انه شخصيا ليس فى عجلة من أمره !

وكان السير كلود قد توقف ليشعل سيجارة أخرى .

ولم تكن واثقة من الشعور الذى يليق بها أن تحسه . ولكنها وجدت

فى ملحوظة الكابتن تعليقا متحررا فقالت تجيبه :

— أوه . انه لا يبالى .

— لا يبالى بماذا ؟

— لا يبالى من تكون . لقد أخبرنى بذلك . اذهب واسأل ماما .

— اسألها ان كان فى امكانك أن تأتى معنا ؟ حسن جدا . أتريدينى

حقا أن أتظر وصوله ؟

— « أرجوك » ألا تنتظره .

ولم يكن السير كلود قد زاد اقترابا . وكان الكابتن قد أمسك يمينها

فى يسراه وراح يؤرجحها فى ألفة . واستطردت هى :

— ولكن خبرنى أولا : هل أنت مزعم أن « تعيش » مع ماما ؟

وانفجرت نغمة الطرب المزممة بفعل ما أبدته من الجدة ، وقال :

— يوما ما .

وتساءلت غير مضطربة على الاطلاق بسبب ضحكة :

— اذن أين سيكون السير كلود ؟

— سيكون قد فارقتها بالطبع .

- وهل ينوى حقيقة أن يفعل ذلك ؟
- لديك كل الفرصة لتسأليه عن هذا .
- فهزت میزی رأسها بحزم وقالت :
- لن يفعل هذا . لن يكون البادىء .
- فجعلت كلمة « البادىء » الكابتن يضحك مرة أخرى وقال :
- من المؤكد أنه سيكون دنيئا ا ولكنى قلت لك أكثر مما ينبغي .
- فقالت میزی :
- حسنا . أنا كما تعلم لن أخبر أحدا .
- لا . هذا الكلام نك وحدك كله . الى اللقاء .
- الى اللقاء .
- واحتفظت میزی بيده مدة كافية لأن تردف :
- أنا أميل اليك أيضا .
- ثم أخيرا قالت له :
- أتوها حقا ؟
- فاعوزت الكابتن الكلمات وهتف :
- يا طفلى العزيزة ..
- اذن لا تجعل ذلك لأمد قصير فقط .
- أمد قصير ؟
- كما فعل الآخرون جميعا .
- فوقف يحمق فيها وسألها :
- الآخرون جميعا ؟
- فجذبت يدها من يده وقفزت لتمضى الى لقاء السير كلود وهى تقول :
- ليكن حبك لها دائما .

وفيما هي تغادر الكابتن سمعته يجبلجبل في طرب واضح :

— أنا آخذ في هذا !

و حين لحقت بالسير كلود لاحظت أمها على مبعدة تتحرك منصرفه في ببطء . ولما نظرت صوب الكابتن مرة أخرى رأته يطوح عصاه ويتراجع في ذلك الاتجاه بعينه .

ولم تكن قد رأت قط السير كلود يبدو كما بدا في تلك اللحظة ؛ متورد الوجه لكنه ليس متوفزا ؛ فهو مستقر على حال لا تتغير من التقرز ، يجمع بين الصلابة والفتيان . فلا ريب أن حديثه مع أمها قد أسال الدماء ، وارتلت الطفلة الى حالة فزعها القديم ؛ التي أثمرت لديها على الفور ذلك الاقباض المعنوي الذي كان يرين عليها حينما كان والداها يتطلعان اليها كي تغذى جبهما للمراك . وكان أعظم خوفها في هذه اللحظة مع ذلك من أن يفطن صديقها الى أنها كانت تبكي . وأول ما فطنت اليه بعد ذلك أنه رمقها بنظره وخطر لها على الفور أنه لا يريد أن تنظر اليه . وعلى الفور حولت نظرها عنه وقال في شيء من الغلظة :

— من عساه يكون هذا المخلوق ؟

فأحست بالحذر يطفى عليها وقالت :

— هذا مالم أصل الى علمه .

فبدا من وقع هذه العبارة أن هذه المهمة كان الأخرى أن يقوم بها هو . ولم يكن بوسعها الا أن تواجه بعناد ما في التظاهر بالسماجة من قببح ؛ على نحو ما تعودت أن تواجه ذلك حينما كان أبوها ينعتهما بسبب بلاهتها بأنها أتان قذرة صغيرة ، وحينما كانت أمها تطردها بسبب خداعها خارج الحجرة :

— اذن ماذا كنت تفعلين طيلة هذا الوقت ؟

— أوه . لا أدري .

فمن طبيعة منهجها ألا تقف بيلاحتها عند منتصف الطريق ؛ فقال
وقد وصلا الى شاطئ البحيرة وراح يسيران بسرعة :

— ألم يقل ذلك الحيوان شيئا اذن ؟

— لم يقل شيئا كثيرا .

— ألم يتكلم عن أمك ؟

— أوه . نعم . قليلا .

— اذن ما أسألك عنه من فضلك هو « كيف » ؟

فلانفت بالصمت فترة طويلة الى أن استطرد :

— ألا تسمعين ما أقوله لك ؟

وعندئذ قالت :

— أخشى أنني لم أكن ملقية بالى اليه كثيرا .

فراح السير كلود يدخن بعنف ولم يرد عليها على الفور ، الا أنه

صاح أخيرا :

— اذن يا عزيزتى لقد كنت — وأمامك مثل هذه الفرصة — مثلا

للبلادة .

وكان محنقا جدا — أو هكذا خيل اليها — حتى انه لم يقل كلمة

أخرى بقية الوقت الذى قضياه فى الحداثق . وامتنعت هى بكياسة عن

محاولة تهدئة ثائرتة ؛ لأن هذا من شأنه أن يؤدي الى مزيد من الأسئلة .

وأمام بوابة الحداثق نادى عربة ذات أربع عجلات ؛ وفى صمت ؛ ومن

غير أن تلتقى عيناه بعينيها وضعها فى داخل تلك المركبة ولم يزد على

أن قال لها وهو يقف الى المقعد بنصف ريال :

— اعطه « هذا » .

وحتى عندما أغلق الباب من الخارج وأخبر الرجل الى أين يذهب لم يلتفت نحوها ففاته نظرة التوديع التي صوبتها اليه . ولم يسبق أن حدث لهما مطلقا مثل ذلك . الا أن هذا لم يقلل من حبها له . ولذا لم يكن في استطاعتها أن تتحمل ما حدث فحسب ، بل شعرت والمركبة تبتعد بها أنها تستطيع أن تجد فيه لذة . فقد أعاد اليها ما حدث احساسها بحلاوة النجاح منذ أجيال حين وقعت أزمة وهي عائدة من بيت أبيها اذ التقت على السلم بأمها وقابلت سؤالا عنيفا منها وجهته اليها ببلاهة كبلاتها الليلة فأوشكت أن تلقى بها مسز فارانج الى قاع السلم حطاما .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامه

الفصل السابع عشر

لئن كانت لأسباب خاصة بها قد استطاعت أن تتحمل احساسها باستياء السير كلود ، فقد تعرضت قدرتها على الجلد لامتحان عسير : فقد توالى الأيام من غير أن يطرق باب أبيها . وكان ذلك الوقت حريا أن يذهب سدى بصورة مؤسفة لولا أن شيئا طرا بصورة بارزة فأحدث تغيرا كبيرا . وكان ما حدث هو تحول ملحوظ في موقف مسز بيل . تحولاً يبدو أنه جعل السير كلود رغم غيابه وكأنه موجود في البيت . وقد بدأ ذلك بحديث جرى بينهما يوم عادت ميري وحدها في العربة . كانت مسز بيل قد عادت حينئذ ، وكانت أكثر توفيقا من صديقتها في استخراج تقرير من سيدتنا الصغيرة عن المقابلة الغريبة التي تمت بينها وبين الكابتن . وعادت الى ذلك الموضوع مرارا . وفي اليوم التالي مباشرة تبين للطفلة بأنها كانت على دراية تامة بما حدث في الوقت نفسه بين الليدى وبين السير كلود . وكان هذا هو منشأ احساسها الحاسم بأنه لئن لم يحضر الى البيت فان زوجة أبيها لديها سبب خفى يدعوها لعدم الظهور معه . وقد أدى هذا الى مناورات قليلة مع مسز بيل ، كان أكثرها استفزازا ما حدث فيه تفجر عجيب للدموع . ولم يكن هذا التفجر من جانب ميري . ولم تكن مسز بيل كما قالت عن نفسها حليفة بكاء . فهي لم تبك — على ما تعلم ميري — منذ أيام اشتغالها بمهنة المربية الوضيعة التي كانت الفجر الأول لصلتهما . أما الآن فهي تبكى بحرقة وتعترف بصوت عال أن ذلك يفيدها ، وتقول أشياء غريبة لريبتها . وهو أمر استفادت منه

بإضافة هذا المدد الجديد الى مخزونات حكمتها الاحتياطية . ولم ينتهك تلك الحكمة — على حسب ما شعرت به ميري — أن تخبر مسز بيل بما لم تمله للسير كلود . من حيث ان التوتر الأكبر — من وجهة نظرها — لما يوجد فيما بين السير كلود وزوجته . وأن زوجته يتمثل فيها كل ما لا يتمثل لسوء الحظ في مسز بيل . وقد أرسل الى ابنة زوجته بعد حادثة حدائق كنجستون بثلاثة أيام رسالة صريحة ورقيقة معا . وبذلك تحتم على مسز بيل أن تعترف بأسلوب نصفه توسل ونصفه تحد :

— نعم . سحقا لكل شيء . « اني » أقابله !

أما كيف ومتى وأين فأمور ليس لميري أن تعرفها . وهو حذر لم تحاول أن تناقشه في ضوء تلك المشاركة العريضة التي جعلته — اذ تشارك في الفراغ الرحيب الذي يمتد اليه استقلال مسز بيل — يلمع في عينيها المشتاقتين لمعان النافذة الوحيدة في حجرة مترامية معتمة . ولم تكن مثل تلك الساعات تجد ما يكدر صفوها من جانب أيها . فكان واضحا فيما بينهما أن كلا منهما تفكر في الغائب ، حتى أصبح الموضوع الذي تومنان اليه في كل ما تقولان أو تفعلان . وكانت الحقيقة المؤلمة — كما اعترف بها مسز بيل — أنها علقته أملها بالمحال — فمن المستحيل فعلا على السير كلود أن يكثر من التردد على ريجنت بارك . أليس عليهم في النهاية أن يواجهوا الحقيقة ؟ من البديهي للأسف الشديد أنه ما من أحد بعد ذلك كله نال ما يصبو اليه ولئن لم ينل أحد ما يصبو اليه فلان الجميع كانوا أخساء . والمقصود بكل انسان هو بالطبع بيل وايدا . ولم يكن في وسع مسز بيل أن تدلى بالتفاصيل الدقيقة لمدي ما يمكن أن تصل اليه دناءتهما . فكان لا بد كي تسير الأمور — على حد قولها — أن تقوم تلك السيئة بتدبير خطة أخرى ، وهي خطة كل ما تعرفه عنها .

میزی أنها موجودة وأنها تساءل في حرق عن كنهها ومن الواضح على أى حال أن من جوانب تلك الخطة ما يعتبر مسؤولاً عن افعال مسز بیل المفاجيء واعترافها المفاجيء أيضا . وهو مسلك لم يكن ما أجرى فيه من الدعم ليردع بطلتنا عن التفكير في مبلغ سعادتها لو أنها استطاعت أن تدبر خطة لنفسها وكانت خطة مسز بیل فيما يبدو تسير بانتظام وتؤنى ثمرها بكثرة . فما يمر يوم أو يومان الا وتأتى میزی برسالة أو تحمل منها رسالة . وكان انهيارها بالبكاء لما تبين لها أنه — على حد تعبيرها — فعله لأجلها . وقد ظلت هذه الصورة ماثلة أمام میزی بما طرأ بعد ذلك من الزيادة لا على مرح صديقتها فحسب ، بل وأيضا على الحقيقة بما أضفاه من ازدهار على فضيلتها . ولم يكن ذلك الاحساس يبدو ضربا من التخمين . فصديقتها كانت أول من نادى بهذا قائلة انه شد من أزرها بصورة هائلة ورفع من روحها وغير اتجاه حياتها . وكانت تطلق عليه ألفاظا ساحرة ، فهو جنيها الطيب وينبوعها الخفى ، وهو فوق هذا كله وجدانها « الأسمى » . وكان هذا ما صرحت به وهى تذرف دموعها المذهلة . فهذا الرجل العزيز قد جعلها تحسن الظن بنفسها أكثر كثيرا من ذى قبل فتكشف من هذا — لفرط دهشة میزی — أنها كانت من قبل تسيء الظن بنفسها على نحو ما . وأسعد میزی أن تسمع بالبرء في الوقت نفسه الذى سمعت فيه بالعلة وألفت نفسها تفترض ، بل وتتمنى على الرغم مما تستشمره من الحسد ، أن مسز بیل كلما بارحت البيت فان السير كلود كان يجد في ذلك ما يرضيه على نحو ما . وقد أصبح خروجها كثير الحدوث ، بصورة لم تقع من قبل ، حتى انها كانت حرة أن تعتبر أمها غائبة عن البيت بشكل مسرف لولا أن أباهما كان من قبلها النموذج الأعلى لتلك العادة . وكان ذلك رأى زوجته الحالية الذى

تبدية الآن كثيرا كما كان من قبل من بين ادعاءات سالفتها البارزة أمام محاكم بلدهما . ومفاد هذا الرأي أنه قلما يأتي الى البيت ولو للنوم . ثم ان مسز بيل حينما تكون في البيت يبدو عليها الآن التشوق الى تعويضها عن كل شيء . وكان الظل الوحيد الذي يعكر اشراق هذه الفترات — كما صورته ميري لنفسها — أنها لا تستطيع أن تحصل على شيء بأسئلتها . فقد كان من طبيعة هذه الأمور ألا يكون لصغار الأطفال بها شأن ، حتى حينما تكون الطفلة الصغيرة منذ البداية قد انغمست في تلك الأمور الى درجة الخوف من أن تكون قد عرفت أكثر مما ينبغي . فالأمور اذن مطابقة كل المطابقة لطبائعها في تجربة ميري من حيث ان الأسئلة تكاد تكون على الدوام غير لائقة . بيد أنها تعلمت من جهة أخرى أنها قد تستطيع أخيرا في بعض الأحيان اذا تذرعت بالصبر الصامت والنظرات السريعة الذكية أن تحصل على لمحات صغيرة رائعة . وقد انقضت سنوات وكلمة « هو » ذات المقطع الواحد في بيت بيل فارانج تعنى على الدوام — وبشيء من العنف — رب البيت . ولكن ذلك كله تغير في فترة سادت فيها مزايا السير كلود جو الدار كله ، فصارت هذه الكلمة رمزاً له . فمسز بيل ربما قالت لرفيقتها :

— انه يمضدني بصورة رائعة .. هو سندی يا حبيبتى الغالية .

أو ربما قالت ان الموقف في البيت الآخر قد وصل الى درجة لا يصدقها المرء — الى درجة أنه لم يقع بصره عليها منذ اثني عشر يوما . و « هي » تنصرف بالطبع في بيت بيل فارانج الى ايدا دون غيرها . وكل ما زاد عليها في هذه الحالة الآن هو مزيد من الكثافة . فمسز بيل — وما أعجب هذا — كانت في وضع من تتقد بصورة متزايدة سلوكها الكريه ، ومحصله كله ألا يبدو في سوء صلتها بزوجها وفي ضآلة هذه الصلة ضآلة مردولة .

وكان هذا الفيض من المعلومات يصل الى صديقنا وان كانت مسز بيل في الواقع لا تهتم شخصيا بيبتها أكثر من اهتمام ايذا بكثير . الا أن ذلك كان من بين الخواطر التي تدور في رأس ميزى من غير أن تسمح لها بتحطيم سحر عطفها الحالي . وكيف يمكن أن يكون ذلك السحر غير عميق وتأثير السير كلود عن بعد هو الذي يحتم استئناف ابنة زوجته لدراساتها ؟ وتحملت مسز بيل لهذه الدراسات من جديد وكان واضحا جدا لميزى أن هذا أهم شيء يرهاها به صديقها الغائب .

وكان هذا المصدر الثاني — وقد أُلعت الى المصدر الأول منذ قليل — الذي استقت منه الصفة احساسها بأن شيئا ما وضعته لنفسها — وهي تعلق عليه الآمال الكبار — بأنه مرحلة جديدة . وبدا لها ذلك في الحماسة الجديدة التي تعود بها مسز بيل على الدوام في كل مرة ، فيجعل هذا الاشراق ميزى تحس بأنها لم تنزل عزيزة جدا لدى شخصين على الأقل . وأخشى أن تذكرها الضئيل في الوقت الحاضر لشخص ثالث يميزها بصور نياتها الوقتى لمسز ويكس . وهي مسألة لا يفسرها الا ما استولى عليها من توفز غير طبيعي . اذا ما هي الصورة التي اتخذتها حماسة مسز بيل وارتياحها الى الظروف البيئية المتبقية لها مالم تكن صورة « القراءة » مع ربيبتها الصغيرة في صفحات عيبتها لها السير كلود في كتب زودها بها في سحاء ؟ وكانت مسز بيل قد قالت لها انه وقع على قائمة طيبة للغاية « معظمها مقالات » وهي كلمة تبدو على الدوام مهية في نظر ميزى ، ثم يخف وقعها بعد ذلك . وكانت تمر أسابيع يصلها في كل منها ما لا يقل عن تسع مجلدات . وكانت تفهم ضمنا من كلام مسز بيل أن اتصالاتها الغامضة التي تستمتع بها مع السير كلود لم تكن تتضمن وزنا وقدما للدراسات فحسب بل ان هذه الاتصالات كانت تتم تقريبا

بقصد التبليغ والمشاورة . وأنها — كما كررت على مسامعها كثيرا —
لأجل تعليم ميسى حرصت على اغلاق بابها في وجه السادة الذين تعودوا
أن يتقاطروا في جموع كبيرة ، وقد جعل هجر زوجها الفعلى بها من غير
اللائق على الاطلاق أن تستقبلهم . وكانت ميسى على دراية منذ القدم
بالمبدأ الذى يدعو المرأة الجذابة البرزة الى أن ترعى المحافظة على
« سمعتها » — على حد تعبير مسز بيل عن ذلك المبدأ — وقد تأثرت
ميسى بصرامة زوجة أبيها في الحرص على هذه الاعتبارات . فلا أحد من
الجنس الآخر تشعر بأن لها الحرية فى مقابلتها بالمنزل . وعندما جازفت
الطفلة بالسؤال على السيدات اللواتى كن يجتنن فرادى فى فترة اقامتها
السابقة ويجدن ترحيبا صاخبا ، سارعت مسز بيل الى افهامها أن أولئك
الشيطنات جميعا قد اتضح أنهن بغيضات . فان كانت تريد أن تعرف
المزيد عنهم فعليها أن تتصل فى هذا الصدد بأبيها .

وكان لدى ميسى مع ذلك فى وقت هذا الايعاز بالذات أنواع من
الفضول أشد حيوية ، لأن حلم المحاضرات التى تلقى فى معهد كان قد
أسى فى النهاية حقيقة واقعة بفضل نشاط السير كلود غير المحدود حاليا
فى اكتشاف ما ينبغى أن يعمل . ووضح أمامها فى هذا الصدد أنك حين
تنظر فى الأشياء بروح الجهد تلقى باستطاعتك تحقيق الشيء الكثير
بما لا يكاد يكلفك أكثر من أجر المترو . وأصبح المعهد — وكان تمت
معهد فاخر فى جانب من المدينة غير معروف تمام المعرفة للطفلة — فى ضوء
تلك الروح مكانا مثيرا ، كما أصبح السير اليه من المحطة فى شارع جلورر
(ونطقه آثار ذات مرة ضحك مسز بيل من صديقتها الصغيرة) طريقا
مفروشا على الحقيقة « بالموضوعات » . وكانت ميسى تتخيل نفسها
تقطف منها وهى سائرة ، الا أن هذه المواد كانت تزداد غزارة فى الحجرة

الرمادية الكبيرة حيث تنفجر ينابيع المعرفة وسط الصمت الذي يسود صفوف وجوه مشرّبة كأنها الأباريق الخاوية ، وكانت هذه الينابيع تتخذ في العادة شكل أصوات غالية خيل اليها في بداية الأمر أنها غاضبة . وقالت مسز بيل على الفور :

— « لابد » أن تكون هذه المحاضرات مفيدة لنا . فما أبشعها .

فأبليت بتصريحها هذا من انققاد العزم ما جعل تلك المناسبات تميز بمتهى التوافق على سائر الأوقات التي يقضيها الاثنان معا . ولم يسبق لميزى بالطبع أن شعرت بمثل هذا الانهاض ، ولا بما يفوقه من الانجراف اللذين كانت تشعر بهما في لحظات عودة مسز بيل لاهثة الى البيت وصراخها من أسفل موجهة اليها الكلام وهي في الطابق العلوى لتعرف منها هل لم يزل أمامها ما يكفى من الوقت للوصول الى المحاضرة في موعدها . وكانت ابنة زوجها تأهب منذ الساعات الأولى ، فتكاد تقفز من فوق سياج السلم لترد عليها ، وتدفعان خارجتين معا بحثا عن المعرفة في مثل جدهما في الاندفاع راجعتين للتخلية بين مسز بيل وشواغلها الأخرى . وقصارى القول انها لم تشعر بانهماك يضاهى هذه النوبات ذلت الطابع الخاص بمجرد اندلاعها ، فمنذ تلك الانتفاضة القصيرة التي انبرت فيها مسز ويكس لتعويضها عن كل ما فاتها سابقا في بيت أبيها ، وكأنها تقوم بتطهيرها .

وكانت هذه الأسابيع قليلة جدا الا أنها كانت تزخر بانفعالات جديدة ومن عناصر هذه الانفعالات الجديدة ما هو محتمل الحدوث من الوقوع يوما ما على أثر السير كلود من خلال تلسكوب شارع جلوور الطويل ، أو بين أعمدة المعهد ، وهي من أهم الأشياء المهمة التي كانت تضى في

فلن ميزى الهيبة على المعهد . وهذا ما قالته مسز بيل تحت ضغط أسئلتها ،
وبشئ لا شك فيه من تقاد الصبر :

— نعم . نعم . يوما ما ا

فانضمامه اليهما كان من الواضح أنه أقل بداهة مما فهم من اعلانه
الأصلى عن رغبته في تحسين معلوماته في صحبتها . فكان هذا مما استحث
سيدتنا الصغيرة على الحدس بأن شيئا كريها قد وقع بعد ذلك ، أو أن
شيئا منشودا لم يتيسر وقوعه . ولم تكن مسز بيل قد ألفت الا ضوءا
جزئيا على المسألة حين قالت لها ان الموقف يتمخض عن حظوة أى أحد
بما يتمناه . وكالت ميزى تمنى على كل حال أن يظفر بعض الناس
بما يتمنون . ومع أن ميزى ظلت كلما اقتربت من هيكل المعرفة تفتش
بنظرها عبثا عن السير كلود ، الا أنه لم يكن ثمة شك في أن صورته
المجربة كانت تفعل فعلها كحافز وجزاء . فكلما بلغ المعهد أوج تأثيره
فيهما ، وبلغت الموضوعات أقصى عمق لها ، وبلغت المحاضرات أقصى طول
فيها ، وبدا المستمعون في أقبح صورة ، كانت الاثنتان تشعران أن راعيها
حرى في مكمنه أن يبلغ سروره منهما أقصاه .

وذات يوم قالت مسز بيل لرفيقتها فجأة وعيناها على ذلك المكمن :

— سنذهب الليلة لنشاهد شيئا في « ايرلزكورت » .

وتبدى لها يريق هذا الاعلان على أشده عندما عرفت أنها تشير الى
المهرجان الكبير الذى افتتح من فوره في ذلك الحى ، وفيه مجموعة من
الغرائب الأجنبية في حدائق مترامية تزدان بأنوار وتحفل بالفرق الموسيقية
والفيلة والزلاقات المتعرجة والاستعراضات والمشاهد الفرعية ، وبحشود
كبيرة من الناس ربما تسنى لهما أن تريا بينهم شخصا تعرفانه . وبقفزة
واحدة ألفت ميزى بنفسها على عنق صديقتها عندما سمعت اسم السير

كلود بعد أن اعترفت مسز بيل أنه ربما كانت هناك فرصة ضئيلة لاحتمال التقائه بهما هناك . فهو بالطبع يستطيع في موقفه العصيب أن يعرف ما يمكن أن يحدث بين ساعة وأخرى . وكان يرجو أن يجد فراغا لذلك ، قد نبه على مسز بيل قائلا :

— احضريها الى هناك في السر وسأجتهد أن آتي .

وهو كلام يوضح توضيحا كافيا ما أثارته لديه أساييع كثيرة من الحرمان من رغبة في رؤية الطفلة . بل انه قد ينم على أن لديه من اللهفة المتصلة على ذلك مثل ما لديها . وكان هذا من شأنه أن يعير ميري مما جعلها تعبر عن دهشتها ، لأنها لا تستطيع أن تفهم لماذا — ما دام احساسه كاحساسها — تحطمت بهذه الصورة تلك النظرية التي عادت بناء عليها الى مسز بيل ، ألا وهي نظرية اجتماع الشمل في مجموعة ثلاثية بديعة . ولم تزد مسز بيل على أن زاحت بواعث التفكير لديها بقولها أن ما تعانيه من الاحباط انما هو نتيجة لقيام فكرة معينة في رأسه :

— وما هي هذه الفكرة ؟

فأجابتها بلهجة تقارب الحدة :

— الله أعلم ! .. انه شديد الحساسية بصورة فظيعة .

فبدا لها هذا القول شديد الابهام فتساءلت :

— شديد الحساسية ؟

فأجابتها مسز بيل في تردد :

— بخصوص ما يفعل . ألا تعلمين ؟ وبخصوص ما « تفعل » ؟

وتعجبت ميري :

— أمت وأنا ؟

فصاحت مسز بيل في هذه المرة وهي تنفجر بالضحك :

— بل أنا و « هو » يا مغفلة ا

فقلت ميزى وقد تجدد عجبها :

ولكنكما لا تقترفان سوءا . « أتما » بريتان من ذلك .

وقصصت أن يكون تركيزها على كلمة « أتما » بمثابة اشارة محتشمة

الى ما يقترفه والداها ، فردت عليها رفيقتها منتشية بقولها :

— طبعا نحن لا تقترف سوءا أيها الملك الكريم . وهذا هو رأى

فى الموضوع . ولكنه يقول انه لا يريد لك أن تقصى .

— أقحم فى ماذا ؟

— هذا بالضبط ما أريد « أنا » أن أعرفه : تحمين فى ماذا ، وكيف

يمكن أن يزيد اقحامك .. ؟

وتوقفت مسز بيل دون اتمام سؤالها . وختمت كلامها بعد لحظة بطريقة

أخرى قائلة :

— كل ما يسعك أن تهويه أن هذا ما يتوهمه .

وكانت لهجتها فى هذه العبارة (على ما فيها من اظهار للاذعان الناتج

لديها من الاعياء انعانا تطوى به صفحة ذلك الموضوع) أفهمت الفتاة

الى أى حد يتعارض ذلك الوهم مع تصور مسز بيل ، مما جعل سيدتنا

الصغيرة تصل من مجرد هذا اللمس العارض الى ادراك لأشياء مجهولة

لم يفصح عنها اللسان . فالعلاقة بين زوجة أبيها وزوج أمها تنطوى على

تب غامض . وكانت هذه أول مرة يخطر لها فيها على الحقيقة أن العلاقة

بينهما لا قيام لها الا فيما يختص بها . فليس لهذه العلاقة من صورة سوى

ما يضيفانه عليها . وأدركت أيضا أن هذا من دواعى تباعد السير كلود

عنها . أليس يخشى عليها أن تتورط ؟ وقد جعله هذا الافراط فى الحرص

أعز عندها من ذى قبل . وومض فى ذهنها أنها ربما بسطت كل شىء ان

هي أظهرته على مبلغ استهانتها بمثل هذا الخطر . ألم تعش منذ عامها الثالث وعيناها عليه ؟ لقد كان هذا هو الحال الذي تستخدم المناقشة حوله في الغالب في بيت آل فارانج ؛ حيث كانت تلك الكلمة دائما في الجو وحيث استطاعت وهي في سن الخامسة أن تنطق بها وسط عاصفة من التصفيق . وكانت تعرف أيضا بالاختصار أن الشخص يمكن أن يتورط مثلما يمكن أن يتلقى لكمة بفرشاة شعر وأن يترك وحده في الظلام . وقد صار مألوفا لديها أن كل محنة من هذه المحن ليس لها على العموم الا أقل تأثير . ولكن أول شيء يجب عليها أن تفعله هو التأكد التام من موقف مسز بيل . وقد فعلت ذلك بأن قالت لها في تفكر :

— ان كنت لا تبالين .. وأنت في الحقيقة لا تبالين . أليس كذلك ؟

وفكرت مسز بيل قليلا وقد اتابتها بوادر تفكره :

— بأن تقصمي ؟ اطلاقا . اذ ما معنى ذلك ؟

فقالت ميزى :

— أيا كان معناه فأنا لا أبالي على الاطلاق بهذا الاقحام . وما دمت

لا تبالين وأنا لا أبالي ، أفلا ترين عندما أقابله هذا المساء من الخير أن

أخبره أننا لا نبالي وأسأله لماذا ينبغي له « هو » أن يبالي ؟

الفصل الثامن عشر

لم يكتب للطفلة أن تستمتع كثيرا بالنسبة لكونها في ذلك المهرجان ، لأن الأمور اتخذت بالنسبة لهما وجهة مختلفة جدا في الواقع . وكانت مسز بيل قد استحثتها على الفور في زواط أن تقدم على الخطوة التي اقترحتها . بيد أنها فيما بعد ، وهما في المهرجان ، سجت ذلك الترخيص وقالت لها بعد اعادة التفكير في الموضوع أن الرجل المفرط في الحساسية تزداد حالته سوءا عند أى مفاجأة . ومن القسوة حقا على السير كلود أن تغدو حالته أسوأ مما هي . وكان هذا ما جال بخاطر ميزى في الحداثق ووقت الزحام بعد أن خفت غشاوة الأضواء الباهرة على عينيها فراحت تنقب عنه بحثا هنا وهناك . وكان أمامها متسع من الوقت للتجول المعتدل وكالا قد أصابا معا في البيت من تلك الوجبة الغامضة التي تسميها ميزى « عشاء المربي » ، وهي الوجبة التي كان عليهما أن يكتفيا بها حينما ينشد مستر فارانج مسراته في الخارج . وكان مستر فارانج ينشد هذا المثل الأعلى الآن في الخارج كلية . وكانت ابنته تعتقد مما سمعته من زوجته أنه استقل منذ ثلاثة أيام يخت صديق له في كاوس .

وكان المكان حاقلا بالاستعراضات الفرعية . التي لم يكن في استطاعة مسز بيل للأسف أن تتيحها للفتاة الصغيرة بأكثر من الكشف لها عن تسميتها الخلاصة الآسرة . فالاستعراضات الفرعية يتكلف كل منها ستة بنسات للشخص . وكان الوفاء الذي تتمتع به أسن الاثنتين قائما منذ البداية على الرغم من ندرة قطع النقود ذات البنسات الستة . وكانت النقود

الصغيرة تساقط منها على مفض كما تخرج الاجابلت من أفواه الأطفال
الاردياء على دروس لم يلقوا عليها نظرة . وتباطأت ميزى وهى تمر أمام
الاعلانات الحائطية الملونة الكبيرة وراحت تتحسس بذراعها المقودة
جيب صديقتها خلسة حيث تمنى أن تسمع صليل الشلنات . الا أن حصيلة
هذا الاستطلاع لم تجد عليها الا زيادة تشوقها . فلو أن السير كلود جاء
لبدأت الشلنات فى الرنين . ووقت الرفيقتان أمام « أزهار الغابة »
لافتقارهما الى شلن ، وكانت « أزهار الغابة » عبارة عن عرض لسيدات
لونهن بنى لامع ، فكل أجسادهن بنية ، وسط اطار يوحى بالبذخ
المدارى . وهناك أعربت ميزى فى ألم عن اعتقادها أنه لن يأتى على
الاطلاق . وعندئذ ذكرتها مسز بيل — على ما بها من خيبة أمل واضحة —
بأن حضوره لم يكن وعدا قاطعا . وهى ملحوظة جعلت الطفلة تحقق فى
الأزهار من خلال غشاوة جعلتهن أروع مظهرا ، وفى الوقت نفسه أشد
اختلاطا . ثم ابتقل ذلك الاختلاط الى مظهر سيد كان فى تلك اللحظة
خارجا من الكشك المتألق فى صحبة سيدة . وكانت تلك السيدة شديدة
السمة حتى ان ميزى حسبته لأول وهلة احدى « الأزهار » . ولكن
فى الثوانى القليلة التى استغرقها ذلك النظر المختلط — وهى الثوانى
القليلة التى اتقضت على يأسها المحزن من حضور السير كلود — سمعت
صوت مسز بيل من خلفها يجمع فى صرخة واحدة نابعة صغيرة بين الدهشة
والألم .

— يا للدناءة .. « بيل » .

وكان قد اتجه — من غير أن يتبينهما فى كتلة المرتاضين — وجهة
أخرى ، ويبدو أن ذلك كان باقتراح من السيدة السراء . وكان طريقها

الذى تسير فيه ملحوظا فوق الرؤوس والأكتاف برشة قرمزية قائمة ،
كانت ميزى شديدة اللهفة على أن تعرف من صاحبها :

— من هي ؟ .. من هي ؟

وتابعتهما منزل بيل بنظرها برهة وصاحت :

— الكذاب .. الكذاب !

وفكرت ميزى قليلا ثم قالت :

— لأنه ليس .. حيث كنا نصبه ؟

لقد كان هذا هو الحال بالنسبة لأمها منذ شهر في خدائق كنجستون .

واستطردت تقول :

— لعله عاد .

— بل انه لم يذهب اطلاقا .. هذا الكلب .

لقد كان هذا — على ما قاله السير كلود — ما اقترفته أمها . وأحست

ميزى بما يشبه في نظر العقول الناضجة ما يسمى بنظرية « التاريخ يكرر

نفسه » وسألت مرة أخرى :

— من هي ؟

وبدا على مسز بيل وهي مسمرة في مكانها أنها متحصرة على فرصة

ضاعت . وخرجت من بين أسنانها هذه الكلمات :

— آه لو أنه رأني . انها جديدة تماما . ولكن لا بد أنه كان معها

منذ يوم الثلاثاء .

وأدركت ميزى الموقف ، ثم قالت :

— انها تكاد تكون سوداء .

فقالت مسز بيل :

— انهن على الدوام بشعات المنظر .

فصاحت ميري محتجة على هذه الملاحظة بعد أن فكرت في مفزاها :
— أوه . هذا الوصف لا ينطبق على « زوجاته » .

ولعل هذه الكلمات كانت حرية أن تبث ضحك صديقتها ، ولكن
مسز بيل كانت الآن تحت تأثير يقظتها المفاجئة فرصة اللهم . وبعد قليل
قالت ميري :

— هل رأيت في حياتك مثل هذه الرثشة ؟

وبدا على هذه الحلية أنها وقفت على مسافة غير بعيدة . وعلى الرغم
من جماعات الناس التي تفصلها عنهما استطاعتا أن تنظرا إليها :

— هذه هي طريقتهم في الري .. حثالة الحثالة .

وصاحت ميري في اللحظة التالية :

— ها هما عائدان .. وسيرياننا .

وفيما كانت رفيقتها تجيبها أن هذا بالضبط ما تريده صاحبة الطفلة :
— هاهما .. هاهما !

كان الموضوعان غير الواعين لهذا الاهتمام الشديد قد عاد أدراجهما
بسرعة بعد أن غيرا رأيهما في وجهتهما ، فاقتربا على عجل من ناقتيهما .
وكان عدم وعيهما سببا في إتاحة الفرصة لمسز بيل كي تقول بصوت
خافت ما يدل على تعرفها على المرأة . ولكن الكلام طرقت ميري :
— لا بد أنها مسز كادون .

ونظرت ميري الى مسز كادون بامعان ، وشفها ترددان الاسم .
وجرى كل شيء بعد ذلك بسرعة خارقة . فلم يحدث لبطلتنا على
الاطلاق أن دارت حولها حرب أشد من هذه استغرقت دقيقة واحدة .
وكانت الصدمة المكثومة — كيلا يلحظ الناس شيئا — غيفة . ولم تبين
الاحين فكرت فيما بعد أن الخطوات مضت في سبيلها المرسوم ، ثم اذا بها

وهى فى دوامة من الصمت لا من الأصوات تجد نفسها قبل أن يتسع أمامها الوقت للفهم أو تصح الدهشة مكانا للخوف ؛ وقد أضحت عند باب المهرجان مع أبيها . ودفعت بها الى مركبة ثم ركب ورائها . وعندئذ تسنى لها والمركبة تسير بهما معا أن تستعيد ما حدث بعض الشيء . فحينما صار فى مواجهتهما فى الحقائق رآهما . وحدث اضطراب وقتى مكتوم تعرفت أثناءه مسز كادون عليهما بحمالة من عينيها السوداءين واتفاضة من ريشها الحمراء وغمغت بشيء ثم اختفت . وثمت لحظة أخرى فطنت فيها الى وجود السير كلود واقفا فى دهشته الرزينة بعيدا عن نظر أبيها كأنما قد وصله تحذير فى تلك اللحظة من اللحاق بهما . وكان ذلك متفقا مع بقية ما سمعت مسز بيل تقوله لأبيها . ولكنها لا تذكر الآن هل ذلك الكلام قد صدر منها بصوت عال أو صوت منخفض ، الا أنه كلام يتعلق بأنه فى هذه المرة يصاحب امرأة جديدة ، فرد على ذلك بزمجرة مبهمه تم لهجتها على أن الطفلة قد تعودت منذ سنواتها الأولى سماع هذا يقول لذلك بحدة أن شخصا ما « مستحدث » فقالت مسز بيل بوضوح :

— أما أنا فالتزم قديمى ا

وكانت نبرتها لا تزال ترن فى الهواء حتى عندما انطلقت العربية . ولم يكن مرافق ميزى المتسلط قد نبس بكلمة أخرى منذ جرفها معه سوى العنوان الذى كان لا بد وهو يصعد درج المركبة أن يذكره من فوق سقف المركبة للعودى . ولما أعادت ميزى وضع هذه الأشياء جنبا الى جنب عن لها أنها كانت حريه أن توجه اليه عندئذ سؤالا لولا أن الصمت الذى فرضه عليها بالسحر أو بالفرع — لا تدرى أيهما — جعلها تشعر حين طوقها بذراعه فجأة واجتذبها اليه أنه مضطرب بصورة لم يظهرها عليها من قبل . وخطر لها أنه يرتجف ارتجافا يحول بينه وبين الكلام . وكان

من أثر هذا أنها التزمت الصمت احتراماً لسكرته الرهيب ، مدفوعة
بعاطفة لم تكن كلها رهبة خالصة ، مع أنها لم تبض الا في تلك اللحظة .
وكان ما أشعرها به من الامتلاك بضمها اليه على هذا النحو قد أرجع
اليها بعد أطول فترة من فترت الاقطاع الا احساسها القديم بسلطانه
عليها . وظلت المركبة منطلقة مسافة طويلة وهو يضمها الى جنبه ، فراحت
تحلق أمامها مباشرة حابسة أنفاسها ، ترقب شارعا مظلماً يتلو شارعا
مظلماً ، وقد خامرها الشعور بأن مغزى ذلك كله أن أباه لا يمكن اخراجه
من الحساب كما خيل اليها . ولم يستغرق اذعانها لهذا الاكتشاف
الا دقيقة . ذلك الاكتشاف الذي أوحى اليه بهذه الضمة أن لديه غرضاً
يسمى اليه ، واقرن ذلك لديها بشقة غامضة . فلا علم لها بالضبط
بما فعله ولا بما هو بسبيل فعله ، وانما قصاراها أن تختلج مبهورة بأنه
ائبرى لفعل شيء ما وأنها أمست بسرعة جزءاً من ذلك الشيء . وكان جزءاً
منه أيضاً أنها صاراً في بيت لا يبدو عليه الاتساع ، بيد أن واجهته
البيضاء المطلية حديثاً بدت منها في ضوء مصباح الشارع أنفاة أصص
أزهارها . وقد سبق للطفلة أن عاشت في ألوف من الحكايات — حكايات
مسز ويكس وحكاياتها فضلاً عن أخصب الأقايص الخيالية التي روتها
الفرنسية أليز — ولكنها لم تعرف قط حكاية كهذه . فما ان ساعدها
على الترتل من العربة التي ابتعدت على الفور ، وسمعت صوت مفتاحه
في ثقب باب البيت حتى أطبقت عليها ألف ليلة وليلة .

وابتداء من تلك اللحظة سرت روعة العجب في كل شيء ، ولا سيما
في مثل تعويذة « افتح يا سمس » المستجابة بهذه السرعة ، ورجيل
العربة ، والفراغ الصاحب الذي يملؤه شبح زوج أمها وزوجة أيها
المهجورين ، وفي حيزية الضوء الأبيض الذي يكاد يعمي البصر وقد انبعث

استجابة للمسة سريعة من أيها لزر نحاسي صغير في الحائط يرتفع بمقدار درجات قليلة فاذا بها تجد ذلك الموضع أجمل مكان رأته في حياتها . وكان أول ما فطنت اليه بمد ذلك هو أنها في حجرة استقبال سيدة — نعم سيدة . فقد استطاعت أن تتبين ذلك في لحظة . فهي ليست حجرة رجل ، حتى ولو كان رجلا كأبيها نفسه أو كالسير كلود — وما فيها من أشياء أجمل بكثير مما لدى ماما ، كما أن ما لدى ماما يعترف الجميع دائما أنه أجمل مما لدى مسز بيل . وفي منتصف الحجرة الصغيرة الوضيئة وأمام عدد من الستائر والوسائد والصور والمرايا وأشجار النخيل المتهدلة فوق زوايا موشاة مذهبة ، والصناديق الفضية الصغيرة المتناثرة فوق مناضد متعرجة وصور بيضاوية مصفرة معلقة فوق ستائر من المخمل ، يفوق ما تستطيع مسز بيل والليدى معا متحالفتين حلقا غير طبيعي أن تحلما بحسده . أمام هذا كله فطنت الطفلة فيما يشبه الاشفاق الى أن ذلك من شأنه أن يلقي بكل من هاتين المرأتين المشهورتين بحسن الذوق الى زاوية الاهمال . وكان أدعى للمجب أن أباهما تمثل لها على الفور بصورة أحسن وأعظم وهو في هذا الاطار الخلاب ، مما باعد بينه وبين مشاهد أدنى درجة من هذا المشهد . وقضت معه هناك عشرين دقيقة دون أن تظهر بايضاح . فكان الزواج المفاجيء للخطر في تلك الدقائق العشرين بعيد الأثر في نفسها حتى لكأنه وليمة مرتجلة باهظة التكاليف ، مع أنه لم تكن هناك كعكات صغيرة أو بيرة الزنجبيل .

— أهي غنية جدا ؟

وشرع يبدو لها كالمخرج ، فكأنه يشعر بالنجل اذ يجد نفسه مع سيدة صغيرة ليست بينه وبينها صلة . فحدا بها هذا الظن الى أن تتيح له مخرجا لبقا .

ووقف بيل فارانج يتسم لسيدته الصغيرة ، وظهره الى المدفأة ذلت
الزخارف الكثيرة ، ومعطفه الخفيف — أخف معطف في لندن — مفتوح
على سعة ، ولحيته الرائعة اللامعة تخفى مساحة صدر قميصه تماما .
وسرها أكثر مما سرها في أى وقت مضى. أن ترى بابا وسيما ، وان كان
في مثل طول ماما ، وكان في ثوب سهرة الزاهى يكاد يضارعها روقا ،
الا أنه في جماله أقل عداء وترويعا .

— الكوتسة ؟ لماذا تسألينى هذا السؤال ؟

فزاد اتساع حلقتي ميزى :

— أهى كوتسة .

فبدا عليه أنه اعتبر دهشتها تقديرا صرفا فقال :

— نعم يا عزيزتى . ولكن لقبها ليس انجليزيا .

وبدا عليها أنها تقدر هذا الاعتبار :

— أهو لقب فرنسى ؟

— لا . ولا فرنسى أيضا . أمريكى .

واجتمع في ذهنها عامل القومية وعامل المكانة فقالت :

— اذن فهى لا بد أن تكون غنية بالطبع . لم أر شيئا بمثل هذا

الجمال .

فسألها بيل :

— هل وقع نظرك عليها ؟

فابتسمت ميزى وقالت :

— فى المهرجان ؟ لقد أسرع بالانصراف قبل أن أتبينها .

فضحك أبوها وقال :

— لقد تسللت هاربة !

وخشيت أن يقول شيئا عن مسز بيل والسير كلود ، ومع ذلك فقد أحست بعض الارتياح لأنه لم يشر اليهما . وكل ما غامر بقوله في اللحظة التالية هو :

— انها تفزع من المشاحنات السوقية .

ولم تكن بحاجة للرد على هذه العبارة ؛ فاستطردت في حديثها الأنيس :

— ولكن أين تظنها ذهبت ؟

— ظننتها استقلت عربة فكان لابد أن تكون قد وصلت . ولكنها

ستأتي حتما .

فقالت ميزى :

— كم أتمنى ذلك .

وكانت تتكلم باخلاص ولده فيها وقع كل ذلك الجمال المحيط بها ،

والذى قد تضيف اليه الكوتبية بشخصها مزيدا ، واستطردت :

— لقد جننا بسرعة مخيفة .

فضحك أبوها مرة أخرى عاليا وقال :

— نعم يا عزيزتى . لقد جعلتك تحثين الخطى ا

وترث لحظة ثم أردف :

— أريدها أن تراك .

وعندئذ ابتهجت ميزى لعناية مسز بيل التى بذلتها في تحسين مظهرها

بمناسبة قضاء سهرتها في الخارج ، الى حد أنها أصلحت قبعتها القديمة .

واستطرد أبوها :

— ستحبينها جدا عظيما .

— أنا واثقة أنى سأحبها ا

وبعد ذلك شعرت بالهرج اما من أثر تصبؤها بأكثر مما يجب

أو لادراكها فجأة أنه ليس في وسعها أن تقول أكثر مما قالت ، ولجأت
إلى طرق جانب فرعى من الموضوع :
— حسبها مسز كادون .

وزاد مرح بيل بدلا من أن ينقص وقال :
— تعين أن زوجتي ظنت ذلك ؟ ان زوجتى يا طفلى العزيزة بلهاء
لعينة !

وبدا عليه أنه لفرط عجبها يتكلم عن زوجته وكأنها شخص لا تكاد
أن تكون لها به معرفة ، حتى لقد أدركت ملاذها من حرجها لم يكن موفقا
غاية التوفيق . وبدا على بيل نفسه بعد لحظة أنه شعر بالحرج فقال :
— ما أعنيه بكل جد أنها لا تعرف فى الحقيقة شيئا عن أى شيء .
وتوقف ليتبع نظرات طفلة المسحورة وقد أغرقتها بعض الأشياء
بالاقتراب من الطرائف الجميلة الموضوعة فوق إحدى المناضد . ثم تهكم
بغرور مسز بيل قائلا :

— وهى تحسب أن لديها أشياء طيبة . تصورى هذا !
وأحست ميزى أنها يجب أن تعترف بوجاهة رأيه . فكل ما افتقدته
فى الاستعراضات الفرعية عوضتها عنه نفائس الكوتسة ، ففكرت قليلا
وقالت :

— نعم . انها تعتقد ذلك .
ونمت لهجة بيل على الخشونة مرة أخرى وهو يجيبها بأن اعتقادها
لا أهمية له . بيد أن ابنته شعرت بمزيد من الابتهاج لأنها قضت معه كل
هذا الوقت من غير أن يقدم على ما هو أسوأ من ذلك وقد احتفظت بتلك
الساعة فى ذاكرتها أياما وأسابيع موفورة البهاء والوضوح . واستطاعت
فى ختامها أن تبين طواياها مئآت الأشياء التى لم تكن فى حينها سوى

شعور اعجازى بالسرور . وكان ما استشعرتة وقتئذ أن رفيقها لم يزل
فيها لاضطراب شديد وان لم يشأ أن يظهره . وانه كلما أفلح في محاولة
اخفاء اضطرابه تسنى له أن يشجعها على توسم الرقة فيه . وبعد قليل
تنقل في أرجاء الحجرة ليرىها الأشياء وأخذ يكلمها كما لو كانت شخصا
ذواقة ، وقال لها اسم السيلة الفرنسية المشهورة التي بدت في احدى
الصور المصغرة ، ووعت في ذاكرتها هذا الاسم . ثم قال وكأنه لمح نظرة
اشتغالها لبعض الطرائف أن الشك لا يخامرهم في أن الكوتسة عند قدومها
ستمطيها شيئا جيلا . وبحث عن صندوق من الساتان القرمزي ركبت
في غطاءه مرآة رفعها في زهو فكه ليقدم اليها ستة صفوف من حلوى
الشوكولاتة ، متفوقا بذلك على السير كلود الذي لم يتجاوز قط الصفوف
الأربعة . وقال لها :

— في وسمى أن أصنع بهذه الحلوى ما أشاء . اذ لست أبالي بأن
أكم عنك أنتى أنا الذى أهديتها اليها .

وكان واضحا أن الكوتسة قدرت هديته خير تقدير ، اذ كانت ثمة
ثغرات عديدة وآثار لهب بين الصفوف من غير ضابط . وفيما هما ينظران
معا فطنت ميري الى ما يعتبر علامة على طول افتراقهما من أنها نمت
بالنسبة له منذ آخر مرة وجه اتباهه اليها ، وأصبحت بمرور السنين
وما زاد على قامتها من بوصات — ان لم يكن لغير ذلك من الأسباب —
أقرب كثيرا الى أن تكن شخصا صغيرا يحسب له حساب . أجل كان
هذا جانبا من الحرج الذى حاول أن يتغلب عليه بالافراط في الحنان الى
درجة تقارب البلاهة . ومن ذلك أنه حملها فترة على ركبته وهو جالس
فوق أريكة حريرية صفراء تحت احدى أشجار النخيل ، وراح يربت على
شعرها ويمسحها بذراعيه مداعبا وهو يريها أنيابه اللامعة ثم يدعها

تستشق عبر لحيته المعززة وهو يردد لها عبارات التذليل التي لا جدوى منها ولا هدف لها :

— يا فتاتي الأثيرة . يا ابنتي الصغيرة العزيزة .

وقد عرفت بعد ذلك أنها لا بد أن تكون قد رثت له . وتبعت بينها وبين نفسها ما يجده من عناء في التحلث اليها بوضوح عن أى شيء . وكان ما اتابها من الاختلاجات والاستجابة قد جعلها بغير حاجة الى أكثر من ذلك تعويضا لها عن فترة الإهمال . وطفرت الدموع الى عينيها مرة أخرى مثلما طفرت يوم قال لها الكابتن في الحديقة بكل « عظمة » أن أمها طيبة . وطيبة أيها في هذه الصورة المباشرة وهذه الخلوة المشرقة التي لا نظير لها معه ؛ تلك الخلوة التي اتنى منها كل شيء سوى أنه بابا وأنه فخيم ، ماذا عسى أن يكون هذا ما لم يكن عظيما أيضا ؟ ولم يفسد هذا الاحساس ما شعرت به أخيرا حين بدا عليه القلق من أن لديه هدفا لا يدري كيف يصرح به ، لأنها في جمة الفتهما المستعادة كانت حرية أن تشايعه بسرور في قوله — أو حتى في ادعائه — أن علاقتهما سهلة لطيفة . فقد كان فيه شيء يبدو كأنه يطلب اليها بأسلوب مؤثر أن تساعد على الادعاء بأنه يعرف ما فيه الكفاية عن حياتها وتعليمها وموارد معاشها ونظرتها اليه ، وعلى اضافة اللهجة العائلية الطبيعية على الأسئلة التي لم يكن في مقدوره توجيهها اليها . كالت مستعدة أن تتظاهر بذلك منتشية لو أنه أوحى بذلك اليها . وانتظرت تلك البادرة منه في حين راح يطلق من بين أسنانه الزفرات التي لم تكن ترى أنها بلهاء . وكأنما هو — على غبائه المطبق — قد سمح لنجو عينيها الودودتين أن تبشاه استعدادها لأى شيء فراح يضرب في الخجيرة على غير هدى ، لا يدري — وحق الشيطان — على أى شيء مما حوله يضع يده .

الفصل التاسع عشر

ولما أشعل سيجارة وشرع ينفث الدخان في وجهها فكأنما هو قد أشعل بثقابه ذكرى ما اختر من اعترافات قديمة قبيحة ، ومن فضائح قديمة وواجبات قديمة ، وادراكا معتما لما كان له من حقوق التملك على شخصها ؛ وما كانت حرية — لو أن الأمور كانت على خلاف ما هي عليه تماما — أن تمنحه الآن من ذات نفسها . وما كانت حرية أن تمنحه إياه وعيناه تومضان من خلال الدخان انما هو بيساطة ما كان على استعداد أن يحصل عليه منها . فالبذل ، هنا وعلى الفور ، هو كل ما تشتهي . وكانت غريزتها الصغيرة التي تدفعها الى المسألة من بين ما استمادت ذكراه ، فجعلت تلك الغريزة تلح عليها بالتساؤل عما ينبغي أن تفعل وما لا ينبغي أن تفعل ؛ وأي الألفاظ تتفوه به وأيها لا تتفوه به . وأي الاتجاهات تضي فيه وأيها لا تضي فيه . فذلك من شأنه أن يخفف من وطأة الأزمة بالنسبة للجميع ، بما فيهم الكوتتسة .

كانت مستعدة في هذا الخصوص للاقدام على تنازل جسيم . تنازلا لا يشمل أى شيء خلا السير كلود وخلا مسز بيل . فالجامة ما كانت لتتضمن هذين ولئن كانت لديه في مؤخرة دماغه فكرة ما فلديها أيضا في مكنن ليس أقل من ذلك عمقا فكرة أخرى . واتفقوا وقت وهما جالسان معا تلاقى فيه لقاء صامتا تصورها لما لديه من تصور ، وتصوره لتصورها ، وتصورها لتصوره .. أما مالم يكن له ثمة تسجيل فعال له في الحقيقة فهو ذلك الشجن الغريب اليسير من جانب الطفلة ، وكان شجنا يتم

بالبراعة المشبعة بالمعرفة والجانحة الى المداهنة . وكان ما استطاع ييل
أخيرا أن يضع يده عليه وهو يجب مرة أخرى بشخصه الأنيق نصف
زخارف المدفأة قوله :

— أتعلمين يا عزيزتى أننى سأرحل قريبا الى أمريكا ؟
فخطر لابنته على الفور أنه بهذا القول قد سلك أقصر السبل . وأن
هذا هو الأسلوب الذى لم يكن حريا أن ينهى به الأمر الى زوجته . ولكن
زوجته برزت فى ثقة سطحية أخاذة عند ردها عليه قائلة :

— أتعى أنك راحل مع مسز ييل ؟

فأنعم أبوها النظر وقال :

— لا تكونى جحشة !

وبدا صمتها وكأنه جهد كبير تبذله كى لا تكون جحشة .

— اذن فمع الكوتتة ؟

معها أو بدونها يا عزيزتى ، هذه مسألة لا تعنى أحدا الا أباك
المسكين . ان لها مصالح كبيرة هناك . وهى تريد منى أن ألقى عليها
نظرة .

فألتفت ميزى بنفسها فى غمارها وسألته :

— وهل يستغرق ذلك زمنا طويلا ؟

— نعم . فحالتها مرتبكة جدا ، وقد يستغرق الأمر منى شهورا .

وما أريد أن أسمع منك الآن هو هل تحين أن تأتى معى ؟

ومرة أخرى اتصبت قائمة أمامه فى وسط الحجرة وشعرت بلونها
يكفهر ، وقالت له لاهثة : « أنا ؟ » . وأحست مع هذا بمجرد النطق بها
أن مثل هذه النبوة الفزعة غير مستحبة على الاطلاق . وزاد احساسها
بذلك عندما أجابها أبوها وهو يمز رجلية وينفض رماد سيجارته مظهرا

الملاحة بوضوح على قسّات قامته كلها ، انه لا حاجة بها الى كل ذلك الاستنكار . وساعدها ذلك بعد بضع ثوان على أن تبدو كما كان يجب لها أن تبدو ، حتى انها تبين في ضوء بدخ الكوتسة اللطيف ما هو الجواب الصحيح الذي ينبى أن تقوله :

— أبى العزيز . أنا مستعدة أن أذهب معك الى أى مكان .

فحول ظهره اليها ووقف وأنه الى مرآة المدفأة وراح ينفخ ذرات من الرماد على لحيته ، ثم قال فجأة :

— أتعرفين شيئا عن أمك المتوحشة ؟

فذكرتها لهجة هذا السؤال بأما المتوحشة بالذات بدرجة ملحوظة . فهو يتسم بالوثبات الجامعة التي تنتقل بها ايدا من موضوع الى موضوع . وقد أزكى هذا الاحساس لدى ميري في الوقت نفسه الهاما جعلها تقول :

— نعم أعرف كل شيء .

وأشرق مياها حتى ان أباهما اذ رأى ذلك في المرآة استدار اليها وسرعان ما وضعها على ركبته فوق الأريكة مرة أخرى وراح يتودد اليها بصورة واضحة . وقد أوحى الى ميري الهامها على الفور بأنها كلما أمعبت في الكلام عن أمها قلت مطالبتها بالكلام عن زوج أمها وزوجة أيها . وظلت تمنين أن تصل الكوتسة قبل أن تنفذ قدرتها على حمايتها وعندئذ ، وهي ملتصقة به على هذه الصورة اتقلت الفكرة الكامنة في مؤخرة دماغها الى شفيتها . فأخبرته أنها قابلت أمها في هايد بارك مع سيد كان رقيقا معها ، في الفترة التي قضاها السير كلود في السير مع فخامتها ، وأنه جلس اليها وحادثها . وجعلت تروى ذلك المشهد وقد أطلع سرورها برؤية بيل يصنى من غير مقاطعة بذكرى ما تمهلت به للكاتبين من الكتمان . كان مصدر ذهول تقريبا بالنسبة لها ، ولكنه في

الوقت نفسه مصدر سرور ؛ أن يتيسر لها الظن بأن أباهما سم آخر الأمر من غضبه .. من غضبه بشأن ماما على الأقل . فهو الآن متضجر منها فقط . وقد جعلها ذلك تحرص أشد الحرص على ألا يندلع ما خبا من جذوة سخطه . وسحر الطفلة أن ترى نفسها قادرة الى هذا الحد على إثارة اهتمامه . وظل تأثير هذا السحر حتى عندما قال في شرود وبلهجة غامضة بعد أن وجه اليها عددا كبيرا من الأسئلة :

— نعم . سحقا ان لم تفعل ذلك .

اذ كان في هذا القول شيء من التناهي وشيء من الاعياء الرزين جعلها تشعر بالأمن . وكان لا بد لها من ذكر السير كلود ؛ وان كانت قد قلت من ذكره بقدر الامكان ، وكان يبيل لا يبدي من الانفعال أكثر من التطلع الى أكثر ما فوق رأسه . فترأى لها أن دماثة هي دماثة عدم الاكتراث الشامل . وهذا مسلك تجد فيه شخصا تقعا كبيرا لها ، فلو أن الكوتسة هي صاحبة الفضل فيه فهي على استعداد لاحتضان الكوتسة على الحقيقة لا على المجاز . وفضحت لهفتها تلك بسؤال قلق عنها ؛ رد عليه أبوها قائلا :

— أوه . ان لها لعقلا راجحا . وسأعضدها الى أن تخرج من أي مأزق .

ثم نظر الى ميري وكأنه يستطيع أن يتقصى الصلة بين استفسارها وبين لهفتها على اظهار عرفان الجميل ؛ ثم قال :

— أتريدان أن تقولى انك تودين حقا أن تأتي معي ؟

وأحست كأنه ينظر اليها الآن نظرة فاحصة جدا وكأنها أيضا قد كبرت أضعافا كثيرة ، فقالت :

— أنا مستعدة أن أقدم على أي شيء في العالم تطلبه مني يا أبي .

فألقى مرة أخرى نظرة التملك على صدره وبنطونه وقال وهو
يضحك مباعدا بين رجله :

— هذه يا عزيزتى طريقة فى التعبير معناها « لا وأشكرك » . فانت
تعرفين أنه ليست لديك أدنى رغبة فى الذهاب معى . فانت لا تستطيعين
خداعى « أنا » .

ومضى بيل فارانج يدلى برأيه القاطع :

— أنا لا أريد أن أتقل عليك . فهذا مالم أفعله قط فى حياتى . ولكنى
أعرض عليك الأمر ولك الخيار فى القبول أو الرفض . وأمك لن يكون
لها بك شأن أكثر مما لو كنت خادمة مطبخ طردتها لأنها تنكبت سواء
السبيل . فأنا اذن بطبيعة الحال راعيك الطبيعى ولك فرصتك كما تعلمين .
منى كل شىء تستطيعين الحصول عليه . والآن فرصتك كما تعلمين .
وما أخيبك ان أنت لم تنتهزى هذه الفرصة . وليس لك أن تزعمى أنى
لم أعرض الأمر عليك . ولا أن تقولى انى لم أكن عطوفا عليك أو اننى
لم أكن أمينا مستقيما فيما عرضته عليك . واحرصى على ألا تقولى هذا
القول مطلقا والا أحنتنى ذلك عليك . أنا أعرف ما يليق بى أن أفعله .
سأضلك الى كفى مرة أخرى كما ضمنتك من قبل مرارا وتكرارا . وانى
لشاكر لك ما تظهرين من الشجاعة .

وكانت مدركة حق الادراك أن وجهها ما كان ليروقه لو أنها أظهرت
أى علامة تدل على ما كانت ترجو ألا تظهره من فطنتها الدقيقة لما يريد
الآن حقا أن يفعله . أليس يرمى الى أن يقلب عليها الآية ويضطرها عن
طريق الاحراج الى الاعتراف بأن ما يتفق حقا مع خطتها الصغيرة هو
أن يتركها — بعد أن بذل كل هذا الجهد فى السلوك المهذب — لترتب
أمورها بمحض حررتها ؟ وبدأت أعصابها تتوتر مرة أخرى : فقد أطبق

عليها الاعتقاد بأن هذا فراق بينهما فراقاً أبدياً . وانه انما جاء بها الى هناك ليضربها بكل هذه الملاحظات لا لشيء الا لان مثل هذه المناسبة الهامة ينبغي أن تتراءى له خيرا من أى مناسبة أخرى . فان هي أفسدت هذه المناسبة بلهجة الشقاق أمدته بأساس للشكوى ؛ فانتابت الطميلة حيرة وقتية بين النقيضين : أن تواقفه على رغبتها في الخلاص منه أو تثير استيائه بتظاهرها بالتمسك به . فلم تجد في هذا الوقت حلا أفضل من أن تمنعم في استضعاف بالغ :

— أوه . بابا .. أوه . بابا !

— أعرف ماذا انتهى اليه رأيك .. لا تقوله « لى » .

ثم اتجه صوبها على الفور واحتضنها بين ذراعيه برهة وهو أقل ما يكون تماسكا في حركاته وراح يحك لحيته على وجنتها . فأدركت عندئذ بمنتهى الوضوح من حركاته كما لو كان قد صارحها باللفظ المسوع أن ما يريد — تعسا له — هو أن تدعه ينطلق ناجيا موفورا وقد غنم آيات الشرف جميعا ومظاهر الفضيلة والتضحية بأكملها . فكأنما قال لها بصريح العبارة :

— أريد منك أيتها الحمقاء أن تساعدني كي أبدو طاهر الذيل نبيلاً ولكن من غير أن أتجشم شيئا مما تورثه هذه الأمور كلها من الملالة . ان ثمة من الاخلال باللياقة ما يكفي أحدا ، فاذهبى به كله وحدك . سرحى أباك العزيز مستجيبة الى توصلاته الرقيقة . فليس في وسعه أن يكون فظا معك ، اذ ليس هذا من طبعه . وبذلك تفلحين في التخلي عنه لأنه كان أكرم من أن يلتزم معك الحزم الذي يمليه عليه واجبه بعد كل شيء . كان هذا ما عرفها به في سلسلة من الترييت الهائل على ظهرها . ولم يكن هذا الموضع من جسدها قد تلقى مثل هذه الضربات الشديدة

منذ كانت مودل تدق لها ظهرها حين يصيبها الفواق . وبعد لحظة أشعرها
بأنه أضحي واثقا بها ثقة كافية كي يقول لها في لباقة شديدة :

— تعرفين أن أمك تمقتك . مقنا صريحا . وكنت أفكر في صاحبك
اياها .. ذلك الشخص الذي حدثني عنه .

فأجابته ميري عن دراية :

— حسنا . أنا على ثقة « منه » .

فبدا الغموض على أيها لحظة ثم قال :

— هل تعنين أنك موقنة من حبه لك ؟

— أوه . لا . بل من حبه « لها » .

فبدا على بيل المرح وقال :

— ليس للأذواق ضابط ! وهذا ما يقوله الجميع كما تعلمين .

فكررت ميري قولها :

— لست أبالي . أنا واثقة به وكفى !

— أنت تعنين يقينا أنها ستأبى ؟

وكانت ميري تعرف كل شيء عن الأباق . ولكنها قطعا أكبر سنا من

ذي قبل . وفي داخلها شيء ما يتأذى من الطريقة التي جعل بها والدها هذه

الكلمة القبيحة — القبيحة قبحا كافيا على أحسن الفروض — تبدو

سافرة ومنحطة . وحفزها ذلك الى تصحيح تعريضه بقولها :

— لست أدري ماذا تفعل . لكنها ستكون سعيدة .

فقال بيل كمن رائده أن يكون مهذبا :

— نرجو هذا . فكلما زادت سعادتها قلت حاجتها على كل حال الى

وجودك بقربها . ولذا ألح عليك في تدبير هذا العرض المليح — أعني

أن تدبرى جديا — الذى يقدمه اليك الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبويك .

وعندئذ تلاقى عيناها مرة أخرى فى مشاركة طويلة غير عادية اتهمت بقوله :

— آه منك أيها الوغد الصغير !

فتقبلتها منه بالروح التى خيل إليها أنها أحب إليه وبتوفيق شجعه على أن يستطرد :

— أنت شيطانة صغيرة ماكرة !

واعترف صمتها الدقاق كأنه الساعة بهذا أيضا . فقال مؤيدا ما ذهب إليه :

— لقد سويت الأمر مع الاثنين الآخرين !

وبدا قولها فى نظرها فى غاية الجراءة :

— وماذا ان كنت فعلت ؟

وكسالت الأيام انفجر أبوها مقهقها :

— عجبا . ألا تعرفين أنهما شريدان ؟

فازدادت جراءة وقالت :

— لست أبالى .. على الإطلاق !

فحرضها بيل بلطف قائلا :

— ولكنهما قد يكونان أسوأ أهل الدنيا وأخطر مجرمين فيها . ولست

يا عزيزتى بالذى يتركك غافلة عن هذا .

وأحست ميزى بوجهها يبدو قرمزيا وهى تقول :

— ولكن هذا لا يمنهما من حبى . فهما يحباننى حبا هائلا .

وتلكاً رفيقها في الرد . وكان في وسع أى انسان تقريبا — ودع عنك ابنته — أن يرى الى أى حد كان يريد أن يتحرى الأمانة :

— ربما . ولكن أتعرفين لماذا ؟

وتحلت عينيه ، وأردف :

لأنك ذريعة نافعة جدا .

فسأته ميزى :

— لأى شيء ؟

— للعبتهما . ولا حاجة بي أن أقول لك ما هى تلك اللعبة .

وفكرت الطفلة ثم قالت :

— حسنا اذن . هذا اذن سبب ادعى .

— سبب لأى شيء من فضلك ؟

— سبب لتلطفهما معى .

وقهقه بيل مرة أخرى كالما مرحة يربو ويزداد :

— لمسايرتك اياها ؟ أمدركة أنت من فضلك أنك اذ تقولين هذا

تنقليين وحشا ؟

وقلبت الكلمة فى رأسها :

— وحشا ؟

— لقد « جعلوا » منك وحشا . وأقسم بشرفى أن هذا جد فظيع .

لأنه يبين أى طراز من الناس هما . ألا تدركين أنه عندما يتم لهما تشويبك

قدر استطاعتهما — فتمسين شائمة مثلهما ، سيسنبذانك ببساطة ؟

واتقد لهذا القول غضبها وقالت :

— لن ينبذانى !

فألح أبوها فى تلتطف :

— أستمحك العفو . واجبي أن أضع الأمر أمام نظرك . ولن أغفر
لنفسى ان لم أبين لك أنهما سيكفان عن الاحتياج اليك .
وكان يكلمها وكأنه يناشد ذكاءها حتى انها لا بد قد شعرت بالفضيل
لأنها لم تستجب له استجابة كافية . فأضفى ذلك امتيازاً حقيقياً على
كياستها العالية . ووضحت الصورة على حسب مراده :

— يكفان عن الاحتياج الى لأنهما لا يباليان ؟
وصمتت عند هذا الحد من تصوير فكرتها .

— ان السير كلود لن يبالي طبعاً اذا أبقت زوجته . هذه هى لبعته .
وسيروقه ذلك الى أقصى حد .

وكان ذلك فرضاً تستطيع ميري أن تسلم به تمام التسليم ، بيد أنه
ترك لها منفذاً صغيراً الى النصر . وفكرت في الأمر ملياً ثم قالت :

— أتعنى اذا لم تعد ماما على الاطلاق ؟
وكافت الرصافة التى واجه بها مجيهاها ذلك الاحتمال حرية أن تدل
من يشاهدها على الطريق الطويلة التى قطعتها . واستطردت :

— بيد أن هذا لن يجعل مسز بيل ..
وتلقف منها بيل هذا الكلام بجذل ، فقال وهو يشب واقفاً على قدميه
ومرة أخرى هازاً ساقيه وناظراً الى نعليه ؟

— أليس فى نيتك أن تعود ؟
— فى نفس ذلك الموقف المريح . ؟ أصبت يا عزيزتى . ستكون
مسز بيل بحاجة الى شىء فوق هذا .
وتوقف لحظة ثم أردف :

— ولكن انتظارنا لهذا الشىء قد لا يطول .
ونظرت ميري أيضاً الى نعليه برهة . مع أنهما لم تكونا الزوج الذى

تعجب به غاية الاعجاب ، الزوج الأصغر المخرم فصفه الأعلى ، وسأثره من الجلد اللامع . وأخيرا رفعت عينها بهذا السؤال :

أليس في نيتك أن تعود ؟

ومرة أخرى سكت . وبعد قليل أرسل ضحكة هنية ذكرتها على أقرب نحو في الدنيا بالأصوات الفريدة التي سمعتها تند عن مسز ويكس .

— قد يبدو لك من الغريب أن أدلى لك بمثل هذا الاعتراف . والواقع أنه ليس لك أن تدركي ما سأصنع . ولكننا سنضع الأمر في هذه الصورة لأساعدك على اتخاذ قرار . والمسألة أن زوجتي سرعان ما ستؤول الأمر يقينا على هذا النحو . وستسمعنيها تصيح أنها هجرت كي يتسنى لها أن تكلدس ذنوبها اذ ستكون حرة على ما تروم حينئذ . حرة كريمة زوج أمك المخنث . ولن يكون عليهما أن يراعى شيئا بعد ذلك وعندئذ سيلقيان بك الى عرض الطريق .

وسألها بيل :

— فهل أفهم من موقفك أنك تفضلين ، في مواجهة ما ألح عليك في صدره ، أن تجازي بهذا المصير ؟

وكان ذلك أعجب لقاء وجهه سيد الى ابنته ، مما جعل ميزى تقف وسط الحجرة مرة أخرى في حين راح أبوها يدور حولها ببطء ويداه في جيبه ، وفي خطوته شيء له أكثر دلالة من سائر ما فعله على ألفتة للمكان . وقلبت عينها الصغيرتين المحمومتين بين تقائس صاحبته الخلابة كأنها تستجد بها من جانبها لتخرجها من مأزق لا نظير له . وكأنما أحس بذلك أيضا فوقف بعد لحظة فجاءة وأتم موقفه العجيب وولاهه الخارق بتعبير فد عن الاغراء :

— ما أشد يقظتك يا حبيبتي . نعم هناك مال . مال لا حد له .

وأثر هذا فيها في البداية على نحو ما تؤثر فيها مزيفات البصر الباهرة

في احدى روايات التمثيل الصامت التي صحبها السير كلود لمشاهدتها :
فلم تر في الأمر أكثر مما عبرت عنه ألقاؤه . وسألته :

— وهل لن أراك بعد ذلك اطلاقا .. ؟
فقال بيل برجولة :

— ان أنا ذهبت الى أمريكا ؟ اطلاقا . اطلاقا . اطلاقا !

وعندئذ انهارت انهيارا غاية في التناقض مع ملكها السابق . وتداعى
كل شيء ، اللهم الا فزعها من أن تسمع نفسها تنفوه بوضوح بمثل هذا
النفوه القبيح . ولذا راضت نفسها على التصلب وقالت :
— اذن لن أستطيع التخلي عنك .

ورآته ينظر اليها بضع ثوان وقد كشف لها بحركة متوترة عن النسق
النضيد الذي ينتظم جميع أسنانه ، حتى لقد خيل اليها أنها تستطيع أن
تقرأ في تلك الحركة ذلك النور الذي لم يحب أن يمر عنه بازاء خروجها
على خطة الاقياد التي وعدته بها وعدا عمليا ولكن قبل أن يتسع لها
الوقت كي تخفف بأى صورة من الصور من فجاجة انهيارها ذلك بدرت
منه حركة تدل على تقاد الصبر أدت به الى النافذة . وسمعت صوت
وقوف عربة . وأطل بيل الى الخارج ثم واجهها من جديد ، وظل على
صمته ، بيد أنها عرفت أن الكوتسة عادت . وساد السكون بينهما مرة
أخرى ، ولكن صار يشوبه الآن ظل من الحرج يختلف عن حرج ساعة
مما . ومن غير أن يتكلم كرر فجاءة عناقه لها على ذلك النمط الذي كان
قد أسرف فيه ، فجرفها عائدين الى الأريكة الليمونية قبل أن يفتح باب
الحجرة فتحا عنيفا بلحظة واحدة . وعلى هذه الصورة من الاتحاد الحميم
المتجدد من أيها قدمت الى الشخصية التي عرفت فيها على الفور السيدة
البنية اللوز .

وبعد السيدة البنية اللون في مثل دهشتها — وان لم تكن في مثل
فزعها — عندما ففرت فاها في المهرجان في وجه مسز ييل وأوشكت ميزى
أن تففر فاها من جانبها وقد أدركت ادراكا تاما أن لونها بنى حقا . فقد
بلعت على الحقيقة للطفلة أقرب الى الحيوان منها الى سيدة « حقيقة » .
فمن الجائز أن تكون كلبا بارعا طويل الشعر مجعده ملتفا في هذب
ثوب أو قردا بشريا مخيفا في تنورة هفهافة . فلها أنف أكبر مما ينبغى بكثير
جدا وعينان أصفر مما ينبغى بكثير جدا ، وشارب لم يكن في مثل وسامة
شارب السير كلود . ووثب اليها ييل . أما الكوتسة فكم كالت دهشة
الطفلة أن تراها تتقدم صوبها في مرح كأنه لم يقع حادث محرج لأحد
منذ زمن طويل ، وكأنها عملت ذهنها في الأمر بسرعة فائقة . وعلى ما لدى
ميزى من دراية واسعة بهذه الظاهرة ، الا أنها لم ترقط قرارا يتخذ بمثل
هذه السرعة بعدم الاشارة الى أى أمر محرج . وفي الدقيقة التالية كانت
الكوتسة قد قبلتها وصاحت توجه الى ييل عتابا رقيقا هاشا :

— ولكنك لم تذكر لى قط « نصف » الواقع . يا طفلى العزيزة .
لقد كان لطيفا للغاية منك أن تأتى .

فأجابها ييل قائلا :

— ولكنها لم تأت . فهي لا تريد أن تأتى ! لقد بينت لها الى أى جد
تودين ذلك ، ولكنها تأبى أن يكون لها بنا شأن .

ووقفت الكوتسة باسمة . وبعد لحظة شغلت فيها ميزى بما أحدثه
مظهرها المستهجن ألقت نفسها وقد ذكرتها هذه الابتسامة بابتسامة أخرى
لم تكن قبيحة ولكنها كانت أيضا تنم عن الاهتمام . ألا وهى تلك
الابتسامة الحانية الوضيئة التى انبعثت فى ذاك اليوم من محيا ذلك
الكابتن النظيف اللطيف . ان كابتن بابا — أجل — هو الكوتسة .

ولكنها لا تدانى في اللطف ذلك الآخر . ولا شك أن ذلك راجع الى ما لدى ميزى من تقدير بخص للسيدات . وقالت هذه السيدة في لهجة الاعزاز :

— أفلا تحين أن أخذك معي الى « سبا » (١) .

— سبا ؟

وكان تكرير الطفلة للاسم كسبا للوقت حتى لا يظهر عليها كيف ذكرتها الكوتسة بامرأة غريبة ذات وجه فظيع حدث ذات مرة منذ سنوات في مركبة عامة أن افحت عليها من مقعد مقابل وأبرزت لها فجأة برتقالة وهممت قائلة :

— يا حبيبتى الصغيرة . ألا تأخذين هذه ؟

فشمرت عندئذ لسبب ما بفرع يسير أبله ، وان أدركت بعد ذلك أن محدثتها التي كانت قبيحة جدا لسوء الحظ انما أرادت أن تبدى لها عطفًا خاصًا . وهذا أيضا ما رمت اليه الكوتسة . الا أن الكلمات القلائل التي تفوهت بها والابتسامة التي اقترنت بذلك التفوه وضحت كل شيء على الفور . أوه . لا . انها لا تريد أن تذهب الى أى مكان معها . لأن حضورها قد بدد بالفعل في بضع ثوان ما كان للحجرة من وقع بديع ووضع حدا للبهجة الوجيزة التي أشعرتها بها هيمنة بيل على كل تلك الأناقة . فلم تكن ثمة أناقة في تعريضها للذنو من تلك الشخصية القصيرة البدينة المتزلفة ذات الشارب التي كان عليها الآن أن تعرف فيها السحنة الوحيدة العاطلة تماما من أسباب الجاذبية من مين من شهد محيطها المباشر نمو صلتها الحميمة بهم . وأخجلها في الوقت نفسه أن تبدو كأنها تزن

(١) مدينة للمياه المعدنية في — بلجيكا جنوب شرقى مدينة لياج .
« المترجم »

في ذهنها الموضع الذي دعيت اليه ، فأردفت بأسرع ما استطاعت :
— لا الى أمريكا اذن ؟

وعندئذ رشقت الكوتتسة بيل بنظرة حادة ، وتساءل بيل في عدم اهتمام عن أهمية ذلك وهي قد أفهمته بالفعل أنها لا تريد أن يكون لها بهما شأن . وتلا ذلك نقاش بين صاحبين ضاعت معالم مغزاه في غمار الطين الداخلي المتزايد الصادر عن رغبتها الخالصة في الانصراف . وأن وسعها فيما بعد أن تخمن أن أباهما يتن لصديقه أن لا جدوى من الكلام ، وأنها خنزيرة صغيرة عنيدة ؛ وأنها فضلا عن هذا بلغت من العمر ما يتيح لها أن تختار طريقها بنفسها . وومض في ذاكرتها أيضا أنها لا بد — قد أخفقت اخفاقا فظيما في أن تبدو في غير مظهر النفاظة الكاملة ، من حيث انها أوقعت في روعها قبل أن تدري ما هي فاعلة الاحساس بأنها ستبكي ان لم يأذن لها بالعودة الى البيت . ولو كان هناك ما يدعو للبكاء فهو أنها كانت بوضوح وسماجة دون مستوى أجمل العروض التي تلقاها انسان اطلاقا . وأشد ما ألمها في هذا الأمر أنها تبينت أن الكوتتسة أحبتها الى حد أنها كانت راغبة في أن يقابل حبها بحب مثله . وكانت فكرة مقابلة حبها بمثله هي التي حفزتها على الفرار . ففكرة مقابلة حبها بمثله بعد أن انفجرت بينهما تلك الألفاظ العالية المختلطة هي التي دفعت الى شفيتها في رجفة تسبق الكارثة :

— أليس من الممكن من فضلكما أن تبعثا بي الى البيت في مركبة ؟
أجل ان الكوتتسة تريدها . والكوتتسة جرحها وآذى شعورها هذا الطلب ؛ ولكن لا حيلة لها في ذلك ، وقد زاد من فظاعة الموقف أن طلبها جعل الكوتتسة أكثر تزلقا بصورة لا تطاق .. والشئ الوحيد الذي ربما شد من أزر كل منهم الى أن حضرت المركبة — وسرعان ما تبينت

میزی أنها متحضر — هو أن شيئاً ما في الجو أوحى إليها بأن بيل قد أنجز ما أراد . فقد خرج لبحث عن أداة لتوصيلها ؛ لأن الخدم كما قال كانوا قد أووا إلى الفراش ؛ ولكن لا ينبغي استبقاؤها إلى ما بعد موعد نومها . وغادرت الكوتسة الحجرية في صحبته ؛ وبقيت میزی وحدها وتمنت ألا تعود الكوتسة . وكل ذلك بسبب سحنة وجهها . فلم يكن في استطاعة الطفلة حين تنظر إليه أن تحمل نفسها على تقبله . وسرعان ما ترامت لها سحنة ذلك الوجه في الأشياء الجميلة من حولها . وفي لحظة واحدة أدركت أن أباهما يحب مخلوقة هي على يقين من أن لا أمها ، ولا مزي بيل ؛ ولا مسز ويكس ولا السير كلود ، ولا الكابتن ؛ بل ولا مستر بريام ولا اللورد اريك كان من الممكن أن يحبها . وفي أسفل السلم بعد بضع دقائق وقد وقفت العربة أمام الباب اجتهد أن يضمها إلى صدره من غير أن ترى وجهه . ولعل ذلك كان اعترافاً أخيراً منه بأنه ليس لديه من دواعي الفخر الشيء الكثير . أما هي فكانت من جانبها شديدة التلهف على الانصراف حتى ان فراقها لم يذكرها بشيء حتى ولا بكلمة « أبدا » واحدة من تلك المرات الكثيرة التي نطق فيها بتلك الكلمة قبل ذلك باعتبارها العقوبة المترتبة على عدم استمساكها به رداً على سؤالها عن تلاقيهما بعد ذلك . وكان في الكوتيسة شيء ما يفضي البهتان على كل شيء ؛ حتى على تلك المصالح الكبيرة في أمريكا ؛ وأكثر من هذا على تلك الاندلاعة الأولى لتفوقها على مسز بيل وعلى ماما ؛ ذلك التفوق الذي تبدى في صورة أطقم من السيفر وصناديق من الفضة . ان هذه الأشياء لم تزل موجودة . ولكن لعله لا وجود لتلك المصالح الكبيرة في أمريكا . وكانت ماما قد عرفت أمريكية لم تكن شبيهة بهذه

المرأة في شيء . مع أنها ليست من طبقة النبلاء ، فاسمها مسز تكرر . وما كان تباعد ميزى ليتخذ صورة أتم لو أنها لم تصح فجأة :

— ويحي . لا تقود معي !

وبرزت أسنان أيها عند سماع هذه العبارة بحيث أضحت صورة للشهية المعطلة فكان كقوا لادعاء الفاقة :

— اجعلى زوجة أليك تدفع .

فصاحت الكوتنسة :

— زوجات الآباء « لا » يدفعن ! ما من زوجة أب دفعت في حياتها

قط !

وفي اللحظة التالية كان الثلاثة في الشارع معا . وبعد لحظة أخرى كانت الطفلة في المركبة ، والكوتنسة على الطوار قريبة منها ، وبسرعة أخرجت تقودا من كيس أخرجته من أحد جيوبها . وكان أبوها قد اختفى بيد أن ذلك لم يوقظ بعد في همها غصة فقدان . وقالت السيدة البنية اللون :

— هاك تقودا . انطلق !

— وكان صوتها آمرا فانطلقت المركبة . وجلست ميزى فيها ويدها مملوءة بقطع النقد . أكل هذا لأجرة العربة ؟ وحينما عبرت بمصباح من مصابيح الشارع انحنت لتبين المبلغ . وكان ما رآته حفنة من الجنيهات الذهبية . لا بد اذن أن تكون تلك المصالح الكبرى في أمريكا موجودة . انها لم تزل على كل حال في جو ألف ليلة وليلة ..

الفصل العِشْرُونَ

كانت النقود أكثر بمراحل مما يلزم لأجر عربة ولو في حكاية من حكايات الخيال . ولما كانت مسز بيل غائبة — فهي لم تكن قد عادت بعد رغم أن الساعة أمست متأخرة من حديقة ريجنت — فقد تولت سوزان آش في البهو — وقد أبدت من ارتفاع الصوت قدر ما أبدته ميزى من خفوته ؛ وأبدت من الجراءة قدر ما أبدته ميزى من السلاسة — عندما وقع نظرها على المشهد المعروض عليها تحت ضوء المصباح الخافت — مما جعل المكان واضح المبينة للمشهد الوضاه الذى رأته الطفلة أخيرا — تولت سوزان ابراز نصف الريال الذى قرر الحوذى الياذج أنه أقل مبلغ يرتضيه . ولما كان سينقضى وقت طويل على ما يظهر قبل وصول مسز بيل ؛ فقد استحثت سوزان ميزى فى تلك الأثناء لا على الايواء الى فراشها فحسب كآى عزيزة حبية ؛ بل استحثتها أيضا بمزيد من عبارات التدليل والاعزاز على أن تخصص جزاء لها على خدماتها العامة والخاصة أحد الجنيهات الذهبية التى رتبت على نسق فوق مائدة الزينة فى الطابق العلوى ؛ فلم يكن منظرها بطبيعة الحال أقل زينا لبصر خادمة يتيمة منه لبصر من كانت هدفا لمناورات رباعية الأطراف . ومضت من كانت ذلك الهدف التام وقد عقدت على ما تملكه أكبر منديل استطاعت الحصول عليه ووضعت تحت وسادتها . ويبدو أن الايضاحات التى تداولتها فى الغد مع مسز بيل كانت أكمل بالضرورة من الايضاحات التى تداولتها مع صديقتها المتواضعة ؛ فتمخض الأمر عن تنازلها طواعية عن كنزها .

وكانت ثمة في الواقع ايضاحات على مسز بيل أن تقدمها مثلما كان لها أن تطلبها . وكان أشدها استرعاء للنظر ما مضمونه أنه يقبح من فتاة صغيرة أن تأخذ نقودا من امرأة هي أخس بنات جنسهما . وفحصت الجنيات بشيء من العناية ، وعلى أثر ذلك الفحص رغبت صاحبة هذا القرار في أن تعرف بأى اسم يمكن أن تسمى هذه النقود — اذا نظر المرء الى الأمر نظرة الجد مالم تسم « ثمن الخطيئة » . ولم تخض رفيقتها في الأمر الا في حدود السؤال عما ينبغى عليهما اذن أن تصنعا بهذه النقود . وردت مسز بيل — التي كانت في تلك الأثناء قد وضعتها في جيبها — على هذا السؤال بشم ويدها على ذلك الموضوع :

— ينبغى أن نردها فورا .

وسرعان ما عرفت الطفلة بعد ذلك أن سوزان دعيت الى الاسهام في عملية الرد هذه بالنقد الأوحد الذي حصلت عليه ؛ ولكن تشديد قبضتها على كنزها بيّن لميزى في حديث خاص بينهما أن هناك ولا شك حدا لما يمكن أن تنقاد له من « الاستغفال » . وكانت ميزى صريحة مع مسز بيل بشأن كل ما وقع في الليلة الماضية ولكنها ألقت نفسها الآن من قبل الخادمة المستنكرة هدفا للملاحظات كانت بمثابة دلائل رنانة على ما تعانيه تلك السيدة من ألوان الكبح . واحدى هذه الملاحظات تنصب على الساعة الشاذة وهي الثالثة صباحا ان كانت تريد حقا أن تعرفها — التي عادت فيها مسز بيل الى البيت . وملاحظة أخرى — بنبرات كان اتقاد ميزى لها لم يزل مضرا أشد الاضرار — نعتت جاذبيتها بأنها من الخديعة والعار بحيث لا ينبغى أن يصبر عليها المرء اطلاقا . وملاحظة ثالثة انصبت بشيء من العنف على موضوع المبالغ الطائلة المستحقة في الطابق السفلى في جميع الفروع عن جهود مهذرة واجتهاد مضيع . وظل وجدان

سيدتنا الصغيرة مشغولا في الواقع بصفة أساسية مدى بضعة أيام بالهواجس التي بثها فيها ابطاء تابعتها في خمود احساسها بالفين ابطاء شديدا . فما أحرى تلك الأيام اذا تمخضت عن انفجار في المطبخ أن تغدو مبروعة لتلك الثورات التي وعتها في كتب التاريخ عن ظهر قلب . وما نمي لديها ذلك التوقع أنها تبينت في عيني سوزان أكثر من لمحة واحدة عن الأسلوب الذي تعد به الثورات . وانها لتدرك حين تصفى لسوزان أن الشرارة التي أذكت المواد القابلة للاشتعال وكالت سببا لاندلاعها بالفعل انما هي النسبة التي نعتت فيها بأنها لصة فظيعة منحطة لا شيء الا لأنها رفضت أن تتخلى عن ملك يمينها .

وكان المخرج لها من هذا التوتر في اليوم الخامس أنها نقلت بعد الافطار مباشرة من لندن الى فولكستون وأنزلت في فندق جميل . وكانت لهذا الحدث علاقة وثيقة باحاساس لاهث في صدر بطلتنا بأن الفضل فيه للسير كلود أكثر مما هو راجع الى جهود سوزان . وقد تعاون هذان الاثنان أمام عينيها الدهشتين في الجاز المغامرة وفي أن يسبقا عليها الاحساس بأن نجاحها يعزى الى مسز بيل — كما قالت سوزان — كانت قد أسرعت بالمضى لتوها . وعندئذ تلقى السير كلود هذا النبأ بأن صاح وساعته في يده :

— احزمي اذن أمتعتك يا آنسة فارانج وتعالى معنا .

وتلت ذلك سلسلة من الحركات الرياضية من شأنها أنها دفعت بقلب الآنسة فارانج الى فم الآنسة فارانج . وجلست مع السيد كلود في مركبة ذات أربع عجلات وظل ممسكا بساعته ، وطال امساكه بها عن الوقت الذي قضاه أى طبيب على الاطلاق في جس نبضها . وانه لأمد طويل يكفى لاعطائها فكرة عن شيء أشبه بنشوة اهمال مثل هذه الفرصة

لاظهار تفاد الصبر . وقد بدأت هذه النشوة في حجرة الدراسة وفوق الأرجوحة على نحو ما حدث ذلك الاستباق ذات يوم منذ مدة وجيزة حين صعدت سوزان لاهثة وبعد أن سمعت منها تلميحا عن الدوقة نزلت بنفسها الى الطبقة الأرضية . فأى ضرر اذن في الآمال المخيبة وثبوط الهمة ان هي أحست — ولو لحظة واحدة — بمثل ذلك الاسم وقد « أثير » ؟ وظل في ذاكرتها أن أباهما قد تنبأ لها بأنها ستغدو يوما ما في عرض الطريق . ولكن من الواضح أن ذلك لن يكون اليوم . وأحست أنها كانت على حق في التفضيل الذي صرحت به لذلك الوالد بمجرد أن دفع زائرها سوزان الى العمل ووضع يده على يدها بحنان وهي واقفة معه في الانتظار ؛ وكان هذا ما فعله الكاتبن في حدائق كنجستون من قبل . وقد أذكرها موقفها الراهن بعض الشيء بذلك الموقف وتجدد لديها التساؤل الغامض عن الأسلوب الذي بدت لها به منذ البداية مثل هذه الترتيبات والجذبات وكأنها خطوات أو علامات على انشغال بال الآخرين بل والى حد ما على جيشان متاعبهم وفيضانها . وما خذلها وأفزعها ليلة المهرجان ضاع الآن في غمار احساسها بأن أى « مفاجأة » في الوقت الحاضر على وشك أن تنبثق من السير كلود لا بد أن تكون أضخم من أن تنبثق على الفور . وأى فزع حسى بأن يصدر عن اخراجه زوجة أيها من حنابه يخفف منه بصفة عامة أن مسز بيل ان هي صارت الآن تغفو وتروح من غير أن تفكر فيه ، فليس ذلك الصفة الأساسية على الاطلاق التى تتسم بها الحقيقة المتجددة من حيث انه يبدو مرجعا لمسز بيل في مقابل ذلك . ان الوجود مع السير كلود معناه التفكير في السير كلود . وهذا هو القانون الذى سيطر على عقل ميزى الى أن اندست في رأسها المائة مرة أخرى على نحو ما صورة مسز ويكس التى طال غيابها

عن ذهنها ، وذلك عندما اهتزت فجأة العربة التي كانت قد أقلت أيضا سوزان ومجموعة كبيرة من اللقافات وأوشكت أن تصل الى تشيرنج كروس .

كان ذلك غريبا ، ولكنها منذ ذلك الوقت فهمت وتبعت . تبعت بإحساس بملء أى فراغ تحدته أعراض التحاشى والفرار ملنا مستفيضا . وكانت نشوتها شيئا يقبل بوجهه أكثر مما يستدير ، وعيناها لم تزالا مصوبتين نحو مسز ويكس حتى بعد أن خامرتها الدهشة اليسيرة عندما لم تجدها حين امتلت الرحلة لا فى محطة لندن ولا فى فندق فولكستون . واحتاجت الطفلة الى بضع ساعات كي تشعر بأنها ان لم تكن فى هذين المكانين فهى على الأقل فى كل مكان آخر . وقد عرفت ميزى الشئ الكثير منذ البداية ولكنه لا يصل فى القدر الى ما سوف تعلمه منذ هذه اللحظة . وعرفت على الخصوص خلال اليومين أنها ستكون معلقة فى الهواء فوق البحر الذى تمثل لها فى زرقته التى يداعبها النسيم الرخى ويكتنفها سحر الصيف وكأنه يعنى لديها اجتياز آمامد تتجاوز المضيق ^(١) . وخول لها فى ذلك الحين أن تصل الى تخمينات بلغ من استفاضةا أننى لن أجد متسعا لهدفى الرئيسى ان أنا حاولت أن أتبع مراحل هذه التخمينات . فحسبى اذن أن أقول فى شأنها ان أكمل تعبير تقدر على اضافته على مسلك السير كلود انما هو نسخة هزيلة باهتة للصورة التى تراءى عليها لصديقه الصغيرة . وفجأة اتقاد ذلك الصباح لتأثير الفكرة التى حقته بها مسز ويكس أسابيع طوالا عن طريق خطوط اتصال كانت قديرة فى اتهاج أساليب غريبة لصياتها من التشابك مع الشبكة الدقيقة التى

(١) هو المضيق الذى يفعل دو فرعن كالية بالتالى انجلترا عن فرنسا .
« المترجم »

نسجتها علاقاته بمسز بيل . وظلت أنفاس اخلاصها تهب بغير انقطاع
فحلت على الفرار الذي جرفت فيه ميزى على الوجه الذى بينته . وكان
مؤدى فكرتها بلا زيادة ولا نقصان أن يقدم بشجاعة على مفارقة مسز بيل
وزوجه على السواء — وأن ييمم بالطفلة على الفور شطر بلد أجنبى
بحيث يحقق حلم مسز بيل فى أن تراه تخلقى عن أخطائه وارعوى عن
انحرافاتة . وسيكون ذلك تضحية — تحت أنظار لا يفوتها أدنى ظل من
هذه التضحية — فى سبيل ما كان يسميه حتى المترددون الغرباء فى المعهد
السابق لليدى المصلحة الحقيقية للصغيرة العائرة الجد . وخالج ذهن
ميزى اشتباه فى كثير مما دار فى رأسه فى الفترة الطويلة الأخيرة بصورة
مختلطة ولكنها صريحة مستقيمة . فكان هذا الاشتباه لمحة فطنت بها ، فى
عرفان الجميل ويكاد يصل الى حد الارتياح ؛ الى المعجزة التى صنعتها
مريبتها المعجوز . وما كانت هذه المستخدمة فى هذا المقام لتغدو أشد تأثيرا
— حتى وهى تفعل بطريق غير مباشر — مما لو كانت بنية فى يدها مطمار
مفتوح أو رئيسة دير متوقدة الحماسة تنطق بلسان الكنيسة . فقد آكبت
يوميا على خدينها الرخو وراحت تصب عليه عاطفتها العميقة الضيقة
الأفق ، باذلة قصارى جهدها لهديته ، الى أن أفلحت بدأبها فى أن تجعله
فى النهاية يؤمن بفرصته الرائعة . وكان الضمان الكافى لاقتناعه بأن هذه
الفرصة غير وهمية هو استطاعته التامة أن يدرك فى النهاية أن لا ايدا
ولا بيل حريان أن يثيرا أى نوع من النزاع فى حالة اقدمه على العمل ،
لأن ذلك العمل يوافق خطتهما ومأربهما .

وان هذا ولا شك ليبدو اسرافا فى النفاذ الى السريرة . ولكن توصل
ميزى الى استكمال وتجميع الصورة الجميلة للتأثير الخاص الذى خضع
له السير كلود ولم يكن الفضل فيه برمتة الى افشاء من جانبه حتى لقد

حرص بقدر المستطاع لفرط التزامه للياقة على ابقاء اهتماماته العاطفية خاملة . ولم يكن في ذهنها بالطبع من الأسماء كفاء ما فيه من التصورات. ولكنها مع هذا النقص أدركت أن مرلت غياب رفيقها راجعة الى أنه عشيق زوجة أبيها . وان عشيق زوجة أبيها ليس له منطقيا أن يدعى لنفسه حقا أسمى في رعايتها . وكانت ميزى عندئذ قد أدركت ضمنا أن ثمة ضربا من التنافر بين العشاق والفتيات الصغيرات . وهذا الاعتبار هو الذي يلقى الضوء حقا على المضمون المحتمل للرسالة المكتوبة بقلم الرصاص التي أودعت فوق منضدة البهو في البيت بريجت بارك كي تستقبل مسز بيل عند عودتها . وتصورت ميزى هذه الرسالة مكتوبة على سبيل الاحتياط بلهجة مرحة ، وان السير كلود في ذلك الموقف تحول صوبها بوجه أكثر جدية مما بدا به في أى أزمة من الأزمات اللهم الا عندما أركبها العربية حين كانت سخيفة معه بعد فراقها للكابتن . انه يكون محرجا حقا ولكنه ينبغي في نظرها أن يكون واثقا من أنه غطى بشجاعة ظاهرية مازحة ذلك الاضطراب الذي أحدثه في بيت أبيها ابعاد خادمة لها قيمتها . وليس معنى هذا أنه لم يكن ثمة شيء كثير أيضا لا يمكن أن يرد ذكره في الرسالة . شيء كثير كان عقل ميزى الصغير المتيقظ مكانه الأوفق ، فجعل يطن فيه الساعة تلو الساعة حتى لقد جعل النظرة الأولى الى هذا الاطار أن زوج أمها ليس أمامه الآن في الحقيقة الا أن يحسب حساب تعقد أموره مع مسز بيل وقد تخلص أخيرا من شراك كل انسان آخر ومن كل شيء آخر ؟ أن العقبة التي تقف في طريق ذلك الفصم الذي فرضته عليه مسز ويكس لصالح الفضيلة ، انما هي ببساطة كونه عاشقا . أو ان أردنا مزيدا من الدقة : أن مسز بيل لم تدع لديه شكاً في شدة عشقها « هي » وبلغ بها الأمر أنها نجحت في حمله على أن تتقبل فترة من

الزمن سيطرتها المفتونة عليه ، بل وأن يتقبل ، الى حد ما ، ما قد يستطيعان تحقيقه مما بشيء يسير من المداهنة وقدر كبير من الصبر ، ولست أضمن أن ميزى لم تكن متيقظة الى امتناع مسز بيل عن مشاركته في هززه الذي يكاد لا يقهر من سماحها لريبتها الصغيرة أن تنفس جو الشذوذ الفج الذي يسود علاقتهما ، وفي اقتناعه بالاختصار بأنهما اما أن يكفا عن هذا الشذوذ أو يكفا عن التبنى . وكانت ربيبتها الصغيرة من جانبها قد اعتنقت منذ زمن طويل وجهة نظر كانت مسز ويكس نفسها لا تعتبرها في وقت من الأوقات فجأة بصورة محظورة ، ومؤدى وجهة النظر هذه أنها بعد كل شيء — « من حيث هي » ربيبة صغيرة — تشر بأنها على سجيبتها أخلاقيا في أجواء من الفطاعة بمكان أن يتناولها المرء بالتحليل . فلئن صممت مسز ويكس وقد انتابها الارتياح البالغ على أن تلجأ للوسائل العنيفة ، ففي استطاعة ميزى أيضا كما أشرت سابقا أن تتوصل الى أسباب لبعوثها لهذه الوسائل وأن تتوصل أيضا الى الأسباب الأخرى التي منعت هذه السيدة حتى الآن على الأقل من الظهور في هذه الوسائل بصفة مباشرة .

ولن أستطيع بالتأكيد أن أجعلك تصدق عدد الأشياء التي رأتها وعدد الأسرار التي اكتشفتها ! لماذا مثلا ما كان السير كلود مستطيعا أن يخفى عنها — الا على فرض عدم اهتمامه بذلك — أن له من الحق فيها قدر ما لزوجة أبيها — اذا ما نظرت الى الأمر من حيث تعلقه بالمصالح المكتسبة هذا اذا لم تقل ان حقه فيها لم تكن مسز بيل في موقف يسمح لها بمنازعة عليه ؟ لقد أخفق على كل حال في أن يلبس عليها الأمر تليسا موقفا يبعدها — عندما شرعا ينظران عبر البحر الى فرنسا — من اعتبار ما لم يفسره تفسيراً تاماً وكأنه يتفق مع الروح التي سادت أيامهما

السيدة الخالية وجولاتهما ورحلاتهما في تلك الأيام السهلة الجميلة عند بداية تعارفهما ، انها لم تحس قط من قبل أنها ترشده الى الطريقة المثلى لمعالجة ما بينهما ، أو احساسها بأنه شاكر لها ملاقاته في الموضوع الصحيح . وكانت نقطة تلاقيهما بالضبط هي أن مسز بيل أكبر شيء يحسب له حساب ، وأن غيرة تلك السيدة غيرة حادة ، وأنها يجب أن يخفيا عنها أكبر مدة ممكنة أن مسز ويكسر لم تزل لها يد في هذا الموضوع . أجل لقد التقت معه أيضا في أن زوجة أبيها وقد أعوزها أن تجد شخصية أخرى تفار عليه منها قد عوضت ذلك الحرمان الجسيم بتوجيه هذه العاطفة نحو التأثير الخلقى . وبدا على السير كلود أنه مستعد أن يقر في طرفة عين بأن التأثير الخلقى التقدير على جذب خيط انما هو تأثير خلقى معرض بعد كل شيء لفقء عينه . وأنه ما دام الأمر كذلك فثمت شخص ليس في وسعهما أن يتركاه بغير حماية قبل أن يتبيننا بصورة أوضح قليلا ماذا عسى أن تفعله مسز بيل . والحق أن ميزى لم يكن عليها أن تعبر عن رأيها بالألفاظ في قاعة القهوة ساعة الغداء لتقول :

ماذا « تستطيع » هي أن تفعل اذا ما أقدم بابا على خطوة تؤدي الى الهجر الشرعى سوى أن تأتي اليك ؟

ولا كان عليه أن يجيب على ذلك بأى لفظ سوى التعبير عن سروره بالحصول على مائدة بجوار نافذة ، بحيث استطاعا وهما يصبان من اللحم البارد والأبولينارس^(١) — لأنه لمح لها أن عليهما أن يقتصدا مقادير كبيرة من النقود — أن يدعا عيونهما تحوم بحنان حول الصخور الساحلية البيضاء البعيدة التي كثيرا ما لوحت لمن يعانى الضيق من الانجليز بوعود

(١) الابولنيارس ماء معدنى قلوى من منبع بهذا الاسم فى وادى الآر باقليم الراين بالمانيا .
« المترجم »

الأمان . وجعلت ميزى تحديق في تلك الصخور كأنها عميقة أن تبين حقا بعد قليل شكلا غريبا عزيزا رابضا فوقها — شكلا كان لديها احساس مرهف من قبل أنه أينما ربض سيكون أغرب شكل على الاطلاق شوهد في فرنسا . وكان شعورها أين لا توجد بزويكس مثيرا لديها على الأقل مثلما يثيرها شعورها أين توجد . فان لم تكن قد وصلت بعد الى بولوني فهذا من شأنه أن يزيد اللغز تعقيدا .

ولئن لم تقع عليها العين ذلك النهار ، فان المساء تميز بظهور شخصية لا توصف بأقل من أن التوقع المفرط في التوتر قد طوى أمام بروزها أجنحته على الفور وكانت ميزى تقضى على مقعد خشبي في حديقة الفندق نصف الساعة الذي يسبق وجبة العشاء ، تلك « التشريفة » الغامضة على مائدة الفندق العامة التي كانت قد استعدت لها في مواظبة أورثتها اضطرابا ، وهي تحاول أن تروض أفتاسها على التوافق ، مركزة كل تفكيرها تحت أهدابها المسبلة في أناقة الثوب ذي الأهداب الذي خطر لها أنها لم تتوسل بشأنه عبثا الى ولاء سوزان آش الذي طغى على الأشياء الجميلة التي خلفها فرارهم المحموم وراء ظهره .

وكان السيد كلود الى جوارها مشغولا بتدخين سيجارة وتقلب صحف المساء . ومع أن الفندق كان غاصا الا أن الحديقة ظهرت عليها أعراض الخلاء الذي يعقب رنين جرس ارتداء ثياب السهرة . وكان قد اتسع أمامها الوقت تقريبا للسأم من منظر البشر — من بشرتها هي على الأقل — على صورة سناج كان يلمخ ثوبها الزهيد ، واستوقفها ذلك وقتا طويلا حتى انها ما ان رفعت عينيها حتى استقرتا على قماش فلنخر مليح زاد من خزي اللطخ السوداء ، وكان هذا القماش الفاخر يتهادى صوبها فوق العشب من غير أن تفتن الى حفيفه . فتسبعت الى أعلى بهاء

المتصلب ، وظل بصرها مصعدا الى ما فوق ذلك الموضع من الأرض حيث
وقفت صاحبة الثوب الى أن تلتفت في نهاية رحلة طويلة صدمة الالتقاء
بالوجه الجامد الذي يعلو الثوب وكأنه الذروة العليا للتزين . وصاحت
في اللحظة التالية صيحة كانت كفيلة وهي تثب واقفة على قدميها بأن تبث
السير كلود على الوقوف على قدميه أيضا بجوارها :

— ماما !

وهكذا أتاحت لليدى وهي على بعد بضع ياردات أن تستمتع بمظهر
ارتباكها الوقتي . وكان ارتباك ميري المسكينة هائلا ، فقد كان لهبوط
أمها المفاجيء عليها وقع مصراع من المصارع الحديدية التي رأتها في
النزهات المسائية مع سوزان آمش تنزلق فجأة محدثة ضجة كبيرة عند لمسة
من لولب فوق واجهات الحوائيت الرضاعة . فقد انطلق فور السفر الى
الخارج دفعة واحدة . واستولى عليها احساس فظيع بأنهما قد ضبطا .
ولأول مرة في حياتها ترجمت في حضور أيذا أحد دوافعها الداخلية الى
حركة مثيرة للبغضاء فتشبثت على القور بيد حليفها المسئول عنها .
ولم يجعلها ظهوره لأول وهلة وقد ألجمه الذعر مثلها . ومرت دقيقة في
الحديقة الخاوية بظلالها الطويلة الملقاة على المروج وبحرها الأزرق يبدو
من فوق سياج النبات وهدوئها المروع يسود الجو ، وكبيرها كلاهما
على تصلبهما حتى كأنهما قلحان عاليان ملوءان الى الحافة فكان لا بد من
إبقائهما قائمين تماما خشية أن ينسكبا . وأخيرا قالت أمها للسير كلود
بنبرة بلغت غاية الدهشة بنعومتها غير المتوقعة :

— ألدك أدنى مانع من أن أتحدث اليها ؟

وتأخر رده كثيرا حتى ان ميري كانت السابقة الى الاهتداء الى النبرة

الصحيحة :

— أوه . لا . ألدبك أنت مانع ؟

فضحك وقد بدا عليه أنه أخذ الفكرة عنها ، وشعرت بترخيص كاف
في طريقة مخاطبته لزائرتها قائلاً :

— كيف بالله عرفت انا هنا ؟

وعندئذ قطعت زوجته بقية المسافة وجلست على المقعد واضعة إحدى
يديها على ابنتها وقد ضمتها اليها برشاقة ، فما ان لمستها حتى جعلها
الخوف الذي اتقد فيها لتوه شب وثبة ثانية ، الا أنها كانت هذه المرة في
اتجاه مختلف . وعاد السير كلود الى جلسته وصحفه على الجاب الأقصى ،
حتى لقد بدا تجمع الثلاثة أشبه بحفلة عائلية وأضحت صلته بأعجب
أسلوب في الدنيا وبطريقة شبه تهكمية معترفاً بها في لمح البصر . وجعلت
الأم تربت على طفلتها في انسجام لا تعبر عنه الكلمات . واستطاعت ميزى
أن تشعر أنه ليس السير كلود ولا هي اللذين ضبطا . بل أحست احساساً
واضحاً بأنهما هما اللذان ضبطا قريبتها . ضبطاها متلبسة بالتخلص من
عبئها بصورة قاطعة أظهرتها بمظهر الارتياح غير المجهود فيها من قبل .
أجل لقد زال الخوف ، ولم تكن بعيدة عن الشعور به بعدا لا رجعة فيه
قدر بعدها عنه الآن تحت ضغط ذلك الاستحواذ الذي تبالغ ايدا الآن في
التعبير عنه بذراعها المثقلة بالأساور وقد اكتست قفازا طويلا ، وكان رد
فخامتها على السير كلود بعد قليل :

— لقد ذهبت الى ريجنت بارك .

— أتعنين أنك ذهبت اليوم .

— هذا الصباح . بعد زيارتك أنت لذلك البيت مباشرة . وهكذا

اكتشفت أمرك . فكان هذا ما أتى بي الى هنا .

وفكر السير كلود وانتظرت ميزى رده :

— من الذى قابلته اذن ؟

فأطلقت ايذا صوتا يدل على تهكم مشوب بالتسامح :

— أحب منك هذا الفزع . أنا أعرف لعبتك . انى لم أر الشخص الذى جازفت برؤيته ولكنى كنت مستعدة لهذه المجازفة .
ووجهت كلامها الى ميزى وقد زادتها بتطويقها دنوا :

— لقد سألت « عنك » يا عزيزتى . ولكنى لم أر هناك أحدا سوى « سفرجية » قدرة وكان وجهها محمرا من أثر الأشياء الهائلة التى حدثت — كما قالت لى — فى غياب سيدتها . ومن حسن الحظ أنها فطنت الى معرفة المكان الذى جاء السير كلود ليأخذك اليه . فكان الفرض الذى قررت العمل على أساسه أنه مالم يكن قد تعمد التضليل فسوف أجدك هنا .

ولم تكن ايذا قد سبق لها اطلاقا أن أبدت كل هذه الصراحة بصدد الاقدام والافتراض . وبعد أن وعت ميزى هذه الظاهرة لاحظت أيضا كيف أن السير كلود كان يشاركها ذلك الانطباع الدقيق .
واستطردت زوجها :

— أردت أن أراك . ولك الآن أن تحكى على مبلغ العناء الذى تجشمته فى هذا السبيل . فقد كان لدى كل ما من شأنه أن يشغلى اليوم فى المدينة . ولكنى تمكنت من الانطلاق .

وقدرت ميزى ورفيقها تلك الهمة لحظة ، ولكن ميزى كانت السابقة الى التعبير عن ذلك التقدير بقولها :

— انى لسيدة بأنك أردت أن ترينى يا أماء .

ثم بعد تركيز أعمق للفكر باقدام أبسل :

— لو تأخرت قليلا لوصلت بعد فوات الأوان .

ووقفت البقية في حلقتها ، ولكنها استطاعت أن تنفوه بها :
— نحن ذاهبان الى فرنسا .

— وكانت ايدا رائعة : فقد قبلتها على جبينها وقالت :

— هذا ما قدرته بالضبط . وقد جعلني أقرر الاسراع بالحضور .
وخيل الى أنكما على الرغم من تهافتكما على السفر ستتظران قبل
العبور . فكان ذلك مما أضاف الى أسباب رغبتى في رؤيتك .
وتساءلت مئزى بشدة عما عسى أن يكون ذلك السبب . ولكنها
كانت أحصف من أن تسأل . وأدهشها بعض الشيء فعلا أن ترى السير
كلود لا يلتزم تلك الحصافة ، فسمعتة يسألها على الفور :

— ماذا لديك بالله تريدان أن تقويه لها ؟

ولم تكن لهجته خشنة تماما ، بيد أنها كانت تحمل من نفاذ الصبر
ما جعل رد زوجته نموذجا جديدا لنعومتها المستحدثة :
— هذا ، يا رجلى العزيز ، شأنى وحدى .

فسألها السير كلود :

— أتعنين أنك تريدننى أن أتركك معها ؟

— نعم ، اذا تكرمت . هذا هو الطلب الغريب الذى أتجاسر على
التوجه به اليك .

وكانت الليدى قد هبطت الى درجة من الرقة الساخرة التى جعلت
مئزى تشعر لمدة لحظة بالحيرة والسحر وقد أذهلها وميض شيء كان
يطل برأسه على مدى السنين فى فترات . وابتسمت ايدا للسير كلود بتلك
الطريقة الغريبة التى تبدو بها فى مثل تلك المواقف حين تتحدى محدثها
أن يثبت أمها وكانت عيناها الهائلتان وشفتاها الحراوان والعلامات
الكثيفة التى تلو وجهها تكون اضاءة متميزة عنية كأنها مصباح فى

نافذة . وخيل الى الطفلة أنها ترى فيها المنارة التي أضاءت طريقها . وألفت نفسها فجأة تفكر أنه لا عجب أن ينساق اليها الرجال . فلا بد أن هذه هي الطريقة التي نظرت بها ماما الى السير كلود في أول مرة . وارتدت الى الزمن الذي تجاوزا بهجته القديمة . ولا بد أيضا أنها الطريقة التي نظرت بها الى مستر بريام واللورد اريك . وأسهمت فوق هذا كله في أن ترسم في ذهن ميزى صورة أكمل للحالة الراضية التي نعم بها الكابتن . وأطبقت سيدتنا الصغيرة على هذه الفكرة وقد أسرعت دقات قلبها . وساد صمت أغنقت عليها أمها خلاله ثروة من التأييد ثناء الكابتن العجيب عليها واستمر ذلك الصمت مدة كافية من غير أن يشوبه صوت فخيل اليها أن السير كلود أيضا ربما كان مبهوتا تحت تأثير ذلك السحر الذي كان في الأصل شديد الوقع لديه ، حتى ان ميزى تمنت أن يقول على الأقل شيئا يظهر به اعترافه بمدى ما يمكن أن يصل اليه سحرها .

وكان ما قاله لها بعد ذلك هو :

— هل تقضين الليلة هنا ؟

فنظرت زوجته فيما حولها بعظمة وقالت :

— ليس هنا لقد أتيت من دوفر .

ومن فوق رأس ميزى وقد ظل كل منهما يواجه الآخر سمعته يقول :

— ستقضين الليلة هناك ؟

— نعم . لقد أتيت بيضعة أشياء وذهبت الى الفندق ورتبت أمري

بسرعة ثم لحقت بالقطار الذي أقلني الى هنا . وها أنت ترى أى يوم حافل بالمشاق قضيته .

وقد يكون هذا القول مثيرا للدهشة ، ولكن هذه الألفاظ كانت في

الحقيقة — بالنسبة لأذني ابنتها على الأقل — من أكثر الكلمات التي

خرجت قط من شفتى ايدا مجاملة ، ان لم تكن من اكثرها تألقا . ونبت لدى الابنة رغبة عاجلة في أن تعتبر هذه الكلمات — في هذه الساعة على الأقل — أساسا مقبولا للتفاهم . فاما لديها يقينا سحر خاص اذا ما أعملته انقلب تفسيرا واسع المدى والخطر الوحيد في الاستجابة الآن لباعث التصنيق لهذا السحر أن يبدو ذلك وكأنه آية على قدرته . ومع ذلك خاطرت ميزى بالادلاء في بشاشة باعتراف بأن ايدا لقيت من عجلتها عناء حقيقيا ، ودعت السير كلود الى أن يفضح نفسه بموافقته على أن تلك العجلة الشديدة كانت أسوأ من عجلتها . وبدا عليه أنه قابل ذلك الرجاء بأن قال في تباعد كاف :

— هل تعودين الى هناك الليلة ؟

— نعم . فهناك قطارات كثيرة .

وتردد السير كلود مرة أخرى . فقد كان من العسير أن يقول هل كانت الطفلة بجلوسها بينهما تزيد من ارتباطهما أو من افتراقهما . ثم قال بهدوء :

— سيكون الوقت متأخرا بالنسبة لك في التنقل . سأوصلك .

— لا تزعج نفسك . أشكرك . وأظنك لا تنكر أن في استطاعتي أن أتولى أمر نفسي ، وأن هذه ليست أول مرة في حياتي الفظيعة أتدبر فيها أمري .

وفيما عدا هذه الاشارة الى حياتها الفظيعة لاحظت ميزى أنها كانا يتحدثان وكأنهما صديقان سطحيان فحسب . وهي ظاهرة خاصة كثيرا ما عجبت لها من قبل ابان ما كانت تحسبه علاقة حميمة . وقد زاد من هذه الظاهرة ذلك الأسلوب شبه المرضى الذي استطرقت به الليدى قائلة :

— أحسبني سأسافر الى الخارج .

— أتعتين أنك متسافرين من دوفر فورا ؟

— لا أستطيع أن أقول فورا الى أى حد . فأنا مريضة للغاية .

وخطر لميزى لمدة دقيقة أن هذا لا يبدو أن يكون جزءا من الحديث .
ولكن بعد مرور هذه الدقيقة فطنت الى أنها يجب أن ترى فى هذه
العبارة — وان كان السير كلود لم يخطر له ذلك فيما يبدو — جزءا
من شيء أخطر . فأعانها ذلك على التشنى لتزداد دنوا وقالت :

— مريضة يا أماه .. مريضة حقا ؟

وندمت على قولها « حقا » بمجرد نطقها بها . ولكن ما من شيء أدل
على تهذيب أمها الراهن من أن ايدا لم يبد عليها وميض الغضب ردا عليها ،
وكافت ترد على ما هو آتفه منها بكثير فى أوقات أخرى . وكل ما فعلته
أنها ضغطت يد ميزى على صدرها وقالت :

— بشكل فظيح يا عزيزتى . يجب أن أذهب الى ذلك المكان الجديد .
فسألها السير كلود :

— أى مكان جديد ؟

وفكرت ايدا ولكنها لم تستطع أن تتذكر الاسم فقالت :

— أوه . ذلك المكان الذى يذهب اليه كل انسان . ألا تعرفه ؟ أفا
بحاجة الى علاج صحيح فهذا كل ما كنت أريده على الدوام من الدنيا
ولكن هذا ليس ما جئت لأقوله .

وجعل السير كلود فى صمت يطوى صحفه واحدة واحدة ثم نهض
قائما وراح يضرب راحة يده بحزمة الصحف وقال :

— ألا تبقين لتعشى معنا ؟

— لا . لا أستطيع أن أتعشى فى مثل هذه الساعة . لقد أمرت بالعشاء

فى دوفر .

وكانت لهجة الليدى فى هذه العبارة تنبى عن ترفع خاص عن المستوى الذى رأت فيه ابتها بسذاجة فولكستون جنة . ولكن هذه اللهجة لم تصل من العنف الى حد قتل اللهفة التى أبدتها ميسى فى مهدها حتى أنها قالت :

— ولكن ألا تناولين على الأقل فنجانا من الشاى ؟

فقبلتها ايدا مرة أخرى على جبينها وقالت :

— أشكرك يا حبيبى . فقد تناولت الشاى قبل قدومى .

ثم رفعت عينيها الى السير كلود وقالت :

— كم هى ظريفة .

فلم يجب حتى كأنه لا يوافقها على رأيها ، ولكن ميسى كانت مرتاحة البال من هذه الجهة ، وكانت لم تنزل مأخوذة بموجة السرور التى اتابتها لهذه النعمة المبشرة بالخير فى حديثها ، تلك النعمة التى أيدت تأييدا كبيرا ما صور به الكابتن فخامة الليدى ، وأذكت اذكاء حقيقيا جلسها بأن مثل ذلك المعجب قد يكون فى انتظارها هناك فى ذلك الوضع الآخر ليتعشى معها . فهل ترى كان هذا الحدس يخامر ذهن السير كلود ؟ ولئن كان هذا الظن قد ساوره فهو قد أصابها بشيء من الحيرة بذلك الشذوذ الذى أبداه حين عاد الى موضوع كانت زوجته تعتقد اعتقادا جازما أنها فرغت منه . فقد ضرب يده مرة أخرى بصحفه وقال :

— من الأفضل حقيقة بكثير أن أوصلك .

— وترك ميسى هنا وحدها ؟

وكان واضحا ان ماما لا تريد ذلك حتى لقد ومض فى ذهن ميسى تصور الكابتن وقد صحبها من دوفر الى هنا . وهو فى انتظار العودة بها الى هناك ربما كان يحوم على نفس المسافة التى كانت رفيقته فى سيره

بحدائق كسنجتون تبعد عنه في حومانها اذ ذاك . وبطبيعة الحال لم تنبس
بشيء من هذا الحدس وتركت السير كلود يتولى الرد . فزاد رده زيادة
كبيرة من احساسها بمعظمتها الراهنة :

— لن تكون وحدها ولديها خادمة مرافقة .

ولم تكن ميزى قد حظيت من قبل بشئ هذه البطانة ، وانتظرت لكي
تستمع بتأثير هذا على الليدى . وفكرت ايذا قليلا ثم قالت :
— أتعنى تلك المرأة التي أتيت بها من المدينة ؟ ان المرأة التي قابلتها
في البيت تكلمت عنها بأسلوب يجعلها لا تصلح لصحبة طفلى .

وكانت لهجتها تدل على أن طفلتها لم تكن بحاجة وهي بين يديها الى
هذه الصحبة الهائلة ولكنها استمرت بوضوح في رفض صحبة السير
كلود وقالت بطريقة ساحرة :

— لا تكن ثقيل الظل . دعنا وحدنا .

وبدا وهو واقف قبالتها فوق العشب وقد اكسى مسحة من الجذ
تهوق ما صارت ميزى ترى الآن أن الموقف يقتضيه وقال :
— لا أرى وجها لعدم الكلام أمامي .

فأخفت زوجته رجل احدى خصلات شعر ابنتها وقالت :

— أى كلام يا عزيزتى ؟

— ما جئت لتقوله .

وعندئذ تلخنت ميزى أخيرا وناشدت السير كلود :

— ألا دعها لتقوله لى .

فنظر الى صديقه الصغيرة برهة نظرة حادة وقال :

— وكيف تعرفين ما قد تقوله ؟

فقال ايذا :

— عليها أن تخاطر .
فاستطرد قائلاً للطفلة :
— انما أريد أن أحملك .
فأجابته زوجته قائلة :
— بل تريد أن تحمى نفسك . هذا ما تعنيه . ولكن لا تخف فلن أمسك
بسوء .

فهتفت ميري :

— انها لن تمسك بسوء . « لن » .
وأحست عندئذ أن في وسعها أن تضمن ذلك حقا . وعاودها شيء
من الانفعال الذي أصفت به لحديث الكابتن مما جعلها قريرة آمنة حتى
انه صار في مقدورها أن تمد ماما بناصرتها . وأقدمت على ذلك فعلا
بلهجة الكابتن عينها معلنة :
— انها طيبة . انها طيبة .
وعندئذ قال السير كلود :
— يا الهى .

وابتعد . ويبدو انه فاه بصوت يدل على الزرابة . بيد أن هذا الصوت
حبس عن أذنى ميري بالعناق الذى ضمته به زوجته الى صدرها مرة
أخرى . ثم أطلقتها ايذا وأمسكت بها بعيدا عنها قليلا وهى تنظر اليها
بسحنة غريبة جدا . ثم فطنت الطفلة الى أن رفيقهما قد تركهما ؛ وان من
تلك السحنة المشار اليها صدرت عبارة تأكيد لكلامها ، اذ قالت فخامتها :
— « أنا » طيبة يا حبي .

الفصل الحادى والبشرون

وخصص جانب كبير مما تبقى من زيارة ايدا لتوضيح هذه العبارة التقريرية البادية الغرابة . وكان هذا التوضيح أكثر استفادة من أى توضيح أقدمت عليه من قبل . وفى حين أخذ غسق الصيف يتجمع وهى مستبقة الطفلة فى الحديقة ؛ راحت تبدى التودد لها الى درجة جعلتها بحاجة ملحوظة الى ترتيب الأشياء فى ذهنها . فلم يكن قصاراها الشرح والتفسير ، بل انها تبسطت الى ما يقرب من تبادل الحديث . ولم يكن يعيب ذلك الا انها كان ينبغى أن تكون أقل ثرثرة بعض الشيء . فكانت هذه مناسبة العمر فى الحقيقة التى حظيت فيها ميسى من أمها بأقصى ما تريد أمها أن تقوله لها . وهذا فى حد ذاته يدل على كرمها وفضيلتها . ولم يقتض الأمر فترة مديدة كى تشعر سيدتنا الشابة أنه مع الخير لها أن تتلاقى معها وتنتهى منها بأسرع وقت عن طريق التظاهر ببساطة بأن وجهة حججها بهرتها . وجلست الاثنتان فكانت يد الأم داخل قفازا تستقر أحيانا فى ألفة على يد الطفلة وتقوم أحيانا أخرى باصلاح شأن شريط مفرد الهزال أو جديدة شعر أغلظ مما ينبغى وكانت ميسى واعية بالمجهود الذى تبذله لتذود عن عينيها الدهشة التى كانت تخفهما أحيانا على أن تطرفا . وما أكثرها ما كان المرء جريا أن يختلس النظر اليه لو أن المرء أرخى لنفسه العنان . وكان من حسن الطالع أنهما كاتتا وحدهما فلم يكن معهما السير كلود أو مسز ويكس ، أو حتى مسز بيل ؛ لتظن الى ما قد يند عنها من النظرات الطائشة . وعلى غزارة حديث الليدى

واسبابه ؛ ولم تكن فخامتها بالغة الوضوح . والبيان الذي أدلت به عن موقفها — وفي حدود ما يمكن أن يوصف بالتصوير الايضاحي — كان خليطاً من أمور غير مترابطة وثمره معطوبة لمناسبة أقدمت على مواجهتها في خفة . فما من شيء مما قالته جاء ثمرة الروية بل ان بعضه لم يكن في جملته خلوا من الاخلاص . فكأنما هي سألت على الفور أى دليل يمكن أن يطلب على طبيعتها وعظمتها أكثر من هذا الرضى الرائع بتخليها عما كان لديها موضع اعزاز عظيم . وكأنما هي قد نالت بصريح النص :

— لقد بانت بيننا أشياء ؛ بين السير كلود وبينى ، لا حاجة بي للخوض فيها أيتها المزعجة الصغيرة لأنك ان تفهمها .

ووافق هواها أن تعرب عن أن ميزى قد أبقيت — في حدود ما « يتصل بها » أو كما خيل اليها — في حالة جهل مطبق وأنها لذلك يجب أن تأخذ سذاجتها المطلقة مأخذ التسليم . وراحت تلتفت هنا وهناك وقد ألفت نفسها في مآزق سعت اليه بقدميها ولا تعرف كيف تراجع عنه بكرامة ولا كيف تخرج منه خروجاً مشرفاً ؛ فراحت تستر نفسها بأسمال الوقاحة وتتخايل بأقصى ما في طاقتها أمام آخر مثلك صغير من الزجاج المحطم الذى آلت اليه من كثرة ما أصابها من الصدوع قشرة خرافة البنوة اللامعة . ولئن لم يكن السير كلود ولا مسز ويكس حاضرين ، فلعل ذلك ادعى للاشفاق ؛ لأن المشهد كان له أسلوبه الخاص به الذى كان الأولى أن يضى عليه صفة العرض المسرحى ، ولا سيما في مثل تلك اللحظة التى أشعرتها فيها بأنها ترى وجود ذريتها التعسة مع السير كلود خيراً لها من وجودها بين يديها المدنستين . ولم يكن ثمة على كل حال شيء من الضالة لا في ما أقرت به ولا في ما أنكرته ؛ فقد كان ذلك خليطاً من خوفها مما يمكن أن تفكر فيه ميزى في طوايا سريرتها ، ومن التعزيد

الذى تلقته في الوقت قصه من أفانيتها المحتومة ومن ضراوتها التي تعودتها وقد تجلت هذه العادة فيما ادعته الآن بصريح العبارة من أنها لم تأت الى فولكستون لثير شجارا سوقيا ؛ انها لم تأت لتصفع أحدا أو تصفق بابا ؛ بل ولا لتحتد في الكلام . بل هي جاءت على أسوأ الفروض لتفقد تسلسل منطقتها في حركة اشمزاز عرضية بكماه من الكساء الذي تجاسرت خادمة مسز بيل المنحطة بلا حياء أن تقدم فيه الطعام للآنسة فارانج . وكبحت كل وجوه النقد فلم تتورط ولو في التعرض لوسائل الراحة التي افتقرت اليها حجرة الدراسة ، تلك الوسائل التي اجترأت مسز ويكس على تقديمها .

— أأا طيبة . طيبة بصورة جنونية اجرامية . ولكن لا جدوى لك من هذا بعد الآن . ولئن كنت قد كفت عن مخاصته ومخاصتك أنت أيضا ؛ أنت التي كنت أكبر مثار للقلقل بيننا ، فذلك لأسباب ستفهمينا يوما ما غاية الفهم .. يوما من الأيام عندما تعرفين فيما أرجو معنى فقدان الأم . أنا مريضة بشكل فظيع ولكن لا ينبغي أن توجهي الى أيما سؤال عن مرضي فان لم أرحل الى مكان ما فلن يكون طبيبي مسئولا عن النتائج . لقد أذهله ما تحمته وهو يقول ان ذلك العبء قد ألقى على لائى قد خلقت للعذاب . وتفكيرى يتجه الى جنوب أفريقيا . ولكن هذا ليس من شأنك ، فعليك أن تختارى . وليس لك أن توجهي الى أسئلة وأنت مستعملة على هذه الصورة لتخلى عنى . كلا لن أخبرك . ولك أن تكتشفى الحقيقة بنفسك وهم يقولون ان جنوب افريقيا رائع . فلئن ذهبت الى هناك فلكى أجره تجربة وافية . فلا بد من أحد أمرين : ان كان سيأخذك فيها ونعمت ، فقد ناضلت في سبيلك غاية جهدى . ولم يعد في مقدورى أن أتعبك فتخبطه هنا وهناك على غير هدى . يجب أن أعيش

أخيرا لنفى ولم يزل فيّ بعد ذماء . انى مريضة جدا جدا . مجهدة جدا جدا .
جدا . ها أنت قد عرفت جلية الأمر . فاتفعى بهذا الذى عرفت الى أقصى
حد . ان ثوبك فى منتهى القذاره . ولكنى جئت لأضحى بنفى .
ونظرت ميزى الى المواضع المعيبة . وكانت قد مرت بها لعظمت
وجدت فيها شيئا من الراحة فى أن تطرق بعينها الى أى شىء على هذه
الدرجة من الحقارة . وكانت جميع مقابلاتها وجميع محنها مع أمها تبدو
لها كلما تقدمت فى العمر مثقلة قبل كل شىء من حيث طول مدتها ، ولكن
من الغريب أن هذه اللقائى التى ألبست ثوب المسالمة والتصفية الودية
للعلاقة كانت أطول عليها من كل اجتماعاتها السابقة . ومرجع هذا الطول
الى توجسها وخوفها من الوقوع فى ورطة أو من انحسار التيار أو من
ظفرة سريعة من طفرات الليدى المشهورة ، فحجبت أقاسها ولم تخامرها
الا الرغبة فى الانتهاء من هذا الموضوع عن طريق مسايرة الليدى على
هواها . ولكن نفاذ صبرها نفعه جعل الموقف كله فى بعض اللحظات
يتراقص أمام عينها . فثمة أشياء قالتها ايدا لعلها لم تسمعها . وثمة
أشياء سمعتها لعل ايدا لم تقرأها :

— أنت كل ما أملكه . ومع ذلك أقدم على هذا الأمر . ان أباك
يتمنى لك الموت هذا يا عزيزتى ما يتمناه أبوك . وعليك أن تتعودى هذا
كما تعودته أنا — أعنى كما تعودت تمنيه موتى « أنا » ، وها أنت ترين
بنفسك على كل حال كم أنا رائعة فى معاملتى للسير كلود . ولكنه يتمنى
موتى كذلك . وأنا واثقة أنه لو كانت مشاحناته لى بصددك « أف »
كفيلة أن تقتلنى ..

وكان من سمات فصاحة ايدا أن تثير من المسائل أكثر مما يسعها
أن تستقصيه ولم تمر هذه الخاطرة الأخيرة الا نظرة عارضة ، واستطردت

تقول ان الدليل الأوفى على معاملتها لزوجها معاملة ملك كريم أنه تسلل لتوه حتى لا يحيق به ما هو حقيق به من الخزي . وكان كلامها عنه كأنه تسلل على أطراف أصابعه ، أو كأنما هو قد انسل من مكان للعبادة ليس أهلا للوجود فيه :

— لن تدركي ما تجشمته في سبيك . اطلاقا . اطلاقا . اطلاقا . اني أعفك من كل شيء كما فعلت دائما ، وان كنت أحسبك تدركين أشياء لو أتى أدركتها لكان ذلك خليقا أن يجعلني .. حسناء . ما علينا ! لقد بلغت على كل حال من العمر ما تدركين فيه أن ثمة أشياء كثيرة لا أصرح بها وان كان في مقدوري بسهولة أن أصرح بها ، مع أنه سيجدى علىّ ، أوكد لك — أن أفضى بما في ذهني برمته مرة في العمر . لا أريد أن أتكلم عن زوجة أبيك الشائنة ، وهذا من شأنه أن يدلك على مدى صفحي عنكم . وحين أقول « عنكم » أعني أصدقاءك وظهراءك ^(١) المبجلين . وان لم تنصني طاقتي على التحمل ، فاني أذكر لك بدافع من الكياسة كلمة أخيرة عن زوج أمك ، فيها حقيقة أو حقيقتان صغيرتان من قبيل ما كان يجب علىّ في الواقع أن أذكره لأبدو عند المقارنة بعد كل ما قيل من المقتريات في لمعان الذهب الخالص . فان أنت لم تمحضيني « هذا » الانصاف فليست بمنصفتي على الاطلاق أبد الدهر !

وكانت رغبة ميري في أن تظهر مدى انصافها اياها قد غدت عندئذ من الشدة بحيث جاءتها بالهام . وكان الأثر الأكبر لالتقائهما تثبيت احساسها بالارتباط بالسير كلود واثر ذلك الاحساس واكتماله بصورة تجاوز كل ما راود أحلامها . وقد صار كل شيء يتأمر الآن على الايماء

(١) ظهراء جمع ظهير بمعنى نصير « ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » .
المرجم

اليها بأن لمسة واحدة ناعمة من يدها الصغيرة كفيّلة باتمام العمل الصالح وجعل فخامة الليدى تطلق بسرعة وجلال فترك طريق البحر الكبير خاليا لأحداث الغد وزاد من هذا الأمر أن يدها كانت قد تحررت منذ بضع دقائق بمناورة واضحة من يدي أمها التي راحت تعيث احداهما بنفاد صبر ظاهري في الطوايا الخلفية لثوبها وسرعان ما برزت هذه اليد وفي قبضتها شيء صغير . وكان لهذا العمل مغزاه لدى طفلة صغيرة تمرست من هذه الناحية منذ سن مبكرة بمراقبة الحركات اليدوية ولم يلق على نتائجها المحتملة غشاوة معتمة ما تذكرته من أمر حفنة الذهب التي أبت سوزان آتش كل الاباء أن تصدق أن مسز ييل ردتها — « ليست هي التي تفعل هذا . فهي أشد زيفا وأشد شراة من أن تقدم على هذا » — الى الكونتيسة الأريحية . وكان حدس الطفلة أن كيس نقود الليدى قد يكون الشيء الذي استخرجته من مكنه عند مؤخرتها كافيًا كي توجه عينيها في حرص الى بعيد . وزاد هذا من التفاؤل الذي شاب مدة ساعة سطح دبلوماسيتها العميقة بحيث نسيت انها لم تحظ قط بالأمان الا حينما تكون أيضا بادية الغباء . فهي بالاختصار قد نسيت حيطتها المعتادة في غمار نزوعها الى اعتناق مصالح الليدى العملية واظهار مدى فهمها الكامل لهذه المصالح . ورأت أمها من غير أن تنظر اليها تضغط مشبكًا صغيرًا ، وسمعت من غير قصد الصوت الحاد الذي يدل على اغلاق كيس النقود الذي أخرج منه شيء أما ما هو ذلك الشيء فهذا ما لم تره ، ولكنه لم يكن أضخم من أن تضمه أصابع الليدى المطوية عليه . وليس بجديد على ميزي اطلاقا في عدم التفكير المفرد ، بحيث استطاعت في تلك اللحظة أن تصرح بما كان على طرف لسانها وفي الوقت نفسه توازن — بصددها في راحة يد أمها — بين كونه جنيها ذهبيا وبين

كونه شلنا . وما ان شرعت فى الكلام حتى رأت تلك المسألة وقد حسمت فى مدى ثوان معدودات : اذ انها عاقت بحماقتها ألفاظ خطة الاهداء القصيرة التى كان على كبرياء ايدا الشامخة فى هذه الظروف أن تعيرها شيئا من تفكيرها . عاقتها تماما . هذا ما شعرت به بعد ذلك مباشرة : فالنغمة التى عزفتها دفعت الى عينى رفيقتها بنظرة سرعان ما تبين لها مدى مجافاتها لمعنى الاهداء ..

— كان هذا ما قاله لى الكابتن فى ذلك اليوم يا أماء . وأحسبك حربة أن تشعرى بالسرور حين تسمعين اللهجة التى تحدث بها عنك . وكان فى مقدور ميسى الآن أن تبين فى ذعر أن السرور جرى أن يستغرق حصوله زمنا طويلا ان هو لم يكن أسرع من الاستجابة التى أثارته اشارتها اليه . فقد رمتها أمها باحدى النظرات التى تصفق الباب فى وجهها . ولم يحدث لميزى قط فى تاريخ تجاربها الفاشلة أن تلتقت مثل تلك النظرة المحدجة وذكرها هذا بما حدث ذات مرة فى احدى المحاضرات فى شارع جلوور حينما قيل ان شيئا فى قدر كبيرة وسط مجموعة من الزجاجات الفرية والروائح الكريهة سيبدو — على حسب وعدهم — أصفر فاقما ، فاذا به يتمخض عن أسود فاحم . وقد اتابها الأسى فى تلك المناسبة لحال المحاضر . بيد أنها فى هذه اللحظة أحست على نفسها بأسى أشد . فلم يكن ثمة بديل البتة من الوخزات كلهجة ماما وهى تقول :

— الكابتن ؟ أى كابتن ؟

— عجباً . انه ذلك الكابتن الذى أخذنى لأجلس معه عندما التقينا فى الحدائق . لقد كان هذا ما قاله « هو » بالضبط .

وتظاهرت ايدا برهة بالتقاط طرف خيط ضائع ثم قالت :

— وماذا عسى أن يكون ما قال ؟

وتلعثت ميزى غاية التلعثم ، ولكنها استطاعت فى النهاية أن تقول :

— قال ما تقولينه أنت يا أماء . انك طيبة جدا .

— ما أقوله « أنا » ؟

ونهضت ايدا ببطء ، وعيناها لا تفارقان طفلتها واليد التى كانت من قبل مشغولة بأمر حقيقتها انقادت الى جانبها وبين طوايا ثوبها لذراعها التى طرأ عليها التصلب :

— أنت آية فى البلاهة . ولن أسمح لك بأن تضعى على لسانى

مالم أقله !

وكان ذلك أشد بكثير من أن يكون محض اعتراض . وشعرت ميزى على الفور أن كل شىء أصابه التصدع وان التفاهم بينهما انقطع فجأة . وسرعان ما قام الدليل على هذا :

— ما شأنك أنت بالتحدث عنه الى ؟

وحاكى لون ابتها القرمز :

— حسبك تلتطفينه .

— أستلطفه ! انه أكبر وغد فى لندن !

واتصبت فخامتها كالبرج مرة أخرى فى سموخها ، وبدا بياض عينيها هائلا وسط الفسق المخيم .

وكان بياض عيني ميزى كفتا لهما فى تلك اللحظة . وراحت مع أول بوارق الغضب التى أوش بها وجهها فى مواجهة عدو على الاطلاق تنظر الى أعلى بحدة تضاهى أقصى ما تستطيعه من ينظر الى أسفل .

— لقد كان عندئذ شديد الرقة من نحوك . « هكذا كان » وقد

حملنى ذلك على استلطافه فقد قال أشياء .. جميلة . جميلة . جميلة !

وكانت كمن على وجه التقريب لفرض هذا المعنى على ذهن أمها . لأنها حتى في معبران أفعالها — وكان هذا في الحقيقة جزءا منه — ساورها الخوف والألم والتصور المتطير السابق لأوانه لما عسى أن يعنيه بالنسبة لمصير أمها خسرانها ولاء كهذا الولاء . حتى لقد عبرت بميزى لحظة رأت فيها بوضوح الجنون والعزلة . رأت فيها الخراب والظلام والموت . — وكثيرا ما فكرت فيه منذ ذلك الحين . وكان في مأمولى أنك في رفقته .. في رفقته ..

وهنا خذلها لشدة انفعالها صوت أمها البنوى . ولكن ايدا استخرجته منها :

— ماذا كان في مأمولك أيتها البلية الصغيرة .. ؟

فقلت ميزى في سقطة أخرى :

— انه هو الموجود في دوفر . وانه هو الذى سيصحبك . أعنى الى جنوب افريقيا .

وأبقى الدهول ايدا صامتا عند سماعها هذا القول مدة أطول مما ينبغى وبلغ من طول هذا الصمت أن ابتها لم تتساءل فقط عما سيحدث بعد ذلك ، بل وقدرت أيضا تمام التقدير اختفاء كل عرض من أعراض السخاء . فقد تبلجت أمامها في عظمتها لا ينم مظهرها الا على الجهامة والوجوم . وكان واضحا أن غضبها لم يزل كالعهد به دائما متصفا بالدهاء والتنوع ، فكان آخر ما توقعته ميزى هو — بحسب هذا القانون — ما وقع الآن . فقد ذاب غضبها في غسق الصيف حتى تحول تدريجا الى رثاء ، وهبط الرثاء بعد قليل الى طبقة برز فيها صوت كيس النقود عند اغلاقه مرة أخرى . لقد ردت اليه ما كانت قد أخرجته منه ، وغمغمت :

— يا لك من مخلوقة صغيرة منكودة حقيرة .

ثم أدارت ظهرها وانصرفت ترفل في ثيابها فوق العشب .

وبعد أن اختفت تهاوت ميزى فوق المقعد مرة أخرى ولبت بعض الوقت في الحديقة الخاوية والغسق المتكاثف جالسة تحديق في الصورة التي خلفها فرارها مائلة أمامها . ولم تكف هذه الصورة عن أن تمثل أمها بأعجب وجه ممكن أباه ، ذلك الأب الذي لم تزل تحوم في الهواء رنات تمنيه موتها . كانت الصورة المائلة أمامها مشرفة عليها ذات حدود غامضة . ولكن أى واقع لتلك الصورة عساها تحتاج الى ادخاله في حسابها ان كان متر فارانج — من جهته — راحلا أيضا .. راحلا الى أمريكا ، مع الكوتتسة ، أو حتى الى سبا فقط ؟ ولقى هذا السؤال من جانب المبنى جوابا مفاجئا مرحا على صورة هدير هائل ينبعث من صنج ، وفي هذه اللحظة عينها رأت السير كلود يتطلع باحثا عنها من باب المدخل الواسع المضيء ، فيممت صوبه وأقبل لملاقاتها فوق العشب . وظلت دقيقة صامته وهي معه ، كحالها تماما من قبل في ختام مقابلتها لأمها .

— هل انصرفت ؟

— انصرفت .

ولم يتبادلا كلاما أكثر من هذا في تلك اللحظة ، وهما متجهان معا نحو المبنى حيث انغمس في البهو في بعض مازحاته المفاجئة فأطرب ابنة زوجته أن تجد حيويته الفطرية دافقة وهو يقول :

— هل للآنسة فارانج أن تينلنى شرف قبول تأبط ذراعى ؟

ولم تتقبل الآنسة فارانج في حياتها كلها شيئا بمثل الغبطة التي تقبلت بها ذراعه ، وحددتها الى مادبتهما نشوة غنية مشرقة . ولكن قبل أن يبلغاها قالت له بروح السيدة الشابة الجذلة بخروجها الى أول عشاء لها

كلمة على سبيل المناداة جعلته يقف في مكانه مأخوذاً :

— انها ذاهبة الى جنوب افريقيا .

— الى جنوب افريقيا ؟

وبدا على وجهه لحظة وكأنه يتأرجح تأهباً لوثة — ولكنه في اللحظة

التالية انبعث في موجة فرح مسرف :

— أهذا ما قالته ؟

— نعم « لم يلتبس على الأمر » . التماساً للمناخ .

وكانت ميزى حريصة على أن تحمد لنفسها « ذلك » اليقين وكان

السير كلود ينظر في تلك اللحظة الى امرأة شابة ذلت شعر أسود وثوب

أحمر وكتب صيد صغير جدا . احتضنته تحت مرفقها مارة بهما في طريقها

الى قلعة الطعام مخلفة وراءها عير عطر فواح اختلط وسط ضوضاء

المكان برائحة الطعام الحارة الفاغمة . وكان قد تاب الى شيء من الجسد

ولم يزل واقفاً في موضعه يكملها : « هكذا .. هكذا » . ومر أناس

آخرون ، ولم يكن من التجهم بحيث لا يلقي باله اليهم .

— وهل قالت شيئاً آخر ؟

— نعم . شيئاً كثيراً .

وعندئذ التقت عيناه بعينيها مرة أخرى في شيء من التوتر ، ولا يزيد

على ترديد قوله :

— هكذا .. هكذا .

وكانت ميزى لم تزل مستحضرة لتصورها الخاص ، الذي صرحت

به قائلة :

— ظننتها على وشك أن تعطيني شيئاً .

— من أى نوع ؟

— شيئاً من المال أخرجته من كيسها ثم ردته اليه .

قبرز تفكه السير كلود مرة أخرى :

— لقد عدلت عن رأيها . يا للحصيفة العزيزة ! ترى كم اقتصدت

بهذه المناورة ؟

وفكرت ميزى ثم قالت :

— لم أر المبلغ . ولكنه كان صغيرا جدا .

فالتقى السير كلود رأسه الى الخلف وسألها :

— أتعنين أنه قليل جدا ؟ ستة بنسات ؟

فاستكرت ميزى هذا القول وكأنها تتقاذف النكات بالفعل على مائدة

العشاء مع جار لطيف :

— لعله كان جنيها ذهبيا .

فقال السير كلود مقترحا :

— أو ورقة من ذات العشرة جنيها .

فاحمر وجهها أمام هذه الصورة المفاجئة لما لعلها خسرت ، وزاد من

حيوية هذه الصورة أنه أردف قائلا :

— وقد لفت حتى صارت كرة صغيرة مضغوطة . فانت تعرفين

أسلوبها في معاملة أوراق النقد كما لو كانت أوراق تصفيف الشعر .

وازداد احمرار ميزى بازدياد رجحان هذه الفكرة وأيضا بسبب موجة

جديدة من الشعور كانت تذكرها دائما ببراعته . هي موجة شعورها بأنه

يعرف بمد كل شيء عن ماما أكثر مما تعرفه هي بما لا يقاس . فهي قد

عاشت معها مرات كثيرة من غير أن تكشف موضوع أوراق تصفيف

شعرها ومن غير أن تشهد في مناسبة أخرى طريقة معاملتها لأوراق النقد .

ولكن الكرة الصغيرة المضغوطة تدرجت على كل حال بعيدا عنها الى

الأبد كرة من الكرات الأخرى التي تعودت ايدا أن تسدد اليها ضرباتها القوية المحكمة بعصا البلياردو . وقدم اليها السير كلود ذراعاه مرة أخرى ، وحينما استقرت في مجلسها أمام المائدة كانت قد فرغت تماما من اعمال فكرها في تحديد المبلغ الذى خسرتة . فكل شئء حولها : من القاعة المزدهمة ، الى المائدة المبهرجة ، الى نكهة ألوان الطعام ، الى الحركات المسرحية للأشخاص ، كل ذلك ساعد على الفرح بالحياة . وبعد العشاء دخلت مع صديقتها — فهذا بالضبط ما شعرت أنها فعلته — في طنف أشبه بالشرقة حيث كانت أطراف السيجار المتوهجة وأزياء السيدات الخفيفة تحت النجوم السعيدة كأنها قصيدة من الشعر المسكر ولم يتحدثا الاثررا . وأدهشها شيئا ما أنه لم يطلب اليها مزيدا من الأبناء عما قالته أمها . ولكن لم تكن بها حاجة الى الكلام . فكل شئء كان فيه مغزى وصوت تستطيع الألفاظ أن تضيف اليهما مزيدا . فراحا يدخنان ويدخنان وكان في صمت زوج أمها عذوبة . وأخيرا قال :

— هيا بنا نقوم بجولة أخرى . ولكن يجب عليك أن تأوى الى فراشك حالا . فسوف يكون لنا كما تعلمين نظام ا

وعادا في جولتهما الى الحديقة على طول الممرات المعتمطة التى يوسعهما أن يريا منها أشرعة المراكب السوداء وأنوارها الحمراء وأن يسمعا الصيحات والنداءات التى لا بد أنها متعلقة بالأسفار السعيدة الى الخارج . فأمسى نظامها مرة أخرى هو المضى فى اخلاذ جميل فى سيرهما المتمهل من غير أن يتبادلا حديثا معينا . بيد أنه تكلم فى النهاية فقال وهو يلقي بعيدا بعود الثقاب الذى أشعل به سيجارة مرة أخرى .

— لا بد لى أن أذهب . لأتمشى . لأنى أشعر بالضجر . ولا بد لى أن أنفس عنه بالمشى .

وتقبلت هذا القول كقبليها لكل شئء ، فاستطرد :

— اصعدى الى الآنسة آش (وكان هذا هو الاسم الذى شرعا فى

اطلاقه عليها) ويجب أن تتأكدى من أنها لم ترتكب سوءا . أتستطيعين أن تعرفى الطريق وحدك ؟ .

— أوه . نعم . لقد صعدت وهبطت سبع مرات .

وسرها جدا أن تعرض لها فرصة المرة الثامنة . ولم يفترقا مع ذلك بل وقفا يدخان معا تحت النجوم . وأخيرا صرح السير كلود بما فى نفسه :
— لقد تحررت . لقد تحررت .

فصعدت اليه نظرها . وكانت هذه بالذات هى البقعة التى صعدت فيها قبل ساعتين نظرها الى أمها وقالت :

— لقد تحررت . لقد تحررت .

— وغدا نذهب الى فرنسا .

قالها وكأنه لم يسمع ما قالت . الا أن ذلك لم يمنعها من التأمين على كلامه مرة أخرى :

— غدا نذهب الى فرنسا .

ومرة أخرى بدا عليه أنه لم يسمع ما قالت . وبعد لحظة — ولا بد أن ذلك كان بتأثير عمق خواطره واضطراب نفسه — تكلم وكأنه لم يقل ذلك من قبل :

— لقد تحررت .. تحررت .

وكررت صيغة تأمينها :

— لقد تحررت .. تحررت .

وفى هذه المرة سمعها وثبت فيها نظراته من خلال الظلام بسحنة جادة ، ولكنه لم يقل أكثر من ذلك ، بل انحنى ببساطة انحناء يسيرا وجذبها اليه وأمسك بها قليلا فى بساطة وقبلها متمنيا لها ليلة طيبة . ثم دفعها فى صمت لتصعد الى الأنسة آش ، ودار على عقبه مرة أخرى نحو الأشرطة السوداء والأضواء الحمراء . وصعدت ميزى السلم وكان فرنسا تقع عند قدمته .

الفصل الثاني والعشرون

وفي اليوم التالي خيل اليها أن فرنسا في القاع فعلا — هناك بعيدا جدا بين الأغوار المصطخبة بحيث اتابها الاحساس ، على السفينة التي تعبر المائش ، بالعلو الشاهق الذي ظل السير كلود محتفظا به ، فلم يكن قط عظيما من جميع الوجوه عظمته وقد جلس بايناس تحت المطر الشديد ، رغم احتمائه بزواية سياج من قماش الأشرعة ، ورأس ابنة زوجته في حجره ، وقد وسد رأس خادمة مسز بيل صدره . وعجبت ميزي حين علمت عند دخولهم الميناء أن العبور كان لطيفا ، بيد أن هذا الاحساس سرعان ما خبت جذوته في بولوني في غمار احساسات أخرى ، أخصها تلك النشوة الكبيرة التي أثمرها وقع حياة أرحب . فقد صارت « في الخارج » ، وانصرفت بكليتها الى ذلك الاحساس مستجيبة له في الهواء المنعش ، وأمام البيوت القرمزية وبين بائعات السمك العاريات السيقان والجنود ذوي الأرجل الحمراء ، وقد استولى عليها يقين مفاجيء بأن أمامها مهمة . ومهمتها أن ترى الدنيا وأن تتنفض استمعا بصورتها . لقد تقدمت في العمر في مدى خمس دقائق ؛ فما ان وصلوا الى الفندق حتى كانت قد تبينت في نظم فرنسا وعاداتها عديدا من العلاقات الدقيقة والمدلولات . وفي مدى ساعة على وجه التحديد حظيت بأول تمرس بمهمتها . وقد عجل . بهذا الاحساس ذلك الدور السامي الذي ألفت نفسها تؤديه بازاء سوزان آش بمجرد أن ازددوا افطارا فرنسيا كان في واقع الأمر نعمة عالية من نعمات تلك المعزوفة الموسيقية . وكان السير كلود — الذي

التقى بالفعل صدفة بأشخاص يعرفهم وقال ان لديه عملا يقوم به وخطابات يحررها — قد بحث بهما للتنزه معا سيرا على الأقدام . فكانت هذه النزهة نأرا — الى أبعد ما تتطلبه العدالة الشعرية — لا من الضحكات العالية التي كانت تنطلق من تابعتها أثناء جولاتهما بلندن فحسب ، بل نأرا أيضا من كل تلك السنوات الزاخرة بميلها الى اظهار وقع ذلك الشيء الغريب المتطرف الذي يبدو وكأنه يتأرجح تأرجحا واسع المدى بين البراعة والاثم ، وأن يكون اظهارها له في أسلوب اجتماعي ولكن هنا في بولوني لا وجود على الأقل للتأرجح وان وجد التطرف . فهي تتعرف على الأمور وتفهمها وتمبدها وتملكها وتحس أنها في حالة توافق كوافق النغم الموسيقى مع كل شيء ، وأنها تضع يدها يمينا ويسارا على أشياء كانت مقيمة في انتظارها راحت تشرح لسوزان وتضحك من سوزان ، وتشرف في شموخ على سوزان . وكانت غباوة سوزان على نحو ما — تلك الغباوة التي لم تكن على يقين منها قط من قبل بهذه الصورة — وذهول سوزان وجهلها واجفالتها ، هي التي أضفت على ما تحسه تجاه الأشياء من الفهم والتقبل أشد عناصر الحيوية والتوثب . وكان المكان والناس معا صورة واحدة . صورة تألقت عندما هبطنا الى الرمال العريضة بالآلاف الأطياف اللونية ، في ذلك النظام البديع الذي يسود الشاطئ وبذلك المرح الذي يسود المشاهدين والمستحمين ، وبهجة اللغة والجو ؛ وقبل هذا وذاك بالوضع الذي لم يكن لسيدتنا الصغيرة به عهد من قبل . فقد خيل اليها أنه ما من انسان منذ بدء الزمان كان من الممكن أن تحدث له مثل هذه المغامرة أو تقع له في مدى ساعة مثل هذه الحيرة . وكان من نتيجة ذلك انها شعرت بالحاجة الى أن تسمع سوزان في استهوال عويص تعبر عن ايثارها لطريق ادجوار ، كي تشعر في دهشة واعية بمدى

التغير الذى طرأ على ذلك الماضى . ولقد بلغ تغير الماضى مبلغا عظيما .
واتسعت الدائرة التى كوتتها بخطواتها حتى بعد ظهر ذلك اليوم وجدت
تفسها — أثناء نزهة أخرى — تسأل السير كلود من غير أن يخالجهما
أدنى شعور بالندم هل تهيأ لتحديد لحظة رحيلهم الى باريس . وينبغى
أن تقول ان جوابه ثار لديها اجفالا يسيرا جدا :

— باريس يا عزيزتى .. لا علم لى بشيء فى صدد باريس .
وكان لابد من مواجهة هذا الأمر ، ولكن كان أسهل من هذا بكثير
أن تتحدها من أجل الفرحة الحافلة ، فرحة أول مناقشاتنا تفاصيل الجولة ،
وأجابته بعد أن نظرت اليه دقيقة :

— أليس ذلك هو الشيء الجوهري الذى يسعى اليه كل من يأتى
الى الخارج ؟

فظهر عليه الجدم مرة أخرى ، ولكنها لم تلق الى ذلك بالا . فهكذا
ينبغى أن يعيرا جدية حياتهما ما هى أهل له من الانصاف . ولم يكن فى
وسعها وقد غلغت أكبر سنا منذ الأمس ألا تفكر فى أنها تسبر غور
الموضوع بعض الشيء فلا بد له أن يدرك أنها قد صبرت بما فيه الكفاية .
وكان فى عينيه بالفعل شيء ما جعلها تشعر بأن تكتمها ليس كما ينبغى .
وقبل أن تعالج ذلك كان قد رد على سؤالها الأخير بأسلوب كان آخر
ما توقعته منه :

— الشيء الذى لا يليق بالمرء ألا يفعله ؟ أن باريس بالتأكيد ساحرة .
ولكن باريس يا صاحبتى العزيزة تأتى على الأخضر واليابس . أعنى أنها
فاحشة فى نفقاتها الباهظة .

أشعرتها هذه الغمة بنصه ، اذ ألتفت فجأة ضوءا أشد : هل هم
فقراء اذن ؟ أهو تغير حقا الى مدى يتجاوز شرحه الابلوتاريس ولحم

البقر البارد ؟ وكانا قد سارا الى نهاية حاجز الأمواج الذي يطوق المرفأ ؛
وراحا يتطلعان الى المخاطر التي نجوا منها . والى الأفق الأغبى الذي كان
انجلترا ، والى سطح البحر المتقلب والمراكب البنية اللون من ذات الشراع
الواحد التي تمايل فوقه . فلماذا اختار وقت ضائقة مالية للاقدام على
هذا الاندفاع الى أرض أجنبية ؟ اللهم الا اذا كان هذا الاندفاع من
النوع الاقتصادي الذي سمعت عنه مرات كثيرة . والذي كانت مستعدة
— بعد نظرة أخرى الى الأفق الأغبى والزوارق المتمايلة — أن تولى وجهها
شطره بابتهاج . وأجابته بعين لهجته وهي ترفع اليه محياها باسمه :

— فهمت . فهمت . أحوالنا في ضائقة .

فرد عليها بمثل ابتسامتها :

— هو ذاك ولكن أحوالى ليست كأحوالك سوءا .. فأمورك في
الحقيقة يا صاحبتى في حالة لا أستطيع أن أجد مخرجا منها — أما أمورى
فلا بأس بها رغم اضطرابها .

وفكرت في هذا ثم قالت :

— أليست فرنسا أرخص من انجلترا ؟ .

وترامت لها انجلترا في العدو الأخرى وسط العتمة المتكاثفة غالية

غلاء ملحوظا .

— ربما في بعض مواضعها .

— أليس في وسعنا أن نعيش في تلك المواضع ؟

وكانت شئ ظل برهة — ردا على هذا السؤال — يبدو عليه

أله بهم بقوله ولكنه لا يقوله . وكان ما قاله بعد قليل :

— هذا المكان بالذات أحد هذه المواضع .

— اذن ستعيش هنا ؟

ولم يكن رده قاطعا كما كانت تود :

— ما دفنا جئنا لتوفير المال .

ما جعلها تزيد في ملاحظته :

— وكم سيطول بنا المقام ؟

— ثلاثة أيام أو أربعة .

فلهت أقاسها وسألته :

— أستطيع أن توفر المال في هذه المدة ؟

فاتعبر ضاحكا ، وشرع يمشي مرة أخرى وقد أخذها تحت ذراعه .
واعترف لها وهما سائران أنها هي الأخرى قد وضعت اصبعها على أضعف
نقط ضعفه . وهي مسألة يدركها تمام الإدراك ، وهي أنه كان حريا
أن يعيش في حدود موارده لو أنه لم يقدم على أى تدبير اقتصادى .
وقال :

— ما من شيء أجلب للخراب من تمضية أسبوع بخص .

وسمعت ميزى مرة أخرى بين الأصوات الرائقة في ختام النهار ذلك
الصوت الفولاذى الدال على أن ايدا غيرت رأيها . وفكرت في ورقة
العشرة جنيهات التى كان ابرازها لتشديد عزم رفيقها في هذه الضائقة
حريا أن يكون ذا أثر رائع . بيد أن الفكرة تبدعت عند قوله بلا مناسبة
أمام أول شيء وقفا عنده بعد ذلك معجبين :

— سيبقى الى أن نصل .

فامتدارت اليه وسألته :

— مسز بيل ؟

— مسز ويكس . وصلتني منها برقية . لقد قابلت والدتك .

فحملت ميزى وقالت :

— قابلت ماما ؟ أين ؟

— فى لندن على ما يظهر . كاتتا معا .

وبدا لها ذلك نذير سوء ، وظهر الخوف الى عينيها :

— اذن فهى لم ترحل ؟

فقال السير كلود :

— أمك ؟ الى جنوب افريقيا ؟ انى أنفض يدي من هذا اللفز يا فتى

العزيز .

وخيل اليها أنها تراه حرفيا ينفض يده منه وهو واقف هناك يحلق

بنظرة شاردة — شاردة بالتحديد عن أمورها « هى » — يتتبع بها

التخطر الرشيقي والأطراف اللامعة لبائعة سمك شابة خرجت لتوها من

البحر وقد امتلات سلتها ببراعيث البحر (الجبرى) وارتد اليها تفكيره

بأسرع مما ارتدت اليها عيناه :

— ولكنى أحسب الأمر على ما يرام . فما كانت المسكينة العزيزة

لتأتى لولا ذلك . فهى تدرك تمام الادراك ما هى بسبيله .

وكان هذا الكلام مطمئنا للغاية حتى ان ميزى بعد أن قلبته فى ذهنها

استطاعت أن توفق بينه وبين حلمها :

— حسنا . وبسبيل أى شىء هى ؟

وأخيرا كف عن التطلع الى بائعة السمك وواجه سؤال رفيقته :

— أوه . أنت تعرفين .

وكان فى طريقة كلامه شىء أقام فيما بينهما قدرا من المساواة أكبر

مما خطر ببالها حتى الآن . الا أن هذا الشىء كان من أثره أيضا أنه رفع

من مستواها أكثر مما نزل بمستواه . وبدا ما حدث لديها من الأثر فى

صوت تأمينا على كلامه :

— نعم .. أنا أعرفه .

وما تعرفه ، وما « يسمها » أن تعرفه ليس سرا خافيا علينا في هذا الوقت . وقد ربا وازداد على كل حال بقية ذلك النهار في جو ما أخذه مأخذ التسليم . وذلك أفضل له من أن يحاول اختبار معرفتها : ولكن ها هو لباب المسألة على أسوأ الفروض : لقد صار واضحا بينهما في النهاية أن ما اتابهما من تغير كبير — كما تسميه ميزى . وكأنما هو قد استفرق بالفعل عدة أسابيع — محوره مسز ويكس . وقبل أن تمضى الى فراشها تلك الليلة عرفت أن السير كلود قد تلقى أكثر من برقية واحدة منذ شرعا في سفرتهما المتعجلة كما كان يسميها « هو » . ولكنهما افترقا مرة أخرى من غير أن يتكلما عن مسز بيل .

وياله من عبور بالنسبة للمثبتات والثوب البنى العتيق . ورات الطفلة ذلك الزى وقد جدد بحكمة ليتحمل ما قد يقع من كوارث السفر . وقامت الريح في الليل فتسنى لميزى أن تسمع من حجرتها الصغيرة في النزل صوت البحر وسقط المطر في اليوم التالي وتغير حال كل شيء . حتى بالنسبة لسوزان آش التي راحت تمتع وسامته بسوء الحالة الجوية وما في ذلك من تلذذ بالوقت الذي ستعانيه زائرته في السفينة ، ومن جهة أخرى استخلاصا لحماقة القدوم الى مثل هذه الجحور . وذهبت ميزى تحت المطر مع السير كلود لملاقاة سفينة البريد القادمة من فولكستون . وعند وصولها جعلها — عندما رأى بوادر الشغب الكثيرة — تنتظر تحت مظلة فوق الرصيف وقبل أن تتم ملامسته للسفينة رآته عن بعد يبحث عن صديقتها ويتلوى — على حد تعبيره بين المرضى المكдسين فوق ظهرها . ومضى وقت طويل قبل ظهوره ثانية . ولم يكن ذلك الا بعد أن نزل الجميع الى البر ، وقدم من كانت موضوعا لاهتمامه السمع في صورة

جعلت ميزى لا تدرى هل يدل هذا على منتهى تخاذل القوة أو على بهجة النصر . فالسيدة التى تستند على ذراعه وهى لم تزل محنية الظهر تحت وطأة محتتها الأخيرة كانت ملفوفة فى كمية من الأغطية لم يسبق من قبل أن كانت عوناً على مثل ذلك البلاء . وفى الفندق بعد ذلك بساعة زال هذا اللبس : فقد سمعت ميزى من مسز ويكس بالتفصيل وهى تساعدها فى خلوة على افعاش نفسها وتغيير كسائها كيف أنها ما كانت لتستطيع الا أقل القليل لو لم يمد لها السير كلود يد العون فى هذا السبيل . وقد كررت هذه العبارة فى حجرتها فى مناسبات لا توصف : فقد جعل فى مقدورها أن تحظى بتغييرات — على حد قولها — ذات طابع حميم للغاية ، تلائم أجواء ومناسبات شتى بحيث كانت ارهاصاً فى حد ذاتها يؤذن بتنقل واسع المدى . والأسابيع النجسة حرية بالطبع أن تأتى فى موضعها بعد اتفاق كل هذا المال على مريية . ولم تكن تلميذة هذه السيدة متذمرة من اتفاق هذه المبالغ ، حتى عندما شعرت بأن مظهرها شخصياً يثير من خلال المثبات اهتماماً بادية الغموض . وكان السير كلود فى الحقيقة لم يتسع وقته للاهتمام بمظهرها مثلما اتسع للاهتمام بمظهر مسز ويكس . ثم انها تؤثر ارتداء حذائها على ارتداء حذاء صديقتها الجديد الذى ينبعث منه الصرير فى حالة حدوث لقاء بينها وبين مسز بيل . وكانت ميزى مشغولة البال بالتفكير فى حكم مسز بيل على كل هذه الأشياء الجديدة بحيث لم تصدر شخصياً أى حكم . وبعد وقت طويل فى تناول الطعام وكثير من التحيات الغالية أخفت المسألة اتجاهها آخر — هذا اذا أغفلنا سرور الطفلة اذ رأت بنظرها اللماح أن ثمة أعينا غير عيني سوزان آش تحلق فيما يمكنها أن تعرضه على الأنظار . ولم يسعها أن تعرض الكثير للأسف الا بعد أن يكف المطر عن السقوط وقد أبى أن يكف طيلة ذلك النهار .

ولكن أثر ذلك لم يتجاوز افساح مزيد من الوقت لقيام مسز ويكس بهجومها . وقد حدث ذلك وهم جلوس في حجرة صالون صغيرة تجمع بين اللونين الأبيض والذهبي كانت ميزى تراها أبداع مكان رأته على الاطلاق ربما باستثناء مسكن الكوتيسية . حدث ذلك والعاصفة الصيفية الشديدة تهرأ النوافذ وتبعث الى الداخل بقشعريرة حلت بالسير كلود — ويداه في جيبه وسيجارته في فمه متمللا مقطبا يطل من النافذة ثم يستدير اليها — أن يأمر في النهاية باشعال نار صغيرة ذات دخان في المدفأة الصغيرة الأنيقة جاء هذا الهجوم على الرغم من شيء لا يمكن أن يسمى الا رغبته البادية في تأجيله . وكانت هذه المخايل قد أعاته — أوه . مثلما أعاته سائر مخايله — الى حد أن الساعتين الأخريين خصصتا لأحاديث اعتباطية وضحكات وكلام عام ؛ فكانت الجلسة في الساعتين في مستوى فناجين القهوة الصغيرة الخاوية والكنوس الصغيرة (وقد شربت مسز ويكس اثنتين من كل) حتى لقد خطر لميزى من خلال أدخنة النار الفرنسية والطباق الانجليزي أن ذلك آية أكثر من أى وقت مضى على أنهم أنزلوا الى أليم . فقد شعرت الآن عن كئيب وبوضوح كأنما قد أخبرتها مسز ويكس بنفسها أن ما جاءت هذه السيدة الى هنا لأجله ليس مجرد تلقى الملاحظة وسماع تلميذتها تلقى الملاحظة . ولاسماع السير كلود الذى يتقن الفرنسية أتم اتقان يحاكي الأصوات الغريبة التى يفوه بها الانجليز النازلون بالفندق . ولعمل نصف تأثير التجديدات الحاضرة التى حظيت بها حتى كأن ثيابها فى الحقيقة تخص شخصا آخر ، انها لم تبد على كل حال فى أى وقت مضى بمثل هذه الحمرة الشديدة فى اللون وهى حمرة تفترق فى ذهن ميزى فى هذه الدرجة من الشدة اما بالحصبة أو بـ « الملابس » فلم يكن قلبها يشارك فى كل هذه الثثرة حول بولونى .

ولئن كان لون مـحياها راجعا الى حد ما الى ما تناولته من طعام الغداء والكـنوس الصغيرة ؛ فهو أيضا آية واضحة على ما جاءت الى هنا لتقوله . وعرفت مـيزى عندما حدث هذا الى أى حد كان حدوثه محل انتظار متلهف من أحدث أعضاء المجموعة سنا وكان ما فاهت به مسز ويكس في النهاية هو :

— لقد حزمت لى اللـيدى ثيابى ودفعتنى دفعا . حتى أوشكت أن تـضعنى بنفسها فى العربية .

**** معرفتى ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الثالث والعشرون

وكان السير كلود مرابطا عند النافذة ، فلم يقدم حتى ولو على الالتفات نحوها . وترك الصغرى ثلاثهم أن ترد على هذه العبارة .

— أتعنين أنك ذهبت لمقابلتها أمس ؟

— هي التي جاءت لمقابلتي « أنا » . لقد طرقت بابي الحقير وصعدت سلمى القدر . وأخبرتني أنها رأتك في فولكستون .

وعجبت میزی :

— هل عادت في ذلك المساء ؟

— لا . بل صباح أمس . استقلت عربة من المحطة الى بيتي رأسا . كان ذلك غريبا الى أقصى حد . ولئن كان عندي عمل أتركه فهي لم تزد الأمر سوءا ، بل جعلته أفضل بكثير .

وسكنت مسز ويكس ، مع أن الوهج في محياها زاد اشتعالا ، ثم وسمها بعد ذلك أن تقول :

— فخامة الليدي رقيقة . لقد فعلت مالم آكن أتوقعه منها .

وعندئذ نظرت میزی رأسا الى ظهر زوج أمها . وكان من الممكن أن يبدو لها في تلك الساعة صرحا يشهد برقة فخامتها . وظل ظهره — بهذا الاعتبار — ثابتا ثبات الصرح . فأتاح ذلك من الوقت للطفلة أن تسأل رفيقتهما :

— هل ساعدتك حقا ؟

— مساعدة عملية للغاية .

ومرة أخرى سكتت مسز ويكس ، ثم عادت للكلام بصوت رنان :
— أعطنى ورقة من ذات العشرة جنيهاً .

وعندئذ ضحك السير كلود وهو لم يزل مطلاً من النافذة :
— ها أنت ترين يا ميسى أننا لم نخسرها تمام الخسران .
فأجابته ميسى :

— أوه . لا . أليس هذا ظريفاً الى أقصى حد ؟
وابتسمت لمسز ويكس وقالت :

— نحن نعرف كل شيء عن هذا المبلغ .
واذ أظهرت صديقتها من الحيرة ما يوافق توهجها استطردت :
أهى تريد منى أن آخذك ؟

فأظهرت مسز ويكس تردداً للمرة الأخيرة لم تلبث أن تغلبت عليه
فى حين كان السير كلود ينقر بأصابعه على زجاج النافذة . وخطر لميسى
أنه على الرغم من قره ومن أنه لا يستدير نحوها إلا أنه كان شديد
الاهتمام فى الواقع بحيث ترك نفسه على ما تحت سيطرتها ، مما بدا لها
بوجه ما دليلاً أكبر مما كان فى وسعه أن يقيمه بتدخله فى الحديث . وأعلنت
مسز ويكس :

— انها تريد منى أن آخذك « أنت » .

فردت ميسى على هذه اللطمة للسير كلود قائلة :
— هذا اذن شيء بديع لنا جميعاً .

وكذلك كان بالطبع . وقد وافق بالاستمرار فى صمته بما فيه الكفاية
على هذا الرأى فى حين نهضت مسز ويكس من مقعدها — كأنما لتتخذ
منزلة أكبر — استقرت بأسلوب لا يخلو من المهابة أمام النار . وكانت
أناقته غير المتناسبة ومحيط ثوبها الجاف يظهر انها فى الحقيقة مظهر

أكثرهم استعدادا للتوجه الى باريس . وحملت هي أيضا بشدة في ظهر
السير كلود . وقالت :

— كانت زوجتك مختلفة عن كل ما أظهرته لي من قبل . فهي تعترف
ببعض اعتبارات اللياقة .

فسألها السير كلود :

— بأيها ؟ أتذكرينها ؟

وكان جواب مسز ويكس سريعا :

— انه يلزم حتما لميزي سيده مهذبة . سيده لا تكون .. حسنا . هذه
الدرجة من السوء . انها تعترض على أن تكون هذه الشخصية مجرد
خادمة . وليس عندي ما يمنع اطلاقا من أن أخبرك بما تريد مني أن أصنع .
وكانت ثمت شيء واحد واضح ، وهو أن مسز ويكس الآن لديها من
الجرأة ما تقدم به على أي شيء :

— انها تريد مني أن أقنعك بالتخلص من تلك المخلوقة التي أتيت
بها من بيت مسز بيل .

واتظرت ميزي كي يبدي السير كلود رأيه في هذا . ثم استطاعت
أن تدرك أنه يلتزم من جانبه خطة الانتظار . وشعرت بالبداهة السديده
تملا جوانحها وهي تواجه مسئوليتها قائلة لمسز ويكس :

— أنا لا أريد سوزان « معك » .

ووافق السير كلود على ذلك وهو مستمر في التطلع من النافذة :

— هذا أمر بسيط جدا . سأعود بها .

فوثبت مسز ويكس وثبة حقيقية . ورأت ميزي نظرة الفزع في عينيها:

— تعود بها ؟ أنت لا تمنى أنك ستسافر خصيما ؟

ولم يقل السير كلود شيئا برهة . ثم تساءل بعدها :

— ولماذا لا أتركها هنا ؟

وعندئذ وثبت ميزى واقفة :

وفي اللحظة التالية كانت متوشجة مع مسز ويكس وراحت الاثنتان فوق بساط المدفأة ، وعينا كل منهما في عيني الأخرى ، تفكران في الخطة بعمق . ثم شمرت ميزى بما بينهما من فارق في وجهة النظر . وتساءلت مسز ويكس :

— في وسعها بالتأكيد أن تعود وحدها فلماذا تجشم نفسك المشقة ؟

— انها بلهاء . عاجزة . وان حدث لها شيء فسيكون الأمر محرجا :

فأنا الذى أتيت بها من غير طلب . فاذا استغيت عنها يجب أن أعيدها بيدي مرة أخرى الى حيث كانت بالضبط .

واستعاذ وجه مسز ويكس بميزى من هذه الحماقة ، وكان أسلوبها في مخاطبة رفيقتها ناطقا بحزم لا عهد لها به ، الأمر الذى أدهش تلميذتها :

— يا عزيزى السير كلود . انى أراك جموحا . ادفع اليها بأجر السفر واعطها جنيها ذهبيا ، فقد حصلت على تجربة لم تكن لتحلم بها وسيكون ذلك مجديا عليها في مستقبل عمرها . فان تنكبت سواء السبيل في سفرتها فسيكون ذلك لأنها أرادتته . ومتى أدت اليها تفقاتها ومكافأتها — ولك أن تجعلها أى مبلغ تشاء — ستكون قد عاملتها المعاملة الكريمة التى تعامل بها على الدوام كل انسان .

وكانت هذه نفمة جديدة . في مثل جدة قلنسوة مسز ويكس . نفمة يمكن أن يخطر لمخلوقة حديثة السن ذات حس مرهف للمعاني الكامنة أنها بادرة علاقة اتخنت طابعا جديدا . اذ أظهر ميزى على أن صديقها يقاثلان جنبا الى جنب أكثر مما كان يخطر ببالها . وفي الوقت نفسه احتاج الأمر الى مبرر محدد اذ أن السير كلود وقد استدار الآن لمواجهتهما أخيرا

خيل اليها لأول وهلة أن استيائه ناجم عن التطرف في هذه الألفة ؛ ثم زاد من حيرتها أن تراه يبدو لهما في حسنه غير المتكدر كما أبدى اهتماما متعادلا بموضوع متميز تماما من أى حرية عدا حرية فخامة الليدى :

— وهل جاءت زوجتى وحدها ؟

وحتى هذا السؤال استطاع أن يسأله في بشاشة :

— عندما أتت لزيارتى ؟

واحمر وجه مسز ويكس . فبشاشته ما كانت لتفزع في التخفيف من حدة لونها الذى ازداد توهجا مدة دقيقة فشاكل في توهجه أمانة شكلها القبيح :

— كلا .. كان ثمت أحد في العربية .

وكان التلطيف الوحيد الذى استطاعت أن تفكر فيه هو ما أردفته

بعد دقيقة :

— ولكنهم لم يصعدوا .

واتفجر السير كلود ضاحكا . واستطاعت ميزى أن تخمن علام يضحك . وفي حين راح الآن يجوب الحجرة وهو لم يزل منطلقا في الضحك ، ثم عند المدفأة ركل في مرشح كتلة من الخشب لم تكن في موضعها ، شعرت بمزيد من الغموض حول كل شئ تقريبا أكثر من الغموض الذى اكتنف هزل كلمة « هم » هذه . ولم يكن فى استطاعتها فى الواقع أن تخبرك هل كان هدفها تعميق هذه المزحة أو سترها عندما حدثتها نفسها بأن تقول :

— لعلها كانت خادمتها .

فحدجتها مسز ويكس بنظرة استغفار للنغمة الخاطئة :

— لم تكن خادمتها .

وسألها السير كلود كأنه لم يسمع :

— هل تقصدين أنه كان ثمة في هذه المرة اثنان ؟

واستطردت میزی كأنها تفترض فيه أنه سمع ما قالت :

— خادمتان ؟

فاشتدت حلة تأنيب المثبتات ؛ بيد أن السير كلود قطع ذلك فجأة :

— اسمعي هنا . ماذا تقصدين ؟ وماذا تفترضين أنها عنت بكلامها ؟

وتركته مسز ويكس برهة في صمت يفهم أن جواب سؤاله — ان

لم يأخذ حذره — ربما خرج عليه بأكثر مما يريد . وكأنما هي بهذا

الهاجس قد قدرت ورتبت سائر ما زودته به حين قالت أخيرا :

— ما عنته هو أن تعرفني أنك حر تماما . وقد شعرت بالحصول على

هذا النبأ منها رأسا بسرور لم أكن بالطبع أطمع فيه : مما جعل هذا

اليقين وفرحى به أساسا أستطيع أن أبني عليه تصرفي . وأنت تعلم الآن

أننى كنت مستعدة للسفر حتى ولو لم تتعجل هي . وتعلم ما كنا نتطلع

إليه منذ أمد طويل ، فما ان أخبرتنى بالخطوة التى أقدمت عليها فى

فولكستون حتى أدركت بكل غبطة أننا حصلنا على مبتغانا . فحريتك .

هى التى تجعل موقعى صوابا . ولكنى لا أبالى أن أقول لك أن تصرفها

هو الذى أسعدنى .

وكانت تندفق بالمنطق ، فرد السير كلود كلمتها :

— تصرفها ؟ ولكن تصرفها أيتها المرأة العزيزة انما هو جريمة منكورة .

انها بمحض الصدفة توافق مبتغانا بصورة بديعة ، بيد أن هذا لا يغير

على الاطلاق من أنها أبشع ما أقدم عليه انسان . لقد قذفت بصديقتنا

الموجودة معنا هنا من فوق ظهر السفينة ، حتى كأن ذلك لا يقل أنملة

عن القائها بها صارخة ضارعة من هذه النافذة لتسقط من ارتفاع طابقين فوق أحجار الطريق .

وراحت موزى ترقب بهدوء طرفى المناقشة .

— ان صديقتنا الموجودة هنا يا عزيزى السير كلود لا تتضرع ولا تصرخ .

فنظر اليها برهة وقال :

— اطلاقا ، اطلاقا . وهذه صفة ، صفة واحدة ، ولكنها بديعة جدا فى حد ذاتها ، نحو مائة صفة نجبها بسببها .

ثم استطرد مخاطبا مسز ويكس :

— ان ما لا أستطيع بأى شكل من الأشكال أن أتبينه هو ما تدبره ايدا « حقيقة » ، وما هى غايتها الخفية التى سعت اليها من وراء التجائها اليك بهذه الصفاقة اللعينة بعد المعاملة الفظيعة المهينة التى عاملتك بها وأين تتوهم أنها مستطبعة أن تصل الى غرضها عندنا ونحن أقل ما نكون توقعا لهذا من جانبها ؟

— انها لا تتوهم شيئا ولا تريد من أحد شيئا . وصفاقتها اللعينة كما تسميها أفضل ما رأيته فيها على الاطلاق . ولست أبالى فتيلا بالمعاملة الفظيعة المهينة التى عاملتنى بها . بل انى أغفر لها ذلك ألف مرة . وكانت مسز ويكس قد رفعت صوتها كما لم ترفعه من قبل ؛ وقد أرهاها تألقها :

— انى أفهمها بل أكاد أعجب بها .

وكالت ترتجف وتتكلم وكان ما تقوله كاف عمليا للاقناع ، الا أنها شفقة منها على القرائح الأضعف أدلت بهذا التفسير :

— لقد كانت مختلفة كما قلت . وبشرفى ما كنت لأعرفها . ولكن

بهيصا لاح لها وهدتها غريزتها فجاءت الى . كانت فكرة موفقة . ولئن كنت لا تتخيل وجود شيء كهذا لديها ، فأنا بالطبع أوافقك على ذلك . ولكنه وجد لديها . هاك المسألة . واستطاعت ميزى أن تشعر مرة أخرى كيف أن لونا خشنا من ألوان الصواب في هذه الحجة يمكن أن يكون محققا . ولما كانت كثيرا ما راقبت السير كلود في توقعه لمكدرلت لم تتحقق ، فهو الآن بدلا من أن يقول « يا للجحيم » . كما كان دأب أبيها رآته يلوذ بسؤال يوصف على أسوأ الفروض بالوعورة :

— ومن تراه « يكون » هذه المرة . أتعرفين ؟

فحاولت مسز ويكس أن تتظاهر بوقار صوري :

— من هو ماذا يا سير كلود ؟

— الرجل الذى يتحمل أجور العربات . الرجل الذى كان في العربة

التي انتظرت أمام بابك ؟

وأمام هذا التحدى تلعثت وقتا طويلا حتى ان وجدان صديقتها

الصغيرة فاض بالاشفاق عليها فمد اليها يد العون :

— لم يكن الكابتن .

ولكن هذه النية الطيبة لم ين من تيجتها الا قلب ما تشعر به المرأة

الفاضلة من تخرج الى حملكة أشد غموضا ، فضلا عن أنها بالطبع جعلت

السير كلود يضحك . وناشدته مسز ويكس :

— ألا بد لي حقا من اخبارك ؟

واستمر تفككه وهو يسألها :

— هل جعلتك تعدين ألا تخبريننى ؟

فازدادت نظرة مسز ويكس اليه حدة وقالت :

— أعنى أمام ميزى .

فضحك السير كلود مرة أخرى وقال :

« انها » لا تستطيع أن تصيبه بسوء .

وشعرت ميزى نفسها أن هذه الكلمة العابرة ذلت الطابع المازح
الخفيف ذات شأن بها فقالت :

— نعم أنا لا أستطيع أن أصيبه بسوء .

وأظلتها المثبتات مرة أخرى ، وبدا بعد ذلك كأنهما تصدعان بما يتفجر
وراءهما من أمانة لا بستها . ووسط الشظايا المتطايرة نطقت مسز ويكس
باسم :

— مستر تشباين .

وساد برهة صمت بدا ظاهره فجأة — تحت تأثير السير كلود فيما كان
يتبادل النظرات مع ميزى — موحيا بالجد :

— نحن لا نعرف مستر تشباين . أليس كذلك يا عزيزتى ؟

وأولت ميزى هذه المسألة كل ما يلزمها من التفكير :

— لا . لا أستطيع أن أحدد هوية مستر تشباين .

وكان تأثير ذلك واضحا جدا على صديقتيها ، فقالت في جهامة صادقة
التبرة :

— يجب أن تغفر لى يا سير كلود توجهى بالشكر الى الله فى مواجهتك

لأنه قد شامت رحمته ، أعنى رحمته بريبتنا ، أن يتيح لى القيام بهذا
العمل .

وأطلقت زفرة ألم وقالت :

— آن الآوان .

ثم قالت كأنها تريد أن تزيد المغزى وضوحا :

— لقد قلت الآن لتوى اننى فهمت زوجتك . وقلت الآن لتوى اننى

أعجبت بها . وأنا مصرة على ذلك . فقد خامرني هذان الاحساسان عندما رأيت كيف أن هذه المسكينة ترى كل شيء . وان كنت تريد التحديد كل التحديد فأنت وما تبغى . فهي قد جاءت الى لآتى — رغم كل شيء .. ثم أردفت بلفظ مختلج :

— حسنا .. لآتى نظيفة تماما . فما رأته لا ابتها هو أنه لا بد لها أخيرا من صحبة شخصية « محتشمة » .

فأسرعت ميزى عند سماع هذا التعريض الى ادراك أن مثل هذه الشخصية لا تنطبق أوصافها على السير كلود . ومع ذلك خمنت بعمق في اللحظة التالية من هي الشخصية المقصودة بهذا التدفق . ولذا زادت دهشتها أمام البساطة التامة التي تقبل بها أسوأ التأويلات :

— ان كانت حريصة على الشخصيات المحتشمة فلماذا اذن أعطتني اياها ؟ أنت لا تسميني شخصية محتشمة . وانصافا لايدا أقول انها لم تسمى بهذا الاسم قط . وأحسبني ندا في الاحتشام لأى انسان . وما من شيء في سلوكى يجعل تنازل زوجتى أقل غضاضة .

فصاحت مسز ويكس :

— لا تتحدث عن سلوكك . لا تقل مثل هذه الأقوال الفظيعة ؛ فهي أقوال خاطئة شريرة وأنا أمنعك منها . انى هنا لكى « تظل » على احتشامك . ولهذا الغرض فعلت ما فعلت . وهدفى انقاذك — ولا أقول انقاذك من نفسك — فأنت في حد ذاتك جميل وطيب ! بل لانقاذك من أسوأ الناس طرا . وأنا لم أقطع كل هذه المسافة بعد كل شيء لأخاف الكلام عنها . انها تلك الشخصية التي تريد الليدى أحدا ولو مثلى أنا في مكانها . ولئن رأيت فى نفسها — على حسب ما قالته لى بما يشبه صريح

النص غير أهل لصحبة ميزى ، فليس ذلك كما يتبادر لذهنك رغبة منها في افراح المجال لمسز بيل .

وراقبت ميزى وجهه وهو يتلقى هذا الانفجار . وكان أقصى ما رآته على صفحته أن لونه اكتمر قليلا ، وجعله ذلك يبدو في الواقع — على حد ما كانت سوزان آن حرية أن تقول — غريب بالسحنة . ولعل من جوانب تلك الغرابة أنه ابتسم بشدة :

— ما أقساک على مسز بيل . ان لها مزاياها الكبيرة .

وعندئذ فعلت مسز ويكس ما كان يفعله السير كلود من قبل ، فبدلا من أن ترد عليه فورا ، اتجهت الى النافذة وحدقت برهة في العاصفة . وساد مدة دقيقة صمت أحست ميزى أنه يتجاوب بأصداء الريح والمطر . ومع هذا كله راح السير كلود يفتش بنظراته عن قبعته . وكانت ميزى أسبق منه الى اكتشاف موضعها فاندفعت اليه وقدمتها له فتناولها منها وفي محياه ومضة شكر ، وعندئذ دفعها شيء الى أن تمسك بالطرف الآخر من حافة القبة بحيث ظلوا واقفين وقد ربطت بينهما قبضتهما على هذا الشيء بضع ثوان وهما يتبادلان بنظراتهما أمورا كثيرة . وكانت مسز ويكس قد استدارت صوبهما فسألته :

— أقصد أن تقول لى انك عائد ؟

— الى مسز بيل ؟

وتخلت ميزى عن قبعته . وكان ثمة شيء تأثرت له في الطريقة الحرجة شبه الذليلة التي جعله تحدى رفيقتهما يدير بها القبة مرارا وتكرارا . لقد رأت أشخاصا يفعلون ذلك . أناسا تثق بأنهم لم يفعلوا شيئا سوى ما فعله السير كلود :

— لا أستطيع أن أجزم على الفور يا عزيزتى . سننظر فى هذا ،
وتحدث فى شأنه غدا . أما الآن فلا بد أن أحظى بشيء من الهواء .

وشمخت مسز ويكس — وظهرها الى النافذة — برأسها الى علو
بدا أنه استبقاه برهة :

— ان كل ما فى فرنسا من هواء يا سير كلود لا يمكن فيما أعتقد
أن يمنحك الشجاعة لانكار خوفك منها .

وفى هذه المرة بدت الغرابة على سحنتها ، ولم تكن ميزى بحاجة الى
مفردات سوزان كى تلاحظها . بل كانت الفكرة حرة أن تطرأ عليها من
تلقاء نفسها وهو واقف واضعا يده على الباب ينقل عينيه من ابنة زوجته
الى مريبتها ثم من المربية الى ابنة زوجته مرة أخرى . وحين استقرت عيناه
على عيني ميزى — برهة قصيرة جدا — باحت لهما بشيء وحاولت
التوضيح . الا أن شفثيه لم توضحا شيئا ، بل سلمتا بما أعربت عنه
مسز ويكس :

— أجل . أنا خائف منها .

وفتح الباب وانصرف .

وذكر ذلك ميزى باعترافه بالخوف من أمها . فكان زوجة أيها ثالى
سيلة فشل ازاءها فى التذرع بالملزية الخاصة التى كان المفروض أنها أبرز
خصائص الرجل . بل انهن فى الواقع ثلاثة اذا ما عددنا منهن مسز ويكس
التي خارت عزيمته أمامها بما لا وجهه لائكاره ولم يكن افتقاره الى
الاقدام الا داعيا أعمق لاثارة حناها . ولم يكن أمامها كى تجيش نفسها
بالاستجابة لهذا الحنان الا أن تتذكر سائر السيدات اللواتى جينت
أمامهن كما يقولون .

الفصل الرابع والعشرون

لبث المطر ينهمر مدرارا حتى ان حلم سيدتنا الصغيرة الخاص بأن توضح أحوال « القارة » لزائرتها كان لا بد أن يتضمن بأسهاب أحوال الجو . وعلى المائدة العامة في ذلك المساء ألفت عديدا من الأضواء . فهذه ثاني « تشرنفة » من هذا القبيل تجلس فيها . وكانت حرة أن تهمل امتيازها وتلحق الخزي بمفرداتها — التي كانت في الحقيقة تتكون أساسا من أسماء ألوان الطعام — لو لم تكن متأهبة تأهبا مناسبا لازاغة البصر بالترجمات والتأويلات . أما مسز ويكس فبدت لفرط انشغال بالها وتهيئها مكتتبة ، فجعلت تتلقى ترجمة تلميذتها لأسرار قائمة الطعام بصورة كان من الممكن أن تعتبرها الطفلة اقباضا ساذجا لا يرجع الى شعورها بحاجتها مثلما يرجع الى شعورها بأفاقها . وسرعان ما وجدت ميزى نفسها — وان كان ذلك لم يحدث الا قبيل وقت النوم — وقد وجهت مرة أخرى بالبرنامج المختلف الذي استبقت له قدها . فقد سعدنا معا الى حجرة جلوسهما في حين بقى السير كلود ، الذي قال انه سيلحق بهما فيما بعد ، ليدخن في الطبقة السفلى ويتحدث الى معارفه القداماء الذين كان يلتقى بهم أينما ولكى وجهه . وكان قد اقترح على رفيقته أن تتناولوا القهوة مستمتعين بصالون المطالعة ، ولكن مسز ويكس ردت عليه باقتضاب وبشيء من التكلف أن جناحهما الخاص أكفل براحتهما من كل وجه . فجناحهما الخاص لا يكفل لهذه السيدة الطيبة — كما لاحظت ميزى على الفور — وسائل الراحة المشار اليها فحسب بتلك الاشارة التي

أبدتها وكأنها — وهي الغيور في هذه الحدود من تلميذتها — قضت كل حياتها في الصالونات . بل قدم لها هذا الجناح أيضا أريكة فرنسية صلبة وسعها أن تجلس فوقها وتحديق في المصباح الفرنسي الضعيف لأن الساعة الفرنسية كانت قد وقفت وكأنها تلتبس لديها تفسيراً للوقت الذي تأخره السير كلود . وكان سلوكها يتهمه اتهاماً مباشراً بأنه يتلصق بعيداً عن متناول يدها ، حتى ان ميري حاولت تسليتها بأن روت لها موقف سوزان الفريد بصدد موضوع حديثهما الذي جرى بعد الغداء . وكانت ميري قد نفخت الى المرأة الشابة على سبيل العطف خطة اغفائها ، ولكن اعتراضها على الأساليب الأجنبية يبدو أنه لم يفعل للمعجب شيئاً سوى أنه دفعها الى التثبث بمصدر ضيقها . وهكذا أحست الفتاة بين مجهود مسز ويكس لابعادها وبين تثبث الفتاة الواضح بمكانها في صلابتها أنها تقوم بمهمة مزوجة وتبذل نشاطاً واسعاً بمساعيها السامية .

ولم تصل هذه المساعي الى ثمرة كبيرة في الحقيقة من حيث احتفاظ مسز ويكس أمام ناظرها بصورة شذوذ السير كلود ، تلك الصورة التي كانت تترامى في فترات الصمت وسط الكلام ، والتي جعلها هو شخصياً بعد فترات تأخير ملحوظة تبدو كالحجة باندفاعه داخلاً وقد قاربت الساعة العاشرة وقد رفع يده بشيء ما . وعرفت قبل أن يتكلم ما هو هذا الشيء . فقد كانت تعرف على الأقل من المعنى المستور وراء كل هذا — حيث ان تلك الساعة التي قضتها بعد المهرجان مع أبيها لم تبر لرد مستر فارانج الى مكانه — أنه يتضمن تسجيل انتصار لمسز بيل . فمنظر وجه السير كلود الحالي في حد ذاته كان كافياً الآن وعلى الفور كى تدلى في انطباعها الأخير عن مستر فارانج مسباراً يصل الى أعماق أبعد من أيام الهرب هذه . وكانت قد غلفت ذلك الانطباع في صمت ، وهو صمت تخلى عن نصف

قناعه كى يغطى أيضا منذ ساعة حلول السير كلود صورة زوجة مستر فارانج . ولكن اذا كان الشيء الذى يمك به السير كلود فى يده قد تكشف عن خطاب يحمله عاليا جدا فثمة شىء فى حركه وحدها يكشف مسز بيل مرة أخرى . وصاح عند الباب تقريبا وهو يهز قنيصته أمامهما وينقل بصره من احدهما الى الأخرى :

— ها نحن أولاء !

ثم توجه رأسا الى مسز ويكس ، وكان قد أخرج ورقتين من المظروف فراح ينظر اليهما ليميز بينهما . ثم دفع باحدهما مفتوحة الى مسز ويكس قائلا :

— اقرئى هذا .

فنظرت اليه بامعان كالخائفة . فقد كان من المستحيل ألا يتبين المرء جيشان نفسه . ثم تناولت الخطاب ولكن ميزى لم توجه اهتمامها الى وجهها وهى تطالعه . وما كانت سحنتها هى التى تفرس فيها السير كلود ، بل وقف أمام النار وبمزيد من الهدوء بعد أن قام بما قام به راح يتناقل الأحاسيس فى صمت مع ابنة زوجته .

وسرعان ما هتك حجاب ذلك الصمت ، لأن مسز ويكس نهضت قائمة على قدميها وهى تنفوه بصوت عنيف . وكان الخطاب قد سقط منها واستقر على الأرض ، وتلاوته قد أحالت لونها الى شحوب الموتى وألجم لسانها ما أحدثه فيها من الأثر ثم صاحت :

— هذا شىء شنيع جدا بصورة لا يمكن التعبير عنها .

فسألها السير كلود :

— أليس هذا شيئا بديعا ؟ لقد وصل هذا الخطاب الآن ومعه كلمة

من عندها هي : لقد بعثت به الى مع اشارة مفادها أنه لا محل للتعليق .
وهذا رأيي حقا . فهذا كل ما يمكن أن يقال فيه .

فقلت مز ويكس :

— ما كان ينبغي لها أن تنقل مثل هذه الفظاعات من يد الى يد .
كان ينبغي أن تدسها في النار رأسا .

وكان قد رفع الخطاب عن الأرض وألقى عليه مرة أخرى نظرة رضى
أضاء بها محياه :

— انها أيتها المرأة العزيزة ليست حمقاء الى هذا الحد . هذا خطاب
ثمين جدا . انه وثيقة .

وفكر ثم ختم كلامه بطبقة صوت أقل بعض الشيء :

— مثل هذه الوثيقة تصلح بالاختصار أساسا .

— أساسا لأي شيء ؟

— حسنا .. لاجراءات .

وبات صوت مز ويكس ناطقا بالزراية السافرة :

— من جانبها ؟ وكيف يتسنى لها ذلك ؟

وقلب السير كلود الأمر في ذهنه ثم قال :

— كيف يتسنى لها أن تتخلص منه ؟ حسنا .. لقد تخلصت منه .

— لا بصفة قانونية .

ولم تكن مز ويكس نظرت قط الى تليذتها قبل ذلك كأنها تعرف

ما تتكلم عنه . وضحك السير كلود وقال :

— ربما . ولكنها ليست أقل منى حرمانا من هذه الجهة .

— من حيث قدرتها على الحصول على الطلاق ؟ ان افتقارك الى القدرة

هو الذى يجعل من صلتك بها مثار فضيحة . لذا فافتقارها الى هذه القدرة هو الذى يجعل من صلاتها بك مثار فضيحة . وهذه دعواى برمتها .
وختمت مسز ويكس كلامها بحمحة قتال لا نظير لها . انها تعرف
ولا شك ما تتكلم فيه .

وكانت ميزى فى هذه الأثناء ناشدت السير كلود مناشدة صامتة ،
فقدر أن مواجهته لما لم تقله أيسر عليه من مواجهة ما قالته مسز ويكس .
— انه خطاب الى مسز بيل من والدك يا عزيزتى مرسل من سبا
يجعل الاتعمال بينهما لا محيص عنه اطلاقا . فهو يعرفها — وبلغة غير
جميلة — انه يجرها ، على حد التعبير القضى . فالخطاب يضع حدا الى
الأبد لعلاقتهما .

وجرت عيناه فوق سطور الخطاب مرة أخرى ثم بدا عليه أنه حزم
رأيه واستطرد :

— والخطاب يضحك فى الواقع يا ميزى عن كتب ويشير اليك بصفة
خاصة بحيث أعتقد فى الحقيقة . انه ينبغى أن ترى نص الكلمات التى
أوجدت لك هذا الموقف الجديد .

ومد يده بالخطاب . وعندئذ اهضت مسز ويكس عليه واختطفته منه
بأسرع مما أتيجح لميزى أن تظن الى خوفها منه . ودفعت به على الفور
وراء ظهرها وحملت فى السير كلود بشدة :

— تراه أيها الرجل التمس ؟ الطفلة البريئة « ترى » شيئا كهذا ؟
أحسبك لا بد قد جنت ، ولن تظهر منها بلمحة واحدة ما دمت موجودة
هنا لأحول دون ذلك ؟

واحمر وجه السير كلود تحت تأثير فعلها الجسيم ، بل بدا أنه أبله
بعض الشيء :

— أعتقدين أن هذا شيء رديء جدا ؟ ولكن بالضبط لأنه رديء خيل اليّ أنه سيكون درسا ومصدر نفع لها .

واستطاعت ميزى أن تنصف دوافعه انصافا سريعا . بحيث تسنى لها أن تتدخل بوضوح ، فابتسمت له ابتسامة لطيفة وقالت :

— أؤكد لك أنني أستطيع أن أصلق مبلغ رداهته .

وفكرت في شيء كتمته في نفسها برهة ثم قالت :

— أنا أعرف ما فيه .

فانطلق ضاحكا بالطبع ، في حين زمجرت مسز وينكس قائلة :

— يا للسماء .

وأجاب قائلا :

— ما كنت لتقول هذا يا فتاى العزيز لو أنك كنت تعرف .

واستطرد قائلا لمسز وينكس في ايناسه الذى ثاب اليه :

— ان ما يهمنى ببساطة أنه يعطى لمسز بيل حريتها :

ولم تسكت الا لحظة ثم قالت :

— حريتها في أن تعيش « معك » ؟

— حريتها في ألا تعيش وألا تتظاهر بأنها تعيش مع زوجها .

— هذان شيان مختلفان أشد الاختلاف .

وكانت حماسها لهذه الحقيقة تبدو الآن في نظره غير معقولة تدعو

بها الطفلة الى الاشتراك في الرأى .

وقبل أن تتورط ميزى كان السير كلود قد استأثر بالمجال ، وراح

وهو واقف أمام زائرتها بسحنة تجمع بين الأسى والاقناع يحك بيده

مؤخرة رأسه صموذا وهبوطا في شدة :

— اذن لماذا بحق الشيطان تسلمين هذا التسليم كله — بل اذهب الى القول بانك تتهجين — بان هجر شريكة حياتي الغالية لى يجعلنى حراً .

وقابلت مسز ويكس هذا التحدى فى مبدأ الأمر بالصمت ، ثم بجملته فى منتهى الغرابة وعلى غير المنتظر تماما . وأوشكت ميزى ألا تصدق عينها حين رأت السيدة الطيبة التى لم تقترن لديها بأوهى ظل من فنون الاثارة تظلم السير كلود بالفعل بعد أن حركت ملامح وجهها الى أعلى لظمة عابثة وهى تضحك ضحكة حافلة بالغمز :

— أنت « تعرف » لماذا يا شقى .

ثم أشاحت عنه . وظل الوجه الذى خلفته بعد هذه الحركة يبدو لميزى صورة ناطقة بالذهول . ولكن الوقت أعوز كليهما ليتناقلا تفكهما أو ذعرهما قبل أن تنقض عليهما عاذلتهما مرة أخرى . وكانت قد شرعت فى الواقع تبدى تعددا فى جوانبها لا حد له وقالت بلهجة أسرع فى التغير من انقضاضها نفسه :

— هل أتيتنى بهذا الشيء ليكون ذريعة لرجوعك ؟

فتشجع السير كلود وقال :

— لا أستطيع بعد مثل هذا النبأ إلا أسافر بحكم اللياقة العادية . أعنى بحكم المجاملة العادية والواجب الانسانى المعتاد . انك يا سيدتى العزيزة لا تستطيعين أن تلقى بامرأة على هذا النحو ، ولا سيما فى الوقت الذى أصيبت فيه بأشد الاهانات والاساءات . ولا بد للمرء أن يسلك سلوك السيد المهذب يا عزيزتى الطيبة مسز ويكس . ونحن لم نأت الى هنا نحن الاثنان للبقاء حيث نحن كما تعلمين . وانما كان مرادنا أن نجرب حفظنا ونمضى بضعة أيام تثبت لكل انسان يعنيه الأمر أننا جادان ..

وبالضبط لأننا جادان لم تكن بنا حاجة الى التدقيق الشديد . أعنى كما تعرفين أنه لم تكن بنا حاجة الى الخوف المفرط .

وأظهر اتقادا وشدة في جدله . ولو أحصتُ ميزى كلماته لكانت أكثر استعدادا لالتهام ما كان عليه بعد ذلك أن يتوقف ليتلقى عليه جوابا منها ، وذلك في جرعة واحدة فقد ناشدها بلا مواربة :

— اتنا لم نأت الى هنا يا فتاتى العزيزة لنقيم الى الأبد مكتفين بذلك ؟ ولم تشك ميزى اطلاقا في مقدرتها على أعمال البطولة في سبيله . فقالت كأنما صدمتها الفكرة :

— أوه . لا . اتنا نأخذ الأمور على علاتها .

وكان قد جاءها الهام مفاجيء فلزمته باسمه :

— اتنا كنا تبين فقط ماذا نستطيع أن نصنع .

ولم تكن في حياتها كلها من قبل قد ادعت شيئا لنفسها ، ولكنها تعسنت بصراحة في هذه المرة أن يكون ما تفعله شيئا يحسب لها . وشعرت في الواقع أن السير كلود يحسبه لها وان كانت تخشى أن تنظر اليه حتى لا يرى دموعها . فنظرت الى مسز ويكس وقد وصلت الى قصاراها :

— لا أعتقد أنه ينبغي أن أكون شريرة نحو مسز بيل .

وعندئذ سمعت صوتا عميقا عذبا غير واضح المقاطع يصدر عن السير كلود . بيد أن الدموع كانت الشيء الذى لم تتخرج مسز ويكس عن اظهاره وقالت :

— أعتقدين أنك ينبغي أن تكونى شريرة نحوى « اتنا » ؟

وكان السؤال ذا أثر مبلبل للغاية لأن اتفعال مسز ويكس لم يحرمها من مزية تأثيرها . فأعلنت لرفيقهما :

— أنت هالك ان رأيت هذه المرأة مرة أخرى .

فنظر السير كلود الى كرة المصباح القمرية وبدأ عليه أنه يرى لمدة لحظة ما تعنيه رؤيته لمسز بيل . وكان واضحا أنه من هذا التصور استمد القوة ليجيب :

— ان موقفها قد تغير بأكمله نتيجة لما حدث . ولا جدوى من محاولتك أن تثبتى لى أنه لم تكن بى حاجة الى ادخال ذلك فى حسابى .
فكررت عليه مسز ويكس بمزيد من القوة :
— أفت هالك ان رأيت هذه المرأة .

— أتحيينها لا تتركنى أعود اليكما ؟ يا سيدنى العزيزة أنى أتركك وميزى ها هنا رهينتين ضمانا للتوفيق . وأعدك بكل ما هو مقدس أنتى سأكون معكما مرة أخرى على الأكثر فى يوم السبت . وسأمدكما باعتمادات وأقيمكما فى هذه الحجرات الحسان . وسأرتب مع الناس هنا أن تعاملنا بكل رعاية وتزودا بكل ألوان الترف . وسيتحسن الجو بعد هذا ، فمن المؤكد أنه سيكون بديعا . وعندئذ ستكونان كلتاكما طليقتين كالهواء وسيكون فى وسعكما أن تحوما فى أرجاء المكان وتظفرا بألوان من المرح هائلة . ستكون لكما عربة تستقلانها وستكون الدار كلها تحت تصرفكما . سيكون وضعكما هنا باذخا .

وتوقف عن الكلام وراح ينظر من احدى رفيقته الى الأخرى كأنه يريد أن يرى الأثر الذى أحدثه فيهما . وسواء رأى ذلك الأثر كافيا أم لا ، فهو قد أردف بعد برهة :

— وستكرمان علىّ قبل كل شيء بالألا تحدثنا ضجة .

ولم يكن فى مقدور ميزى أن تجيب الا بخصوص وقع هذا الكلام لديها ، وان كان من صميم صرامة مسز ويكس قد تصاعد اليها عبر خفيف من اذعان على مضمض . وكانت لميزى كلمتها البكماء عن المظهر

الذى يمكن أن يحدثه مثل هذا الكلام ، وعن السحر الذى لا يقاوم
صدوره عن هذا الاخلاص المزيف للبصر . وقبل أن يتنى لها أن تقدم
على أى شىء سوى أن تطرف بعينيها أمام هذا النور الباهر سمعت هذه
الكلمة نفسها ترن على شفتى مسز ويكس كأنما السيدة المسكينة قد
حدثتها وأرادت باقتزاعها منها أن تلتفحها كالزهرة المغضنة :

— أنت فظيع . أنت شنيع . لأنك تعلم تمام العلم أنه ليس بالهين على
أن تخاطبنى بهذه الألفاظ التى تليق بالأمراء .

وما يليق بالأمراء هو ما كان يمثله بوقته هناك ومنظره ولهجته .
وكان هذا ما ألفت ميزى نفسها فى هذه المناسبة منصرفه كل الانصراف الى
تمجيده بسببه . ولكن من الغريب أنه تردد فى داخلها حينما استطرقت
مسز ويكس صدى يوافق الصدى الذى تجاوب اليها أصلا :

— كم يبلغ بك النزوع الى مرآها بحيث تقول مثل هذا المقال وتسمى
على استعداد لصنع كل هذا للسكاكين الصفار أمثال ميزى وأمثالى . ان
لها عليك لسلطان ، وأنت تعرف هذا وتنزع الى تجديد شعورك به —
والله أعلم ، أو « أنا » على الأقل أعلم ما دفعك وما رغبتك — وتنزع
الى الاستمتاع به مرة أخرى والانغماس فيه . وليس ذا بال أن يكون هذا
يوما واحدا أو ثلاثة أيام : فالكفاف يعنى غناء المأدبة الحافلة . والوقت
المستطاب الذى ستحظى به معها شىء أنت على استعداد لأداء ثمنه وإخالك
تريدنى أن أصدق أن تؤديه من الثمن فى مقابل اقناعها بالتخلى عنك .
ولكنى أهيب بك أشد الإهابة ألا تبذل مالك مقدما . تخلى عنها أولا .
ثم أعطها ما تشاء .

وأصغى السير كلود لهذا الكلام الى منتهاه ، مع ما فيه من أمور تغير
لها لونه ودفعت الى محياه بامارات تزيد على ما لمحتة ميزى لديه من قبل

اطلاقاً من بؤادر التأذى . وخامرها احساس عجيب بأن هذه أول مرة ترى فيها أحدا سوى مسز ويكس يبدو عليه الاستنكار الصادق الحقيقى . وقد غذى ذلك لديها الاستنتاج الذى ظل ينمو ويزداد من لحظة الى أخرى بأن مسز ويكس برهنت على مزيد من القوة التى يحسب لها حساب يربى على كل ما خطر فى تقدير كليهما . وانه لصحيح أنه كانت لها منذ زمن طويل سيطرة عليه — كما تسميها — تختلف اختلافا نوعيا عن سيطرة مسز بيل وعن السيطرة التى كانت فى الأصل لفخامة الليدى . بيد أن ميزى استطاعت الآن أن تشعر معه أنه لم يكن يتوقع فى الحقيقة أن تصل هذه المزية الى هدفها بهذه الصورة . ولكنها لم يكونا قد وصلا الى حيث يتوقف جهد مسز ويكس ، لأنها فى الدقيقة التالية كانت تمنع فى التوغل الى هدفها أكثر من ذى قبل . وكان ذلك نتيجة لقوله بشيء من الجفاف وان كان فى رقة جعلت تذرعه بالصبر لعامل المؤثر أكثر من سواه فى ميزى :

— يا صديقتى العزيزة هذا أمر يجب أن أبت فيه بنفسى وقد قمت أنت بالبت فى أمورى كما أعلم فى المدة الأخيرة الى مدى كبير ، وبطريقة أوكد لك أنتى أقدرها أحسن التقدير وأتمه . ولكن ليس فى وسعك أن تبتى فى سائر أمورى على الدوام . فما من السان يستطيع أن يصنع هذا الصنيع بانسان آخر فى جميع الأحوال . فهناك ظروف استثنائية وحالات خاصة تتميز بدقتها المفرطة . وكانت حقيقة أن تكون الأمور مسرفة فى اليسر ان أنا استطعت القاءها كلها على كاهلك . لأن معنى ذلك أن أسمح لك بتجشم قدر من المسئولية يخجلنى شخصيا أن تحمليه عنى . وأنا واثق أنك ستجدين من المسئولية كفاء ما تصين اليه ان أنت تكرمتم بقبول الوضع الذى تهيئه لك الظروف وبقيت هنا مع صديقتنا الى أن

ألحق بكما على أساس من الراحة المكفولة والتنعم — وأحسبني يحق لى أن أضيف لكليكما ، وعلى أساس من الثقة « بى » — قدر الامكان .
كان كالأمراء حقا . وقد تبدى ذلك بصورة أجلى مع كل كلمة قالها وبالطريقة المعينة التى يقولها بها . فشعرت ميزى بناصحته تتطلب من شدة القلق بسبب ازدياد سحره ، ثم ألقت بنفسها على سبيل الدفاع أليأس ضد هذا السحر فيما نم على فهاهة العنف ، مرددة :
— افت خائف منها . خائف . خائف . خائف . ويحى . ويحى .
ويحى !

وكانت مسز ويكس تقول بهذه الكلمات فى رعشة واضحة ، ثم انهارت فى ارتجاف ينبى عن تفاد الحيلة واشتداد البلية . وفى الدقيقة التالية ألقت بنفسها مرة أخرى على الأريكة الضيقة واتفجرت نوبة بكاء .

ووقف السير كلود ينظر إليها برهة وهز رأسه ببطء وقال بحنان :
— سبق لى أن اعترفت بأتنى أخافها خوفا مميئا . فلندع هذا يضع حدا للسألة . وأعتقد أن من الأفضل لكما أن تأويا الى الفراش فقد قضيتما يوما مرهقا ولابد أن كليكما متعبة حتى الموت ولست أنتظر منكما أن تعنيا نفسيكما فى الصباح بتحركاتى .. وهناك سفينة تقوم فى ساعة مبكرة وساكون قد رحلت قبل أن تنهضا . وساكون فضلا عن هذا قد تفاهمت مباشرة وبصورة حاسمة للغاية — أوكد لكما — مع الآنة آش غير ميئوس منها تماما وان كانت متعالية .

والنفت الى ابنة زوجته كأنما يريد أن يودعها على الفور ، ويؤكد لهما بهذه الايماءة مبلغ اتحادهما — رغم كل توتر واحتكاك — اتحادا لا حاجة بها معه على الأقل للقلق . ففتح ذراعيه لها هاتفا :

— أيها الفتى ميسى .

وبخفتها المجترحة طارت اليهما ، وفيما كان يقبلها تخيرت خطة الصمت الناعمة لارضائه ، ذلك الصمت الذى يعتبر بعد المارك الكلامية خير بلسم تضعه على جراحه . وطال عناقهما مدة كافية لتأكيد عهودهما . وبعدها أرغمتها مسز ويكس بما يشبه العنف على التبعاد اذ قفزت واقفة على قدميها .

وكالت وثبتها — اما بعودة سريعة لشجاعتها أو لانهار نهائى لها --
فحو ضراعة توشك أن تكون ذليلة :

— انى أناشدك الا تقدم على مثل هذه الخطوة التعمية القاضية .
أنا أعرفها حق المعرفة ، أقول ذلك ولو هزأت بى بسبب هذا القول .
أعرفها حق المعرفة على قلة رؤيتى لها . وأعرف ماذا ستصنعه . بل انى أرى ذلك وأنا واثقة هنا . ما دمت خائفا منها فهذا باب رحمة السماء .
فلا تخف من اظهار ذلك — أستحلفك بالله — وأن تستفيد منه وأن تصل الى بر الأمان الذى يتجه لك . « أنا » لست خائفة منها أوكد لك . ولا بد أنك قد تبينت بنفسك أننى لا أخاف الآن شيئا . دعنى أذهب اليها .
و « سأقوم » بتسوية موضوعها وسأخذ تلك المرأة فأعيدها من غير أن تمس شعرة من رأسها دعنى أفضى اليومين أو الثلاثة فأصنى العلاقة .
ولمكت أنت هنا مع ميسى واستمتع بالعربة واللهو بالبذخ ، ثم أعود اليكما وننطلق معا فنعيش ثلاثتنا من غير أن تكدر صفاء سائنا سحابة .
خذنى . خذنى .

ومضت تسترسل فى كلامها وقد ارتفع مدى فصاحتها :

— هاأنذا . أنا أعرف أى شيء أنا . وأى شيء لست . ولكنى أقول بجسارة وفى مواجهتكما كليكما أنى ساكون أنفع لك بكثير جدا من كل

ما تستطيع هي أن تحاوله لك . انى أقول هذا فى وجهك يا سير كلود مع ألى مدينة لك حتى بالثوب الذى يستر جدى وبالنعل الذى فى قدمى . أنا مدينة لك بكل شىء وهذا بالضبط هو السبب . وكيف يسعنى أن أؤديه اليك بسخاء إلا بانجاز هذا الذى أصبو اليه ؟ هاأذا . هاأذا .

وبسطت قامتها حتى صارت معرضا مشهودا بحرارتها وزيتها مما زكاها للقيام بألوان من الطقوس وعبارات غريبة ، ولتبديلات واناوبات مضحكة وكانت تمسك ثوبها بيدها وهى تتكلم وتلح فى ذكر مفردات دينها :

— ليس لى شىء أملكه . أعرف هذا : لا مال ولا ثياب ولا مظهر ولا شىء . لا شىء الا امتلاكى لخاصية هذه الحقيقة الصغيرة الواحدة ، وهى كل ما أستطيع فى هذه الدنيا أن أرشوك به : ان كليكما أعز عى من كل ما عداكما . وانك ان سمحت لى أن أعينك وأهذك وأجعل ما تريدانه كلاكما على الوجه الوحيد المحكم ، فسأفنى نفسى فى خدمتك حتى عظامى .

وتناوح السير كلود من غير أن يرد على هذا النداء الرائع ، وكان هذا واضحا أنه يفتش عن رد ؛ وأن اضطرابه وألمه لم يكونا يسيرين . بيد أنه وجه همه فى هذا التنقيب الى مواضع غامضة ، الى أن التقى مرة أخرى — كما كان يحدث له كثيرا وبحرارة — بنظرة ربيته الصغيرة الذكية التى تفيض بما يجاوز مشاعر البنوة . فأتاحت هذه النظرة اليه — وهو ذلك الذكر المسكين السريع الشكل المتواكل — المخرج المنشود . فلئن لم تزل طفلة فهى مع هذا تنتمى الى الجنس الذى يستطيع أن يخرج من مأزقه . ورمى الى هذا بتجديد دعوته لها الى العناق فوثبت اليه من جديد

ومرة أخرى راحا يتحدان بصوت غير مسموع . وأخيرا فاه بهذه الكلمات
الواضحة :

— كوني لطيفة معها . كوني لطيفة معها أكثر مما كنت لطيفة معي .
ثم تسلل من الحجرة من غير أن يلقى نظرة أخرى على مسز ويكس ، تاركا
میزی تحت التأثير المرهق بمض الشيء لهذه الكلمات ولادراكها أنه راغ
مرة أخرى روغانا لا محل للشك فيه .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل الخامس والعشرون

كل ما تنبأ به تحقق فلم يكن يجاوز العدل أن تتوقعا مثل ذلك لما أدلى به من الوعود . وكان في وسعهما أن تتحققا من وفائه بتعهداته وفاء حرفيا بما في ذلك ضمانه لايجاد وسيلة للتفاهم مع الآنسة آش . وكانت ميري قد تنبته في الفجر الصائف وقد اعتصرها هذا النفي الطريف اعتصارا شديدا فاستلقت على مضجعتها وراحت تزن من جديد سياسته فاذا بتذكار لهذه السياسة عندما هضت فيما بمد لترتدى ثيابها يتلألا أمامها فوق البساط على شكل ستة بنسات فاضت عن زهو سوزان بما تملكته . وكانت قطع البنسات الستة في الأربع والعشرين ساعة التالية تغم حياتها على ما يبدو فراحت تحصى عددها في خيالها فتمثلا في أنواع الملامى التى تستغرقها هذه الفترة . ولم ينقص من عددها — كما لاحظت على الفور — أى مشروع للثأر من هروب السير كلود ، ذلك الثأر الذى كان المفروض أن يتخذ من جانب المسز ويكس صورة الرفض البات لكل استفادة من التسهيلات التى أمر لهما بها بكل شجاعة . وكان تجنب هذه التسهيلات مستحيلا فى الواقع اذ كان من السخف على حد تعبير السيدة الطيبة نفسها أن يسير المرء على قدميه ولديه عربة مطهمة تظفر أمام الباب . وكان كل شىء حولهما يطفو : حتى السقاة وهم يقدمون صحاف الطعام التى جعلت مسز ويكس — صادرة عن احساس متشابه بسخافة الشذوذ — تترف منها بانطلاق حدث ميري عن خوائها مثلما حدثها عن منطقتها . فشهيتها كانت آية لرفيقتها على أمور كثيرة وشاهدا بصفة عامة لا تنصب شهادته

على أحوالها العامة أقل من انصابتها على أحوالها الخاصة . فأمامها متأخرات من وجبات العشاء عليها أن تعوضها . وكان شيئا مؤثرا أن اتفعلها الخلقى فى حالة عدم العشاء استطاع أن يتوهج بجلاء . كانت تصيب من العشاء عن سعة لتلوذ من المهم بالطعام . ومع ذلك كانت فرصة هذه الاصابة من الطعام آية فى حد ذاتها على الأعراض الوييلة التى تسبب لها الاكتئاب . فكانت المسألة بايجاز عبارة عن معركة اتصر فيها العنصر الأدنى . معركة بين رفضها أن تشتري وبين رضاها أن تكسى وثقات . وليس مما يناقض ذلك على كل حال أنها وجدت راحة فى هذه التحسينات القرلسية ، وبلغ من أمر هذه الراحة أنها تركت لميزى الحرية فى أن تأخذ كل الأمانى مأخذ التسليم وأن تنحى كل المخاطر جانباً . وكانت هذه هى طريقتهما فى تنفيذ ايعاز السير كلود لها بأن تكون « لطيفة » تنفيذاً منفصلاً . وكانت هذه هى الطريقة أيضاً للنظر معها بعين فاحصة الى أطايب الحياة فى الخارج نظرة تعلقو فوق مستوى كل شك .

وتقلصت جميع الشكوك أخيراً عندما صفا الجو ، فكان لصفائه أثر بالغ عليهما وقد غدا مستطاباً كما وعدهما السير كلود . ويبدو أن هذا أظهره فى صورة المطلع على خفايا الأشياء . وتربص سرور الدنيا بأسره لكل خطوة من خطوات صديقه حتى ان روح الأمل ملأت الجو شيئاً فشيئاً وهيمنت آخر الأمر على المشهد كله . فركوب العربة على الشاطيء الصخرى الطويل رائع ؛ بيد أن السير كلود المتمهل فى الظل ربما كان أفضل — لأن الشمس قوية — على طول المرفأ المتعدد الألوان المتعدد الروائح ، وفى الشوارع التى بدأ كل شىء مألوف فيها للعيون الانجليزية وكأنه لغز غامض ؛ وبدأ كل شىء مختلف فيها ، وكأنه نكتة . وكان أفضل من كل هذا أن تواملا الديب فى الشارع الكبير الطويل الى بوابة المدينة

العليا ، وأن تصعدا بعد المرور تحتها الى التحصينات الأنيقة المترجة بما فيها من صفوف الأشجار والأركان الهادئة والأغصان الودود حيث تجلس لسوة عجائز سراوات في قلانس بيضاء ذات أهداب متحليات بأقراط الصفراء التي تبدو كبيوت البخلاء أو القساوسة ، وبقلعتها القائمة حيث يتسكع جنود صفار الأجسام فوق قنطرتها التي تمتد عبر خندق خاو من الذهب مسرفة الطول يفزلن ويهومن ؛ وبيوتها الصغيرة ذات الواجهات والملابس العسكرية المغسولة مدلاة من نوافذ الأبراج . وكان هذا الجانب من المكان يقود ميزى الى الاستفسار : ألا يطابق تمام المطابقة فكرة المرء عن العصور الوسطى . وحيث انه كان يرضيها أكثر مما يصلحها أن تلاحظ — وليس ذلك للمرة الأولى — حدود عقل مسز ويكس فيما يختص بالتصور التاريخي ، فقد أضاف ذلك لونا جديدا الى شتى ألوان البصيرة التي استشعرتها في مهنتها الراهنة — وهي مهمة الارشاد الى المعالم فكائنا تجلسان معا فوق شرفة الحصن العتيقة الغبراء وتنظران من تحتها الى المدينة الصغيرة الجديدة التي بليت لهما عتيقة أيضا كالتحصينات نفسها ، وتنظران عبر المدينة الى القبة الكبيرة وتمثال العذراء المذهب الشاهق اللذين يعلوان الكنيسة . تلك الكنيسة التي أدركنا أنها مشهورة وسرهما عدم مشابهتها لآى مكان أدتا فيه فروض العبادة . وطاقنا أرجاء ذلك المعبد بعد ذلك واعترفت مسز ويكس فيما يختص بها أنها ربما اقرت خطأ قاضيا في باكورة حياتها حين أبت أن تعتق بالكاثوليكية . وتتج عن اعترافها تساؤل ميزى باهتمام عن درجة التأخر الزمني التي تغلق الباب أمام النجاة من مثل هذا الخطأ . وعادتا الى التحصينات في صباح اليوم التالي ، وهي البقعة التي يبدو أنهما وصلتا عندها الى أبعد مدى في الرحلة التي تفصلهما عن كل ما هو مستهجن من

الماضى . فقد أمدتهما من جديد بالاحساس الذى كان له أكبر شأن فى اقامة ثقة كانت من جانب ميسى جازمة ، وتبينت أن هذه الثقة كانت من جانب رفيقتها متسمة باليأس فهى تحس أنها منذ ساعات كثيرة ترشد مسز ويكس الى كثير من المعالم حتى انها أبطأت نسيها فى التنبه الى أنها كانت فى الوقت نفسه موضوعا لغاية مماثلة ومع هذا مضت المسألة فى طريقها بسرعة أشد منذ اللحظة التى فطنت فيها الى ذلك . ثم أخذت المسألة موضعها فى اطار نظرتها العامة المعتادة الى الظاهرة الفردية بحيث لو أنها شعرت بالحاجة الى ألفاظ تعبر عنها لا ستنجبت بعلاقتها الشخصية لاسعاف معرفتها . ولم تكن هذه العلاقة قط بمثل هذه الحيوية كما كانت وقت انتظارها مع مريبتها المعجوز لظهور السير كلود ثانية . وما جعلها كذلك هو بالضبط مسز ويكس بدت لها منظوية على ارتياب جديد فى ذلك . ولم تكن مسز ويكس بالتأكيد انطوت قط قبل الآن على ارتياب من شأنه أن يوقف تلميذتها على الرغم من الرابطة الحميمة فى ساعات المعامرة هذه موقف الدفاع العميق . فكانت تلميذتها قد اكتشفت فى الواقع مدهشات تضارع فى كثرتها ما اكتشفته عند الاندفاع الى فولكستون . ولئن كانت مسز ويكس هى المضمون الثابت الخفى فى تلك المناسبة وهى فى صحبة السير كلود ، فالسير كلود فى هذه الساعات — وعلى الأخص فى فترات الصمت الطويل كلها — كان مدار التفكير الدائم الذى لا معدى عنه وان كان كل شىء يرتد بهما الى أولى أيام زواجه الباهرة والى المكان الذى احتله فى حجرة الدراسة فى تلك الأزمة بين الحب والألم ، فهو دون غيره الذى تفخ الاحساس الذى كان يملأ فراغه حتى جعل منه بالونا هائلا .

استعرضنا هذا كله مرة أخرى ، وفى أثناء الفترة التى جرها عبء

سحر هذه الأشياء ، مضتا على الرغم من العوائق والشكوك مجتازتين كل شيء . وكانت قبضتهما المتشددة على المستقبل تنبض كالساعة التي تدق الثواني . بيد أن هذه الآلة الزمنية كانت في الوقت نفسه على أحسن الفروض تؤدي لا محالة بساعة نحس في بعض الأحيان . وكان ثمة العديد منها ، واثنتان أو ثلاثة من أسوئها فوق سور المدينة القديم حيث كان كل شيء آخر يؤدي الى الأمن . ولم تكن ميزى تريد شيئا في الدنيا أكثر من أن تكون لطيفة نحو مسز ويكس — لرغبة السير كلود ولكن بالضبط لأن ذلك يوافق غريزتها الراسخة في حفظ الأمن والسلام فقد ألهب ذلك غريزتها تلك . ومنذ اللحظة التي ألهمت فيها غريزتها وجلت عملا آخر . وهكذا أحدثت من البداية التعقيد الذي سمعت الى تفاديه بالذات . وما فعلته بصفة أساسية في تلك الأيام هو أن تقرأ مالم يقل بين طوايا ما قيل ، بحيث انها تبينت مع تراكم هذه القراءات أن مالم يقل هو ولا مرء تمام تضحية مسز بيل . وقد غبرت أوقات كانت كل دقيقة يقضيها السير كلود بعيدا بمثابة مسار في تابوت مسز بيل . وقد أعاد ذلك الى ذهن ميزى بطريق ملتوية جمال وعراقة صلتها بزهرة آل أوفر مور كما أعاد الى ذهنها لطف تلك السيدة وسحرها وجمالها الفريد وبراعتها بل ومحنها الفذة . وجعلت مئات الأشياء تطن في مؤخرة دماغها ، الا أن اثنين منها كانت من البساطة بمكان . فمسز بيل كانت بعد كل شيء زوجة أيها وقرببتها . وهي أيضا — والى حد ما لهذا السبب نفسه — أكبر صديقة حميمة للسير كلود (« سيدة حميمة » على حسب تعبير ميزى) حتى ما أجمعتا عليه من نصيحة مسز ويكس بالتخلي عنها وقطع كل صلة بها قطعا حاسما ينصب في أحد الاعتبارين على صاحبة الخطوة الخاصة لديه وفي الاعتبار الآخر على زوجة أيها . وقد واكب ادراكها للأسباب

مواكبة عجيبة لا توصف احساسها بالمصاعب ولكن شيئا في نفسها عجز
— من غير جهد بالغ في ألا يكون زريا — عن أخذ الأسباب مأخذ التسليم .
وربما نم هذا بالنسبة لنا على أنها — وان كانت محرومة من ميراثها الطبيعي
معرفة كما شهدناها — لم تزل تعتل في حياتها اصداء التأثير الأبوي ، فهي
تذكر بعد درسا من الدروس المقدسة التي وعتها في البيت بل انه الدرس
الوحيد الذي احتفظت به ، ولقد احتفظت به لحسن الحظ بشدة فلم يبرح
أمام ناظرها تذكرا لا يمحي مؤداه أن أباه كان يدعو أمها وأن أمها كانت
تدعو أباه بنعوت الدناءة والوضاعة بسبب الاقدام على أشياء معينة
أو عدم الاقدام عليها . وقد أمدتها ذاكرتها الخصبة الآن بنعت كانت تفرق
من استدعائه الى شفتى مسز بيل : اذ ينبغى عليها شخصا أن تجفل من
مجرد سماعه وقد أضافت عذوبة الحياة الأجنبية التي انغمست فيها مع كل
ساعة من ساعات غياب السير كلود مزيدا من احتمالات مثل هذه
القصص . وراحت تزقب الى جوار مسز ويكس تمثال العذراء الذهبى
الهائل وامرأة من المعجزة المقرطات كانت جالسة على طرف مقعدها ثم
نهضت وانصرفت على مهل . وقالت العجوز في صوت مهذب متصدع
شيئا ما بالفرنسية :

— وداعا أيتها السيدتان .

فبلغ من تأثر صديقتنا من هذه المبادأة أنهما وثبتا قائمتين وأوشكتا
أن تنحيا لها ؛ ثم لم تلبثا طويلا حتى هدأتا مرة أخرى وسط طنين حشرات
الصيف الفرنسية واستولى عليهما ما يشبه الشرود المهوم حتى ان ميمى
ترأى لها ما يعنيه أن يحول المرء بين هذا المنظر الجذاب وبين انسان مشارك
فيه . ولم يكن قد بدا لها من قبل ما أدركته في تلك اللحظة من ترمى

منظر التماثيل اللامعة في زرقة السماء ورحابة الجملات المهذبة بأسلوب
الرومانى وأخيرا سألت :

— لماذا بعد كل شيء نختار بينكما ؟ لماذا لا نكون أربعة ؟
فأبليت ويكس اهتزازة النائم أوقف فجأة أو اجفاله من سمع رصاصة
تتر متجهة الى علم الهدنة . وقد عاق ذهولها لخرق السلام على هذه
الصورة جوابها برهة :

— أربعة لا خلاق لهم . أهذا ما تعنين ؟ فائتان منا بالصدفة من أهل
الاحتشام . فهل أفهم من هذا أنك تريدني منى أن أبقى معك حتى
ولو كانت هذه المرأة تجترىء على .. ؟
وأسرعت میزی بالرد عليها قبل أن تنصوه بما ترى مسز بيل قمينة
بالاجترء عليه ؛ فقالت الطفلة :

— نعم تبقين « معى » مرافقة لى . تبقين كما كنت فى بيت ماما .
و « مسمح » تك بهذا مسز بيل .
فوثبت مسز ويكس عندئذ الى أسلحتها الهجومية :

— وأحب أن أعرف من الذى يسمح لمسز بيل ؟ أتعنين أيتها المنكودة
الصغيرة أنك « أنت » التى تسجين لها ؟
— ولم لا وهى الآن حرة ؟

— حرة ؟ أهليدينه ؟ لئن كان السير كلود قد بلغ من العمر ما يوجب
عليه تفكيرا أفضل من هذا ؛ فانى أرى من الصولب لعمرى أن أعاملك
كما لو كنت قد بلغت تلك المرحلة من العمر أيضا . ان عليك أن تفكرى
خيرا من هذا التفكير على كل حال ان كان هذا هو الاتجاه الذى تريدني
السير فيه .

ولم يسبق لمسز ويكس أن أبدت مثل هذه الخشونة قط ، ولكن میزی

استطاعت من جهة أخرى أن تحلس أنها شخصيا لم تبد قط من قبل مثل هذا النزق . وكان المعنى الكامن يخفيها أكثر مما يفضيها . فشعرت أن في استطاعتها أن تقوم بمزيد من الالاحاح لا على سبيل المعارضة بل في سبيل الحظوة بالهدوء الأقصى . ولكن نزقها ظل يفعل فعله في صديقتها التي وجدت في ترديد تلك الكلمة ما استفزها أعرق استفزاز :

— حرة ؟ حرة ؟ حرة ؟ ان كانت حريتها مثل حريتك « أنت » يا عزيزتي فهي حرة بما فيه الكفاية قطما .

وبعد تفكير وعلى الرغم من فذر الشر التي قد تثار جازفت ميزى بهذا الصدى الموحى بالنقد .

— مثل حريتي أنا ؟

فقالت مسز ويكس :

— حسنا . ما من انسان كما تعلمين حر في ارتكاب جريمته .
— جريمة .

وكانت الكلمة قد صدرت بأسلوب جعل الطفلة تميز لفظها .

— وانك لترتكبين جريمة لا تقل جسامه عن جريمتها — وكذلك ارتكبتها أنا — ان نحن تجاوزنا عن انتهاكهما لحرمة الأخلاق بودنا معها . وترثت ميزى قليلا فقد بدا هذا الكلام مفعم الاقتناع . ومع ذلك سألتها بعد قليل :

— ولماذا هو انتهاه لحرمة الأخلاق ؟

واستدارت اليها وفيقتها بتأنيب أرق لأنه على نحو ما ، أعرق :

— أنت لا سبيل للتفاهم معك . أتعرفين عن أى شيء تتحدث ؟

وشعرت ميزى أنها يجب أن تكون واضحة قبل كل شيء حرصا على

الهدوء الأقصى فقالت :

— يقينا . نحن نتكلم عن اغتنامهما احريتهما .
— حسنا . ليصنعا ماذا ؟
— طبعا ليعيشا معنا .
وعندئذ ضحكت مسز ويكس ضحكة جامحة :
— « معنا » ؟ أشكرك .
— اذن فليعيشا معي « أنا » .
فجملت هذه الكلمات صديقتها تقفز هاتفة .
— أتخلين عني ؟ أتقطعين صلتك بي الى الأبد ؟ أتلقين بي الى عرض

الطريق ؟

ومع أن ميزى لهت قليلا الا أنها ثبتت لوابل الهجمات :
— هذا هو ما يخيل الى أنك تصنعيه « بي » .
واستهات مسز ويكس ببالتها :
— انى أعدك — أيا كان ما أصنعه — انى لن أدعك تفيين عن نظرى . انك تسألينى لماذا يكون ذلك انتهاكا لحرمة الأخلاق وأنت قد رأيت بعينى رأسك أن السير كلود شعر بأن الأمر كذلك الى الحد الفظيخ الذى جعله يؤثر أن يبتعد عنك شهورا طويلة ابتعادا تاما كى لا يجشمك مواجهة ما فى هذا الأمر من خزى ؟ وهل أعر من هذا أن تريه وقد حاول لأول مرة أن يقوم بواجبه بنفض يديه « منها » ،
ويأخذك بعيدا عنها رأسا ؟

وقلبت ميزى هذا الكلام فى رأسها ، رغبة فى وزن الأمور لا عن باعث للاهياذ السهل :

— فهمت ما تعنين . ولكنهما فى ذلك الحين لم يكونا حاصلين على حريتهما .

وشعر بأن مسز ويكس تحفزت للنهوض مرة أخرى عند سماع هذا اللفظ الجارح لها ولكنها أفلحت في لمسها بيد عاتبة .

— ولا أحسبك تعرفين الى أى حد صار مالكين لحرتهما .

— بل أعرف ذلك فيما أعتقد قدر ما تعرفينه أنت على الأقل .

وشعرت ميزى بحرج بيد ألها تغلبت عليه :

— فيما يتعلق بالكوتيسة ؟

فرمقتها مسز ويكس بنظرة جانبية حولاء أشبه بالنظر الشزر :

— المرأة التى .. أغوت أباك ؟ تمام المعرفة . انها تنفق عليه .

— أهى « تفعل » ذلك ؟ .

وتجهم وجه الطفلة . فقد بدأ أن ذلك هو تعليل مسلك بابا

وأنه يلقى على هذا الملك ضوءا يشفع له . ونزعت الى أن تكون

منصفة فقالت :

— أنا لا أقول انها ليست سخية . فقد كانت سخية ممي .

— ممك ؟ كيف ؟

— لقد أعطتني قدرا كبيرا من المال .

وحملت مسز ويكس وهى تقول :

— وماذا صنعت من فضلك بقدر كبير من المال ؟

— أعطيته لمسز بيل .

— وماذا صنعت به مسز بيل .

— رده اليها .

فقالت مسز ويكس :

— الى الكوتيسة هراء ؟

فهي اذن تنظر الى هذه الذريعة كنظرة سوزان آش القاسية وردت
عليها ميزى قائلة :

- لست أبالي . ان ما أعنيه أنك لا تعرفين شيئا عن بقية المسألة .
- البقية ؟ أى بقية ؟
- وتساءلت ميزى كيف تصور الأمر على أحسن وجه :
- استبقاني أبى هناك ساعة .
- أعرف هذا . فالسير كلود أخبرنى به . وكانت مسز بيل قد
أخبرته .

- فأبدت ميزى عدم التصديق :
- كيف تسنى لها ذلك وأنا لم أحدثها به .
- وبدا على مسز ويكس عدم الفهم :
- تحدثينيها بماذا ؟
- طبعا عن كونها مخيفة للغاية .
- فردت عليها مسز ويكس :
- الكوتتسة ؟ انها طبعا مخيفة ؟
- وبعد برهة أردفت :
- ولهذا السبب فهي تنفق عليه .
- وفكرت ميزى ثم قالت :
- هذا خير ما فيها اذن . ان كانت تعطيه على نحو ما أعطتني « أنا » .
- فقالت مسز ويكس :
- ولكن ذلك ليس خيرا ما فيه « هو » . أو لعله خيرا ما فيه أيضا .
- واستطردت ميزى :
- ولكنها مروعة . حقا وصدقا .

واستوقفتها مسز ويكس قائلة :

— لا حاجة بك في اللخول في التفاصيل .

وكان على خلاف هذا التحذير سؤالها ايها :

— وكيف يمكن لهذا أن يجعل الموقف أفضل ؟

فقالتم ميري بتمعق :

— أن يميشا معي ؟ ذلك طبعا بسبب الكوتسة وبسبب شاربها .

لقد نحاني وألقى بي على كاهلها . لقد فهمت منه هذا .

فقالتم مسز ويكس :

— آمل اذن أن يكون قد فهمك . فذلك يجاوز ما أستطيعه .

وكان هذا تحديا حقيقيا لها أن تكون أكثر وضوحا ، وعلى الفور

صارت صديقتنا الصغيرة واضحة :

— أعنى أن ذلك ليس جريمة .

— اذن لماذا سرقتك السير كلود ؟

فقررت ميري بجرأة :

— انه لم يسرقني . وانما هو استعارني فحسب . وكنت أعرف ان

ذلك لن يكون لأمد طويل .

فصاحت مسز ويكس :

— يجب أن تسمحى لى بالرد على هذا بأنك لم تكونى عارفة بشيء

من هذا القبيل . وانك تخليت بخسة عن تأييدى في الليلة الماضية في حين

أنك تظاهرت بكل شدة أنك تؤيدىنى . وكنت تأملين في الواقع كما كنت

آمل أنا بالضبط بل وكما آمل الآن تحت تأثير عاطفتى الحمقاء . ان ذلك

قد يكون بداية وضع أفضل للأمور .

أجل كانت مسز ويكس في الحقيقة حادة اللهجة لأول مرة ؛ بحيث

ثار أخيرا في بطلتنا احساس بأنها تتهمها على وجه التحديد بالخساسة — أكثر مما ثبت عليها المراوغة — خساسة هدمت كل شيء على رأسها عن طريق رغبتها في النأي بنفسها عن الموضوع . وأحست فجأة بالاحتجاج يملأ جوانحها :

— انى لم آمل اطلاقا . « اطلاقا » . أن أرى مرة أخرى مسز بيل .
لم آمل ذلك . لم آمله . لم آمله !

وظفرت مسز ويكس ملتفتة اليها برد شعرت هي أيضا أنها يجب أن تسبق الصدمة التي سيحدثها ، ومع أن السيدة الطيبة كانت معبأة حتى الحافة الا أنها توقفت عن الكلام مدة كافية لتسمح بعبارة تزيد الطين بلة :

— انها جميلة وأنا أحبها . أنا أحبها فهي جميلة .

وثبتت فيها مسز ويكس نظراتها برهة وقالت :

— وأنا قبيحة الشكل وأنت تكرهينى . « أنا » ؟

ثم بعد برهة من التحديق تداركت نفسها :

— لن أوجعك كل الايجاع بأن أتهمك بذلك . وأما أنى قبيحة الشكل فهذه ليست أول مرة يقال لى فيها هذا . انى أعرف تمام المعرفة اتى وان لم يكن لى شارب فالكوتسة فيما أحسب من وجوه كثيرة بمثابة فينوس بالقياس الى . ان كبريائى لا بد أن تبدو لك غير معقولة وهذا معادل لقولك انك لا تحيينى ولكن هل تنوين أن تذهبي الى حد التصريح لى أنك « تريدن » أن تعيشي معهما فى خطيتهما ؟

فقالت ميزى وهي ترتجف بعبراتها الطافية :

— أنت تعرفين ما أريد . أنت تعرفين ما أريد .

فاستطردت مسز ويكس :

— نعم أعرفه . أنت تريدني منى أن أكون في مثل رداءتك . حسنا .
لن أكون كذلك . هاك أن مسز بيل في مثل رداءة أيبك .
فاوشكت تلميذتها أن تصرخ وهي ترد عليها :
— هذا غير صحيح . هذا غير صحيح .
فقلت مسز ويكس وهي تنهض الآن واقفة كاشفة عن تهكم كامن :
— أتعنين لأن السير كلود لديه على الأقل الجمال والفكاهة والظرف ؟
ولكنه يدفع كما تدفع الكوتسة تماما .
فدفع هذا القول بميزى قائمة على قلميها . وكانت رفيقتها قد مشت
مبتعدة بضع خطوات ثم توقفت . ونظرت كل منهما الى الأخرى كما
لم تنظرا من قبل . وبلدت مسز ويكس مزهوة في وقتها هناك كالطاووس
في زيتتها وزخرفها . فسألته ربيبتها المنكودة :
— أليس يدفع لك « أنت » أيضا اذن ؟
وعندئذ وثبت في موضعها وصاحت بأعواله عنيفة :
— أيتها الشريرة المنيرة الرعاء .
وبعدما انطلقت منصرفة على الفور في اتفاضة أخرى .
وتهاوت ميزى فوق المقعد واتفجرت باكية .

الفصل السادس والعشرون (١)

ما من شيء بهذه الفظاعة بطبيعة الحال يمكن أن يدوم نهائيا بل ولا يمكن أن يستمر دقائق طويلة : فقد اندفعت كل منهما مرة أخرى نحو صاحبتهما بأسرع مما أتاح لأى منهما أن تشعرها أن الأخرى ظلت على موقفها . ومع أنهما عادتا الى البيت في صمت الا أن ميزى أحست احساسا متوقدا بأن يد رفيقتها كانت مطبقة عليها . وكانت هذه اليد قد أظهرت في هذه الساعات الأربع والعشرين كهامة جديدة في الاطباق . واحدى الحقائق التي كانت قدرة الطفلة على مقاومتها أقل ما يمكن هي أن لونا معينة من العظمة قد هبط الآن على مسز ويكس ، فالواقع أن سمو دوافعها أربى على حدة زواياها ؛ وقد استطاعت ميزى عندما استخدمت العربية بعد الظهر أن تفتنم الصمت المتأمل الذى أدخلت اليه عظمة اجتماع هاتين الخاصتين وغرابتهما كي تستشعرهما الى أقصى حد في حرية . وكانت لم تزل تحصل أثر اللهجة التي توعدتها بها صاحبتهما ألا تدعها تغيب عن نظرها . فهذه الصديقة اذن قد انقلبت بالاختصار من الضعف الى القوة فكان ضوء سلطتها الجديدة هو الذى أظهر من أى مدى بعيد جاءت . وكان التهديد المذكور من الممكن أن يحدث باعتزازه الصارم نوعا من التحدى ، ولكن قبل أن يحدث شيء بهذه البشاعة قطع الطريق عليه حدث

(١) بعض عبارات النص الانجليزي في هذا الفصل اشد غموضا من المؤلف حتى عند هذا المؤلف ذى الأسلوب الوعر ، قد نقلناها على حالها اشارة للأمانة .
المرجم

آخر ختلا . وكانت اللحظة التي بدأ فيها ذلك الحدث ينضج هي لحظة اشجار مسز ويكس بوقار يتناسب مع حجراتهما الخاصة ومع مزية اكتسبتها الآن بصورة لها اعتبارها . وكاتتا قد أمرتا بالقهوة بعد الغداء وفق الترتيب الذي وضعه السير كلود . فقدمت اليهما وهما جالستان في انتظار تجهيز عربتهما في الصالون ذي اللونين الأبيض والذهبي . وكانت القهوة مردفة بكأسين من الليكير (١) . وشعرت ميزى أن السير كلود ما كان ليربى على هذا في الوفاء بوعده لو أن القهوة أعقبتها النواذر والسجائر . لقد كان تأثير هذه الكماليات موجود في الجو على كل حال . وخيل اليها وهي تمشى على أطراف أصابعها نحو مرآة المدفأة مشغولة بارتداء قفازها وبحركة من رأسها أعادت ريشة الى موضعها ، أن لذلك صلة ما بقول مسز ويكس فجأة :

— أليس لديك حقا وصدقا « أيما » حاسة أخلاقية ؟

وفطنت ميزى الى أن جوابها — وان كان قد أقامها على عقبيها — كان غامضا الى حد البلاهة ، وأن هذه أول مرة تمارس ازاء مسز ويكس عدم الاستعداد الذهني للتلاقى معها ، وهو تلك النقيصة التي دانت لها بالنجاح الكبير ازاء بابا وماما . وكان المظهر في صفها . لأن هذه الفكرة المتعلقة بالاحساس الخلقى لم تلون محادثاتهما بصفة أساسية بعد ذلك عن طريق ضغط رفيقتها في اللعب بقدر ما حدث ذلك عن طريق صراحتها . فشرعت الطفلة المسكينة (في خطتها) وهي لا تكاد تدرى ما الأمر ، ولكن ذلك أثبت شيئا استطاعت — من غير أن تظهر أى أمانة خارجية سوى استسلامها لاهتزاز العربة — أن تتعرف اليه على نحو ما قبل عودتهما

المرجم

(١) مشروب كحولى حلو المذاق .

من نزهتهما . ان جمال اليوم قد ازداد وكذلك روعة البحر بعد الظهر والضباب الذى يغلف الرؤوس (١) ومذاق الهواء العذب . وكان الحوذى هو الذى استدار فى موضعه باسماء مفرقا بسوطه ومشيرا الى أشياء خفية عن الأنظار ومتفوها بأصوات غير مفهومة تعرف سائحتانا فيها ملامح صارمة من نظام اجتماعى مرتبط باللغة ، أقول ان هذا الشخص المهذب هو الذى جعل رحلتها أقصر من المأمول بكثير بحيث تركت لهما عودتهما المبكرة فحة باقية من ضوء النهار الطويل وساعة قضتها بناء على اقتراحه الصادر عن روح المجاملة سائرتين على الأقدام على الرمال الساطعة . وكانت ميزى قد شاهدت الشاطئء فى اليوم السابق مع السير كلود ؛ فكان ذلك سببا أدعى لأن تظهر لمسز ويكس على الفور أن هذا الشاطئء — على حد قولها — من المواضع المسجلة فى قائمتها وأنه من الأشياء التى تعرف أسماءها الفرنسية ، وكان المستصون فى هذا الوقت المتأخر قد انصرفوا والمد منخفض والبرك المتخلقة عن ماء البحر تتلأأ فى ضوء الأصيل . وكانت ثمة مواضع جافة أيضا استطاعتا أن تجلسا فيها مرة أخرى للاعجاب والاطناب : فكانت هذه مناسبة زودت مسز ويكس وهما تنصتان لخفق الأمواج بسند جديد لهجومها :

— أليس لديك شىء منه على الاطلاق ؟

ولم تكن بها الآن حاجة فيما يتعلق بالسؤال نفسه على الأقل الى التصريح . ولكن من جهة أخرى كانت النتيجة المرتقبة لادراكهما المشترك للشىء الذى — ما دام لا بد لهما من مواجهته — لم تحصل منه ميزى

(١) جمع رأس وهى جزء من الأرض ناتىء وممتد وسط البحر .

اطلاقا الا على أقل القليل بصورة تثير الارتياح (١) . وبهذا تميزت بمزيد من الدقة لحظة ادراك الطفلة لارتفاع صديقتها الى مستوى يكاد يعتبر ساميا الى أن ينسخ هذا المستوى ناسخ في أى حال من الأحوال ولم يكن شيء أظهر من ذلك قد حدث في حرارة رحيلها الأولى ولا احساس يمكن تتبعه بوسيلتها الخشنة أقل من تصورها بقية ذلك اليوم في بولونى للأسلوب الذى بدت به . وأنا يائس من تتبع خطواتها الذهنية الصامتة هنا بحيث انى لا بد أن أقطع لك عهدا على نفسى بأن هذه الخطوات ستكون منذ الآن صورة حاضرة أمام ذهنها حرفيا . ورات فيها مسز ويكس مخلوقة صغيرة تعرف الكثير الى حد خارق حتى انها اذا أدخلت ذلك في حسابها ستجد أن مالم تعرفه بعد سيكون سخيفا ان لم يكن محرجا . وكانت مسز ويكس في الحقيقة أقدر على مواجهة العرج من أى وقت مضى ولست واثقا أن ميزى لم يكن لديها تمييز ولو ضعيف لقانون حياتها الغريب الذى جعلها تعلم الى هذا الحد من الكفاية من هم أكبر منها سنا ممن يعنىها أمرهم . لقد أحدثت تقدما في تطورهم . فليس أكثر استلفاتا للنظر مثلا من نجاحها في التعجيل بتطور مسز بيل . ورات أنه اذا كان تاريخها كله في فطر مسز ويكس انما هو المراحل المتعاقبة لمعرفة ؛ فان ذروة التسلسل لا بد من وجهة النظر هذه أن تكون المرحلة التى تصل فيها معرفتها الى درجة الفيضان . وما دام قد كتب عليها أن تعرف المزيد باستمرار ، فكيف يمكن منطقيا أن تتوقف قبل المعرفة القصوى ؟ لقد خطر لها في الواقع وهما جالستان هناك على الرمال انها في طريقها الآن الى معرفة « كل شيء » . فلم تكن لها المربيات عبثا : وماذا

(١) يعنى بهذا الشيء الاحساس الخلقى .

فعلت في دنياها سوى أنها كانت تتعلم وتتعلم وتتعلم؟ ونظرت الى السماء
القرمزية في احساس هادىء بأنها عما قريب ستكون قد عرفت « كل
شئ » . ولبثتا متوانيتين في الجو المتوهج الى أن تحول الى اللون الرمادى
وبدا لها أنها تتلقى تعليمات جديدة من كل هبة نسيم . فلما حان لهما أن
تيمما شطر البيت فكانما هذا التحرك أسمى بالنسبة لمسز ويكس خيطا
طويلا متينا فقلته يد عصبية وفي هذا الخيط لا بد أن تضد لآلىء الفهم
الثينة .

وفي المساء في الطبقة العليا اتابها احساس غريب ولن تستطيع ميزى
فيما بعد أن تقول لك هل جاءت الضربة في الوسط أو في البداية تماما
عندما ضربت رفيقتها بالحاح جديد على نعمة الاحساس الخلقى . فالفهم
أنها صاحت مرة أخرى كما حدث في المرة الأولى من غير ترابط .
— كان الله في عونى . يبدو أن الأمر بدأ ينكشف .

ويا لها من مشاعر مختلطة غريبة تلك التي أغرتها في النهاية بمثل هذا
التكشف ! ولم يكن ذلك في مثل غرابة ألفاظ الويل ، بل ويمكن أن يقال .
بصدق انها ألفاظ غضب مستشاط تلك التي ناحت بها السيدة المسكينة .
على الخاتمة الفاجعة التي آل اليها جهلها المطبق . وفي لحظة من اللحظات .
أمسكت بالطفلة وضمتها الى صدرها بعنف كما كانت تفعل في أيام الفراق .
والمودة الخوالى لآلها كانت حائرة بشكل واضح لا تدرى كيف تعوض
مثل هذه الضحية عن التعرض لمثل هذه الضحية عن التعرض لمثل هذه
العدوى . وفي اضطراب وتبرير وضراعة ناشدتها الطمانية والصفح
بل والرثاء في صدد ما فعلته وما ستفعله .

— أنا لا أدري ماذا قلت لك يا حبيبتى : أنا لا أدري ما أقول .
أو ما جعلنى التغيير الذى أدخلته على حياتى — وليسامضى الله — أقدم

على قواه . هل فقدت كل كياسة ولياقة وكل تقدير للحدود ؟ يخيل الىّ
أني فقدت هذا كله وان كنت آخر ما تظنين به ذلك . لقد أقدمت على ذلك
من أجلك « أنت » يا غالية . حتى لا أفقدك . ففقدك أسوأ ما يمكن أن
أمنى به ولذا تحتم على أن أدفع الثمن من براءتي — وان كان هذا
يضحك ! — كي أتثبت بك وأحتفظ بك . فلا تدعيني أدفع الثمن في
نظير لا شيء . لا تدعيني أحس أنه قد زج بي في مقابل لا شيء في حمأة
هذه الويلات والمخزبات اني ما عرفت من قبل شيئا عنها ولا أردت يوما
أن أعرف . أما الآن فأعرف أكثر مما ينبغي . أكثر منه بكثير .

وأنت المرأة المسكينة وتوجعت :

— اني أعرف الكثير الآن حتى اني اذ أسمع مثل هذا القول أسأل
نفسى أين أنا . واذا أتفوه به أيضا — وهو أسوأ — أقول لنفسى شد
ما بعدت وأمعت في الابتعاد عن بداية مطافى ! أسأل نفسي ماذا كنت
أفكر لو أنني سمعت نفسي أتجاوز مع فقيدتي حد اللياقة . لقد تجاوزت
معك حدودا كان ينبغي أن أتوهم عندها أنني وصلت الى نقطة حرجة .

ولهت لمجرد ورود هذا الخاطر :

— لقد انزلت من أمر الى آخر ، اكراما لحبى الحقيقى لك . والآن
ماذا عسى أن يقول أى امرىء — أعنى أى امرىء سواهما — ان سمع
بما يجرى ؟ لقد كان علىّ أن ألزم جانبك . أليس كذلك ؟ اذن ماذا كان
في وسمى سوى أن أتوقع منك أن تلزمنى جانبي ؟ ولكنكما ليا أسوأ
الجميع — وأعنى بهذا أنه « هو » ليس الأسوأ — فأبوك الوضع المسف
في وضاعته هو والمخلوقة الوحيدة في الدنيا التي كان عيا أن يجدها
فيما أعتقد — وليست هي الكوتسة يا عزيزتى — أسوأ منه . وما دام
يصدد افسادك على كل حال ، فقد كان في وسعهما أن يحققا هذا بحيث

يقيان على امرأة شريفة . وعندئذ ما كان يتحتم على أن أقدم على أسوأ ما في الوجود ؛ الا وهو أن أقذف اليك بالرجس الذي لم تدركي كنهه ؛ وأن أجد فرصتي في الخسة التي أدركت معناها : أما ما فرغ صبري بسببه هذا الصباح فهو أنك وان لم يبد عليك أنك تدفعين ما يفعلان — فأنت لم تدمغني فعلهما كما تذكرين ! — الا أنه بدا عليك أنك « تعرفين » .
واني لأحمد الله جلت رحمته ان كنت في النهاية قد وصلت .

وكان الليل في ذلك الوقت دافئا واحدى النوافذ مفتوحة على الشرفة الصغيرة التي كانت ميزى قد تلبثت وقتا طويلا عند سياجها وهي صاعدة من مائدة العشاء لتستمتع بالثرثرة والأضواء وحياة المرسى التي زاد للألوان في هذا الأوان وتلك الساعة . وكانت احتياجات مسز ويكس قد جرتها الى الداخل بعيدا عن هذه الوقفة . وكان عناق مسز ويكس لها قد استبقاها مع أن اضطرابها وتعاطفها سمحا لها أو على الأصح أعاناها بالفعل على تخليص نفسها وهي في معمان ذلك التدفق بيد أن اطار النافذة كان لم يزل واسعا ، والمشهد والسرور به لم يزالا مائلين . ومن موضعها في الحجرة التي كانت مضاءة — بما فيها من أرضية لامعة وألواح أنيقة — من الخارج أكثر مما هي مضيئة من الداخل . استطاعت الطفلة أن تتمشاها .
وبدا عليها أنها ترقب وتصفى ، ثم بعد ذلك ردت على مسز ويكس
سؤال :

— ان كنت قد وصلت الى المعرفة ؟

— ان كنت قد وصلت الى الدمغ .

وجاءها هذا التصويب في شيء من الخشونة . فنجم عن ذلك أن زفرت ميزى زفرة عنت غامضة ، وبعد لحظة — وكأنما هي تحت ستار هذا الابهام — دلفت مرة أخرى الى الشرفة وأطلت من فوق السياج فأحست

بالليل الصائف واستغرقت بأفكارها في الأساليب الفرنسية ، وكانت تحت
الفتدق مقهى جلس الناس أمامها الى كراسى ومناضد صغيرة فوق رحبة
تحوطها نباتات في براميل وزاد من وقع المنظر وميض مراول السقاة البيضاء
والموسيقى التي يعزفها رجل وامرأة وقفا وراء النطاق وراحا يبعثان برنين
قيثارة وبألناظ أغنية تشدق بالحب . وكانت میزی تعرف أيضا ما تعنيه
كلمة الحب بالفرنسية . وتساءلت ان كانت مسز ويكس تعرف معناها
أيضا . وكانت مسز ويكس قد لبثت بالداخل ساكنة سكون الجرد
ولعل أصوات العزف والغناء لم تصل اليها . وبعد برهة — ولم يكن ذلك
الا بعد أن كف الموسيقيان وشرعا بالطواف بصحفة صغيرة — عادت
تلميذتها اليها وسألتها میزی عندئذ :

— أهي جريمة ؟

وكانت مسز ويكس حاسمة كأنما كانت رابضة في عرين :

— وصمها الكتاب المقلس .

— حسنا . انه ما كان ليقترف جريمة .

فنظرت اليها مسز ويكس بوجوم :

— بل انه يقترف الآن جريمة .

— الآن ؟

— بوجوده معها .

وكان على طرف لسان میزی أن ترد عليها مرة أخرى :

— ولكنه الآن حر .

بيد أنها تذكرت في الوقت المناسب أن من الأمور التي عرفتھا في
الساعة الأخيرة بأسرها أن هذا ليس ذا بال . وبعد ذلك — وكأنما لتتجه
في السبيل السوي — كانت على وشك أن تندفع اندفاعا أعمى فترتد عن

ضعف الى التذكير بأن هذا قد يغير الوضع ويخفف من جريمة مسز بيل ، الى أن نسخ هذا خاطر أيضا ظهور علائم الغم على وجه مسز ويكس نتيجة لاستخلاصها من سحنة تلميذتها أنها بعد كل هذا العناء في تفهيمها لم تفهم تلميذتها بعد المسألة فهما كافيا . ولم تبلغ رغبة ميزى في الفهم في أى وقت غاية مداها الا حين جوبهت . وظل تفكيرها كله مدة دقيقة مركزا في المجهود الذى يتمخض عن شيء يلحظ سذاجتها . وأخيرا قالت :

— كل ما أطلبه منك أن « تثقى » بى يا عزيزتى !

ولعلها كانت علامة طيبة على تصرفها هذا أن مسز ويكس أخذتها الى فراشها وهى تصعد أنه طويلة لا هدف لها .

ولم يصل فى الصباح التالى خطاب من السير كلود ، الأمر الذى صرحت مسز ويكس أنها تعتبره أسوأ نذير سوء . ومع هذا ذهبتا للتجوال مرة أخرى صاعدتى التل الى التحصينات بدلا من الفوص فى الملهيات بين زحام الناس فوق الرمال أو فى البحر بين المستحمين أنصاف العراة التماسا منهما للصحة الهادئة التى كانا يظفران بها معه ، وذلك بعد أن تناولتا القهوة والفتائر الملفوفة التى زادت من انغماسها فى العادات الأجنبية وما ترتب عليه المضى فى مسحوبات جديدة على حابه . وحدقتا مرة أخرى فى عذرائهما المنهبة وغاصتا مرة أخرى فى مقعدهما العتيق ، وشعرتا مرة أخرى بالبون الذى يفصلهما عن ريجنت بارك . وأخيرا وصلت مسز ويكس الى رأى قاطع حول صمت صديقيهما :

— انه خائف منها ! لقد حرمت عليه الكتابة .

وكانت ميزى على علم سابق بحقيقة خوفه . بيد أن اشارة رفيقتها الى ذلك كانت لها تيجتان غير متوقعتين فى هذه اللحظة . أولاهما تساؤلها

في احتجاج صامت كيف يتسنى لمسز ويكس على ما تكنه من ولاء لا يقل
بعد كل شيء عن ولائها شخصيا أن تضمن مثل هذا التلميح مثل هذه
البوادر الدالة على الزرابة . والأخرى أنها ألفت نفسها تستغرق فجأة في
تصور أعمق لهذه الحقيقية . فهي أيضا كانت خائفة كما رأينا من الأشخاص
الذين يخافهم السير كلود . وبمقتضى هذا القانون حصلت على نصيبها
الكامل من التوجس الأخير من مسز بيل . وما حدث الآن أنه في حين
بدا هذا التعاطف عقيما بالنسبة له تجسم أساسه بصورة غامضة من حيث
هو باعث على الفزع الأثافي . ولم يحملها هذا القلق الى بعيد قبل أن
تكلم مسز ويكس مرة أخرى وبجفاف شديد كاد يبدو في غير موضعه :
— ألم يطرأ عليك اطلاقا أن تشعرى بالغيرة منها ؟

ولم يكن ذلك طرأ عليها اطلاقا . ومع هذا فما ان فاهت بهذه الكلمات
حتى تعلقت ميزى بأهدابها وراحت تقلبها وتفتحصها بامعان ، وأخيرا قالت
يقين لم يكن هناك للأسف من يعجب به سواها :
— حسنا . بلى . ما دمت قد سألتنى .

وتروت قليلا ثم أردفت :

— مرارا كثيرا !

ونظرت اليها مسز ويكس شزرا لحظة . فمثل هذا الاقرار الذى نمت
عنه نظرتها لم يكن خاليا من اللون تمام الخلو . فنظرتها كانت تصبو على
كل حال عن شيء لعله ذو صلة بقولها مرة أخرى :
— نعم . انه خائف منها .

وسمعت ميزى هذه العبارة وكان لها تأثيرها عليها من جديد من خلال
غشاوة الانتباه التى صار يتطلبها الآن امكان وجود فكرة الغيرة تلك ،
وهو امكان لم يخلقه سوى احساسها بأنها وجبت فيه السبيل لاطهار

أنها غير ساذجة . وقد كشفت لدى مسز ويكس ما يدل على أن تلك السيدة لم تزل تعتقد أن احساسها الخلقى متحيز أو مموه . فماذا عسى أن يكون الدليل على اخلاصها سوى لمحة من أشد اتصالاتها بعدا عن الاستقرار ؟ ان كشفنا من هذا القبيل حريّ أن يحبط ثبوت الهمة . وثبوت الهمة كان في الواقع قد أحبط حتى ان الحلقة الحقيقية التي سادت صباحهما — وقد ساعد عليها الى حد ما اشتداد حاجتهما الى الأمل ، ذلك الاشتداد الذي نبع بطبيعته من الوعيد المدلهم الذي استشعراه لعدم ورود الخطاب — لم تصلا اليه بالاستشفاف المتبادل بل بالصراحة التي لم يسبق لها مثيل . أجل كانت هناك اطرافات تفكير وصمت ، واستفرقت ميزى الى مدى أعنى في تصور نفسها في نظر صديقتها سطحية على أحسن الفروض ، وأنها في الحقيقة أيضا تزداد سطحية في نظرها كلما حاولت أن تبدو مترسة . فهل قصارى كل معرفة أن تدرك ضالة المدى الذي يمكن أن تصل اليه في هذا المقام وقد ضاع جواب هذا السؤال لحسن الحظ في غمرة الاثراق الذي شمل المشهد بمجرد أن ألتقت ميزى في شأن مسز ييل ملحوظة لم تكن تعلم أنها ستعيش الى أن تدلى بها :

— لو خطر لى أنها غير رفيقة بى .. لست أدري ماذا عساي صانعة

بها ا

فدحرجت اليها مسز ويكس احدى نظراتها الحولاء الشزراء ، ثم أيدتها بزمجرة ضارية :

— أما « أنا » فأعرف ماذا عسيت أن أفعل ا

فأحست ميزى عندئذ أنها تقاعست ؛ فقالت :

— حسنا . أستطيع أن أفكر في شيء « واحد » أصنعه بها .

فتحدثها مسز ويكس بطريقة أصرح :

— وأى شيء هو اذن ؟

فواجهت ميزى طلعتها وكأنها لعبة « عيني في عينك » وقالت :

— أقتلها !

آملة على الأقل وهي تشيح بنظرها أن ذلك سينهض ضمانا لاحتساسها الخلقى . لقد أشاحت بنظرها ولكن رفيقتها لم تقل شيئا واستمر صمتها طويلا حتى انها في النهاية حولت رأسها اليها مرة أخرى فاذا بها ترى المثبتات وقد غشتها العبرات التي بدا بعد برهة يسيرة أنها طفرت من عينيها شخصيا . وكانت ثمة في الواقع دموع على جانبي المنظار ، وبلغ من غزارة هذه الدموع أن أقصى ما استطاعت ميزى أن تتبينه من خلالها أن مسز ويكس مدت في النهاية ببطء يدها ، فكان هذا الضغط المادى هو الذى حسم هذا الأمر وحسم أيضا — بعد بضع دقائق — أشياء أخرى كذلك . حسم بطريقة الخاصة شيئا معينا مع أنه كثيرا ما كان — علم الله — يحوّم حولهما ويرين فوقهما ، الا أنه بقى عليهما أن يتبا فيه من غير ظل من ابتسامة ملطفة . فلم تكن هناك أدنى بارقة من الخفة ، ولا فكاهة ولا استغفار طيلة الوقت الذى قضتاه معا جالستين ، أو في الطريقة التي بها غدت مسز ويكس — في بعض المواقع غير المترنة — واضحة الصوت بما فيه الكفاية بالنسبة لوقارها وفي الوقت نفسه غير مرتفعة الصوت بما فيه الكفاية بالنسبة للنسوة المعجائز المهمومات :

— انى أعبد . انى أعبد .

وأحسنت ميزى تفهم هذه العبارة حتى انها بعد لحظة أخرى كانت

حرية أن تجيبها بحرارة :

— وكذلك أنا .

ولكن قبل اقضاء تلك اللحظة حدث شيء دفع الى شفيتها بكلمات

أخرى ولم يكن ذلك الشيء الذى حدث يعدو أن يكون أكبر الظن احساسها الأعمق بمغزى وجود يد مسز ويكس فى يدها . فقد ظلت يداها متوشجتين فى اعراب عن ارتباطهما يعجز اللسان عن تبيانه . فكان ما قاله ميزى آخر الأمر ببساطة وصفاء :

— أعرف هذا !

كانت يداها متوشجتين وارتباطهما وثيقا حتى ان ردهما الى الاحساس بالساعات والمواضعات تطلب وصول رنات ناقوس عميقة بعيدة حملتها اليها ريح الصيف وكاتا قد وصلتا الى القاع ونابتا معا ، بيد أنهما انتفضتا أخيرا : بالناقوس وهو صوت النزل والنزل هو صورة الغذاء . ستأخران عنه اذن . ونهضتا فكانت خطواتهما المتعجلة عند العودة تحمل شيئا من طابع الثقة فى اهتزازاتها . ووصلتا الى الفندق فاذا بالمائدة العامة قد بدأت ، وكان ذلك واضحا منذ وطلت العتبة من خلو البهو واللالم من « المستخدمين » — على حد قول مسز ويكس . وكانت قد التقطت ذلك اللفظ الفرنسى — الذين اجتمعوا فى قاعة الطعام . وصعدتا الى حجراتهما لتصلحا من شأنهما أمام المرآة . وكانت ميزى أثناء مرورهما قد دفعت صادرة فى ذلك عن نزوة فارغة الباب الأبيض والذهبى فافتتح . وبهذا كانت أول من تفوهت بالصوت الذى جاء بتسز ويكس فوق رأسها تقريبا ، مثلما كان من الممكن لو حدث العكس أن تأتى بها هذه الصرخة فوق رأس مسز ويكس . وكانت النتيجة على كل حال أنهما وقتما متشابكتين معا فى حاملة متوترة صوب وضعهما الجديد . وكان هذا الوضع قد اتخذ فى ومضة واحدة صورة مسز بيل الوضاعة : فقد وقفت هناك بقبعتها وسترتها بين مجموعة من الحقائق والشيلان ، باسمه مادة ذراعيها . فلئن كانت قد وصلت لتوها فمناظرها يختلف عن كل من السحنتين

اللوتين لفظهما قنال المانش أخيرا — فاعتبرا ذلك من حسن طالعهما — شاحبتى
اللون مترنحتين قاب قوسين أو أدنى من الهلاك . فقد كانت حسناء كحسن
النهار الذى أطلعها ، ناضرة كنضرة الحظ والصحة اللذين يخفان بها :
فخطر لميزى على الفور أنها الآن أجمل مما كانت فى أى وقت مضى .
وكان ذلك كله أسرع من أن يحيط به الوعى ولكن كانت ثمة فسحة من
الوقت نبهت الطفلة الى السبب الذى أذكى ذلك الاشراق لأنه كان ينبثق
من ذراعيها المفتوحتين وعينيها المفتوحتين وفيها المفتوح بل وانبثق مع
صيحة مزربيل العالية صوبها :
— أنا حرة . أنا حرة ا

**** معرفتى ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة

الفصل السابع والعشرون

وكانت عجيبة المعجائب الطريقة التي وجهت بها مسز بيل اعلاهما هذا — في حدود ما يمكن الحكم به — على قدم المساواة الى مسز ويكس التي تهاوت فوق مقعد — كأنما خارت قواها فجأة — في حين استسلمت ميزى لعناق الزائرة . وما ان تحررت الطفلة من هذا العناق حتى واجهت ذهول مسز ويكس بعمق واستطاعت بالفعل أن تبين انها وان كانت في حالة تدغم ذلك اللقاء الا أن وجهها بدا وكأنه يهيب بها في عمق :

— أناشدك الله ألا تنعقى الآن « لقد قلت لك هذا » !

وأحست ميزى على الفور بانعدام الميل الى النعيق . ولم يقتض منها سوى دقيقة أخرى كي تصل من استعراضها السريع للأشياء المحيطة بمسز بيل الى أنه ليس من بينها شيء من أمتعة السير كلود . فهي تعرف الآن حقيقة ثيابه — معرفة كلها اعزاز ! — ومرت لحظة كان فيها لغياب هذه الحقبة وقع أسوأ الأبناء . ولم تكن قد تعلمت بعد ما التعرف في بعض ثغرات التسلسل على ما يؤذن بالتلاشي ، فظلت غير مدركة أن هذه اللذعة الوقتية هي ارهاص السابق على تجربة الموت . وسرعان ما انقادت هذه اللذعة لاشراق مسز بيل ، وتصلعت في مناشدتها اياها على الفور :

— هل جئت وحدك ؟

ومن العجيب أن مسز بيل بليت أشد اشراقا وهي تجيب :

— بدون السير كلود ؟ أجل ، تلهفا منى على الوصول اليك ؛ أيتها
الوغلة الصغيرة البغيضة .

وربتت زوجة أبيها وهي تضحك ضحكة صافية على خنثها تربيتا كان
من بعض نواحيه قرصة . واستطردت :

— ما هذا الذى فعلت وماذا ظننت بي ؟ ولكنى سعيدة بالوجود فى
الخارج . وأنت التى دلتنى بعد كل شىء على الطريق . وما كنت لولاك
لأتى . أعنى لأتى بهذه السرعة . هأنذا على كل حال ولو تأخرت لحظة
أخرى لبدا القلق يساورنى عليك . ان المكان واف بالمرام جدا ..
وكانت حفية بالمكان الذى تنزلان فيه ، بل انها أردفت بعد ذلك أنه
بديع ثم عادت للكلام فى مسألتها الرئيسية بمزيد من التوهج الوردى :

— الى حرة . انى حرة !

فعمدت ميزى من جانبها الى مسألتها الرئيسية الخاصة بها ، فرجعت
طرفها صوب مسز ويكس التى بقيت على دهشتها الحائرة ، ووجهت
اتباه صديقتها من جديد الى الطريقة المتعالية التى تجاهلت بها هذا القول ،
أما ما عنت به نفسها فى الدقيقة التالية فهو موضوع السير كلود :

— وأين هو ؟ أليس مزما أن يأتى ؟
وتأرجح تفكير مسز بيل وهى باسمه بين قطبى الترقب عن جانبيها ،
وكان باديا للعيان بصورة خارقة للمألوف أنها تتقبل وجود مسز ويكس
بلا تردد ، وهى معجزة ، شرعت ميزى منذ الآن تقرأ صداها منعكسا على
وجه تلك السيدة الطويل . وقالت مسز بيل بمرح :

— انه سيأتى ، ولكننا يجب أن « نجعله » يأتى !

فرددت ميزى قولها كرجع الصدى :

— نجعله ؟

— يجب أن نسمح له بيمض الوقت ، ويجب أن نلعب أوراقنا
بمهارة .

فأجابتها ميري :

— ولكنه وعدنا وعدا مغلظا .

— وهو يا طفلى العزيزة وعدنى وعودا مغلظة . أعنى وعدنى بأمور
كثيرة جدا ، ولم يكن ينمى فى جميع الأحوال بوعده وفاء حرفيا .
وأصر صفاء مزاج مسز بيل على أن يأخذ صفاء مزاج مسز ويكس
مأخذ التسليم التى غدا اهتمامها بها سخيا بصورة فجائية ، واستطردت
قائلة :

— وأحسبه فعل معكما مثل ذلك ، فلم ينجز على الدوام وعده فى
حينه ، بيد أنه يعرض هذا كله على طريقته الخاصة ، ولسنا على كل حال
نجهل بالضبط أى امرىء هو . فثمة صفة له تجعل المسألة كلها بالنسبة لنا
مسألة كياسة .

ولم يكدر يتسع لهما الوقت للتساؤل عن مؤدى هذه الصفة ، لأنها
— على حد ما كاتتا حريتين أن تقولاً — طالعتهما رأسا :
— انه حر مثلى تماما !

فقال ميري كمن تزن قيمة هذا مستقلة برأيها :
— نعم أعرف هذا ..

بل انها فى الواقع وزفت أيضا غرابة اعتبار زوجة أيها لهذا القول
وكانه نبأ جديد بالنسبة « لها » ، وهى أول من نفض اليه السير كلود هذا
الخبر . وقضت بضع ثوان فى صحبته من جديد — وكان صوت افضائه
اليها به يرن فى أذنيها — وقد ارتلت بها الذكرى الى ساعة الفسق فى
حديقة الفندق فى فولكستون .

وحدثت أن كل ما غفلت عنه مسز بيل ليس الا أثرا لاسرافها في
الجور ، وميلها الى التحليق لذلك السبب ميلا ظهر عليها حتى حين هبطت
— من غير هدف — الى مستوى المارة تقريبا :

— ليس أمامنا اذن سوى الانتظار . ولن يتفنى عنا أمدا طويلا .
أنا موقنة يا مسز ويكس انه لا يستطيع العيش بدونك « أنت » ! فهو
متعلق بك وقد حدثني بالشيء الكثير عنك . أما المدى الذي أعتمد فيه
عليك ، أعنى أعتمد عليك في معاويتي .. !

وكان ذلك المدى بحيث عجز كل ما فيها من اشراق عن التعبير عنه .
وما آد اشراقها التعبير عنه وما وسعه جملا — على كل حال — وجودها
بل وحريتها العتيدة يزدادان في كل لحظة تجسما . وكانت هذه الجسامة
هى التى أدت برفيقتها المشدوهتين المبلبتين الى تبادل اشارات عقيمة
مختلطة وكأنما يفصل بينهما قناع كثيف . وتضامتا معا على الأقل على
أساس مشترك من عدم التأهب للموقف . وراقبت ميزى بعدم ارتياح
ما اجتاح مسز ويكس من الدهشة ، وقد ردها ذلك الى العجز المطبق ،
فجلست كالمبهورة بأسلوب مسز بيل الرفيع ، لولا الوجوم الحالِك الذى
استولى عليها ، واستفرقت فى لجة سكوت عميق طويل ؛ لأن ما حدث
هو آخر ما أعدت نفسها له ، والصرامة التى أخذت بها نفسها غلت ازاءه
رخوة علية . اذ كان المفروض أن يعود السير كلود مع شريكته فى الائم
أو بدونها . أما أن تأتى شريكته بدونه فكلا . ثم كلا . لم يخطر هذا
ببالها قط . وكانت مسز بيل قد كسبت فيما يبدو فى هذه الأثناء امتيازا
وسمعا أن يتابعه ، فنظرت الى السحنة المضحكة الكماء فى عتب مازح :
— أحقا لا تريدان أن تصافحينى ؟ لا بأس ستغيرين رأيك .

ولم تحاول التجربة واستطردت على الفور ، وهى ترفع يدها — بدلا

من أن تمدها اليها — بحركة لطيفة وقد أحنت في الوقت ذاته رأسها الى دبوس طويل أسود يزدان به شعرها الأسود :

— هل ترتدى القبعات هنا على الغداء ؟ ان كنتما جائعتين مثلى فلا بد لنا أن نزل على الفور .

وثبتت مسز ويكس في مكانها ، ولكنها ردت على السؤال بصوت كادت تلميذتها لا تعرفه :

— انى أرتدى قبعتى .

والتهمت مسز بيل بنظرة واحدة مفخرتها الجديدة كل الجلة التى بدا عليها أنها تشير الى مصدرها وتتبع مدارجها ، وأعلنت اقرارها بامتيازها قائلة :

— أوه . ولكنى لا أملك قبعة يمثل هذا الحسن !

ثم التفتت صوب ميزى بمرح وقالت :

— لقد جئت « لك » بشيء بديع يا عزيزتى ..

— شيء بديع ؟

— قبعة « خبوبة » موجودة بين أمتعتى .

وأومات الى الأداة التى تملورأس ابنة زوجها وقالت :

— لقد تذكرت « هذه » فجئتك بأخرى لها صدر طلووس . ولونها

أزرق أزهى الألوان !

وبدا للطفلة هذا الكلام معها لا عن السير كلود بل عن الطواويس أمرا مستغربا جدا حتى انها لم تجد من حضور البديهة ما ينطقها بالشكر لها بيد أن الفيطة التى حفت بوصولها كانت دليلا أيما دليل ضد كل شيء بحيث استولى على ميزى شعور أقوى بأن ثمة غرضا خفيا يكمن وراء هذه الفيطة . لقد خامرها احساس بأن الطريقة التى أزالها بها مسز بيل فى

الصالون الأبيض المذهب حرج هذا الاستقبال الخالي من الحرارة والترحيب
انما هي طريقة تنبى عن غور محيق . وكانت مسز بيل لم تزل على حالها
من تقطع الأتفاس وحرج انفراد مسز بيل لم يكن شيئا بالقياس الى الحرج
الذى أورثتها اياه بلطفها . وكان ادراك هذه المعضلة هو البذرة التى
انبثقت منها — من لدن الطفلة — سؤال جديد تماما : ماذا لو أن هذا
التساهل .. ؟ ولكن الفكرة تلاشت فى غمار شيء آخر كان الفزع منه
أقوى من الأمل ، والرجم به أقوى من الخوف . وفى حين كان كل شيء
يمضى فى طريقه بخطى واسعة وقف أحد السقاة بالباب ليذكرهن بأن
المائدة العامة قد قاربت منتهاها . وعندئذ سألتها مسز بيل :

— هل كان صعودكما لتفصلا أيديكما ؟ اذهبا وافرغا من ذلك بسرعة
وسألحق بكما : فقد وضعوا أمتعتى فى تلك الحجرة البديعة التى كان
يشغلها السير كلود .

وضحكت وهى تستطرد :

— ثقا أنه تخيرهما بديعة ا

وفتح باب حجرة مجاورة ، ومن عتبه وجهت الخطاب الى مسز
ويكس مرة أخرى بادئة فى اتخاذ نعمة جديدة دلت على المفتاح الذى
استقر تديرها عليه — على حدا ما كانت — مسز ويكس حرية أن تقوله :
— أيتها السيدة العزيزة ، أرجوك أن ترعى شأن ابنتى .

وأظهرت تغيرا شاملا فى المسلك ، حتى لقد بلغ من شموله أنه دل على
احجام مطلق وتثبث من جانب المرأة العجوز بما ينبغى لها من احترام .
وواها للمناصب التى لا تنفك مشرفة رغم صغرها ، مالم تكن بادية
الوضاعة . فقد حدثت استجابة — على حدا ما رأته ميسى — تمثلت فى
وثوب ذات « الاحترام » الى قديمها . وكانت كمؤا لمثل هذه الخطوات

الواسعة المشار اليها آنفا ، وجرت ربيبتها بقوة هذا الدافع الى الخارج رأسا — في الوقت الذي دلقت فيه مسز بيل الى داخل حجرة السير كلود — ومن ثم الى حيث حجرة التلميذة والمربية في آخر الدهليز ، وكانت أوسع الخطوات طرا فيما يتعلق بهذه المسألة أن التلميذة تحولت — من ناحية أخرى — وفي مدى ثوان الى ابنة . وكانت عينا ميزى تتبعان ذلك عندما ألقت نفسها — بعد الاندفاع وقد صفق الباب تقريبا ولا تفكير في صابون أو مناشف — وجها لوجه مع مسز ويكس . وكانت مسز ويكس في هذا الموقف هي البادئة بالكلام :

— هل من الممكن اطلاقا أن يكون لديها شيء منه ؟

وشعرت ميزى بمزيد من الحيرة وسألتها :

— شيء من ماذا ؟

— من الاحساس الخلقى طبعا .

وكاتتا تتحدثان كأن المرء في وسعه أن يكون لديه أكثر من احساس خلقى واحد . ولكن مسز ويكس لم يبد عليها انها تجد هذه الفكرة موقفة . وأما ميزى فلم تدر كيف يتسنى لرد بالايجاب من شفيتها أن يجلو ما أمسى لغزا بالغ الخفاء . وكانت هذه الأحجية الكبرى هي التي دفعت بها رأسا أن تسألها :

— أهي أمي الآن ؟

وهي مسألة كانت لمحة مروعة واحدة من مسئولية ابداء الرأى فيها كصفة بالتأثير في مسز ويكس كأنها تلقت لكمة في معدتها . ولم تكن بالتأكيد فكرت في ذلك الأمر قط ، ولكنها استطاعت أن تفكر فيه وأن ترد قائلة :

— ان تكن لك أما ، فهو على ذلك الأساس أبوك .

وأمعنت ميزى في التفكير قليلا ثم قالت :

— اذن فأبى وأمى .. !

وتلعثمت فحملت فيها مسز ويكس وقالت :

— ينبغى أن يعيشا معا؟ لا تعودى الى هذه الحكاية !

وتحولت عنها وهى تنن لتصل الى حوض الاغتسال ، واستطاعت

میزی فى هذه الأثناء أن تدرك بشيء من اليسر ان الجنون يكمن فى هذا

الطريق ، ورشت مسز ويكس نفسها بالماء فى غير أناقة ، يد انها فى اللحظة

التالية واجهتها قائلة :

— لقد اتخذت لنفسها سياسة جديدة .

— فقالت لها میزی لتساعدھا على توضیح رأيھا :

— لقد كانت لطيفة معك .

— ما الذى جال بفكرها حتى قالت « اذهبى وألبسى السيدة

الصغيرة » ولكن هذا شيئاً .

ولمست ثم تقضت بقية ما عندها :

— ان لم يحتفظ بها ، فستحتفظ « بك » ستكون هى ..

— هى التى تعولنى فى الخارج ؟

— هى التى تكفل لك بيتا .

ونظرت مسز ويكس الى بعيد ، وسيطرت على سائر نذر الشر :

— أوه انها بارعة بصورة مؤلمة . انه ليس الاحساس الخلقى .

وبلغت قصاراها بقولها :

— وانما هى لعبة .

— لعبة ؟

— ألا تفقده . لقد ضحت به .. فى سبيل واجبها .

فناشدتها میزی :

— اذن فهو ليس مزما أن يأتي ؟
ولم تجب مسز ويكس ، واستغرقها تصورها ، فقالت :
— لقد ناضل ، ولكنها اتصرت .
فكررت الطفلة قولها :
— ألن يأتي اذن ؟
فصرخت مسز ويكس :
— بلى . سحقا له .
ولم يسبق لها قط أن فاهت بشل هذا الرجس . وما كانت ميزى
لتبالي شيئا من هذا :
— بسرعة ؟ غدا ؟
— سيكون حضوره — أيا ن جاء — أسرع مما ينبغي . أسرع
مما يبيحه الحياء .
فقالت الطفلة :
— ولكننا عندئذ سنكون كلنا معا .
مما جعل مسز ويكس تنظر اليها في حلق ، ولكن الوقت لم يسمع
لحدوث شيء قبل أن تبادر بقولها :
— وأنت معا ا
. واستمرت روح النقد ، ولكن لم يسمع لها صوت الا في أمر رفيقتها
لها أن تفتسل وتنزل ، فسادهما سكوت التطهر بالماء . ولكنه لم يلبث
تعكر باحدى نكسات ميزى المفاجئة :
— ربا . أليست وسيمة ؟
وكانت مسز ويكس قد فرغت من الاغتسال وراحت تنتظر ، فقالت :
— انها ستستلفت الأنظار .

وأسرعتا ، فكان من المستطاع أن يلحظ المرء أن الصدمة التي أنزلها
بهما الجمال قد أحدثت تأثيرا مناقضا بأن حفزتهما على الاسراع في
استعدادتهما للحاق بها ، ومع هذا وجدتاها عندما عادتا الى حجرة الجلوس
قد نزلت بالفعل ، وبدت الحجرة من خلال بابها المفتوح خاوية وأوضحت
الخادمة أنها نزلت . وهنا أيضا استمهلتهما فكرة أخرى ثابتة من أفكار
مسز ويكس :

— ولكن علام ستميش حتى ذلك الحين ؟

فوقفت ميزى في مكانها وقالت :

— الى أن يأتي السير كلود ؟

ولم يكن ذلك شيئا بالقياس الى عنف وقعة صديقتها :

— من الذي سيلفح قوائم الحساب ؟

وفكرت ميزى :

— ألا يسعها « هي » أن تدفعها ؟

— هي ؟ انها لا تملك بنسا واحدا .

وتمجبت الطفلة :

— ولكن بابا .. ؟

— تعنين ألم يترك لها ثروة ؟

وكانما كانت مسز ويكس تتكلم عن أبيها باعتبارها ميتا لولا أنها

أردفت على الفور :

— بل انه يعيش على حساب نساء آخرى

أوه . نعم ميزى تذكر هذا .

— اذن فهو لا يستطيع أن يرسل .. ؟

. وتلعثمت مرة أخرى ، وبدا كلامها عجيبا حتى في نظرها .

- جانبا من مالهن الى زوجته ؟
وضحكت مسز ويكس ضحكة أغرب من الاقتراح المستهجن وقالت :
— وأخالها حرية أن تأخذه .
وأسرعتا في طريقهما مرة أخرى . ولكن ميزى وقعت مرة أخرى على
السلم وقالت :
- اذن لو أنها بقيت في انجلترا .. ا
وفكرت مسز ويكس ثم قالت :
— وجاء هو الى هنا بدلا منها ؟
فقالت ميزى ماضية في تفكيرها :
- نعم . كما توقعنا .. علام عندئذ كانت عسية أن تعيش ؟
ولم تتردد مسز ويكس سوى لحظة ثم قالت :
— على حساب رجال آخرين !
ثم مضت تهبط الدرج .

الفصل الثامن والعشرون

كانت منز بيل على المائدة تجتذب الانتباه الذي تنبأت به مسز ويكس ، فلم تكن بين الحاضرات امرأة أخرى تقاربها وسامة ؛ وما استطاع جمال امرأة أخرى أن يكيف نفسه في مثل هذه البراعة مع ما أثاره من التكريم . وكانت تتحدث بالأخص الى جارتها الأخرى ، مما ترك لميزى متسعا للفتنة للحظ العيون وتبادل اللزمات ، وللإستفراق في المعاني التي وسعها أن تشرع في استجلائها — وان في غموض وعدم اتصال — فيما يصدر عن زوجة أبيها من حركة مستقلة . ولما كانت مسز ويكس قد أعانتها بكلامها عن اللعبة ، ففي هذا الضوء اتخذت الحركة سمة استراتيجية . وكانت معلوماتها عن الدبلوماسية هزيلة ، ولكن ما واجهها من انحناء رأس مسز بيل المشيخ عنها كانت كتفا دبلوماسية باردة ومرفقا أشد حدة من المعتاد . وكان ثمة تعبير مألوف لدى ميزى كثيرا ما استخدمته تلك السيدة للاعراب عن حصول المرء على ما يشتهي ، فمسز بيل تقول انها في جميع الأحوال تحصل على مشتهاها أو تسمى للحصول عليه عن طريق « عملية الحب » . انها تقوم الآن — على ما في ذلك من غرابة — بعملية حب نحو مسز ويكس ، ولم يكن ذهن صديقتها الصغيرة قط في مثل نشاطه الآن وقد وجد نفسه وجها لوجه أمام مسألة ما تشتهي مسز بيل الحصول عليه . وفي فترة تقديم العجة بالكلاوى والدجاجة السوتيه التي كانت الطرف الوحيد الباقي من أهلها ، وهي انظراف الرابع ، منصرفه الى الثرثرة مع مريبتها ، كانت ميزى منصرفه الى التساؤل عن مريبتها وهل تنسى لها مواصلة الثبات والمقاومة . كان الأمر عجيبا . ولكنها صارت

مهمة على الفوز باحساس مسز ويكس الخلقى كاهتمام مسز ويكس باحساسها هي الخلقى تماما : فقد تراءى لها بالحاح أن هذا النوع من التأثير لا عهد لمسز ويكس بمقاومته من قبل ، فبلدت مقاومة مسز بيل نفسها في هذا الضوء شيئا مختلفا جدا عن مقاومة رأى السير كلود فيها . وقد يتمخض عما حدث — أيا كان — شيء يفوق ما شعرت ميزى أنها تتوقعه . وراحت تفهم مؤداه بارتياح يشبه ما ينتابها لو أنها قامت في سنها هذه باستبدال نفود صغيرة بجنيه ذهبي فيلقى تقص معلوماتها في الحساب في روعها أنها غولطت . وتلست في هذه المتاهة أنها ربما قامت بدور سلبي في عملية استبدال عنيفة . فهي قينة أن تكون الضحية ولا شك لو أن المسألة بين زوج أمها وزوجة أبيها سوت بقول مسز بيل :

— لئن لم يكن لها الا أن تعيش مع أحدنا فقط ؛ فمع من عساها أن تعيش الا معي أنا ؟

والجواب أبعد ما يكون مما راضت نفسها عليه في الأيام الأخيرة ، والأسى الناجم عنه يحرك من أثره افتقارها الى أى شيء من جانب السير كلود يدل على أنه لا يتقبل ذلك الوضع تقبل المنتصر . ألم تقل مسز بيل في الطبقة العليا بما يشبه المصارحة بأنها غادرته فيما يشبه المغاضبة وخلقته في لندن بعد عراق كان من ثمرته أن قدومها جاء برهانا على أنها ضحت به ؟ واستحضرت ميزى في تصورهما الواقعة المحتملة في ريجنت بارك ، وأحست بعناصر تكاد تكون مفرجة في افتراضها أن السير كلود لم يظفر بمعاملة عادلة . وقد استمدت هذه العناصر — وهي جالسة هناك — شيئا ما من الزهو بمصاحبة جمال كجمال مسز بيل ونسيت الطفلة تماما أن تضحية مسز بيل وان كانت حلا لم تخلقه ، الا أنها ربما رأت السير كلود يأخذ به من غير اعتراض مباشر .

وما كانت زوجة أيها تعمل الآن على الفوز به من مسز ويكس هو الموافقة على التغيير الكبير ، وهو تغيير بارع براعة حيل الحواة ، ما من شيء في صدره ذو بال مثل ترتيبات مسز بيل الجديدة . فاستطاعت ميزي أن تدرك المغزى الذي بدا مرفقها وكأنه يفرسه في أضلاع لا يكاد يقيها شيء . ومؤدى هذا المغزى أنه لا أهمية على الإطلاق لمن عسى أن يقوم بالوصاية من بين الاثنين : زوج الأم وزوجة الأب . وجوهر الأمر أن الفتاة ليست كالفتى : فلو كانت ميزي مخلوقا خشنا يرتدى البنطلون ربما كان له على أحسن العروض أن يشب عريدا ، لكان مرحبا اذن بالسير كلود . أما والأمر على خلاف ذلك فلا محل له فيه ، وستجد مسز ويكس نفسها عندئذ في خلة الطرف الصحيح . وقد وقعت هذه الصجج موقعها الصحيح لدى صديقتنا الصغيرة بمجرد ان لمستها تلك النعمة التي سمعت بها اعلان لقبها الجديد . وهي لم تزل نتيجة حظوتها بكل هؤلاء الوالدين — ابنة شخص ما حتى بعد أن أمسى بابا وماما في حكم الميتين . واذا كانت زوجة أيها وزوج أمها بمقتضى قاعدة لا تدرى أهي طبيعية أم قضائية قد حلا محل أبويها المتوفين ، فشريك مسز بيل متوف اذن مثل شريكة السير كلود ، وهي اذن بالذلت التي حكم لها بالأفضلية من لدن محكمة الطلاق في قضية « فلانج ضد فلانج وآخرين » . وموضوع هذه التسوية المعلقة هو الذي ملأ في الحقيقة بقية يومها هذا بالأبهة التي تظاهرت بها مسز بيل . وقد اكمل هذا التظاهر وهي جالسة بين نديمتي هذه السيدة ، وأزهر بحيث لم يدع لهما في دوامتهما السجقة فرصة ولو لتبادل الاشارات بنظرات العين . وعن ميزي أن مسز ويكس كانت حرة أن تدلى بحبل أو حبلين ان شامت ، أو أن تطلق صاروخا أو صاروخين — فلم يسبق لهما ان قضا وقتا طويلا كهذا من غير تفاهم بالقول

أو بلايات وثقت رفيقتهما على التفريق بينهما بمجرد ابقائهما في صحبتها .
ومن ذلك الموقف رأنا عظمة ارتباطهما الوثيق بها تمر أمامهما تباعا وكأنما
موكب لا نهاية له . فقد كان يوم حركة دائبة وكلام متدفق من جانب مسز
بيل ، حتى لقد بلغ من اشراق ذلك اليوم وتدفقه أنه بدا حافلا بأنغام
الموسيقى وخفق البنود . وأخذتـها معها للسـير على الأقدام وللنزهة في
العربة ، ولما اقترب الليل وضعت خطة لاصطحابهما الى « المؤسسة »
حيث تستمان — في مقابل فرك واحد للشخص — الى معزوفات لمشاهير
المؤلفين . وقد أذكرت هذه الخطة ميزى بالاستعراضات الجانبية في
« ايرلزكورت » ، وبلت لها الفرنكات أشد لمعانا من الشلنات التي
خذلتها حينئذ . بيد أن هذا الأمل كب له أيضا أن يخيب كسابقه .
وخذلتـهن الفرنكات خذلان الشلنات ، ووجد الحفل الموسيقى قدوة في
الاستعراضات الجانبية يعذو حذوها وبايجاز تبخرت المؤسسة ، وكان
مصدرا للعجب شيئا ما ان سيدة تطوعت منذ وصولهما للنجدة بهذه
الشهامة تعترف في النهاية أنها في حالة اعياء . وقد وسع ميزى أن تقدر
تعبها ، ولم ينقض اليوم من غير أن تكتشف انها كانت متوفزة بل انها
قارنت في ذهنها حالتها بحالة الأمواج الطامية على اثر نوء . وكان النوء
قد هب عاصفا في لندن ، فلا بد لها من اقضاء وقت قبل أن تهدأ . وهذا
من قبيل ما عرفته الطفلة عن طريق السماع بأنه التكالب على الكلام قبل
فوات أوانه ، حتى ان حرارتها وروحها وفكاهتها التي لم تعرف الهبوط
بدا عليها الآن ما ينبى عن ذلك .

وكالت هي أيضا مسرورة بالأساليب الأجنبية ؛ ولكن قطع طريق
شرحها لها على يد ابنتها ، لم يكن متوقعا من معرفتها الواسعة بتلك
الأساليب . وكان مما قضى على استجابة لذلاقتها في مهدها تفهقر ميزى

في دهشة أمام حقيقة واقعة مؤداها ان الحياة في القارة هي جل ما نشأت عليه . فاذا مسز بيل هي التي تشرع بطريقة مذهلة في شرح تلك الحياة لصديقتها . وهي التي قامت — أينما ولين وجوهن — بدور المترجم ، والمؤرخ ، والدليل . وتكثر من الاشارات الى أسفارها السابقة في سن الثامنة عشرة ، وقد حظيت في تلك المدة بالاقامة مع أسرة هولندية على شواطئ بحيرة جنيف . وكانت ميري قد أتخت بالنوادر والمغامرات فيما سلف من الأيام ، بيد انها غدت في هذا الوقت ضربا من الخيال ، وأضحى استعصاء البطلة على الدهشة في بولوني ، والحاحها على الأشياء ذاتها التي ألحت عليها بالنسبة لمسز ويكس دليلا واضحا على العظمة وتعدد المزايا اللذين تسلحت بهما في هبوطها عليهما ؛ وذلك كله من عناصر ما في جمعيتها من استعدادات ، ومن أسباب قوة قبضتها التي تحصن ابنتها الآن بسلطانها عليها . وكان من أثر ذلك على ميري انه زاد من وطأة الزمن الذي يفصلها عن السير كلود . وكان هذا الاتصال حريا في احساسها أن يطول بضعة أيام ، وكأنما هو لا بد أن يشعر بوحشة مخيفة في انجلترا وحده ؛ وقد اتقل مركز اضطرابهم الى فرنسا ، ولم تعد الى جواره ملها ولا مسز بيل ولا مسز ويكس ولا هي شخصا . وشمرت ساعة بعد ساعة كأنها تنتظر ، وان لم تستطع أن توضح بالضبط ما الذي تنتظره . وكانت ثمة لحظات بدت فيها أحاديث مسز بيل المتدفقة وكأنها مجرد قمععة للطفيان على صوت طرقات الباب . ولم يكن للقمععة في أى وقت من أوقات الأزمة هدف سافر مثلما كان لها عندما دفعت بميري — بدلا من أن تدعها تذهب مع مسز ويكس للاستعداد للعشاء — دفعة فيها أمومة لا وراء فيها رأسا الى داخل الحجرة التي ورثتها عن السير كلود . وزينت ربيبتها الصغيرة يديها الناشطتين ؛ ثم صرحت لها بقولها :

— انى مزمة أن أطلق أباك .

وكان هذا القول مختلفا جدا عن أى شىء توقعته ميزى حتى انه استغرق بعض الوقت كى يصل الى ذهنها . وفطنت فى الوقت نفسه الى أنها ربما بدت ممتعة اللون ، وسألتها :

— كى تزوجى السير كلود ؟

فكافأتها مسز بيل بقبلة وقالت لها :

— انه لجميل منك أن تصورى الأمر فى هذه الصورة .

وهى مجاملة ، بيد انها تركت ميزى وفى ذهنها اعتراض يتأرجح :

— ولكن كيف « تستطيعين » ذلك وهو متزوج ؟

— انه عمليا ليس متزوجا . فهو حر كما تعلمين .

— حر فى أن يتزوج ؟

— حر أولا فى أن يطلق شيطاته .

ولكن الفوائد التى شعرت فى الأيام القليلة الأخيرة انها مدينة بها لشخص ما تركت ميزى لحظة غير مهياة لمعرفة من ينطبق عليه هذا النعت الزرى حتى انها ترددت طويلا قبل أن تغامر بقولها :

-- ماما ؟

فردت عليها مسز بيل قائلة :

— انها لم تعد أمك فقد دفع لها السير كلود نقودا لتنزل عن هذه

الصفة .

ثم كأنما تذكرت هوان شأن الصفقة المالية فى نظر الطفلة ، فقالت :

— لقد أبرأته من اعالتها فى نظير ابرائها من اعالتك .

وبدا مع هذا على مسز بيل انها تحسن تقدير فهم ابتها للأمور

المالية ؛ وسألتها ميزى :

— ليعولنى هو ؟

— ليتحمل أعبائك ومطالبك كافة ولا يدعها تسمع شيئا عنك بعد الآن . وهذا بمقتضى عقد قانونى مهور .

فصاحت ميزى :

— ولكن هذا بذيع جدا منها .

— انه ليس بديعا للغاية يا عزيزتى الا أنه سيحصل فى مقابله على الطلاق منها .

وصمت ميزى برهة يسيرة ثم قالت :

— لا . لن يحصل عليه .

ثم استطرقت بمزيد من الجرأة :

— وأنت لن تحصلى على الطلاق أيضا .

والتفت مسز بيل اليها — وكانت أمام مرآة الزينة — فى تفكه ودهشة وسألتها :

— كيف عرفت هذا ؟

— فصاحت ميزى :

— أعرفه !

— من مسز ويكس ؟

وتروت ميزى قليلا ، ثم بعد لحظة استرشدت بما لاحظته من اتقاء غضب مسز بيل — ذلك الاتقاء الذى زاد من دهشتها بصدده مبلغ شعورها بما تحتاج اليه فى كلامها من الشجاعة — واعترفت قائلة :

— من مسز ويكس ؟

واستدارت مسز بيل الى المرأة مرة أخرى وراحت تستخدم فرشاة الذرور ، وكان كل ما قالته :

— الها مخطئة يا جميلتي .

وكان في تلذذها بهذا القول تصه بعض القوة ، ولكن سيدتنا الصغيرة
أمعت التفكير طويلا فتذكرت أن هذا خلاف الجواب الذى أدلى به
السير كلود نفسه من قبل ؛ بيد أن هذه التذكرة لم تستطع أن تحول بينها
وبين سؤالها :

— أتعين اذن انه لن يأتى قبل أن يحصل على الطلاق ؟

وأتمت مسز بيل لمسة أخيرة أتمت بها استعدادها ، واتصبت أمامها
في كامل أناقتها وقالت :

— بل أعنى يا عزيزتى أنى تركته لأنه لم يحصل عليه بعد .

وفتح هذا القول مجالا امتد الى أبعد مما وسع ميزى أن تصل إليه ،
فأشاحت عنه ؛ الا أنها قالت قبل أن تخرجا مرة أخرى :

— أتعمرن نحو مسز ويكس الآن بمودة ؟

— بل أنا يا ككوتتى الصغيرة التى كنت على وشك أن أسألك هل
تظنينها بدأت بأى حال من الأحوال فى الشعور نحوى أنا المسكينة الرديئة
بشئ من المودة .

وفكرت ميزى فى هذا التلميح ولكن بغير طائل ، فقالت :

— ليست عندى أدنى فكرة عن هذا . ولكنى سأحاول أن أعرف .

فقالت لها مسز بيل وهى تسير رافلة فى ثيابها بجوارها والعطر يفوح
منها ، وكان ما تطلبه منها خدمة جليلة الشأن :

— افعللى !

وحاولت الطفلة ذلك بجد فى وقت النوم ؛ وقد تحررت الآن من
خوفها أن تعمل ضيفتهما على التفريق بينها وبين تابعتها فى الليل ، فشرعت
تقول لها بمجرد أن أغلق عليهما البابان اللذان فى نهاية الدهليز :

— هل ثبت ؟

فحملت مسز ويكس بقوة في ضوء الشمعة وسألها :

— ثبت .. ؟

— طبعا . فقد كانت تقوم نحوك بعملية حب . فهل كسبتك لصفها ؟

فحولت مسز ويكس شدة نظراتها الى وجه تلميذتها وقالت :

— من حيث ماذا ؟

— من حيث احتفاظها « بي » بدلا منه .

— بدلا من السير كلود ؟

وكان واضحا أن مسز بيل تحاول كسب الوقت .

— نعم . ومن سواه ؟ ما دام ذلك ليس بدلا منك .

فتورد وجه مسز ويكس أمام هذه الألمية وقالت :

— نعم هذا ما ترمى اليه .

فسألها ميزى :

— وهل يروك ؟

وكان عليها أن تنتظر الجواب لأن صديقتها شد ما كانت محرجة ..

— ان معارضتى في العلاقة — أعنى علاقتهما — حرية أن تسقط بالطبع

الى حد ما . فقد عاملتنى اليوم كأنى لست بعد كل شيء دودة حقيرة . وان

كنت لا أجهل النبع الذى استقت منه تهذيها . ولكننى طبعا ..

وترددت مسز ويكس فى أن تردف :

— ولكنى لا أتمنى أن تكون « هى » .. مثلما أتمنى أن يكون هو

الكافل لك .

ورددت ميزى عبارتها كالصدى ، ثم قالت :

— مثلما .. هذا ما أتمناه أيضا .

- وكانت تتكلم بحزم هي أول من ارتجف تحت وطأته :
- كنت أحسبك تعبينه .
- فاعترفت مسز ويكس بذلك بشدة :
- نعم أعبه .
- اذن هل بدأت فجأة تعبينها هي أيضا ؟
- ولكن مسز ويكس بدلا من أن ترد عليها مباشرة نظرت اليه نظرة سريعة مستعينة بكل قوتها :
- بأى لهجة تسألينى هذا السؤال يا عزيزتى . انك تكشفين عن طويتك !
- ولم لا ؟ لقد كشفت أنت عن طويتك . ومسز بيل كشفت عن طويتها ، ولكل منا دوره !
- وأطلقت ميزى أعجب ضحكة صغيرة صدرت عن شفيتها الصغيرتين ، وصدرت عن شفتى مسز ويكس فى اللحظة التالية صوت فاقها وصهلت قائلة :
- ما أعجب أمرك !
- وتلعثمت تلميذتها وهي تقول من غير رغبة اطلاقا فى أن تكون سليطة :
- أعتقد أنك بذلت جهدا عظيما لتجعلينى هكذا .
- هذا ما فعلته فى الحقيقة .
- وثابت الى التواضع ، كأنها تذكرت اتهامها لذاتها منذ عهد قريب .
- جدا ، وقالت ميزى :
- أترضينها اذن ؟ هذا ما أسألك عنه .
- بديلا عنه ؟
- وقلبت مسز ويكس الأمر ، ثم واجهت عيني الطفلة مرة أخرى :

- لقد أوشكت حرفيا أن تبصص لي بذنبها .
- ولكنها لم تبصص « له » بذنبها . بل لم تكن مترفة به .
وبدا على مسز ويكس أنها تتمتع الآن بالتفوق وسألتها :
- اذن هل تقترحين الآن « قتلها » ؟
فألحت عليها ميزى بقولها :
- أنت لم تردى على سؤالى . أريد أن أعرف هل ترتضينها ؟
وواصلت مسز ويكس حيطتها في الكلام :
- أريد أن أعرف هل ترتضينها « أنت » ؟
فاذا بكل شيء في الطفلة يعلن رأيها بكل جلاء :
- ولا لحظة واحدة ! ..
- وفطنت مسز ويكس الى مرادها ، وتوهج محياها وسألتها :
- لا تريدينهما كليهما الآن ؟ تريدينه وحده ؟
— وحده ، أو لا أحد .
فصاحت مسز ويكس :
- حتى ولا « أنا » ؟
فنظرت ميزى اليها لحظة ، ثم شرعت تخلع ثيابها وقالت :
- أوه . أنت لا أحد !

الفصل التاسع والعشرون

لقد استطال نومها ، وقد عرفت على الفور أنها تأخرت في الاستيقاظ من فتح عينيها على مسز ويكس منتصبه ، كاملة الزى ، بل أكمل زيا من أى وقت مضى ، تحلق فيها من وسط الحجرة . وفي اللحظة التالية قامت جالسة وقد تيقظت تماما خوفا على ساعات الاستمتاع « بالخارج » التى لعلها ضيعتها ، وبدا على مسز ويكس كأن النهار قد أوغل ، وبدأت عملية اللحاق به بالنسبة لميزى عندما سمعتها تقول بوضوح :

— يا عزيزتى المسكينة . لقد حضر ا

— السير كلود ؟

وسرعان ما أحست ميزى — بعد أن أزاحت غطاء الفراش الصغير باتساع وثبتها — بالأرضية اللامعة تحت قدميها العاريتين .
— لقد عبر البحر فى الليل ، ووصل فى ساعة مبكرة .
وأومات مسز ويكس برأسها فى حركة متصلة الى الخلف وأردفت :
انه هناك .

— وهل رأيته ؟

فكرت مسز ويكس قولها :

— لا . ولكنه هناك . انه هناك .

وكان صوتها ينم على خمود عجيب لم يكن خفوتا اختياريا ؛ وارتجفت ارتجاجا زاد من افعالهما المشترك ، فراحتا تحمقان كل منهما فى الأخرى . وقد شحب لونها شحوبا ظاهرا . ولهت ميزى وهى ترد عليها قائلة :
— أليس هذا « جيلا » أجمل مما كنا نتوقع ؟

وكان هذا تحديا لها أن تجيب اجابة لم تكن قد تأهبت لها بعد..
وكان اللفظ الذى استخدمته ميزى ومضة دبلوماسية القصد منها الحيلولة
بين مسز ويكس وبين استخدام لفظ آخر ، وقد أحرزت التوفيق في هذه
الحدود ، ولكن كان ثمت توسل غريب صامت في الوجه الأبيض العتيق
كان من أثره الايحاء بالافتقار الى عزم أقوى مما يمكن — أيا كانت فسحة
تفاؤلها — أن يقترن بموقفها مما حدث . وما حدث كان في الواقع بالنسبة
لميزى أضال بصورة غريبة — على حسب احساسها — من حيث الغبطة
البيطة التى كانت تقترن دائما فيما مضى بوصول ذلك الصديق الأعز
أو عودته . فما الذى حدث بين عشية وضحاها أثناء نومها لقدرتها المريحة
على الفرح ؟ لقد حاولت أن تزيد من تيقظها بالكلام ، وبالزواط ،
وبالانغماس في الماء والياب ، وعرفت أن الساعة بلغت العاشرة ، وعرفت
أيضا أن مسز ويكس لم تتناول افطارها بعد ، وكاتتا في اليوم السابق
قد تناولتا « قهوة كاملة » في حجرة جلوسهما . وكان واضحا أن مسز
ويكس تسعى من جانبها — الى ملاذ تعتنصم به من انفعالاتها ، وقد
لشدت هذه الملاذ في كبح سىء من تسرع تلميذتها الراهن في بعض
خطواتها ، بأن راحت تذكرها فيما يكاد يصل الى الصرامة أن استخدام
الصابون ينبغي أن يكون أوفى ما يمكن وهى بسيل هذه الاستعدادات
الأولية ، وأظهرت شيئا من الاستهجان لتعجلها في ارتداء ثيابها على هذا
النحو لمجرد لقاء زوج أم . وتولت شأنها بنفسها في الحاح صامت بحيث
حولت هذه العملية الى سياق أكثر احكاما ما عهدته ميزى منذ أيام
« مودل » . فأيا كان ما أخذ الآن حضور السير كلود يتصف به من
الاختلاف عن ذى قبل ؛ فهو لم يزل بعد كل شيء موافقا — في نظر
ميدتنا الصغيرة — لفريزة ارتداء ثيابها لرؤيته في عجلة تكاد تتجافى مع

النسق المفروض . ولم تكن مسز ويكس لحسن الحظ ميالة كل الميل الى الكبح . وكررت بضع مرات قولها :
— انه هناك . انه هناك !

فقد كان هذا ردها على كل دعوة وجهتها اليها لتذكر لها منذ متى استيقظت وما الذى دفعها الى احترام نعاس رفيقتها بهذا التزمت . وظل هذا كل يانها لمدى بضع دقائق عن مظان وجود الآخرين وعن علة عدم رؤيتها لهما بعد ، وعن امكان وجودهما حاليا فى الصالون .
— انه هناك . انه هناك !

كررتها مرة أخرى وهى تقوم بتنسيق ملابس الطفلة الداخلية بجذبة أو شكت أن تكون عدائية لفرط شدتها . وسألته ميسى مرة أخرى :
— أتعنين أنه فى الصالون ؟

فقلت مسز ويكس بأسى أكثر من مرة :
— انه « معها » . انه معها .

فاستطردت ميسى :

— أتعنين أنه فى حجرتها الخاصة ؟
فترشت لحظة ثم قالت :
— الله أعلم !

وعجبت ميسى شيئا ما لماذا أو كيف ينبغى أن يكون علم هذا من شأن الله . ولكن ذلك لم يعق ردها سوى لحظة :
— حسنا . أليست مزمنة أن تعود ؟

— تعود ؟ اطلاقا !

— هل ستبقى رغم كل شيء ؟

— بل هذا أدعى لبقائها .

فسألته میزی :

— ألا يزعم السير كلود اذن أن يرحل ؟

— يرحل عائدا .. ان لم تعد « هي » ؟

وبدا على مسز ويكس أنها تمنح هذا السؤال دقيقة من التفكير :

— ولماذا كان عسيا أن يأتي ، ان كان مراده أن يكر عائدا ؟

فأدلت میزی بحل بارع لهذا اللغز :

— كى « يجعلها » ترحل . كى يأخذها الى هناك .

ولم تقابل مسز ويكس هذا الحل بالرضى :

— لو كان فى وسعه أن يجعلها ترحل بهذه السهولة ، فلماذا تركها

تأتى ؟

وفكرت میزی ثم قالت :

— لمجرد أن ترانى « أنا » . فلها هذا الحق .

— نعم لها هذا الحق .

وقالت میزی على سبيل الاختبار وهى تغالب الضحك :

— انها أمى !

— نعم . انها أمك .

واستطرفت میزی :

— ثم هو لم يدعها تأتى . فهو لا يستريح لقدومها . واذا كان

لا يُستريح اليه ..

فردت عليها مسز ويكس قائلة :

— فلا بد له أن يتحمله .. هذا ما لا بد له منه ! لقد كانت أمك على

حق فى رأيها فيه — أعنى أمك الحقيقية . فليس فيه مراس . لا . لا مراس

لديه اطلاقا .

وبدا عليها أنها استغرقت في مزيد من التفكير, قبل أن تقول :
— ربما كان لديه شيء من المراس حين كان معها . أعنى مع فخامة
الليدى .

ثم قالت بحزم مفاجيء قاطع :

— انه عبد ذليل مسكين .

وتعجبت ميزى مرة أخرى :

— عبد ؟

— لأهوائه .

ومضت في عجبها ، بل لقد أثر فيها هذا القول ، وبعد قليل استطردت :

— ولكن كيف عرفت أنه سيبقى ؟

— لأنه يحبنا !

واذ قالت مسز ويكس هذه العبارة في قوة لفظ ، أدارت ربيبتها مرة
أخرى لتعالج مشابكها الخلفية . ولم يكن سبق لها أن هزتها بهذه
الشدّة . وكأنها تريد أن تجعلها تنفض عنها بهذه الهزة شيئاً ما .

— ولكن كيف يجدى ذلك عليه اذا نحن — على الرغم من حبنا له .

— لم نبق ؟

— أتعنين اذا نحن رحلنا وتركناه معها ؟

وقد وجهت مسز ويكس هذا السؤال الى مؤخرة رأس تلميذتها ثم

أردفت :

— ان ذلك « لن » يجدى عليه ؛ بل سيكون فيه دماره . اذ لا يكون

قد حصل به على شيء . سيكون قد فقد كل شيء . وفي هذا هدسه هلمما

تاماً ؛ لأنه حقيقى أن يبغضها بعد فترة من الزمن .

وكان فهم ميزى لهذه الفكرة عجيباً ، لأنها قالت :

- اذن حين يبغضها ما عليه الا أن يلحق بنا فوراً ..
- لن يحدث هذا .
- لن يحدث ؟
- لأنها ستستبقيه . متسكته الى الأبد .
- وقالت ميري في تشكك :
- وهو يبغضها ؟
- فقال مسز ويكس :
- ليس هذا ذا بال . لأنها لن تبغضه . ما ان أحداً يبغضه ا
فنازعتها ميري قائلة :
- البعض يبغضونه . ماما تبغضه .
- ماما « لا » تبغضه ا
- وكانت هذه المناقضة القاطعة مثار دهشة كبيرة لها من جانب
صديقتها :
- بل انها تحبه . وتعبده . هذا شيء تعرفه المرأة .
- قالت مسز ويكس هذا القول لا كأن ميري ليست امرأة فحسب ؛
بل وكأنها لن تكون امرأة في يوم من الأيام . ثم صاحت :
- « أنا » أعرف ا
- اذن لماذا بالله تركته ؟
- وترددت مسز ويكس ثم قالت :
- لأنه يكرهها . لا تميلى الى الأمام هكذا . ارفعى شعرك الى أعلى .
- أنت تعرفين مبلغ ميلى بعواطفى نحوه .
- ثم أردفت باباء :
- ولكنك ينبغى أن تعرفى عنى أيضا صدق نظرتى .

— ولكنك ينبغي أن تعرفي عنى أيضا صدق نظرتى .
وكانت ميزى طيلة ذلك الوقت تبذل جهدا فى مثل هذا النظر
الصادق :

— اذن ان صح انها تركته لهذا السبب فلماذا لا تتركه مسز ييل
للسبب نفسه ؟

— لأنها ليست مغللة الى هذا الحد !

— ليست مغللة مثل ماما ؟

— بالضبط ان كان هذا ما تريدن معرفته . هل يبدو عليها انها من
الممكن أن تتركه ؟

وبعد أن سألتها مسز ويكس هذا السؤال أطرقت مرة أخرى ثم
استطردت بمزيد من المضاء :

— أتريدن أن تعرفي لماذا حقا وصدقا ؟ لأنها بذلك ستكون مصدر
تعاسته وعقابه .

وكان هذا أكثر مما تسنى لميزى أن تعيه ؛ فسألتها :

— عقابه ؟ عقابه على أى شىء ؟

— على كل شىء . هذا ما سيحدث : سيلقى نفسه مشدود الوثاق
اليها الى الأبد ، ولن تبالى على الإطلاق بكرهه لها ، ولن تكرهه لكرهه
لها ؛ بل ستكرهنا « نحن » فقط .

فردت الطفلة فى صوت خافت :

— نحن ؟

— ستكرهك « أنت » .

فصاحت ميزى باستياء :

— أنا ؟ ولماذا ؟ لقد قمت بالجمع بينهما !

فوافقتها مسز ويكس موافقة تامة قائلة :

— أنت التي جمعت بينهما .. فعلا . وكان هذا فعلا مليحا . اجلس .
وشرعت ترجل شعر تلميذتها بالفرشاة ؛ وعندما جمعت كتلته في قبضة
واحدة قوية ، استطردت تذكرها بحلّة :

— كانت أمك تعبده في البداية ، وكان هذا حريا أن يدوم ، ولكنه
بدأ صلته بمسز بيل في وقت مبكر أكثر مما ينبغي ، وكما قلت أنا ..
وأردفت وهي تعمل الفرشاة بسرعة :
— كنت أنت التي جمعت بينهما .

وكانت ميزى مستعدة لتأكيد هذا القول مرة أخرى : ولكنها مع هذا
شعرت أنها في مأزق ؛ ثم يبدو أنها تبينت لها مخرجا منه :
— لقد جمعت بينهما . ولكنى لم أجمع بين ماما و ..
ثم لم تزد على أن تلعثمت ، فخفت مسز ويكس لنجدتها :
— وبين كل أولئك الرجال ؟ كلا . لم يصل الأمر من السوء الى هذا
الحد .

وتذكرت ميزى ما كان بسرعة فقالت :

— لقد قلت فقط لكابتن أتى آمل أنه على الأقل (وكان لطيفا
للغاية) . سيحبها ويحتفظ بها .
فقالت مسز ويكس :

— وحتى هذا لم يكن فيه ضير كبير .

فاضطرت ميزى للاعتراف :

— ولم يكن فيه كثير خير . فهي لا تطيقه قيد أنملة . قالت لي ذلك
في فولكستون .

فكبت مسز ويكس شهقة . ثم بعد أن تماسكت لحظة كانت حرة
أن تبدو منها وقد انحرفت بعناء عن تقديرها الغريب لأخطاء ايدا قالت :
— ما كان أطفه من شخصية تحدث في شأنها اليك ا
فقالت ميزى بسرعة :
— أوه . أنا « أخيل » اليه .

وعندئذ أمالتها صديقتها الى الأمام وهي ترسل صوتا غير مفهوم ،
وأنت بحركة غير متسقة مع ما سبقها ؛ فنفرت خدها نفرة سريعة كان
القصد الظاهر منها أن تكون قبلة . وسألته مسز ويكس في النهاية :
وما دامت فخامة الليدى لا تتفق معك في هذا الرأى ، فعلام يدل
هذا ؟ انه يدل على تعلقها بالسير كلود .

وفي ضوء بعض هذه الأدلة راحت ميزى تفكر في ذلك الموضوع الى
أن انتهت من ترجيل شعرها ، ولكنها عندما نهضت لم يبد عليها الاقتناع
الشديد به ، فقبضت في تلك اللحظة على ذراع مسز ويكس قائلة :
— لا بد أنه حصل على الطلاق ا

— في المدة ما بين أول أمس وأمس ؟ لا تقولى هذا الهراء .
قالت لها ذلك بنفاد صبر لم يدع للطفلة ما ترد به ، فنشبت وسيلتها
الدفاعية في نظرة مختلفة تماما الى المسألة :
— حسنا . كنت عارفة أنه سيأتى ا

فقالت مسز ويكس في تفجع :
— وكذلك أنا . ولكن لا في أربع وعشرين ساعة . لقد قدرت لغيابه
بضعة أيام ا

فنظرت ميزى صوب مسز ويكس باهتمام وكانت قد أطلقتها وقالت :
— وكم يوما كانت « هي » قد قدرت لغيابه ؟

فواجهتها مسز ويكس برهة بشهقة تنبى عن حيرة :

— الأولى بك أنت أن تسألها !

ولكنها ما ان فاهت بهذه الكلمات حتى تماكنت نفسها وقالت :

— يا اله الرحمة ! كم تتكلم !

وشعرت ميزى أنه على الرغم من كلامهما فلا بد لها أن تراه . ولكنها لم تقل شيئا أكثر مما قالته آنفا برهة من الوقت اتهمت في خلالها من ارتداء ثيابها في عناية شديدة ، ولزمت مسز ويكس الصمت أيضا . وكأنما لدى كل منهما من التفكير ما يشغلها عن الكلام ، وكأنما فطنت الطفلة الى أن صديقتها ترقبها لترى هل ترقبها من جهتها أم لا ، وأخيرا تحولت مسز ويكس الى النافذة ووقفت تطل منها ، من غير أن تبين شيئا على حد ما حدثت ميزى . وعندئذ اهتزت سيدتنا الصغيرة هزتها الأخيرة أمام المرأة وقالت :

— أنا الآن متأهبة . والآن هيا للقياء !

فالتفتت اليها مسز ويكس وكأنها لم تسمعها :

— الأمر جد خطير .

وكانت لم تزل خلف المثبتات دموع متمهلة . فقالت ميزى وكأنها قد بلغت بكامل أهبتها من الزى مستوى المناسبة . وكأنها بأخر لمسة في هذا الصدد قد لبست بالفعل قلنسوة القضاء :

— فعلا . انه لكذلك . يجب أن أراه فورا .

— وكيف يسعك أن تريه وهو لم يرسل في طلبك ؟

— ولماذا لا أذهب وأقابله حيث هو .

— لا لك لا تعرفين أين هو .

— ألا يسعنى أن أبحث عنه في الصالون ؟

وبدا هذا أمرا يسيرا جدا في نظر مِيزى بيد أن مسز ويكس قاطعتها
فسورا :

— لن أسمح لك بالقاء نظرة على الصالون مهما كان الثمن !
ثم فمرت لها ذلك بعض الشيء قائلة :
— الصالون لم يعد خاصا بنا .

— بنا ؟

— أعنى بى وبك . انه الآن لهما ..

— لهما ؟

واستطردت مِيزى بعد هذا التردد محملقة فيها :

— أتعنين أنهما يريدان أن يمنعا من دخوله ؟

وتلعثت مسز ويكس ، وارتمت على مقعده ، ثم غطت وجهها يديها

على نحو ما رأتها مِيزى تفعل كثيرا من قبل ؛ ثم قالت :

— هذا ما ينبغى على الأقل .. فالموقف فظيع جدا !

ووقفت مِيزى حيث هى برهة ، تنظر حولها فى أرجاء الحجرة ثم قالت :

— سأذهب اليه . سأعثر عليه .

فصاحت مسز ويكس :

— حاشاى أن أذهب . لن أقرب منهما !

— اذن سأقابه وحده .

وعثرت نظرات الطفلة على الشيء الذى كانت تبحث عنه ، فتناولت

قبعتها وقالت :

— وربما أخذته وخرجت به !

وبعزم غادرت الحجرة .

وعندما دخلت الصالون وجدته خاليا ، ولكن صوت فتح الباب جعل

شخصاً ما يتحرك في الشرفة . ثم دخل منها السير كلود على الفور وانتصب واقفاً أمامها . وكان مرتدياً ثياباً فاتحة اللون خفيفة وقبعة من القش ذات شريط فاتح اللون .. فكانت هذه الأشياء فضلاً عما لفت نظرها فيها في حد ذاتها من أنها وعود صريحة بأعظم جولة بين الجولات العظيمة ، قد أضفت عليه اشراقاً خاصاً ؛ ولونا من البجوحة المدارية ، بيد أن مثل ذلك التأثير زاد من احساسها بوقوفه على مسافة من مكانها وأنه لبث دقيقة أطول من أى وقت فى أى لقاء شبيه لا يفتح لها ذراعيه . فجعلها توقفه تتوقف وأتاح لها أن تفكر فى أنه لا بد قد استيقظ منذ مدة ؛ إذ لم تكن ثمة أى آثار للافطار ، وأنه حرص رغم تأخر الوقت الى هذا الحد على ألا يأمر باستدعائها اليه . فهل كانت مسز ويكس على حق فى سقوط حقهما فى الصالون ؟ وهل صار كله له الآن ، هو مسز بيل ؟ ان مثل هذه الفكرة لا يمكن — بالمعدل الذى تنبض به أفكارها الصغيرة — الا أن تذكرها بالطريقة التى أصبح بها ما كان لها من قبل ملكاً مقصوراً على مسز بيل وعليه . وكان عجيباً أن تقف هناك وتحية عبر هاوية . إذ أنه فى هذا الوقت أخذ يتكلم فقال لها باسم من غير أن يدنو منها :

— يا طفلى العزيزة . يا طفلى العزيزة !

وفى لمح البصر تبينت ما طرأ عليه من اختلاف . وهو اختلاف أعظم مما كان يدري به او يقصده . وفى الدقيقة التالية كأنما لمح فى الواقع الانطباع المرتسم على محياها فدفعه ذلك الى مد يده . ثم التقيا فقبلها وضحك . بل خيل اليها أن وجهه احمر ، وجلجل شيء من اعزازه كالعادة ..

— هاأنذا كما ترين مرة أخرى . كما وعدتكما .

ولم يكن الأمر كما وعدهما . لأنه لم يكن وعدهما بمسز بيل . بيد أن ميزى لم تقل شيئاً فى ذلك الصدد . بل كان ما قاته ببساطة :

- عرفت أنك جئت . مسز ويكس أخبرتنى .
- أوه . نعم . أوه وأين هي ؟
- في حجرتها . لقد أيقظتنى . وألبستنى ثيابى .
- وصعد السير كلود بصره فيها ، وارتسمت على محياه ما يرتسم عليه كلما نظر اليها من سخرية حلوة كانت تحبها منه حبا خاصا . فقد رفع حاجبيه وذراعيه متصنعا الاعجاب . ولا شك أنه كان بعد كل شيء ميالا للطرب . وقال :
- أيقظتك ؟ هذا ما كان ينبغى أن يخطر ببالى . لو قد أبدعت فى الباسك ثيابك . أليست عازمة على القدوم ؟
- وتساءلت ان كان من المستحسن أن تخبره بالحقيقة . وقالت :
- قالت انها ليست عازمة أن تأتي .
- أليست تريد أن ترى بائسا مسكينا ؟
- وتلفتت حولها تحت تأثير الطريقة التى نمت بها نفسه فاستقرت عيناها على باب الحجرة التى كان يحتلها فيما مضى . وقالت :
- هل مسز بيل هناك فى الداخل ؟
- فنظر السير كلود بحيرة الى ذلك الموضع نفسه وقال :
- ليست عندى أدنى فكرة !
- ألم ترها ؟
- ولا حتى طرف أظنها .
- وفكرت ميسى . وقد امتولى عليها فى ضوء عينيه الجيلتين الباسمتين
- أوهى وأصنى وأبرد اقتناع بأنه لا يقول الحق .
- ألم ترحب بك ؟
- ولا بإشارة واحدة .

— اذن أين هي ؟

فضحك السير كلود وظهر عليه التفكه والدهشة في آن واحد لما تبديه

من التدقيق . وقال :

— على علمك ا

— أليست تعرف أنك جئت ؟

فضحك مرة أخرى وقال :

— لعلها لا تبالي بذلك ا

وألمت ميزى شيئا فوثبت على ذراعه وقالت :

— هل « رحلت » ؟

فواجه عينيها وعندئذ تبينت أن عينيه أكثر جدا من أسلوبه العام

وقال :

— رحلت ؟

وكانت ميزى قد طارت الى الباب . ولكن قبل أن تتمكن من رفع

يدها لتطرقة لحق بها وأمسك بيدها قائلا :

— دعيتها لشأنها . لست أبالي بها . انما أريد أن أراك « أنت » .

ورجعت ميزى وسألته :

اذن فهي لم ترحل ؟

وغلل يبدو عليه كما لو كانت المسألة مزاحا . ولكنها كلما أمعنت النظر

اليه زاد ادراكها لاضطرابه . وقال :

— ليست هي التي تفعل ذلك ا

ووقفت تعجب لأمره :

— أكنت تريد أن تأتي ؟؟

فقال لها ببساطة :

- كيف يخطر لك .. ؟ لقد وقعت بينا زوبعة كبيرة في هذا الخصوص .
- هل تعنى أنكما تشاجرتما ؟
- وتملكك الحيرة السير كلود فقال :
- ماذا أخبرتك ؟
- اتنى أخصها مثلما أخصك . وانها تمثل بابا .
- فصرب يبصره الى الخارج خلال النافذة المفتوحة صوب السماء .
- وسمعه يصلصل في جيبي بنطلونه بنقوده . ومفاتيحه ثم قال :
- نعم هذا ما تدأب على قوله .
- وأضفى ذلك عليه برهة سيماء من لا حول له تقريبا . وأردفت میزی تقول :
- أنت تقول انك لا تبالي بأمرها . فهل تعنى أنكما تشاجرتما ؟
- نحن لا نفعل في حياتنا شيئا سوى الشجار .
- وتراءى لها وهو يقول ذلك غاية في الدمائية والانصاف والغناء على الرغم من كل ما يمكن أن يكدره ، وقد استردت شعورها بمألوفاته حتى لقد أضفى ذلك وهجا على المعانى ؛ وعلى ما كان من الممكن أن يكون وعدا ملموسا تعرب عنه هذه الكلمات التي قالتها في ثبوط همة :
- آه من مشاجراتك ا
- أؤكد لك أن مشاجراتها مخيفة جدا ا
- أنا لا أتكلم عن مشاجراتها . بل عن مشاجراتك أنت .
- لا تتكلمى عنها الى أن أتناول قهوتى . انك تزدادين مهارة مع الأيام . أحسبك تناولت افطارك ؟
- لا لم أتناول شيئا في حجرتك ؟
- واستولى عليه وخز الضير فصاح :

- يا صاحبي العزيز . سنتناول الافطار معا اذن .
ثم خطرت له احدى افكاره الموفقة فقال :
- اسمع . سنخرج .
- هذا بالضبط ما كنت أرجوه . فقد آتيت معي بقبعتي .
- أنت بارعة . سنذهب الى مقهى .
- وسرعان ما كانت ميزى عند الباب ؛ فتلفت حوله في الحجرة وقال :
- لحظة واحدة . عصاي .
- ولكن يبدو أنه لم تكن هناك عصا . فقال وقد تذكر فهبطت حماسته هبوطا غريبا وخرج معها :
- لا بأس . لقد تركتها .. أوه ا
وسألته وهما يهبطان السلم :
- هل تركتها في لندن ؟
- نعم .. في لندن . تصوري ا
فقالت ميزى تصر الأمر :
- لقد كنت في عجلة هائلة عند قدومك .
- وكان يحيطها بذراعه فقال :
- لا بد أن هذا هو السبب .
- وفي منتصف السلم توقف فجأة وضرب رجله بيده :
- ومسز ويكس المسكينة ؟
- فظهر على وجه ميزى التقطيب وقالت :
- أتريدها أن تأتي ؟

— لا .. انما أريد أن أراك بمفردك .
فأجابته :

— وهكذا أريد أنا أيضا أن أراك كسابق العهد .
فردد قولها بطرب :

— كسابق العهد . ولكنى أعنى هل تناولت قهوتها ؟
— لا لم تناول شيئا .

— اذن سأبحث اليها بقهوتها . يا مدام !

وكان قد وصل بالفعل الى قاع السلم وراح ينادى مديرة الفندق
البدينة ؛ وهى سيدة يرزت له من البهو الصاحب البارد بسحنة مكسوة
بذرور الصباح وبصدر ضخم كأنه رف مدفأة مكسو بالمخمل ، ومن فوق
هذا الرف وجهها المستدير الأبيض يحيط به اطار من شعر ذهبى جعد
كأنه فى عين الرائى ساعة من الساعات التى تستخدم للزينة . وأمر السير
كلود بوجبة مسز ويكس مع توصيات خاصة ؛ وفتتها أن تسمع فرنسيته
اللامعة الطلقة . فلم يفت جهل رفيقته بهذه اللغة أن يكون مقياسا لمبلغ
تمكنه منها . وراحت المديرة تفرك يديها وتتدفق بالكلام فى نغمات سريعة
عالية كأنها تشترك فى غناء ثنائى وهى تمضى معه الى الشارع . وفيما هما
يتحدثان برهة بعد ذلك تذكرت ميزى ما قالته لها مسز ويكس من أن كل
امرىء يجب .؛ وقد جاءها الدليل على ذلك من خلال ذرور الصباح ؛ وعن
طريق الصنبر الخفاق آية على مبلغ ميل صاحبة النزول اليه . ولا بد أنه
أمر بشيء بديع لمسز ويكس . فقد قال بالفرنسية :

— وليكن ذلك متقنا كل الاتقان .

فأجابته المديرة وهى تهش له :

— كن مطمئنا . وبخصوص المدام ؟

فردد كلمتها وقد استوقفته قليلا :

— المدام ؟

— لا شيء بعد ؟

لا شيء بعد . هيا يا ميري .

فأسرعت الى جواره . ولكنه لم يقل لها شيئا وهما في الطريق الى

المقهى .

الفصل الثالثون

وبعد أن جلسا هناك اختلف الحال : ولم يكن المكان أسفل الفندق ، بل بعيدا عنه قليلا على طول المرسى ، وله نوافذ واسعة صافية وأرضية مرشوشة بالنخالة بطريقة أوحى لميزى بمزيد من سحر ملاعب السيرك . وحظيا لنفسيهما بمساحة كبيرة من المسافات الملونة وكراسى القش الحمراء التى شاركهما فيها عدد قليل من الرجال المتناثرين يستأكون أسنانهم وهم يلوون ملامح وجوههم وراء مناخذ صغيرة عارية ، وشخص واحد على الخصوص مسن جدا يضع فى عروة سترته شريطا أحمر ؛ وكانت طريقته فى لقع الأرفعفة الصغيرة الاسطوانية المغطاة بالزبد فى القهوة ثم دسها فى البقية الصغيرة الباقية من المسافة بين أنفه وذقنه حرة فى ساعة أقل قلقا من هذه الساعة أن تثير لدى ميزى حسدا أخاذا . وتناولوا هما أيضا قهوتهما باللبن وخبزهما المغطى بالزبد ؛ وقد استقر رأياها على ذلك بعد أن سألتها السير كلود : هل هذه التصيرة الصغيرة تكفيها الى وقت الغداء . وكانت اشارته الى هذه الوجبة فى هذا المكان الرطب الظليل المرشوش بالنخالة وهو المسرح المعد بنظامه ومراباه لارتياح أولئك الذين يشنون مثلها عن الساعات المألوفة بايوائهم الى الفراش أو نهوضهم منه متأخرين — وقد أتاحت لها ما تفكر فيه وهى ترقب الساقى بمرولته البيضاء يقدم فى رشاقة أطباقه الصفار والكبار وكأنه حاو صاحبها صديقها ذات يوم فى لندن لتراه فى أحد الملاهى . وكان السير كلود قد شرع فى الكلام مرة أخرى ليحدثها عن لندن وكيف بدت له ، والى أى مدى شعر

من الجتين بغيته . وحدثها بكل شيء أيضا عن سوزان آس ؛ ثم بكل شيء عن رحلة عودته وعن المائس في الليل وزحام العابرين وكيف أن من بينهم دائما أناسا ممن يعرفهم المرء أكثر مما يتوقع . وتحدثت عن أمور أخرى أيضا ؛ ولا سيما عما يجب أن تخبره به عما شغلت به مسز ويكس وتلميذتها وقتها وهو مسافر . ألم تحظيا بالوقت الطيب الذي وعدنا به ؟ هل اتضح لهما أنه بالغ على الاطلاق في الترتيبات التي أعدها لسورهما ؟ وكان لدى ميري ما تقوله عن توفيقه في ذلك وعن شكرهما لصنيعه — وان لم تقل في هذا الصدد كل شيء — فقد كانت أفكارها تزداد في كل لحظة تعقدا ، مع احساسها بأنها لم تره قط في هذه الحالة بالذات التي ارتد بها اليها .

وكانت مسز ويكس قد قالت ذات مرة — وسواء كانت مرة واحدة أو خمسين مرة ، فقد كانت في المرة الواحدة كهاية لميري ؛ وان لم يكن المزيد بلا لزوم — انه متقلب بصورة تثير الدهشة . أجل ؛ وانه كذلك بالتأكيد في نظر الطفلة في هذا المقام ؛ فالتقلب هو الصفة الغالبة عليه أكثر من أي شيء آخر . ثم ان وجودهما معا في حانوت جالسين الى منضدة صغيرة أنيسة على نحو ما اتفق لهما كثيرا في لندن من قبل ، زاد من اختلاف موضوع اجتماعهما الآن . وكان هذا الاختلاف باديا في وجهه وصوته بل وفي نظراته نفسها التي كان يلقيها عليها كلما ألقى بنظرة اليها . فلم تكن هذه النظرات والحركات ما يريد حقا أن يظهره لها ؛ وشعرت أيضا أنها ليست النظرات والحركات التي تريدنا منه . لقد رأتها متوتر الأعصاب ؛ كما رأت كل امرئ اتصلت به وهو متوتر الأعصاب ، ولكنها لم تره قط في مثل هذا التوتر العصبي الذي يتتابه الآن . وشيئا فشيئا استولى عليها من جراء هذا فزع . ذلك الفزع الذي كان له مدد من البرود الذي شعرت

به قبل ذلك مباشرة في الفندق حين ألتفت نفسها لا تصدق ما أجابها به في صدد مسز بيل .. وخيل اليها أنها ترى الآن وتلمس عبر المنضدة وكأنيها تضع يدها على ما عناء عندما اعترف في مناسبات عديدة بالخوف . كما يشعر مثل هذا الرجل بالخوف في كثير من الأحيان ؟ ولا بد أنها بدأت تدرك الآن أن ثمة شيئا واحدا يمكن أن يخاف منه مثل هذا الرجل ، الا وهو خوفه من نفسه . وعلى كل حال كان خوفه مائلا أمامها . وهو في خوفه محبب اليها وجميل وعطوف عليها وهو يتناول قهوته وخبزه المكسو بالزبد ويتكلم ويضحك بكلام وضحك ليس بكلام وضحك على الاطلاق في نظرها . كان خوفه مائلا في صوته المازح المسوف المحرف ، وفي أسلوبه المتكلف الذي اصطنعه في خروجه معها محاكيا أيام لهوهما في لندن ، محاكيا في الواقع علاقة رأتها بعيني رأسها وهي تتغير عندما رأته مسز بيل تبرز أمامها فجأة في الصالون بالأمس . وتمثلتها تبرز أمامها الآن في هذا المقام ، وفي الفترة التي انتظرا فيها المرطبات وصلت ميزى الى السؤال الصريح الذي أتاحت أول كلمة صدرت عنه عند دخولهما فرصة توجيهه :

— هل تناول الغذاء مع مسز بيل ؟

وكان جوابه بعيدا كل البعد عن الصراحة :

— أنا وأنت ؟

وتراجعت ميزى في كرسيها وقالت :

— بل أنا ومسز ويكس .

وراوغ السير كلود مرة أخرى قائلا :

— هذا استفسار يا طفلي العزيزة ينبغي أن تجيب عليه مسز بيل

نفسها .

أجل . لقد راوغ ولكنها فجأة شعرت — بعد لحظة بدا خلالها كأن
شيئا ما معلق بينهما يتأرجح في تناقل فتهب عليهما من أثر تأرجحه لفحلت
من الهواء — ان المسألة برمتها تجثم فوقهما وفجأة قال :
— أديك مانع من أن أسألك ماذا قالت لك مسز ويكس ؟
— قالت لى :

— فى اليوم أو اليومين اللذين تغيبتهما .
— اتعنى بشأنك وبشأن مسز بيل ؟
واعتمد السير كلود بمرفقيه على المائدة وثبت عينيه على الرخامة من
تحتهما وقال :

— لا . فأحسبنا خضنا فى هذا كثيرا — أليس كذلك ؟ — قبل أن
أغادركما . ويبدو لى أننا تكلمنا عن كل شىء بصراحة تامة . بل أعنى
بشأنك أنت ، وبشأن صحبتك لنا — ان جاز لى هذا القول — وبقائك
معنا .. ماذا قالت لك صديقتنا عندما كنت معها بمفردك ؟
وأحست ميسى بوطأة السؤال ، فلزمت الصمت فترة نظرت فيها الى
السير كلود الذى ظلت عيناه غضيضتين ، وأخيرا أجابته قائلة :

— لا شىء .

فبدا عليه عدم التصديق وقال :

— لا شىء ؟

فكرت ميسى قولها :

— لا شىء ؟

وقطع الحديد هبوط خوان يحمل معدلت افطارهما . وكانت هذه
المعدلات لطيفة ككل شىء آخر ، فقد صب الساقى قهوتها من اناء يشبه
رشاشة الأزهار ، ثم جعلها تزيد بجدول منح من اللبن الساخن انصب

من ارتفاع ذراعه المرفوعة ، بيد أن الاثني ظلا يتبادلان النظرات في جد سقط عنه قناع لتظاهر طوال المنة التي استغرقها هذا الأداء الفرنسي الطريف ؛ وصرف السير كلود الساقى مرة أخرى ليأتيه بشيء ما ، وعندئذ رد على اجابتها بقوله :

— ألم تحاول أن تؤثر عليك ؟

وخيل لميزى وهي أمامه وجها لوجه أن ما فعلته في هذا المضمار كان يسيرا جدا بحيث ألفتة شيئا لا يكاد يستحق الذكر ، ولذا لزمتم الصمت مرة أخرى لبرهة ؛ وبعدها وجلت طريقها الوسطى فقالت :

— ان مسز بيل تميل الآن اليها . وثمة شيء اكتشفته . شيء عظيم . ان مسز ويكس سعيدة برفقتها البالغة نحوها ؛ فقد كانت في منتهى الرقة طوال يوم أمس .

وسألها السير كلود :

— فهمت . وماذا فعلت ؟

وكانت ميزى مشغولة الآن بافطارها ، وهجم رفيقها على افطاره ؛ بحيث بدا الأمر كله في ظاهره على الأقل كالفتما السابقة بل أكثر ، وقالت الطفلة :

— فعلت كل ما استطاعت أن تفكر فيه . فقد كانت لطيفة مثل لطفك

معها ؛ وظلت تكلمها طوال النهار .

— وماذا قالت لها ؟

— أوه . لا أدري .

فقد حير ميزى الحافه عليها في معرفة ذلك ، ولم يكن ذلك موافقا تمام الموافقة لدرجة ألفتة الحميمة بـمسز بيل تلك الألفة التي نددت بها مسز ويكس ، والتي ردهه الآن — وعلى حد قول تلك السيدة — مكبلا

في الأغلل . أليس أدري من ابنة زوجته بما عسى أن يصدر من الأفعال
عن الانسافة التي يرتبط بها ؟ ومع هذا أردفت بعد برهة :
— كانت تقوم نحوها بأفعال الحب .

فنظر السير كلود إليها نظرة حادة ؛ ولا شك ان شيئا ما في لهجتها
الذي جعله يقول لها بسزعة :

— أنت لا تمانين في سؤالي اياك . أليس كذلك ؟

— اطلاقا . ولكنى أحسبك حريا أن تعرف هذا أفضل مما أعرفه أنا .

— ما فعلته مسز بيل أمس ؟

وخيل إليها أن وجهه احمر احمرارا يسيرا جدا ، ولكنها ما ان أحست

ذلك حتى ألفت نفسها في الوقت عينه تجيبه قائلة :

— نعم .. ان كنت قد رأيتها .

فانجبر في أعلى ضحكة ممكنة وقال :

— ولكنى يا فتاى العزيز قلت لك الآن فقط اننى لم أرها اطلاقا ،

اسمى .. ألا تصدقيننى ؟

— وكان ثمة شيء تخافه الآن بحيث طفى على كل المخاوف الأخرى ؛

وسألته بعد برهة :

— ألم تعد كى تراها ؟ ألم تعد — لأنك ترغب دائما في رؤياها أشد

الرغبة ؟

وتلقى استفسارها كما تلقى شكها من قبل : بعدم استياء خارق

للمألوف :

— فى وسمى أن أتصور طبعاً لماذا تظنين ذلك . ولكن هذا لا يفسر

اقدامى على ما أقدمت عليه . ان السبب كما قلت لك الآن فقط فى المنزل

انك أنت التى أردت حقا وصدقا أن أراها .

وشعرت للحظة بما ألفت أن تشعر به عندما كانت تتلقى منه ، هناك في الحديقة في بيت أمها — أعلى دفعة من دفعات الأرجوحة .. فتطو وتعلو وتعلو . تلك الأرجوحة التي ركبها هناك لمتعتها والتي تحطمت في النهاية تحت عبء الطاهية واسرافها في استخدامها :

— هذا جميل . ولكن هل تضي أنك جئت لتراني ثم ترحل مرة أخرى ؟
— ان رحلي مرة أخرى هو لباب المسألة . ولا أستطيع أن أخبرك بعد ، فكل شيء يتوقف ..

فألتة مزي :

— على مسز بيل ؟ انها لن ترحل .

وعندئذ فرغ من احتساء قده قهوته ، ولما وضعه من يده ، مال الى الورا في مقعده ، فتسنى لها أن تراه يتسم صوبها ، فزادها ذلك اعتقادا بأنه في مأزق ، وأنه يتقلب على نحو ما في ألمه ويحاول أمورا مختلفة . وظل على ابتسامه ، واستطردت هي :

— ألا تعرف هذا ؟

— بلى . وأستطيع أن أعترف بهذا مثل اعترافي لك بأنى أعرف أنها لن ترحل . انها ستبقى .

وكررت مزي كلماته :

— انها ستبقى . انها ستبقى .

— بالضبط . أليس لك في مزيد من القهوة ؟

— بلى من فضلك .

— ورغيفا صغيرا آخر بالزبد .

— بلى من فضلك .

فأوما الى الساقى المحوم حولهما ، فجاء بميزاب الوفرة البراق في

- كل يد من يديه ، مبديا أشد اهتمام ودى بالآنسة :
- ها هي شرائح الخبز بالزبد .
- وأعيد ملء فنجانيهما ، وفيما هو يرقب بما يشبه التمعن فقاقيع ذلك المزيج العبقة ، ظل السير كلود يقول المرة بعد المرة :
- بالضبط . بالضبط .
- ولما انصرف الساقى قال لها :
- هذا شيء محير للغاية .
- انها لا تريد أن ترحل ؟
- بل كل شيء . حسنا . حسنا . حسنا !
- واستجمع جأشه وشرع في الأكل مرة أخرى ثم قال :
- لقد عدت لأسألك عن شيء . هذا ما عدت لأجله .
- فقالت ميري :
- أعرف ما تريد أن تسألني عنه .
- أوأثقة أنت جدا ؟
- جدا على وجه التقريب .
- اذن جازفي بقوله . فلا ينبغي أن تجعليني أنا أجازف بكل شيء .
- فأثرت فيها قوة هذه الحجة ، وقالت :
- أنت تريد أن تعرف هل سأكون سعيدة « معهما » .
- فضحك السير كلود وقال :
- مع هاتين السيدتين فقط ؟ لا لا يا صاحبي العزيز . لم تصيبي التخمين . والآن هاك .
- حسنا . ما المسألة اذن ؟
- ولكنه في الدقيقة التالية بدلا من أن يخبرها ما هي المسألة وضع يده عبر المنضدة على يدها وأمسك بها كأنما هو تحت سلطان فكرة ما وقال :

- وهل تبقى مسز ويكس « معها » ؟
- بدوقك ؟ أوه . نعم .. الآن ستبقى .
- بسبب ما أشرت اليه توا من تغير أسلوب مسز بيل ؟
- فجعلت ميزى — بوحى من مسئوليتها — توازن بين تغير أسلوب مسز بيل وبين ضعف مسز ويكس البشرى وقالت :
- أحسبها غيرت لها فكرها بكلامها .
- وفكر السير كلود برهه وقال :
- يا للعززة المسكينة !
- أتعنى بذلك مسز بيل ؟
- أوه . لا . بل مسز ويكس .
- وأسهبت ميزى قائلة :
- انها تحب أن يحتال الناس عليها بالكلام ، وأن تعامل كآى انسان آخر . فهي تحب التهذيب الشديد ، وهو يؤثر فيها تأثيرا بالغا جدا .
- وأبدى السير كلود — لدهشتها — بعض الاعتراض على هذا :
- بالغا جدا .. الى حد ما .
- فردت عليه ميزى بقولها :
- بل الى أى حد !
- أو لم أكن أنا مهذبا معها ؟
- جدا . وهى تعبدك أيما عبادة .
- فلماذا اذن يا طفلى العزيزة لا تدعنى وشأنى ؟
- وفى هذه المرة احمر وجه السير كلود احمرارا لا مراء فيه وقبلا أن تتمكن ميزى مع هذا من الرد على سؤاله الذى كان لابد أن يستغرق وقتا طويلا ، أردف فى لهجة أخرى :
- مسز بيل تعتقد انها ربما تكون قد روضتها . ولكنها لم تروضها .

ومع أنه تكلم بلهجة الواثق ، إلا أن ميزى كانت متمسكة بالانطباع الذى أدلت به لتوها ، والذى كررته الآن مرة أخرى قائلة :

— لقد غيرت لها فكرها بكلامها .

— أجل . حولتها بكلامها الى جانبها ، لا الى جانبي أنا .

ولم تطق سماعه يقول ذلك ، فصاحت :

— الى جانبك ؟ ألا تؤمن حقا الى أى مدى تحبك ؟

وفحص السير كلود ايمانه وقال :

— أنا طبعا أعرف أنها رائعة .

فقالت ميزى :

— انها مثلى تماما فى شغفى بك . وقد قالت لى ذلك بالأمس .

فهمت بسرعة :

— آه . اذن هى حاولت أن تؤثر فىك ! أنا لا أحبها . ألا تدركين

ذلك ؟ أنا أقدرها تمام التقدير ولكنى أعنى أنى لا أحبها مثلما أحبك ،

وأنا واثق أنك لا تتوقعين ذلك منى بشكل جدى . انها ليست ابنتى .

افهمينى يا صديقتى العزيزة . ولا هى حتى أمى ، وان كنت أعتقد أنه

كان خيرا لى لو أنها كانت أمى . وأنا مستعد أن أصنع لها ما كنت حريا

أن أصنعه لأمى ، ولكنى لست مستعدا أن أصنع ما فوق هذا .

واتفجر توفزه الحقيقى فى رغبة قوية لتوضيح موقفه وتبريره ، وان

ظل يحاول مداراة ذلك وتمويهه بالضحك والالتهام وما الى ذلك من

مظاهر الألفة .. وأخيرا باح بما عنده وهو يمسح شاربه بجذبات قوية

عائدا الى موضوع مسز بيل :

— وهل حاولت أن تكسبك بكلامها ؟

فقالت ميزى :

— لا . فهي لم توجه لى من الكلام الا القليل . القليل حقا . فبدأ على السير كلود أنه فوجيء بهذا :

— ألم تكن لطيفة الا مع مسز ويكس ؟

فصاحت ميزى :

— كالسكر .

فبدأ عليه التفكه بهذا التشبيه ، ولكنه لم يجادلها فيه . بل تفوه على العكس بصوت يسير غير واضح المقاطع على سبيل التأمين ثم قال :

— أنا أعرف ماذا تستطيع أن تكون . ولكن ما أكثر ما أجدى عليها

هذا . ان مسز ويكس لن تنقاد . وهذا ما يجعل الموقف حرجا للغاية .

وكانت ميزى تعلم ان الموقف فى غاية الحرج ، وشعرت الآن أنها

كأنت تعرف ذلك منذ مدة ، وكان ثمت شيء آخر يلح عليها اهتمامها

بمعرفة :

— وما الذى جئت خصيصا لتسألنى عنه ؟

فقال السير كلود :

— هذا ما كنت على وشك أن أقوله . والحقيقة أنه سيدهشك

ما ستسمعين .

وكانت قد فرغت الآن من افطارها ، وتراجعت الى الخلف فى مقعدها

مرة أخرى ، وانتظرت فى صمت ما سيقول . وكان قد دفع ما أمامه من

الأشياء قليلا ، ووضع مرفقيه على المنضدة ، وأحست بالاعتناء بأنها

تعرف ما سوف يحدث ، ومرة أخرى كتمت أنفاسها وقاربت بين أجفانها

استعدادا للصدمة ، كما فعلت وهى مع مسز ويكس أخيرا فى حجرتها .

كان على وشك أن يقول لها انها يجب أن تتخلى عنه ، ونظر اليها مرة

أخرى نظرة قوية ، ثم بذل غاية جهده ليقول :

— هل يسعك أن تدعيها ترحل ؟

وتحيرت فسألته :

— أَدع من ؟

— مسز ويكس طبعا . وأنا أضع الأمر في أسوأ صورة . هل يسعك أن تضحى بها ؟ وأنا طبعا أعرف ماذا أطلب منك .

وفتحت ميزى عينيها على سعتهما مرة أخرى ، فقد كان هذا مختلفا أشد الاختلافات عما توقعته وسألته :

— وأبقى معك وحدك ؟

فدفع فنجان قهوته دفعة أخرى وقال :

— معى أنا ومسز بيل . وسيكون الأمر بطبيعة الحال غريبا جدا ؛ ولكن كل شيء في قصتنا كلها شديد الغرابة كما تعلمين . فأى شيء أغرب من أن يتخلى أبوا أى فتاة عنها كما تخلى عنك أبواك ؟ ووافقته ميزى على رأيه ، مستريحة لسماع مثل هذه العبارة التى تزيها الموافقة عليها :

— ما من شيء أعجب من هذا !

واستطرد السير كلود :

— وبطبيعة الحال سيكون مجافيا للمألوف ذلك التكوين الأسرى الذى يتكون من ثلاثتنا . ولكن الأمور تجاوزت هذا المدى . ألا ترى هذا ؟ لقد تجاوزت الأمور هذا المدى منذ زمن طويل . وسنبقى في الخارج على كل حال ، فهذا أسهل ؛ ثم ان المسألة مسألتنا نحن من دون جميع الناس . وليس لأحد بها شأن على وجه الأرض سوانا . ولست أقول هذا القول بسبب مسز ويكس ؛ تلك العريضة المسكينة ؛ فأنا أقدرها كل التقدير وأحترمها وأفهم ما ترمى اليه . وقد أسدت لى الكثير من الخير . ولكن

ها هي الوقائع بكل بساطة ، وهأنذا وأنت . وهي لن تغير رأيها وهي على صواب في وجهة نظرها . وأنا أتحدث اليك بأغرب أسلوب ممكن ، والحق أنني أتحدث اليك دائما بأغرب أسلوب ممكن . أليس كذلك ؟ حتى ليظن المرء أنك في الستين أو نحوها وأنتى .. لا أعرف ماذا عسى أن يظن أى انسان .. سوى أنتى وغد منحط ؟ لقد اتابنى قلق فظيع ؛ وهذا ما تخض عنه الموقف . فقد أسديت أنت الينا أجزل خير ممكن ، وستؤدينه لنا الآن وعلى الدوام . ألا تفهمين ؟ اننا لا نستطيع أن ندعك ترحلين ، لأنك كل شيء . ها هي الوقائع . انها الآن أمك — أعنى مسز بيل — نتيجة لما حدث ؛ وأنا — من نفس الوجهة — أبوك . وليس لأحد أن يمارى في هذا ؛ ولا مناص لنا منه . وأنا أقترح مكانا صغيرا لطيفا في موقع بالجانب حيث تعيشان أنت وهي معا على خير ما يرام . وكذلك ساكون أنا — ألا ترين ؟ لأنى لن أستطيع الاقامة معكما ؛ ألا أنتى ساكون عن كب منكما ؛ على قيد خطوتين ، وكأنى مقيم معكما تماما . وفى رأى أن المسألة يجب أن تكون واضحة تماما وصريحة ؛ ويلحق العار بمن يسىء الظن . وأنت أفضل شيء — أنت وما نستطيع أن نصنعه لك — عرفه كلانا .

واستطرد يقول :

— وعندما أقول لها « تخلى عنها » تصرخ فى وجهى : « تخلى عنها أنت » وتدور فى حلقة فاسدة (١) ، وحين أقول « فاسدة » لا أقصد التورية . ومسز ويكس هي العقبة . أعنى طبعا ان كالت قد أثرت على تفكيرك . وهي قد أثرت على تفكيرى « أنا » . ومع ذلك فهأنذا . ولم أكن

(١) اللفظ الاصطلاحى العربى «حلقة مفرغة» ، ولكن الكلمة بالانجليزية تعنى فاسدة ايضا ، ومعنى الفساد هو الذى يشير اليه المؤلف بعد ذلك .
« المترجم »

في يوم من الأيام في مثل هذا المأزق ، فأرجو أن تصدقيني اذ أقول لك ان هذا وحده هو الذي يحملني على أن أضع الأمور أمامك على هذه الصورة . أليس هذا الوضع يا طفلي العزيزة هو المخرج الوحيد من المأزق ؟ لقد خطر لي هذا بالأمس وأنا في لندن بعد رحيل مسز بيل ؛ وكنت قد قضيت أفضح يوم جهنمي ؛ فقلت لنفسي : « سافر فوراً وضع هذه الفكرة أمامها ، ودعها تختار لنفسها بكل حرية » وهانذا يا فتاتي العزيزة قد فعلت ذلك ؛ ووضعت الأمر أمامك . فهل تستطيعين أن تختاري بحرية ؟ وكان هذا الكلام الذي تفوه به السير كلود في بطنه وتقطع ؛ وهو يتلمل وتلثم ، ويسكت ثم يستطرد ، وقد تزاومت الألوان على محياه وظهرت في عينيه نظرات حرج يطغى عليه توصل ؛ فمس الطفلة عن كتب ؛ حتى انها استطاعت بعد الصدمة الأولى أن تبين وجهته ، وتتبعها من نقطة الى نقطة ، ولا سيما لأن كلامه ارتد في النهاية الى نقطة الابتداء ؛ وكانت ثمة كلمة ظلت تطن طوال المدة التي استغرقها الكلام :

— هل تسمى ذلك « تضحية » .

— بسز ويكس ؟ أنا مستعد أن أسميها بأي اسم تختارينه لها . ولن أجبن أمامه . أنا لم أجبن أمام شيء . أليس كذلك ؟ سأواجهه أيا كانت وضاعته . هل خطر لك أنها وضاعة مني أن أبعلك عنها وأقوم بتهريبك الى هذا الركن كي أرشوك بالأغاليط والخبز المكسو بالزبد لتخونها ؟

— لأخونها ؟

— أجل .. لتفارقها .

وتركت ميزي السؤال معلقا ، لأن الصورة المحسوسة التي تبدى بها كانت أشد جوانبه حيوية ثم سألته :

— وأين تذهب ان أنا فارقتها ؟

— تعود الى لندن .

— بل أعنى ماذا مستصنع ؟

— فيما يتعلق بهذا لست أزعج أنى أدرى . فأنا لا أدرى . وكل انسان لديه متاعبه .

وبدا لها هذا القول فى تلك اللحظة أعجب من المعتاد ، فسألته :

— ومن الذى سيتولى تعليمى اذن ؟

وضحك السير كلود وقال :

— ما تعلمك اياه مسز ويكس ؟

. فارتست ابتسامة واهنة ؛ وقد أدركت ما يرمى اليه :

— انه ليس بالشيء الكثير جدا ..

فأجابها قائلاً :

— بل هو شيء قليل جدا حتى انه من الواجب علينا أن ننظر فى صدره بعين الاعتبار . ولعلنا نأتى لك بمربية أخرى . ثم ائنا لن نستطيع الحصول على مربية من الطراز الوحيد الذى يعول عليه . لن يفلح الطراز الذى يعول عليه .

وفسر لها ذلك بقوله :

— أعنى أنهم لن يرضين بالبقاء . وستقوم نحن بالمهمة بأقسننا . وخصوصا أنا . فأنا الآن أستطيع ذلك ؛ وليس على أن أبالى كما كنت أبالى سابقا . لن أتجنب النزال كما كنت أفعل ، لأنها تستطيع الآن أن تظهر معى . فعلاقتنا فى مجموعها أقرب الى السواء .

بل بليت لها هذه العلاقة سوية بصورة رائعة من طريقة حديثه عنها . ومع هذا تراعت لها صورة هذه العلاقة — وهى تفحصها قدر استطاعتها —

مزيجا بارز المعالم : فثمة امرأة عجوز وفتاة صغيرة جالستان في سكون عميق فوق مقعد عتيق رث قرب التحصينات في أعالي المدينة . وفي مثل هذه الساعة تماما بالأمس كاتا يدا في يد ؛ وقد ذابت مشاعرهما وامتزجت . وأخيرا قالت ميزى :

— لا أحسبك استطعت أن تفهم بعد الى أى حد تتعلق بك .

— بل أفهم ذلك . أفهمه . ولكن مع هذا كله ..

وأطلق زفرة نفاد صبر كظيمة . زفرة انسان استطاعت رفيقته أن تدرك أنها زفرة رجل تعود أن يسمع هذه الحججة ؛ رجل يريد أن يكون معقولا بيد أنه سيتحمل ما لا طاقة له به ان هو اكثرث بكل هذه الأمور . والواقع أنه يفهم الموقف تمام الفهم ، ولئن تعلقت به مسز ويكس ، فهذا سبب أدعى كى ينفض عنه مسز ويكس .

وشغلت سيدتنا الصغيرة بتصور ما جلبته عليه ، في حين نادى الساقى ليسأله عن الحساب ودفغ اليه بقطعة ذهبية مضى بها الرجل ليفكها . وتابعه السير كلود بنظره ثم قال :

— كيف لامرأة بأن تلوم رجلا على ما هو أهون من هذا ؟ أعنى فيما يتعلق بها .

وفكرت ميزى في السؤال :

— نعم . كيف لها بهذا ؟ اذن لماذا أنت واثق برحيلها ؟

— وأنت يقينا قد سمعت السبب . لقد سمعتها تفصح عن نيتها منذ عدة ليال ؟ فكيف يسعها سوى الذهاب ، بعد الذى قالته حينئذ ؟ لقد فعلت ما أرادته منى ؛ وكانت على صواب تماما . وها نحن أولاء .. وميلها الى مسز بيل — كما تقولين الآن — باعث كاف ، بالاضافة الى أمور أخرى ؛ كى يجعلها اكراما لك تبقى بدون بقائى . ولكنه ليس باعثا كافيا

كى يجعلها — ولو اكراما لك — تبقى مع بقائى ، وأن « تبسلف »
ما لا تستطيع ابتلاعه . فاذا قلت انها متعلقة بى كتملك بى ؛ أحسبى
مستطعا أن أتحداك فى هذا الصدد بعض الشيء . هل تقبلين البقاء مع
هاتين الاثنتين فقط بدونى ؟

وعاد الساقى ببقية النقود ، فأتاح ذلك لها مهلة ، ثم انصرف بالهبة
التي تلقاها بالشكر بعد أن أوما إليها السير كلود بسببته ، وفيما كان
السير كلود يدس النقود فى جيبه واصل مناشدته لها :

— هل أنت حرية أن تسمى لها بحملك على الحياة مع مسز بيل ؟
وعندئذ أجابه ميسى :

— بدونك ؟ مستحيل . ومستحيل .

— فأص بالنصر ؛ واهتزت هى شخصيا لما سمعت . وصاح .

— ها أنت ترين أنك لست مثلها مستعدة للتخلى عنى .

ثم عاد الى سؤاله الأسمى :

— هل فى استطاعتك أن تختارى ؟ أعنى هل فى وسعك أن تصمى

المسألة بكلمة منك ؟ هل تهلين البقاء معنا بدونها ؟

وشعرت الآن ببرودة فرعها ؛ وخيل إليها أنها عرفت فجأة ما الذى

تخافه ؛ كما تعرف ما الذى يخافه السير كلود . كانت خائفة من نفسها ؛

فنظرت اليه بطريقة جعلت الدهشة تقفز الى محياها بحيث تبينتها فيه .

الا أنها كانت دهشة يكبح من جماحها ما عقد عليه عزمه الصريح من توخى

الأمانة معها . وآلا يستغل عواطفها نحوه ، والآ يتعجلها ، وانما مراده فقط

أن يضع أمامها الفرصة المتاحة لها بوضوح وحنان . وأخيرا سأله :

— هل لى أن أفكر فى الأمر ؟

— بالتأكيد . بالتأكيد . كم من الوقت يلزمك للتفكير ؟

فقلت بدمائه :

— أوه . فترة يسيرة فقط .

فبدأ عليه برهة أنه يريد أن يظهر المرح والسرور ، وقال :

— ولكن ماذا نصنع في المدة التي تفكرين فيها ؟

وكانما التفكير يمكن أن يتفق مع أى لون من ألوان التسلية تقريبا ،

ولم يكن ثمة شيء واحد تريد ميزي أن تصنعه ، وبعد لحظة أعربت عنه

كالتالي :

— هل يجب أن نعود الى الفندق ؟

— أتريدين العودة ؟

— أوه . لا .

فأرخت عينيه فأنظرا الى ساعته ، وقد اكتسى وجهه طابع الجد :

— لا ضرورة لذلك اطلاقا . ففي وسعنا أن نصنع أى شيء في الدنيا .

ونظر اليها مرة أخرى وكأنه على وشك أن يقول لها ان في وسعنا

مثلا التوجه الى باريس . ولكن حين كانت تتساءل هل سيحدث هذا

فعلا هبطت حماسته فجأة وقال :

— في وسعنا أن تمشي .

وكانت مستعدة لذلك ، بيد أنه ظل جالسا وكان لديه ما يقوله أكثر

من ما تقدم . ولكن هذا أيضا لم يتمخض عن شيء ، فقالت :

— أحسبني أحب أن أرى مسز ويكس أولا .

— قبل أن تصدرى قرارك ؟ وهو كذلك . وهو كذلك .

وكان قد ارتدى قبعته ، ولكنه انتظر حتى أشعل سيجارة ، ولبث

دقيقة يلخن ، وهو ملق برأسه الى الوراء ناظرا صوب السقف ، ثم قال :

— ثمة شيء يجب أن تذكره : من حقى أن أقرض عليك ادراكه :

اتنا في مقام والديك بالضبط ، فقصورهما وخاستهما الخارقة للمألوف
هما اللذان تيبا في نشوء مسئوليتنا . فلم يسبق لشخص حديث السن
أن عهد به مباشرة على هذه الصورة ..

وكان كمن يفضى بهذا الكلام الى السقف ، من خلال دخانه ، لمعلوماته
الخاصة ، وبعد برهة من التوقف استطرد :

— وان كنت أعترف ان ذلك حدث بالنسبة لكل منا على حدة .

وزودها باحساس شديد — في تلك اللحظة في ذلك الموقف — برغبته
في أن يقف في جانبها — ذلك الجانب الذي يعتبره من جميع الوجوه
أصوب وأحكم وأبدع الجوانب بالنسبة لها — حتى انها شعرت برغبة
مفاجئة في أن تثبت أنها ليست أقل شهامة ولا أقل قلقا على مصالحه .
وما هذه المصالح مالم تكن الحالة « السوية » التي تحدث عنها منذ قليل ؟
وبهذه الروح الجادة قالت له :

— كان ذلك الى كل منكما على حدة . ولكن ألا تذكر ؟ أنا التي
جمعت بينكما .

فوثب واقفا وهو يضحك في جذل :

— ألا أذكر ؟ بلى . لقد جمعت بيننا . أفت التي جمعت بيننا . هيا

بنا .

الفصل الحادى والثلاثون

بقيت معه فى الخارج مدة من الزمن لم تستطع أن تقدر مداها الا بأنها كانت أقصر مما أرادت لها أن تكون . أقصر من أن تكون فاصلا ، وحاجزا حاسما لا يمكن تخطيه . فقد شرعا يتجولان ، ويتلكان ، ويتطلعان الى واجهات الحوانيت ، وفعلا كل ما كانا يفعلانه سابقا كأنهما يريدان بذلك أن يتردا الأمان القديم ، وينفضا عنهما شيئا كانا يجدانه فى نفسيهما من قبل . وكان ذلك يحدث لهما فيما مضى من غير محاولة . ولكن شيئا لم يحدث الآن سوى الاحساس المتوتر بالطلب ، وبالخداع . وأغرب ما فى الأمر كله ما حدث بالفعل لذلك الأمان القديم . وقد صار السير كلود وصارت مسز ييل حرة ، ومع هذا فان « الوسط » الجديد أشد اعناتا من الوسط القديم . ووسعها أن تشعر بأن السير كلود يوافقها على أن ذلك الاعنات حرى أن يكون على أشده فى النزله ، حيث سيحسان — الى أن تسوى الأمور — بالحاجة الى شيء ما .. شيء ماذا سيسميانه ان لم يسمياه أساسا مستقرا ؟ وزاد تبلج موضوع التسوية أمام ناظرها . واختيارها كما سماه صديقها مائل أمامها وكأنه مسألة حساب عسيرة مكتوبة على اللوح ، مسألة مهما تعلت بالتفكير فهى لا تفعل سوى التملص منها وهى تتجول بجانبه . يجب أن تقابل مسز ويكس قبل أن تحل مسألتهما . ولذا فكلما طالت المدة قبل أن تقابلها بعدت الشقة أيضا بينها وبين محتتها . ولم تواجه أى مطلب من المطالب التى تواجهها ، بل تحاشت ذلك بالاستفراق فى صحبة السير كلود لم تر شيئا مما كانت

تراه من قبل . لم تر أى لمسة فى الصورة الأجنبية من اللمسات التى كانت تترأى لها دائما . وكانت اللسة الوحيدة التى أحست بها هى لمسة يد السير كلود ، فكان احساسها بيدها وهى فى يده هو مقاومتها الصامتة للزمن . ومضت فى طريقها لا ترى شيئا وكأنه يقودها وهى مغمضة العينين . فلئن كان خوفها من نفسيهما ، فنفساهما هما اللتان سيجدانها فى النزول . انها موقنة الآن أن ما ينتظرهما هناك هو الغداء مع مسز بيل . وكانت غريزتها بأسرها تدعوها الى تجنب ذلك ، وأن تطيل سيرهما وأن تجد المبررات كى تأخذه الى الشاطئ ، والى نهاية رصيف الميناء . ولم يقل لها كلمة أخرى عن الموضوع الذى تحدثا فيه على مائدة الافطار . وتكون لديها تصور غامض عن كيف أن طريقته فى عدم تركها تراه ينظر بوضوح الى أى شىء من جانبها ، يمكن أن تجعل أى انسان يعرف عن هذه المسألة شيئا — وليكن مسز ويكس مثلا — يظنه سيذا مهذبا أكثر من أى وقت مضى . أجل انه مرة أو مرتان على حاجز الأمواج ، وعلى الرمال تطلع اليها دقيقة بعينين كأنهما تقترحان عليها أن تمضى معه على القور الى باريس . ولكن ذلك لم يكن من شأنه مع هذا أن يخزها فى صدد مسئوليتها . فلا شك فى أنه يرمى الى المظل مثلما رمت هى اليه ؛ ولم يكن أكثر تعجلا منها على الاطلاق للعودة الى الآخرين .. ووسع ميزى فى تلك اللحظة أن تكون عديمة الرحمة سرا بـمسز ويكس ، الى حد أنها لم تبال بأن يحسب استمرار اختفائها قلقا لتلك السيدة على ما عسى أن يكون حدث لها ، بل انها ربما شرعت تتساءل عن هذين الشاردين وهل عساهما وجدا خلاصهما . ولم يكن افتقارها الى الرحمة بخصوص مسز بيل أقل من هذا ، لأن قلق مسز بيل وتساؤلها حريان أن يكونا فى جسامة الغاية التى يتجهان الآن صوبها . وعند الطرف الأقصى للشاطئ الذى

اجتازاه مرة وسط زحام متعدد الألوان صاح السير كلود فجأة وهو ينظر الى ساعته ينبها الى أن الوقت قد حان للعودة الى المائدة العامة ، بل للذهاب الى المحطة لاستقبال صحف باريس . وعندئذ ألقت نفسها تفكر أشد التفكير فيما عسى أن تقول مسز بيل ومسز ويكس . وفي طريقها الى المحطة تراعت لذهنها صورة زوج الأم والتلميذة وقد استقر بهما المقام في مكان صغير بالجنوب ، في حين أقامت زوجة الأب والمرية في الشمال ، وظل الطرفان مرتبطين بجامعة مشتركة بينهما من الذهول ومن التعليقات التي لا نهاية لها التي سيثيرها هذا الوضع . وصلت صحف باريس ، ولم يكن ما اشتراه رفيقها في اسراف غريب أقل من احدى عشرة صحيفة ، وقد استغرق تحوسبهما حول مكان بيع الصحف والكتب فوق الرصيف الفائر بالحركة بعض الوقت ، وكانت المجلدات الصغيرة المصنوفة كلها صفراء وقرمزية ، واستطاعت احدى المعجزة الأثيرات عندها وهي ذات قلنسوة من القلنسوات العتيقة الأثيرة عندها أن تستدرجه الى شراء ثلاثة منها ، وصار حملها كبيرا جدا بحيث خيل اليها أن الأبط أن يقوما رأسا بمثل هذا الزاد برحلة يخترقان بها فرنسا ، وذلك بأن يندسا — على حد تعبيرها نفسها — في عربة القطار الواقع على مسافة يسيرة في انتظار القيام . وسألت السير كلود عن وجهة القطار فقال :

— الى باريس . تصورى ا

وكان في وسعها أن تصور ذلك بمنتهى اليسر . ووقفا هناك وابتسما هو بجميع الصحف تحت ابطه ، وهي بالكتب الثلاثة وأحدها أصفر والاثنان الباقيان أحمران . وكان قد أخبرها أن الأحمرين لها ، وأن الأصفر لمسز بيل ، ملمحا بأسلوب رشيق الى أن هذه هي طريقة التقسيم الطبيعية في

فرنسا للتمييز بين أدب الصغار وأدب الكبار . وكانت مدركة لمبلغ استعدادهما لركوب القطار من حيث المظهر ، وسرعان ما قالت لرفيقها :

— أتمنى لو استطعنا أن نساfer : أفلا تأخذني ؟

وواصل ابتسامته :

— وهل تأتين معي حقا ؟

— أوه نعم . أوه نعم . جرب !

— أتريدين مني أن أبتاع تذكرتينا ؟

— نعم . ابتعهما .

— بدون أيما أمتعة ؟

فأرته ما يملأ حننيهما ، وابتسمت له كابتسامته لها ، بيد أنها كانت شاعرة بأنها كانت أشد فزعا من أي وقت مر بها في حياتها حتى لقد خيل إليها أنها ترى شحوب وجهها كما لو كانت تنظر في مرآة . ثم أدركت أن الشحوب الذي تراه أمامها إنما هو شحوب السير كلود ، فهو اذن مرتاع كارتياحها . وسألته :

— أليس لدينا من الأمتعة الشيء الكثير ؟ هات التذكرتين . أليس ثمة

وقت ؟ متى يقوم القطار ؟

والتفت السير كلود الى جمال وسأله :

— متى يقوم القطار ؟

فنظر الرجل الى ساعة المحطة وقال :

— بعد دقيقتين . هل حجز السيد مكانه ؟

— ليس بعد .

— وتذكرتاكما ؟ ليس أمامكما للحصول عليهما .

وبعد أن ألقى نظرة على ميزي قال :

— أريد السيد أن آتية بهما ؟
 قالتفت اليها السير كلود وسألها بالفرنسية :
 — أتريدين أن يأتينا بتذكريتين ؟
 فحدث لها أعجب شيء في الدنيا : ذلك أنها في غمرة توفزها لم تفهم
 كل ما تفوه به من حديث باللغة الفرنسية فحسب ، بل انها اندمجت في ذلك
 الحديث أيضا على أتم وجه ؛ فخاطبت الحمال رأسا قائلة بالفرنسية :
 — هاتهما . هاتهما . أوه . هاتهما !
 — آه . ما دامت هذه ارادة الآنسة ..
 وانتظر الرجل أن تمتد اليه يد بالنقود ؛ الا أن السير كلود لبث يحملق
 فيها بوجهه الشاحب ثم قال :
 — أنت اذن قد اخترت ؟ ستدعينا نرحل ؟
 فحولت ميزى نظراتها الى القطار باشتهاء ، حيث كانت أطلت الرؤوس
 من النوافذ وصنفت الأبواب بين صيحات :
 — اركب . اركب !
 وقال الحمال في الحاح :
 — آه . لم يعد لديكما ما يكفى من الوقت ا ..
 وصاحت ميزى :
 — انه يتحرك . انه يتحرك !
 وراحا يرقبانه وهو يتحرك . ثم وهو يقوم . ثم ذهب الرجل لحال سبيله
 وهو يهز كتفيه ، وقال السير كلود :
 — لقد مضى .. !
 وزحفت ميزى فوق الرصيف مسافة ما ؛ ووقفت هناك وظهرها الى
 رفيقها ، تتابع القطار بعينها وهي تحبس الدموع ؛ محتضنة كتبها الحمراء

والصفراء . وكان قد اتابها فزرع حقيقى بيد أنها ثابت الى أرض الواقع .
والمعجب أن خوفها وقع بوقوعها على الأرض وتحطم . لقد ذهب عنها فزعها ،
وتلفتت حولها أخيرا ، من حيث وقفت ، لترى ماذا حدث لنزع السير
كلود ، فاذا به لم يفارقه بل جلس معه على المقعد الخشبى الملاصق لجدار
المحطة الذى انسحب السير كلود اليه وأسند فى جلسته ظهره حيث لبث
ينتظرها ، وقد ألفت منظره غريبا ؛ فذهبت اليه ؛ وراح يواصل محاولاته
العقيمة فى المزاح ، فقالت له :

— نعم . لقد اخترت . سأدعها ترحل اذا أنت .. اذا أنت ..

وتلعثت ، ولاحقها بسرعة :

— اذا أنا .. اذا أنا .. ؟

— اذا أنت تخليت عن مسز بيل .

فهتف :

— أوه !

فتبينت من ذلك مدى خوفه خوفا يائسا . وكالت قد ظنت فى المقهى
أن خوفه ناجم عن تمرده واستجماع دوافعه . ولكن كيف يكون ذلك
وغواياته — كغواية القطار الذى فاتهما لتوه مثلا — هينة الى هذا الحد
بعد كل شيء ؟ لقد كانت مسز ويكس على حق . فهو خائف من ضعفه ..
ضعفه هو مصدر خوفه .

ولم يكن فى وسعها أن تخبرك ذلك كيف وصلا الى التزل : بل كان
قصاراها أن تقول لك انها حتى من هذه الناحية لم يكن مسيرهما الى
هناك رأسا ، بل تجولا مرة أخرى وتسكعا ، فألفيا نفسيهما فى غضون ذلك
على حافة رصيف المرسى حيث كانت السفينة الذاهبة الى فولكستون
واقفة ، وأمامها على ما يظهر نصف ساعة قبل الرحيل . فظلا يتكآن هناك

كما تلكاً في المحطة ، وتبادلا الصمت مرة أخرى ؛ ولا شيء غير الصمت . وكان المواظبون على المواعيد من الركاب قد اعتلوا ظهر المركب ليتخبروا من الأمكنة أفضلها ، وظفر بعضهم بمرادهم فعلا واستقروا متدثرين بالشيلا ن مولين وجوههم شطر انجلترا ، ورئيس الخدم الذي يتفرغ في يوم كهذا للمهام اليسيرة منصرف الى لف أقدام السيدات بالدثارات وفتح الزجاجات محدثا بفتحها فرقة . وجعلا ينظران الى هذه الأمور كلها من غير أن يتفوها بكلمة ، بل وتخيرا مكانا حسنا لشخصين ظل شاغرا في حمى زورق النجاة ؛ فلئن ظلا في تسكهما الأبله لا يقرران الصعود الى المركب ولا يقرران الانصراف ، لأن السير كلود وهي معا لم يهما بالحركة . وكان السير كلود هو الذي فرض هذا السكوت المطبق الذي كانت تعرف ما يعنيه به تمام المعرفة . انه يعنى ببساطة أنه يعرف كل ما تعنيه هي . الا أنه لم يكن ثمة ادعاء للمزاح في الوقت الحاضر ، فوجهاهما صارمان مجهدان . وعندما انصرفا متمهلين في سيرهما آخر الأمر أحست كأن خوفه من ضعفه ينيخ فوقهما ماضيان في طرفهما على طول المرفأ . وفي بهو الفندق رأت عند دخولهما صندوقا رثا عتيقا عرفته ؛ ووعاء قديما تتدلى منه بطاقات تعرفها أيضا ، مكتوب عليه حرف « و » كبير الحجم ، أعيد طلاؤه أخيرا فبدا كأنه يحملق فيها بما يدل على معرفته اياها ، بل بشيء من الارتياب على طريقته الخاصة . وراه السير كلود أيضا ؛ واتابها كليهما الاضطراب حين أبصرا ذلك الشيء على أهبة التحرك . فهل مسز ويكس مزمنة أن ترحل ، وهل ارتفعت مسئولية التخلي عنها فجأة عن كاهل تلميذتها ؟ وتسمرت تلميذتها ورفيق تلميذتها في مكانهما برهة أمام هذا النذير ؛ وقد سادهما تفاهم أعق مما استولى عليهما أمام قطار باريس وأمام باخرة المائس . ثم صعدا رأسا بعيدا عن أنظار من في الطبقة السفلى الهارت قواهما حتى انها اضطرا

الى الطبقة العليا من غير أن ينسا بكلمة واحدة . وهناك ؛ عند رأس السلم ،
للتعود معا التماسا لسند ، فجلسا على الدرجة العليا في حين أمسك السير
كلود بيد ابنة زوجته وضغط عليها ضغطة لعلها كانت حرية في مناسبة
أخرى أن تجعلها تصرخ ، وتبعثرت كتبها وصحفها جميعا ، وقال :

— لقد خالتك تخليت عنها !

فقالت ميري :

— اذن يجب أن أراها . يجب أن أراها .

— لتقريئها الوداع ؟

فلم تزد الطفلة على أن كررت قولها :

— لا بد أن أراها . لا بد أن أراها .

وجلسا بعد ذلك برهة والسير كلود قابض على يدها تلك القبضة
المشددة ونظره مشيح عنها ملقيا به الى أسفل السلم الى حيث كانت ترن
الأجراس الكهربائية وراء ثنية السلم ويهب نسيم البحر . وأخيرا خفف
قبضته عنها ونهض قائما فنهضت مثلما نهض ؛ وسارا معا على طول الدهليز ،
الا أنه وقف مرة أخرى قبل أن يبلغا الصالون وسألها :

— اذا أنا تخليت عن مسز بيل .. ؟

— خرجت معك على القور مرة أخرى ولم أعد الا بعد رحيلها .

وبدا عليه العجب :

— الا بعد أن ترحل مسز بيل ؟

ونطق بعبارة كأن المسألة مزحة سخيفة ، فقالت :

— بل أعنى بعد أن ترحل مسز ويكس .. على تلك السفينة .

فبدا السير كلود كالأبله وسألها :

— أهي مسافرة على تلك السفينة ؟

فاستطردت میزی :

— أظن هذا . بل انى لن أقرئها الوداع ؛ وسأبقى فى الخارج الى أن
تقلع السفينة . سأصعد الى التحصينات العتيقة .
— التحصينات العتيقة ؟
— سأجلس على ذلك المقعد الخشبى القديم الذى تشاهد منه العذراء
الذهبية .

فردد قولها فى غموض :

— العذراء الذهبية ؟

ولكنه لم يلبث أن ارتد اليها يبصره كأنما استطاع بعد برهة أن يتبين
المكان والشئ الذى ذكرته له بهذا الاسم . وأن يتبينها جالسة هناك
وحدھا ؛ وقال :

— الى أن أقوم أنا بقطع صلتى بمسز بيل ؟

— الى أن تقطع صلتك بمسز بيل .

فندت عنه زفرة طويلة عميقة مكتومة ؛ وقال :

— يجب أن أراها أولا .

— ألن تفعل مثلما أفعل ، فتخرج وتنتظر ؟

وبلت عليه الحيرة مرة أخرى وقال :

— اتظر ؟

فقال میزی :

— الى أن تكون كلتاهما قد رحلتا .

— متخيلتين عنا ؟

— متخيلتين عنا .

يا للوجه الذى بلت عليه لحظة علائم تساؤله ان كان ذلك فى الامكان .

يد أن تساؤله لم يزد على أن دفع به في اللحظة التالية صوب الباب . ووقف
ويده على القبض كأنه يتسقط الأصوات . وأصفت مزي فلم تسمع شيئا.
فكل ما سمعته بعد قليل هو قول السير كلود بتفكر كظيم وبحيث لا يسمعه
من الصالون :

— مسز بيل لن ترحل .

وما ان قال هذا حتى دفع الباب ففتحه فدخلت منه معه ، فاذا الصالون
خاو . ولكن السيدة التي ذكر اسمها أخيرا لم تلبث أن ظهرت على باب
حجرة النوم كأنما استثمرت دخولهما ، فسألها :
— أهي راحلة ؟

وأقبلت مسز بيل بعد أن أغلقت بابها وراءها وقالت :
— لقد جرى لي معها اليوم أغرب نزاع . وكانت قد أخبرتني بالأمس
أنها ستبقى .

— ثم غير وصولي من قرارها ؟

— أوه . لقد أدخلنا ذلك في حسابنا .

واحمر وجه مسز بيل ؛ ولم يكن الاحمرار مما يوافقها اطلاقا ؛ ونم
وجهها بوضوح على الصدام الذي أشارت اليه . وكان جليا مع هذا أنها لم
تخرج منه مهزومة ، فشمخت برأسها وفركت يديها بصورة تنافس حركات
ربة المنزل ، وقالت :

— لقد كان وعدا لي أنها ستبقى في حالة قدومك .

— اذن لماذا غيرت رأيها ؟

— لأنها كلبة ! ان البب الذي أدلت به شخصيا أنكما لبثما في
الخارج مدة أطول مما ينبغي .
وحملق السير كلود وقال :

— وما علاقة هذا بذلك ؟

فاستطرد مسز بيل :

— لقد لبثنا في الخارج دهرًا ، ولم أستطع شخصيا أن أتصور ماذا حدث لكما . لقد غبتما طول فترة الصباح ، وها قد انتهى الغداء منذ وقت طويل .

وبدا على السير كلود عدم الاكتراث بها وسألها :

— هل نزلت معك مسز ويكس ؟

فازداد احتقان وجه مسز بيل — على ما بدا لميزي — وقالت :

— لم تنزحزح من مكانها على الاطلاق . انطوت على حزنها هناك ، وأبت حتى أن تخرج الى ، ولما أرسلت في دعوتها رفضت أن تظهر وقالت أنها لا تريد شيئا فنزلت وحدي ، ولكنني عندما صعدت وقد تعبت لحسن الحظ بعض الشيء .

وهنا ابتسمت مسز بيل ابتسامة نزال وأردفت :

— كانت قد برزت الى الميدان ا

— وهل وقعت بينكما مصادمة كبيرة ؟

فأقرت بذلك في صراحة عظيمة :

— وقعت بيننا مصادمة كبيرة . والآن أريد أن أعرف أين كنتما طيلة

الوقت الذي تركتاني فيه أواجه هذا الأمر وحدي ا

وتوقفت في انتظار الجواب . ولكن السير كلود لم يزد على أن نظر

الى ميزي نظرة زادت تحديها اشتعالا :

— في أي بلية كنتما ؟

فأجابها السير كلود :

— يبدو أنك تأخذين هذا الأمر مأخذا غنيفا كمنز ويكس تماما .

— انى آخذه على الوجه الذى يحلو لى . هذا ليس جواب سؤالى .
ومرة أخرى نظر الى ميسى ، كأنه يلتمس منها العون ، فابتسمت
لزوجة أبيها وتطوعت بالرد :
— كنا فى كل مكان .

ولكن مسز بيل لم ترد عليها ؛ فأضافت بذلك الى الدهشة التى كانت
سيدتنا الصغيرة قد أحست بوادرها ، فهى لم تحظ بترحيب ولا نظرة ،
بيد أن هذا لم يكن أكثر استرعاء للنظر من اغفالها بازاء السير كلود الذى
فارقها فى لندن منذ يومين لآى اشارة تدل على ارتباطهما . وكان الأعجب
من هذا تصريح مسز بيل بالتمهد الذى قطعتة مسز ويكس على نفسها
ولم تكن تلميذتها تعرف عنه شيئا .

وبدلا من أن تحسب حسابا لوجود هذه الشاهدة مضت تقول
بفظاظة :

— كان ينبى أن يخطر لك أن شيئا ما قد يحدث .
فنظر السير كلود الى ساعته وقال :

— لم يخطر ببالى ان الوقت قد تأخر هكذا ، ولا أنا لبنا فى الخارج
كل هذا الوقت الطويل . فنحن لم نشعر بالجوع ؛ ومر الوقت كومضة
البرق . ولكن ما الذى حدث ؟

فقالت مسز بيل :

— أوه . حدث أنها شعرت بالتقزز .

— ممن ؟

— من ميسى لتجردها من الاحساس الخلقى .

وحتى الآن لم تشمل بنظرة واحدة الطفلة التى وقفت هناك مشاركة

في الموقف ومنفصلة عنه في آن واحد . وحاول السير كلود أن يلعب في
نظر رفيقه نزهته :

— وكيف يمكن أن يكون لديها شيء من هذا ؟ وكيف على كل حال
يُثبت عليها هذا الاتهام من مجرد خروجها معي ؟
فقالت مسز بيل :

— لا تسألني « أنا » . بل سل تلك المرأة . فهي اما أن تلتقي الكلام
على عواهنه أو تصخب .
— وهل تترك الطفلة ؟

فقالت مسز بيل بضغط شديد على الحروف ؛ وهي ماضية في النظر
فوق مستوى رأس ميزي :
— ستترك الطفلة .

وفجأة طرأ على وجه ميزي تغير وهي في هذا الوضع ، وسبب هذا
التغير — كما استطاع الآخرون أن يرباه بعد ذلك — هو ظهور مسز
ويكس في فرجة الباب الذي تركه ميزي منفرجا بعد دخولها في أعقاب
السير كلود ، وهدرت مسز ويكس صائحة وهي تتقدم صوب الثلاثة
المتناظرين :

— أنا لا أترك الطفلة . لا أتركها . لا أتركها .
ووجهت هذا الكلام الى ميزي رأسا . وكانت قد تمنظقت ،
بل وأسرجت للرحيل ؛ في الزى بعينه الذي قدمت به ؛ وتسلمت بكيس
صغير من الشبك مكتنز صديء ؛ وراحت تلوح به معززة كلامها وكأنه
بلطة القتال . وكان واضحا انها جاءت من حجرتها رأسا . حيث خمنت
ميزي في مدى لحظة واحدة أنها أشرفت على نقل أمتعتها الصغرى :

— أفا لن أتركك الا بعد أن أمنحك فرصة أخرى . هل تريدان
أن تأتي معي ؟

فالتقت ميري صوب السير كلود الذي خيل اليها أنه ابتعد عنها
قراة الميل ؛ أما مسز بيل فلم تلتفت ميري اليها الا بمقدار ما حظيت من
مسز بيل بالالتفات ؛ لأنها شعرت وكان ما بينهما من خلاف قد انتهى
أمره . فما الذي ظهر من أمر هذا الخلاف في الصدام الذي وقع بين
المرأتين ؟ ان ما ظهر منه الآن كاف على كل حال ، اذ قالت لزوج أمها
بصورة عملية :

— أتريد أن تأتي ؟ أتريد ؟

سألته وكأنها لم تتبين بالفعل أنه سيكون عليها أن تتخلى عنه . وكانت
هذه هي الجذوة الأخيرة لحلما . فهي الآن لم تعد تخاف شيئا .
وقالت لها مسز ويكس :

— كان ينبغي أن يكون لك من الكبرياء ما يمنحك من توجيه هذه
السؤال .

وكانت كبرياء مسز ويكس حينئذ بادية للعيان جدا .
وما ان سمعت مسز بيل كلمات الطفلة حتى وثبتت صائحة :
— يتعد عنى يا ميري ؟

فكانت كلمتها اعوالة فزع وملام أدهش ابنة زوجها أن تتبين منها
أنها لا تكن لها شعورا عدائيا ؛ وأنها انما أبدت الترفع لا لما خامرها من
الارتياب ؛ بل عن افراط غريب في الحياء ..

ووجه السير كلود الى مسز بيل نظرة تدل على الاشمئزاز وقال :
— لا تصورى لها المسألة على « هذا » النحو .

وكان في لهجة مسز بيل في الواقع شيء ما أذكر سيدتنا الصغيرة برهة
بالأيام العابرة التي كان فيها الكثيرون من أصدقائها « في مازق » .
واحمر وجه هذه الصديقة . فهي في مواجهة مسز ويكس ؛ ومع أنها
تسامخت الا أنها أدركت المراد بهذا التلميح :

— لا . ليست هذه هي الطريقة .

ثم أظهرت معرفتها للطريقة المثلى ؛ فقالت :

— لا تزيدى في حماقتك يا عزيزتى ؛ واذهبي رأسا الى حجرتك
واتظري هناك الى أن أتمكن من القدوم اليك .

ولم تبد ميزى حركة تدل على الطاعة ، بيد أن مسز ويكس رفعت
يدها لتقطع الطريق على كل مراوغة :

— لا تبرحى مكائك الى أن تسمى ما سأقول . « أنا » راحلة ؛
ولكنى يجب أن أفهم أولا : هل فقدته مرة أخرى ؟
وقتشت ميزى بعينها بحثا عن ذلك الفقدان الذى لا يوصف في أرجاء
القضاء ثم أجابت في عجز :

— أشعر اننى فقدت كل شيء .

فتجهمت مسز ويكس وقالت :

— هل تعنين بهذا أنك فقدت ما عثرنا عليه بعد عناء شديد جدا منذ

يومين ؟

ولما لم تجب تلميذتها ؛ استطردت :

— أتريدين أن تقولى انك نسيت بالفعل ما عثرنا عليه معا .

وعندئذ تذكرت ميزى بضموض فقالت :

— احساسى الخلقى ؟

— احساسك الخلقى . ألم أوضح لك ذلك بعد بكل شيء ؟

وكانت تتكلم كما لم تتكلم من قبل في حجرة الدراسة والكتاب في يدها . وأعاد ذلك الى ذاكرة الطفلة كيف أنها كانت تعجز أحيانا في يوم الجمعة عن ترديد جملة كان لسانها طلقا بها يوم الأربعاء ؛ ووجدت نفسها في هذا المسلك الوعر تبدو في منتهى الضعف والاستكائة ، والسير كلود ومسز بيل يقفان كأنهما ضيفان في ساعة امتحان . وكان لديها في الواقع فحة من تلك الزهرة الشاحبة التي زعمت مسز ويكس أنها قطفتها وراحت الآن تدفع بها بيد متلهفة الى أنفها ، ثم غادرتها ؛ فاهتز ذراعها كأنها توشك أن تنزلق . فكانت هذه الهزة دليلا على ارتجافة في دخيلتها أعمق مسريا من الاحساس الخلقى ، ونظرت الى امتحنتها ، ونظرت الى الزائرين ، وشعرت بالدموع التي جبتها في المحطة تنظر الى عينيها . كلا . لا صلة بين هذه الدموع — لا صلة اطلاقا بالاحساس الخلقى . وكل ما استطاعت أن تجيب به هو الذريعة القديمة المخجلة البلاء التي كثيرا ما تذرعت بها في حجرة الدراسة :

— لا أعرف . لا أعرف .

— أنت اذن قد فقدته .

وبدت مسز ويكس كأنها تطلق الكتاب ، وثبتت مثبتاتها على السير كلود وقالت :

— لقد قتله في مهده . قتله حين بدأت تدب فيه الحياة .

لقد غلت مسز ويكس جديدة تماما . مسز ويكس سامية وعظيمة . ولكن السير كلود لا يجوز بعد كل شيء أن يعامل كما لو كان صبيا صغيرا لم يحفظ درسه . فقال :

— أنا لم أقتل شيئا . بل بالعكس أوجلت حياة . لست أدري ماذا

أسميها . بل ولم أدر كيف أعاملها كما ينبغي أو أدنو منها . ولكننا مع ذلك أجمل شيء التقيت به في حياتي . فهي شيء بديع ومقدس .
وكان واضعا يديه في جيبه ، ومع أن بقية من اشمزازه ظلت عالقة
بمحياء ، الا أنه أطرق بذلك المحيا في رقة بالغة صوب صديقتيه اللتين
صار على وشك فقدائهما وسأل كبراهما :

— أتعرفين لماذا علت ؟

فصاحت مسز ويكس من غير أن ترق — ويا للمعجب — قلبها ،
ولم تزل حرارة اشتباكها الأخير مع مسز بيل تظلل جبينها :

— أحسبني أعرف ا

وكانما أصاب مسز بيل رشاش من هذا المد والجزر ، ففاهت باحتياج
عال غير واضح اللفظ ، ثم أشاحت عنهم ووقفت برهة أمام النافذة . وقال
السير كلود :

لقد علت باقتراح .

فسألت مسز ويكس :

— لى أنا ؟

— لميزى . أن تخلى عنك .

— وهل تخلت عنى ؟

وتردد السير كلود ، ثم صاح بالطفلة ، وهو يتعمد أيضا ليرك لها
الفرصة :

— قولى لها .

ولكن مسز ويكس وتلميذتها وقتتا متقابلتين في صمت . وقد ازدادت
ميزى شحوبا على شحوبها ، وازدادت ارتباكًا ، وتصلبا ، وبكما . وأخذت

كل منهما ترمق الأخرى فاحصة . ولما وجد السير كلود أنهما لا تتكلمان ،
حول وجه اليهما مرة أخرى وقال :

— ألا تريدان أن تقولي لها ؟ ألا تستطيعين ؟

ولبثت لا تقول شيئاً ، وعندئذ وجه الخطاب الى مسز ويكس صائحا
في ضرب من النشوة :

— انها رفضت . انها رفضت !

فاذا بميزى تجدد صوتها وتقول :

— أنا لم أرفض . لم أرفض .

فجاءت هذه الكلمة بمسز بيل اليها على الفور وهتفت :

— لقد قبلت يا ملاكى . أنت قبلت .

وألقت بنفسها على الطفلة . وقبل أن تتمكن ميزى من المقاومة ارتمت

معهما على الأريكة ، وهى تحتضنها وتضمها اليها :

— لقد تخليت عنها بالفعل . تخليت عنها الى الأبد . أنت لنا ، ولنا

وحدنا الآن . وكلما أسرعت بالرحيل كان ذلك أفضل .

وكانت ميزى قد أغلقت عينيها ، ولكنها فتحتها عند سماع كلمة من

السير كلود ، اذ قال لمسز بيل :

— اطلقها !

فصاحت مسز بيل :

— مستحيل ! مستحيل ! مستحيل !

وأحست ميزى بذراعيها تزيدان من اعتصارها .

فكرر السير كلود بمزيد من الشدة :

— اطلقها !

وكان ينظر الى مسز بيل وفي صوته شيء ما . وأدركت ميزى من

تخفيف شدة تطريق الذراعين لها أن مسز بيل شعرت بهذا الشيء ، فنهضت
ببطء من الأريكة ، ووقفت الطفلة هناك وقد ارتدت نهبا للهمود وتوزع
المشاعر . واستطرد السير كلود :

— أنت حرة . أنت حرة .

وعندئذ أحست ميزى بدفعة في ظهرها أملاها الحقن فاذا بها وقد
صارت في وسط الحجرة مرة أخرى . نهبا لكل عين ولا تدرى أين تولى
وجهها .

وبجهد التفتت صوب مسز ويكس وقالت :

— أنا لم أرفض التخلي عنك . بل قلت انى مستعدة للتخلي عنك

إذا تخلى هو

— إذا تخلى عن مسز بيل ؟

— إذا تخليت عن مسز بيل . ماذا تظن في هذا ان لم تظن انه

بديع .

وجه السير كلود هذا السؤال اليهن جميعا ، بما فيهن السيدة المذكورة
وكان يتكلم الآن في التشاء عميق كأن عملا بديعا من آيات الفن أو الطبيعة
قد تجلى بينهم فجأة ، وقد شرع يسترد جأشه على هذا الأساس من التقدير
المرهف :

— لقد وضعت شرطها ، في فطنة هائلة الى ما ينبغى أن يكون عليه

هذا الشرط . فاشتترطت الشرط الوحيد الصائب .

فردت مسز بيل على ذلك الهجوم بقولها :

— الشرط الوحيد الصائب ؟

وكانت قد تلتقت منه زجرا قبل لحظة ، ولكنها ليست مستعدة أن

تلقى الزخر هذه المرة :

— كيف تقول كلاما سقيما كهذا ، وكيف تظاهرها في مثل هذه

القحة ؟

ماذا بالله فعلت بها حتى جعلتها تفكر بهذا الاسفاف .

ووقفت تتميز غضبا واستنكارا ، وتجيل عينيها المتوهجتين في الواقين أمامها ، فواجهت ميزى بعينيها تلك النظرات بثبات ، مدركة أن هذه هي اللحظة التي تحسب لها أكبر حساب ، الا أن مسز بيل راضت نفسها على توجيه سؤال بالغ الاعتدال الى ابنة زوجها :

— هل اشترطت يا حبيبتى شرطا كهذا ؟

وأحست ميزى أن اللحظة الحاسمة حين حافت لم تكن — على نحو ما — بالغة السوء كما توقعت ، وأعان الطفلة أنها كانت تعرف ما تريد ، فقد جعلها كل ما تعلمته وسمعته تعرف ذلك أخيرا ، فلئن ترشت لحظة قبل الجواب فما كان ذلك الا لرغبتها في أن تكون لطيفة . أما الحيرة فقد تبددت أو على الأقل كانت في سبيلها الى الزوال السريع . وأخيرا أجابت بقولها :

— هل تقبلين التخلي عنه ؟ هل تقبلين ؟

فقال السير كلود في توسل مفاجيء همس به الى مسز بيل :

— دعها لشأنها . دعها . دعها !

وفي اللحظة عينها وجلت مسز ويكس وجهة جديدة للكلام :

— أليس حسبك يا سيدتى أنك وصلت بها الى مناقشة علاقاتك ؟

وتركت مسز بيل السير كلود غير مكترثة لما قال ، فمسز ويكس استطاعت أن توجج ضرامها ، فصاحت بها :

— علاقاتي ؟ ما الذى تعرفينه أيتها المخلوقة البغيضة عن علاقاتي ،

وأى شأن لك بالحديث عنها ؟ غادرى هذه الصجرة فوراً أيتها المعجوز
البشعة .

فقال السير كلود لمز ويكس :

— أرى من المستحسن أن تذهبى .. فلا بد لك من ادراك سفينتك .
لقد خرج من دائرة الموضوع الآن ، أو أراد الخروج منها . فهو يعرف
أسوأ ما فى الأمر ، وقد راض نفسه على قبوله . وما يعنيه الآن هو
الحيلولة دون المشاحنة السوقية وتبديدها .

. — هلا ذهبت . هلا انصرفت بسرعة ؟

فقالت مسز ويكس بعزم راسخ :

— بأسرع ما تريد — ومعى الطفلة . أما بدونها فلا !

وقالت مسز بيل بما يشبه الصراخ :

— اذن لماذا كذبت على أيتها الشيطانة ؟ لماذا قلت لى منذ ساعة

انك تغليت عنها ؟

— لأنى كنت يائسة منها . لأنى حسبتها تركتى .

والتفتت مسز ويكس الى ميزى قائلة :

— لقد كنت معهما ، فى صلتها . أما الآن فعيناك مفتوحتان ،

وسأخذك !

فصاحت مسز بيل وهى تثب وثبة ضارية وتجنذب بنت زوجها

جذبة عنيفة :

— لا . لن تأخذها !

وقبضت على ذراع ميزى ، وأتمت حركتها الغريزية فدارت بها فى

وثبة أخرى متجهة صوب الباب الذى كان السير كلود قد أغلقه لحظة

ارتفاع أصواتهما ، وأسندت ظهرها اليه ، وأبقتة مغلقة وهي تتدد بمسز
ويكس تدفعها بعيدا عنها ، في ثورة انفعالية متناقضة :
— لن تأخذها . ولكن ارحلى أنت ، فهي ستبقى مع أهلها بعد أن
تتخلص منك .

— أنا لم أسمع في حياتي كلها بشيء فظيع كهذا !
وكان السير كلود قد خلع ميزى من يدها وظل مسكا بها أمامه ،
واضعا يديه بلطف على كتفيها وهو يواجه المتنازعتين الصاخبتين . وكان
لحمرار وجه مسز ييل قد هبط ، وارتدت شاحبة في غضب رائع ، وظلت
تحتج وتطرد مسز ويكس ، وظهرها لاصق بالبواب لتحول دون فرار ميزى ،
فكأنها تريد أن تطرد مسز ويكس من النافذة أو من الملخنة :

— يا لك من لطيفة . « بمناقشة العلاقات » وبحديثك عن
« صلتنا » ، وبأهاناتك وما هي صلتنا هذه ان لم تكن حب الطفلة التي
أضحت واجبنا وحياتنا ، وهي التي تربط بيننا عن كذب مثلما جمعت
بيننا في البداية ؟

فقالت ميزى في نوبة من اللهف :

— أعرف هذا . أعرف هذا ! أنا التي جمعت بينكما !

فندمت عن السير كلود أغرب ضحكة وقال :

— لقد جمعت بيننا فعلا ! أنت جمعت بيننا !

وراحت يدها تملوان وتهبطان برقة فوق كتفيها .

وسيطرت مسز ويكس على الموقف بحيث كان في جمعيتها قول خشن

توجهه لكل منهم ، فقالت لتلميذتها في غيظ :

— هاك ! أرايت !

وقالت ميزى لمسز ييل في الحاح :

— أتقبلين التخلي عنه ؟

فسألتها تلك السيدة باستنكار :

— أتخلي عنه لك « أنت » آيتها الملعونة الصغيرة ؟ ولهذه الشيطانة

المخرفة المجوز التي ملأت ذهنك الصغير البشع بالبشر ؟ هل كنت

مرائية صغيرة فظيعة طوال تلك السنين التي ارتضيت لنفسى العبودية

فيها كي أجعلك تحبيننى ، وانخدعت فحسبتك أحببتنى ؟

فردت عليها میزی في ارتباك بدا أنها تحسبه مجديا :

— أنا أحب السير كلود . أحبه .

واستر السير كلود يربت عليها ، فكان كلامها بمثابة رد على ذلك

الترييت ، وقال بأعرب هدوء ممكن لمسى ييل :

— انها تكرهك . تكرهك .

فجعلها هدوؤه تلتطى وصاحت :

— أظهارها في موقفها وتسلمنى للاهانة ؟

— لا . كل ما هناك انى أؤكد أنها حرة . أنها حرة .

وحملت مسز ييل وصاحت :

— حرة في أن تتصور جوعا مع مثل هذه التسولة المخبولة ؟

فردت عليها مسز ويكس :

— سأصنع لها أكثر مما صنعت أنت في أى وقت مضى . سأعمل

الى أن تبلى أصابعى حتى عظامها !

وشمرت میزی في يدي السير كلود اللتين لم تزالا فوق كتفها

بشيء من الاستسلام وأنه نظر من فوق رأسها نظرة خاصة الى مسز

ويكس ، وسمعتة يقول :

— لا حاجة بك الى هذا . فلديها مواردها .

فصرخت مسز بيل :

— موارد ؟ موارد ؟ تلك الموارد التي سرقها أبوها الدنيء !

فابتسم وأوماً برأسه الى مسز ويكس قائلاً :

— سأستردها . سأستردها . سأتحري هذا .

فكان لذلك وقعه المخيف على الصديقة الأخرى ، فاتسجرت صائحة

وفي عينيها دموع حارة :

— لم أتحر أنا هذا الأمر ولم أجد الا هباء ؟ ان قسوتك على

لا يمكن تصورها .

فكلمها برقة شديدة تكاد تصل الى التلق :

سنتحري المسألة مرة أخرى . ستتحراها معا . انه هباء فعلاً ،

ولكننا نستطيع أن نجعله يدفع المبلغ ، أو نجعل ايدا تدفعه . فكري

في المال الطائل الذي ينعمان به الآن !

وضحك واستطرد :

— لا بأس . لا بأس . لا جدوى من الكلام . لا جدوى منه .

لن نستطيع استمالة فكرها اليها . فهي في الحقيقة مخلوقة فريدة في

نوعها . لسنا كفتين لها . لا !

ومرة أخرى انطلق يضحك ، فصاحت مسز بيل :

— لسنا كفتين ، وتلك الدابة كهؤه ؟

وفي هذه اللحظة ساد الحجرة سكون مطبق ، وتولى السير كلود

الرد على السؤال بأن اتجه بالطفلة صوب مسز ويكس ، فما درت

الطفلة الا وهي بجوار تلك السيدة ، وهي قابضة على ذراعها بشدة .

وكانت مسز بيل لم تزل تحرس الباب ، فقال السير كلود أخيراً :

— دعيهما تمران .

ولكنها بقيت هناك ؛ وراتهما يتبادلان النظرات ، ثم رأت مسز بيل
تلتفت اليها قائلة :

— وأنا أمك الآن يا ميزى • وهو أبوك .

فتهدت مسز ويكس في سخرية فلسفية هادئة وقالت :

— هذا هو الحال الذى وصلنا اليه !

واستمرت مسز بيل في مخاطبة صديقتها الصغيرة ، وكان جهدها في

سبيل التعقل ، والحنان واضحا :

— اتنا نمثل كما تعرفين مسر فارانج وزوجته السابقة . وهذه المخلوقة

لا تمثل الا الادعاء والامية . ان القانون فى صفنا .

فتمكمت مسز ويكس بها غاية التهمك :

— القانون . القانون . أفضل من هذا أن تدعى القانون يدلى برأيه

فيك !

فألح السير كلود على صديقتها بشدة بلغت حد التوسل :

— دعيهما تمران . دعيهما تمران .

ييد أنها لبثت متعلقة بميزى :

— أتبغضينى يا عزيزتى ؟

فنظرت اليها ميزى بعينين جديدتين ولكنها أجابتها بما أجابتها به

سابقا :

— هل تقبلين التخلى عنه ؟

وترشت مسز بيل فى الرد ، ولكنها عندما أجابتها كانت نبيلة فى ردها :

— لا ينبغى لك أن تحدثينى فى مثل هذه الأمور !

وبلغ من اضطرابها واستفظاعها أنها بكت . أما بالنسبة لمسز ويكس ،

فكان الحاحها محل استنكار لتجرده من الكياسة ، فصاحت بصراحة :

— ينبغي أن نخجل من نفسك ا

وتوجه السير كلود بضاعة أخيرة :

— أسمع بوضع حد لهذه الفظايعات ؟

فثبتت مسز بيل عينيها فيه ، وراحت ميزى ترقبهما . وأردفت مسز
ويكس قائلة لمسز بيل :

— يجب أن تكوني منصفة له لقد كنا — أنا وميزى — متعلقتين
على الدوام به ، وقد أظهر لنا مدى حبه لنا . إله يتمنى أن يرضيها ،
بل وأحبه يتمنى أن يرضيني أيضا . ولكنه لم يتخل عنك .

وظل زوج أمها وزوجة أبيها متقابلين ؛ تحت عين ميزى الواعية ..
ولم يسبق لملاحظتها أن غاصت الى أعماق ما غاصت في هذه اللحظة .
وأخيرا قال السير كلود لمسز بيل في عزم :

— نعم يا عزيزتي . أنا لم أتخل عنك ؛ وإن أحببت أن أتخذ من
صديقتينا المائلتين هنا شاهدين فلا مانع عندي من أن أتمد لك بأنتي
لن أتخلي عنك . هاك ا

وعلقت مسز ويكس على ذلك بلهجة تراجيدية :

— إله لا يستطيع أن يتخلي عنك ا

فهزت مسز بيل محياها الجميل ناظرة حولها ، وهي منتصبة القامة في.
اعتداد رغم هزيمتها وقالت ساخرة :

— إله لا يستطيع !

وصاح السير كلود مرددا في مرج ، بحيث أفلح في اتخاذ الموقف
بصورة رائعة :

— إله لا يستطيع ! لا يستطيع ! لا يستطيع ا

وفهمت مسز بيل أن لا جدوى ، بيد أنها لبثت ثابتة على موقفها ،
فقالَت مِيزى لمسز ويكس :

— هل يفوتنا اللحاق بالسفينة ؟

فقالَت مسز ويكس للسير كلود :

— نعم . ستفوتنا السفينة .

وحدقت مسز بيل بمِيزى وقالَت :

— لست أدري ماذا أقول فيك !

فقالَت مِيزى للسير كلود :

— وداعا .

وأجابها السير كلود :

— وداعا يا مِيزى .

وابتعدت مسز بيل عن الباب وصاحت بمِيزى :

— وداعا !

ثم اخترقت الحجرة وتوارت في الحجرة الملحقة بها . وتوجه السير
كلود الى الباب الآخر وفتحه ، وكانت مسز ويكس قد خرجت . وتوقفت
مِيزى عند العتبة ، ومدت يدها لزوج أمها فتناولها واستبقاها برهة ،
والتقت عيونهما التقاء من فعل كل منهما للآخر أقصى ما في وسعه ؛ وقال
مرة أخرى :

— وداعا .

فقالَت له مِيزى :

— وداعا .

ثم لحقت بمسز ويكس .

وأدركتا الباخرة التي كانت على وشك الاقلاع ، وأسرعت بهما عبر

الخليج ، فألفيتا تسيهما على ظهرها لاهتتين فزعتين بحيث مكثتا نصف
الرحلة مشغولتين بتهدئة نائرة انفعالهما .. وهذا انفعالهما ببطء ، وبصورة
غير تامة . ولكن عندما أحاط بهما البحر الهادىء فى منتصف المائس ،
وجدت مسز ويكس لديها الشجاعة على أن تعود الى الموضوع ،
فسألتها :

— أنا لم أنظر ورائى . فهل نظرت أنت ورائك ؟

فقال ميزى :

— نعم . ولم يكن هناك .

— ولا فى الشرفة ؟

وتنهلت ميزى برهة ثم قالت ببساطة :

— لم يكن هناك .

ولزمت مسز ويكس الصمت هنيهة ثم قالت أخيرا :

— لقد ذهب « اليها » .

فأجابتها الطفلة :

— أوه . أعرف هذا .

فرمقتها مسز ويكس بنظرة جانبية ، اذ لم يزل لديها موضع للتساؤل.

عما كانت تعرفه ميزى .

**** معرفتي ****
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة



مطابع الدار القومية
يونية ١٩٦٦

بصريا ته



www.ibtesama.com

www.ipf629119.com

